عُمان عبر التاريخ



تأليف الشيخ

سالم بن حمود بن شامس السيابي

الطبعة الخامسة

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م



ISBN 978-99969-0-263-5
9 789996 902635

عُمان عبر التاريخ

الجزء الأول والثاني

الطبعة الخامسة

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

رقم الإيداع المحلي : ٢٠١٤/٧٥

رقم الإيداع الدولي (ISBN) : ٥-٢٦٣-٠-٩٩٩٦٩-٩٧٨

سلطنة عُمان - ص. ب: ٦٦٨ مسقط ، الرمز البريدي ١٠٠

هاتف : ٢٤٦٤١٣٢٥/ ٢٤٦٤١٣٠٠ فاكس : ٢٤٦٤١٣٣١

البريد الإلكتروني : info@mhc.gov.om

الموقع الإلكتروني : www.mhc.gov.om

سلطنة عُمان
وزارة التراث والثقافة



الجزء الأول والثاني

تأليف الشيخ

سالم بن حمود بن شامس السيابي

الطبعة الخامسة
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الأول

ترجمة مؤلف الكتاب[1]

تمهيد

بقلم: سليمان بن خلف الخروصي

اهتم العرب بعلم التاريخ اهتمامًا بالغًا، واعتنوا به عناية فائقة، وعلى أيدي علماء التاريخ ارتقى هذا العلم الإنساني في سرعة مرموقة ومكانة بارزة، ففتحت أبوابه، وتنوعت طرائفه، وتعددت آفاقه وصارت له أهدافه السليمة ومنهجه العلمي الذي تميز به عن بقية العلوم، فلولا التاريخ لجهلت الأنساب، ونسيت الأحساب.

وعلى مر التاريخ يبرز علماء مؤرخون ومن أشهرهم الواقدي، ومحمد بن إسحاق والمدائني، وابن الأثير، والكلبي، وابن قتيبة، واليعقوبي، والطبري، وابن خلدون، وابن خلكان.

وكان دور عُمَان– قديمًا وحديثًا – دورًا بارزًا. يذكر لعُمَان مدى الأجيال، وفي هذا العلم بالذات، نجد لعُمَان علماء مؤرخين طبقت شهرتهم الآفاق أذكر منهم الشيخ العلامة أبا سفيان محبوب بن الرحيل، والشيخ العلامة المؤرخ سرحان بن سعيد السرحني الأزكوي على المشهور، والامبو علي من بني سعد الطائيين نسبًا على الصحيح مؤلف كتاب كشف الغمة، والعلامة المؤرخ ابن رزيق النخلي مؤلف كتاب الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، وكتاب الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عُمَان الذين طبعتهما وزارة التراث والثقافة والشيخ العلامة سليمان بن بلعرب بن عامر النزوي مؤلف كتاب المؤتمن في ذكر مناقب نزار واليمن. والشيخ العلامة محمد بن خميس السيفي النزوي، والشيخ العلامة عامر بن سليمان الريامي الأزكوي، والشيخ العلامة الجليل نور الدين السالمي، وغيرهم

---

(١) مما يجب الإشاره إليه ان هذه الترجمة كُتبت قبل وفاه الشيخ سالم بما يزيد عن عقد من الزمان.

كثير .ويبرز علامتنا المترجم له مؤلف هذا الكتاب، الذي هو بين أيدينا، كفارس من فرسان هذه الحلبة، أو رائد من رواد علم التاريخ.

❊ من هو مؤلف الكتاب؟

في الواقع هو غني عن التعريف، فهو أجل من أن يذكر، وشهرته العلمية الواسعة غير منكورة وحياته العملية الثمينة غير مجهولة؛ ولكن من خلال هذه الأسطر القليلة نتعرف عل بعض الجوانب المهمة لنقدمها للقارئ الكريم، عن هذا العلامة الجليل الكبير.

❊ اسمه ونسبه:

هو الشيخ العلامة الجليل سالم بن حمود بن شامس بن خميس بن علي بن عبيد السيابي ومن المشهور أن قبيلة آل المسيب العُمَانية ينتمي نسبهما إلى القائد البطل شهاب بن النويرة التغلبي المعلم المشهور «بذي قار» الواقعة المشهورة في أيام العرب في الجاهلية، فمسيِّب وحبس القبيلة الشهيرة المعروفة بالشرقية في عُمَان إخوان ينتميان إلى شهاب بن النويرة المذكورة آنفًا.

❊ مولده ونشأته:

ولد العلامة المترجم له بقرية (غلا) من أعمال بوشر في سنة ١٣٢٦هجرية الموافق ١٩٠٨م وحفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، وذلك من فرط ذكائه وكثرة حفظه ودرس تلقين الصبيان وملحة الإعراب للحريري وألفية ابن مالك في سن مبكر بنفسه بدون أن يتلمذ على شيخ، بل ثقف نفسه بنفسه، ثم توجه إلى سمائل الفيحاء التي استوطنها فيما بعد، وكانت آنذاك تزخر بالعلماء الأكابر فدرس على الشيخ العلامة خلفان بن جميّل السيابي أصول الدين والفقه وأصول الفقه والفرائض ولازمه ليلاً ونهارًا كما لازم الشيخ العلامة الشهير أبا عبيد حمد بن عبيد السليمي وأخذ منه أيضًا علمًا وافرًا. كما أشبع طموحه العلمي بمجالسته للإمام الرضي محمد بن عبدالله الخليلي ومذاكرته لكل من المشايخ العلماء سعيد

بن ناصر الكندي ومحمد بن سالم الرقيشي وعبدالله بن عامر العزري، فقد أذن لكل مواهبه أن تنشط وتتألق وما زال يدأب في التحصيل وجمع العلم، حتى صار فحلاً من فحول العلماء الذي يشار إليهم بالبنان. وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره.

❋ صفاته وبعض من أخلاقه:

يعتبر اليوم من أكبر علماء عُمَان وأجلهم، فهو من فحول العلماء المرموقين مكانة وصدارة في العهد المشرق الزاهر وبالتالي هو سمح جواد حسن الأخلاق شريف النفس نقي السريرة، آية في الحفظ والذكاء والفهم، ومن أنشط النّاس للقراءة والكتابة- فلا يُرى إلا قارئًا أو كاتبًا، يحب مكارم الأخلاق ويعشق المحامد منذ صباه، علامة غيور من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر لا يخاف في الله لومة لائم.

وهو فيصل في الأحكام، شهم شجاع، أبيّ الضيم، ماضي العزيمة صعب الشكيمة، منيع الجانب ألف مألوف محبوب عند النّاس، يحب الوحدة وجمع الشمل، ومن الدعاة إلى التمسك بكتاب الله العظيم وسنة رسوله الكريم.

وصفه الإمام محمد بن عبدالله الخليلي، بأنه ممن تسد به الثغور ويوجه في مهمات الأمور، كما وصفه الشيخ الفقيه محمد بن راشد بن عزيز الخصيبي في قصيدته المسماة سموط الجمان في أسماء شعراء عُمَان فقال:

وفقيه مؤرخ وهو علا ... مة هذا الزمان ذو المكرمات

السيابي سالم ابن حمود ... فأراجيزه من الرائعات

سيما نظمه المسمى بإرشاد الأنا ... م المبين الخافيات

❋ أعماله:

لما تألق نجم العلامة المترجم له، وعلا ذكره، استدعاه الشيخ الجليل علي بن عبدالله الخليلي والي محافظة بوشر؛ ليكون مدرسًا لأولاده، وذلك في عام

١٣٥٠هـ، فقام بأمر التدريس خير قيام وتأدب عليه حوالي (٤٠ طالبًا) ولما أن توفى الشيخ سعيد بن ناصر الكندي قاضي محافظة بوشر ومفتيها ﷺ. عُين قاضيًا في بوشر وذلك في سنة ١٣٥٢هـ، وبقي بها قاضيًا حتى سنة١٣٥٩ هـ فانفصل من العمل لظروف خاصة ورجع إلى سمائل التي استوطنها. وفي سنة ١٣٦٠هـ عُين واليًا وقاضيًا على نخل ومتعلقاتها، فتحمل المسؤولية وهو أهل لها وكان بها الحاكم القدير الإداري، والقاضي المنصف الحكيم، ثم في سنة ١٣٦٩هـ عُين واليًا إلى جعلان بني بُحسن فبقي هناك، واليًا وقاضيًا ثم انفصل عن العمل؛ لأسباب دعت ذلك، ثم استدعاه السلطان سعيد بن تيمور فعينه رئيسًا لمحكمة الاستئناف وبقي بها مدة ثم ولاه محافظة السيب فأقام بها واليًا حوالي عام واحد ثم نقله السلطان سعيد إلى الكامل والوافي من جعلان ليكون واليًا وقاضيًا، ثم استدعاه السلطان فعينه قاضيًا في المحكمة الشرعية بالعاصمة، وبقي منذ ذلك اليوم قاضيًا بها.

ولما أشرق فجر الانتفاضة المباركة أو الحركة التصحيحية المجيدة بقيادة جلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم. حفظه الله كان هو في مقدمة القضاة بالمحكمة الشرعية بالعاصمة مسقط ومن أبرز العلماء المرموقين لحكومة صاحب الجلالة المعظم.

ثم في أول هذا العام ١٩٨٢م. نُقلت خدماته من وزارة العدل إلى وزارة التراث والثقافة؛ ليتفرغ فضيلته في تحقيق الكتب العلمية والتاريخية، التي تطبعها وزارة التراث والثقافة لما له من باعٍ طويلٍ وسعةٍ وإدراكٍ في كل الفنون.

❋ مؤلفاته:

إن مؤلفاته الكثيرة التي تزيد على (١٠٠) مؤلفًا في كل الفنون تدل على غزارة علمه، وسعة اطلاعه. وبالتالي تدل على خلق عظيم ونفس عالية وهمة

سامية، بالإضافة إلى أنه شاعر كبير، وأديب بارع، فهو في الأدب والشعر قد ضرب بسهم من المرمى، وإليك أيها القارئ الكريم أسماء أهم مؤلفاته:

١- إرشاد الأنام في الأديان والأحكام نظم في مائة وعشرين ألف بيت ما يقارب ١٠ مجلدات.

٢- العقود المفصلة في المسائل الموصلة- مجلدان - ألف بيت.

٣- العُرى الوثيقة شرح كشف الحقيقة في المذهب الأباضي وأصوله.

٤- مطالع الأقمار على مقاصد الأبرار شرح رجز للشيخ العلامة أحمد بن سعيد الخليلي. في الوصايا مجلد واحد.

٥- إعانة الحكام بقواعد الأحكام نظم الورد البسام.

٦- جوهر التاريخ المحمدي في سيرة الرسول الأعظم ﷺ.

٧- معالم الإسلام في الأديان والأحكام- قصائد مطولات حوالي ٢٠ ألف بيت.

٨- العنوان في تاريخ عُمَان- مطبوع

٩- الحقيقة والمجاز في تاريخ الأباضية باليمن والحجاز- مطبوع.

١٠- الإسعاف في التاريخ العُمَاني مطبوع.

١١- إزالة الوعثاء في أتباع أبي الشعثاء- مطبوع.

١٢- طلقات المعهد الرياضي في حلقات المذهب الأباضي- مطبوع

١٣- عُمَان عبر التاريخ- الكتاب الذي بين أيدينا.

١٤- أغلى التحف في أصول الشرف.

١٥- أصفى الحياض في مذهب ابن أباض.

١٦- هدى الفاروق.

١٧- فصل الخطاب في السؤال والجواب.

١٨- كتاب في السلوك.

١٩- العقود المنظمة في الخيل المسومة- مطبوع.

اكتفي بذكر هذه المؤلفات القيمة الجليلة.

❊ وفاته:

توفي الشيخ سالم بن حمود في ظهر يوم الجمعة ١٧ رجب ١٤١٤هـ / ٣١ ديسمبر ١٩٩٣م ، وقد رثاه العديد من العلماء والشعراء.

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل للتاريخ مستودع أخبار الأمم على اختلاف أجناسها، وجعل أهله أمناءه في أمته لحفظ حوادثها وأحكامها. مع تباين مقاصدها، وتباعد أمراسها، فخلد للآتين أخبار الماضين، وأعرب للمقبلين عن حوادث الذاهبين، وندد بأهل الباطل في مجمع الخالدين، وصرح بحق أهل الاستقامة في المسلمين، وكشف القناع عن مساعي البغاة في المؤمنين من الأولين على توالي الأزمان إلى يوم الدين.

أما بعد. فهذا تاريخ عُمَان الذي وفق الله له وأعان، جمعناه من الكتب المتبعثرة، والرسائل المطولة والمختصرة، وألَّفناه بعناء لا يقاس عليه، وبذلنا الجهد لإدراكه، وهذا ما حصلنا عليه، وإن كان أكثره كعنقاء مُغْرِبُ؛ لأنه غالبًا لم يدَّون، وما دُوِّن لم ينشر، ولم يتبين؛ ولكن بعض ما وجدناه ربما أغنى عما فقدناه، ومن لم ينفعه قليل الحكمة ضره كثيرها، ومن أين لنا أن ندرك المفقود من تاريخ عُمَان؟ وقد لعبت به أيدي الحدثان، ومزقته طيلة الأزمان، وهذا الجزء الأول منه يشتمل على مقدمة، وخمس حلقات.

المقدمة: في علم التاريخ، وفوائده، وحكمته، وأصوله التي يقوم عنها.

الحلقة الأولى: في التعريف بعُمَان قديمًا وحديثًا.

الحلقة الثانية: في بيان الأمم التي قطنت عُمَان من الأمم التي مرت بها العصور الخالية، والأيام الماضية، من الأمم البائدة والباقية.

الحلقة الثالثة: في نزول مالك بن فهم بعُمَان، وحروبه للفرس بها إلى انتهاء أمره.

الحلقة الرابعة: في بدء الإسلام بعُمَان إلى انقضاء أيام الخلفاء الأربعة.

الحلقة الخامسة: في فضائل أهل عُمَان، ومشاهيرهم في صدر الإسلام، وبه يتم الجزء الأول ـ إن شاء الله ـ من تاريخ عُمَان.

❊ ❊ ❊

المقـدمـــة

قال الإمام السالمي ـ رحمه الله تعالى ـ: (لا يخفى على عاقل أن علم التاريخ مما يعين على الاقتداء بالصالحين، ويرشد إلى طريقة المتقين؛ لأن فيه ذكر من مضى من صالح وطالح، فإذا سمع العاقل أخبار الصالحين اشتاقت نفسه أن يكون من جملتهم، وإذا سمع أخبار الطالحين أشفقت نفسه أن يقتفي آثارهم ـ أي فيعد من أنصارهم ـ فتراه بذلك يقتفي آثار من صلح، ويتجنب أحوال من طلح).

فترى هذا العالم الجليل يجعل علم التاريخ مما يعين على الاقتداء بالصالحين؛ وذلك من أفضل ما يرشد الإنسان إلى الأعمال الصالحات، ولا شك أن ذكر أخبار الصالحين صقيل قلوب المؤمنين طبعًا، وأصدق داعية لهم إلى الله قطعًا، وكما أن مجالسة الصالحين تقود الإنسان العاقل إلى خيري الدنيا والآخرة، فكذلك ذكر أخبار من صلح، وكيف لا؟ والتاريخ سر من أسرار العلوم الكونية، وضع الله أصوله في كتابه العزيز، وأبرزه فيه بأشبه من سلاسل الابريز، قال الله عزوجل: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾[التوبة: ٧٠]، وقال عز وعلا ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦] الآية في أمثالها.

وقد شرح الله في كتابه العزيز تاريخ الحوادث في الأمم الماضية، والأيام الخالية، وأيّد ذلك الرسول ﷺ بقوله: «وُلِدْتُ [فِي] زَمَنِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ»، ولا تنس عام الفيل، وما وقع فيه من أمر عظيم، وخطب جليل، وقد أجمع العلماء الأجلاء على شرفه وفضله، وبينوا مقامه بين العلوم الإسلامية. وإذا هو حافظ الأمة، وخازن سرها في كل جيل، فإنه حفظ بعث النبيّين، ورسالات المرسلين، وإلى من أرسلوا إليه، وبماذا أرسلوا؟ وأخبرنا عن الفراعنة، والأكاسرة، والتبابعة، والقياصرة، ودوَّن لنا أعمال الأمم الظافرة والخاسرة، وعرّفنا سالف الأمم قبلنا، ورأينا فيها الصالح والطالح، وأدركنا منها مناهج المؤمنين، ومقاصد المتقين، وبغي المضلين، وفساد

الجائرين، وسوء أعمال المجرمين، واستفدنا من سياسات المصلحين، وأفعال المتقين، ومن اجتهد وجاهد في الله لإرغام الكافرين، ومن جد لإرشاد الأمم إلى سُبُلِ الخير من المخلصين، فكان لهم في عَالم الحياة الذكر الحسن، والفضل المبين، وأخبرنا عمَّن نام على فراشه راضيًا بمعاشه، ومَنْ عمل بما فرض عليه، ومتى كلف وافتراض؟ وعلى مَنْ أوجب فقام، ومَنْ صد فربض، مراغمًا لمن قام بواجبه ونهض، وعلمنا الأئمة وما مشوا به، ومن قام معهم فأقامهم، ومَنْ قام عليهم فكان ضدهم، ومَنْ دعا إلى الحق فاضطهد وشنق، ومن تجرد لله ناصرًا لدينه، ومن دعا لإحياء الشريعة بواضح الحق، وصحيح براهينه. ولا يخفى ما في ذلك من حكمة، ولا يجهل ما يثمره التاريخ للعقول القوية من نشاط، وما تتحرك به القلوب الضعيفة من اغتباط، وما يستحق به الثناء على الفعل الجميل، وما يلزم به الذم، والتقبيح لأهل التعطيل.

فالتاريخ داعية الأمم الآتية لسلوك طريق الأجيال الماضية، فهو المُعَبّر عمّا سلف من عز وشرف لأهل الوفاء، والمخبر عمَّن خلا من الأوغاد أهل الجفاء، فيختار المُخلص من مسالك أولئك المنهج الصحيح، ويصطحب إلى قصده لذلك كل عمل مليحٍ، ويتبع في سيره وسراه كل أمر صحيح، فالتاريخ على الإجمال جَمال الرجال الكُمّل، وكمال الأبطال في كل الملل، والحاث على الأعمال الفاضلة لكل شريف ذي نبل، وهو الترجمان المُعَبّر عن سالف الدول.

طالما حدث التاريخ عن الأئمة الصالحين، وَبَيَّن من أعمال الهُداة المتقين؛ لينتهج ذلك المنهج هداة المؤمنين، وينشط لذلك محبوا الحق في العالمين، وكم أنبأ عن أعمال الجورة المتغطرسين؛ ليتجنب أفعالهم كل كريم مصلح في الدين.

وهل نعلم نحن لولا التاريخ ما فعل أئمتنا الأولون، وما عمله أهل الحق من العلماء الأكرمين، وهم مجتهدون، وما مشى عليه المبتلون بأمور الأمم التي عاركتهم للتغلب عليهم، وما قابلوا به أعداءهم من الصبر والثبات، وما مال إليه

في أثناء ذلك عند مساجلة الحروب لنا وعلينا، وإذا أكبر العلماء التاريخ فقد أدّوا واجبًا له على عواتقهم عظيم المسؤولية.

وجاء في الكتاب العزيز قوله ﷻ، قصصًا عن أمم ضلت في حياتها الطريق، وسلكت بعتوها المضيق.

قال الله فيهم: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٥-١٢] إلى آخر الآيات القاصة عن أحوال هؤلاء النّاس الذين تمردوا على الله، وعتوا على رسله وجاروا في عباده، وطغوا في بلاده، فأذاقهم لباس الجوع والخوف.

وكم قص الله قصص النبيّين في الكتاب المبين، وحسبك قصة نبينا سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ وما صار بينه وبلقيس ملكة سبأ، فذكر الله فيها الهدهد، وما جاء به، وسليمان وجنوده، وبلقيس وعرشها، وما دار بين نبي الله سليمان والعفاريت في جلب عرشها، وإرهابها بتلك الآيات الباهرة، وذكر الله سياستها وغزارة عقلها، إذ قال لها نبي الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النّمل: ٤٢]، مختبرًا لعقلها. وموهمًا لها فيه، فإجابته بمثل ذلك. إذ قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النّمل: ٤٢]. فلم تحقق ولم تنفِ، إذ تعارضت الأحوال عندها، يقينًا وعادةً، وانظر قوله عزوجل ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ [الأحقاف: ٢١].

وفي الحديث: «القرآن حبل الله المتين فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم»، فذكر فيه خبر ما قبلنا ونبأ ما بعدنا، .وهذا أصل من أصول التاريخ، وإذا أطلق العلماء التاريخ فالمراد به أخبار الأمم الماضية، وسيرهم وحوادثهم على العموم.

ولا شك أن لكل أمة تاريخًا خاصًا بحوادثها في حِلها وترحالها وأخبار كل جيل على حدة، وحوادث الملوك، وقتال أعاديهم، وما أحدثوا من خطط، ووضعوا من قوانين، وأبانوا من أسرار؛ فلهذا فأن مادة تاريخ الأمم على اختلاف أحوالها، وما بَنت وهدمت، وما أبدت وما أعادت، وما طوت من أعمال، وما نشرت من خصال، فالتاريخ له تعلق بكل شيء، فتعلقه باللغة من حيث حُدِثت؟ وعلى يد من حُدِثت؟ ومن أول من لغا بها؟ وفي أي عهد نشأت؟ وله تعلق بآدابها وأسبابها، وبالأحكام الشرعية. على من أول ما أنزلت؟ وما أول حكم وقع؟ ومن هو أول حاكم؟ وأي أول دولة قامت في هذا الكون؟ ومن أولُ من قام بها؟ وما صفة قيامها؟ وماذا صنعت؟ وعلى أي حال انقرضت؟ وما هي الأسباب التي قضت عليها؟ ومن قام بالعلوم الطبية؟ ومن برع فيها؟ ومن اخترع الكيماويات إلى ما وصلت إليه الآن؟ ومن أول من اخترع السلاح، وعمل به في الكفاح حتى تطور إلى ما يعلم ما عليه الآن؟

ولولا التاريخ من أين لنا أن نعلم النّاسخ والمنسوخ من أحكام الله عزوجل؟ وهو قسم عظيم في الأحكام، والحجة في معرفته التاريخ الصحيح، ولو قيل أن التاريخ يشتمل على نصف العلم لكان غير بعيد؛ لأن عليه تترتب أمور كالعِدَد، والنفقات، ومواقيت الحج، وتعين أوقاتِ الزكاة، وعِدَدَ المُطلقات في أشياء يطول ذكرها. ولا ريب فأن مدار أمور الدنيا عليه.

ولولا التاريخ من لنا أن ندري إجماع المسلمين فيما أجمعوا فيه حلاً وحرمةً، وهو من قواطع الأدلة في الإسلام، ومن أمهات القواعد في الأحكام، كما يشهد له الكتاب العزيز والسنة النبوية.

ولولا التاريخ من أين لنا علم الهجرة؟ وفيها أحكام تختص بها في الإسلام، وبمن هاجر وأحكام المهاجرين. ولولا التاريخ فمن لنا بمعرفة الإمامة الصديقية

ووقوعها، والقائمين بأمرها، واحتجاجهم على إخوانهم الأنصار فيها، ومن أين لنا أن نعرف عن الشورى، وما جاء فيها؟

ولولا التاريخ فمن ذا الذي يعرّفنا أحوال من خالف الحق من الأمويين والعباسيين، وأمثالهم، وهل يعلم الإنسان سياسات الملوك، ورئاسات الممالك؟ ومتى نعلم عن قضية عمر بن الخطاب في طاعون عمواس، وما رآه المسلمون فيه من أمر، واتفاق مشيخة المسلمين على الحكم بالواقع فيه، خلاف السامع به، وما اتفق عليه المسلمون.

ولولا التاريخ من لنا بتوضيح تأسيس المذاهب، ومتى ذهب إليها الذاهب، وبماذا يظفر فضل السبق للحق، ونحوه؟ ولولا التاريخ متى نعلم عدَدَ المطلقات تحليلاً، وعِدَدَ الحيض والنفاس، والرضاع المحلِّل والمُحرَّم، كما قال الله ﷻ: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ومتى تخرج المرأة من عِدة زوجها طلاقًا أو موتًا؟ ومتى تحل النفقات، وحضور آجال الحقوق المعلقة بالذمم؟ ومن أصول التاريخ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ [هود: ١٠٠] إلى قوله: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠] وقوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وكما فهمتَ عن الإمام السالمي رحمه الله قوله: (لا يخفى على عاقل أن علم التاريخ مما يعين على الاقتداء بالصالحين، ويرشد إلى طريقة المتقين، فتراه يجعله علمًا مستقلاً، وأنه يرشد إلى طريقة المتقين)، وهذا من أعظم فوائد العلوم في الإسلام، فإن الإرشاد إلى طريقة المتقين، والإعانة على سلوك الصالحين من المسلمين، أمر مطلوب في الدين.

ولولا التاريخ من أين لنا أن نعلم ما صار على الخليفة الثالث عثمان، وما عَده عليه القائمون ضده حتى قضوا عليه بذلك؟ ومن لنا أن نعرف ما صار بصفين بعد الجمل، وبما استحل المسلمون القتال، وسفك الدماء، وأحكام الأموال حلاً وحرمةً، وكذلك ما صار بالنهروان إلى آخر ما عمل المسلمون، وأيام الحجاج

الطاغية الخبيث، وما صار منه على أهل عُمَان، وما وقع على الإمام الجُلَندى بن مسعود رَحِمَهُ اللَّهُ على يد الأمير خزام بن خزيمة، وقضية شيبان الخارجي، وعلى كل حال أن علم التاريخ حتى عند الإفرنج له المقام الأعلى، والمؤرخ معهم معدود من العلماء الأجلاء؛ لأن علم التاريخ يتضمن انتقاد القضايا، ووزن الأعمال بميزان التحقيق تأييدًا للصلاح وأهله، وتفنيدًا للطلاح وذويه، ولا شك أن أعمال المسؤولين في الأمة مثال يحتذيه التالي لهم، ويحتج به من جاء بعدهم، فما كان حقًا كان من الواجب الركون إليه، وما كان باطلاً كان من اللازم التباعد منه، وقد يشير إلى الحقائق التاريخية قول إمام أهل الأدب ابن دريد، حيث يقول:

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وَعَا

أي أن التاريخ يحفظ للإنسان أعماله القولية، والفعلية، فعليك أيها الإنسان أن تتحفظ في أعمالك كلها، فتكون حديثًا حسنًا لمن يأتي بعدك، فإن لسان التاريخ يخبر عنك، وما صنعت، ويحفظ لك، وعليك ما سر، وما ساء.

واسمع ما يقول أبو الطيب:

(ذكر الفتى عمره الثاني) إلخ. أي أن الإنسان يبقى له بعد موته عمره الثاني الذي هو ذكره، فإن كان الذكر حسنًا كان له عمر حسن يتداوله النّاس بعده، ويمشون على ضوءه، وإن كان الذكر سيئًا، كان على خلاف الأول، قال في (لقطة العجلان مما تمس إلى معرفته حاجة الإنسان).

(فاعلم أن التاريخ عبَارةٌ عن يوم ينسب إليه ما يأتي بعده، ويقال أيضًا التاريخ عبارة عن مدة معلومة، تعد من أول زمن مفروض لتعرف بها الأوقات المحدودة)، قال: (ولا غنى عن التاريخ في جميع الأحوال الدنيوية، والدينية، ولكل أمة من أمم البشر تاريخ تحتاج إليه في معاملاتها، وفي معرفة أزمنتها المضروبة دون غيرها من بقية الأمم، وأول الأوائل القديمة. وأشهر ما يكون مبدأ البشر).

وقال أيضًا: عن سعيد بن المسيب. قال: (جمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه النّاس

فسألهم من أي يوم يكتب التاريخ؟ فقال علي بن أبي طالب: من يوم هاجر رسول الله ﷺ، وترك أرض الشرك، ففعله عمر ﷺ وعن سهل بن سعد الساعدي قال: أخطأ النّاس في [العَد] ، فما عَدُّوا من مبعثه ﷺ، ولا من وفاته إنما عَدُّوا من مَقدمة المدينة، قال: وعن ابن عباس ﷺ قال: كان التاريخ من السنة التي قدم فيها رسول الله ﷺ المدينة، وقال قرة بن خالد عن محمد: كان عند عمر بن الخطاب عامل جاء من اليمن، فقال لعمر: أما تؤرخون تكتبون في سنة كذا وكذا من شهر كذا وكذا، فاراد عمر النّاس أن يكتبوا من مبعث رسول الله ﷺ، وقيل: رفع إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صك محله شعبان، فقال: أي شعبان؟ أهو من هذا العام، أو من عام مضى، أو عام يأتي. إلى آخر ما أطال فيه صاحب (لقطة العجلان)، وهو كتاب أكثره في التاريخ ولوازمه وفوائده.

قال في (جواهر الأدب)، لأحمد الهاشمي: (التاريخ هو معرفة أخبار الماضين، وأحوالهم من حيث معيشتهم، وسياسيتهم، واعتقادهم، وأدبهم، ولغتهم) ـ أي أن علم التاريخ له تعلق بهذه الأحوال كلها ـ وإذا اعتبرت هذه الجملة رأيت لها عمومًا شاملاً لأحوال الدنيا والآخرة، فإن النظر في المعايش، والسياسات مما يتعلق بأحوال الدنيا، وما يتعلق بالعقائد، والآداب، واللغة، يتناول أمور الدين التي هي النجاة في الآخرة، أو الهلاك فيها، والعياذ بالله.

وللتاريخ من هذه الوجهات مقامٌ عالٍ في نظر الفكر العربي، وهل التاريخ من خصائص أمة، أو أمم، أو هو لمطلق الأمم، وهو الواضح كما بيَّنه في (لقطة العجلان)، فكل أمة عاشت، أو تعيش في جيل من الأجيال لا بد لها من حوادث بحسب طبيعة حالها، وما تدعو إليه آمالها، وبذلك يكون تاريخها مشتملاً على قضاياها. ولأجل ذلك ترى الأمم أن التاريخ عنوان أمته، ودليل على خيرها وشرها، إذ يعرب عن نواياها، ويبرهن على مالها من صعود وهبوط في أدوار حياتها، ومن حق التاريخ الصادق الصحيح أن يكون مع الأمة كما

هي، حافظًا لها الحقائق، وجامعًا لها الدقائق، واضعًا كل شيء في محله الذي يجب أن يوضع له.

وللإفرنج مزيد اعتناء بالتاريخ؛ لأنه داعية الأمة أو البيئة، أو القطر، وبه تعرف الأمم طيلة الدهر، فإنه أعظم باعث للخلف، للسير على نهج السلف، وأكبر دليل على حقيقة العناصر العالية والسافلة، وأصدق قيل على الشرف صل في الأمم الفاضلة، ولا تتركه أمة في حال رقيها لِمَا له من مقام عند السادة الأعلام، أو القادة الكرام على الدوام، ألا تسمع صاحب (معالم الجزيرة) يقول في صدر كتابه: (حرامٌ على الأمم أن تفرغ من إشباع تاريخها القديم والحديث دراسةً وتحليلاً، ونحن لا نزال نتشاغل بالتافه من الأمور، لنعيش في جهل بماضينا وحاضرنا، ومن ثم في غفلة عمّا ينبغي أن نرسم من خطط المستقبل على ضوء هداية التاريخ، ولست أدري متى ينتبه حملة الأقلام منا، وولاة الأمور فينا إلى واجب كهذا، أعتقد أنه من العوامل الأساسية للنهضة التي نرجوها).

فانظر في كلام هذا البطل الحر، وهكذا رجال العمل، وأنا أعتقد أن ذكرى التاريخ من أعظم العوامل الفعالة في الإنسانية؛ فلذلك يحتفل الإفرنج بذكرى عظمائها، وأحاديث كبرائها طيلة أزمانها؛ ذلك لما للتاريخ من نفوذ روحي فعال، ولأجل ذلك لا تظهر الإفرنج تواريخ الأمم التي تسيطر عليها، أو تريد السيطرة عليها، ولذلك لما أراد الإمام السالمي رحمه الله إعادة الإمامة فقام أولاً بنشر تاريخ الأمة العُمَانية، فبرز في عالم القضاء، ودرسه للطلبة، وشاع بين رجال الأمة، وعرفوا أفعال أسلافهم، وأعمال آبائهم، ومقاصد أبطالهم، فهبوا متشوقين إليها، متشوقين لها، وكذلك طَبْعَ دواوين الشعر الحماسي الداعي إلى نبذ الخمول، واعتناق النشاط، فكان ذلك أعظم فاعل في النهوض بالأمة حتى اهتزت من أعاليها وأدانيها، وديوان الإمام الحضرمي كان أكبر مؤثر على قلوب الأمة، فلقحت أفكارها، وتلظى شرارها، فتحركت حركة شهدها التاريخ، وضج العالم

العربي العُمَاني حتى رفع عقيرته في القبائل العُمَانية، وأقام الإمامة على صرحها الكريم، حتى أجلسها على عرشها الذي فقدته أعوامًا. وكل ذلك بفضل دراسة أنباء سالف الآباء، وبما عرف من أفعال الأجداد الماضيين، ولا يزال التاريخ هكذا طيلة الأدهر، فإن الأمم تتحرك طبعًا إلى اقتفاء أفعال السلف من ملوك وأئمة ومصلحين، كما أشار إلى ذلك هِرَقْل بقوله لأبي سفيان إذ يسأله عن رسول الله ﷺ: هل في أجداده من ملك؟ فقال له أبو سفيان: لا، فقال هِرَقْل: فقلت لو كان في آبائه من ملك لقُلتُ رجل يطالب بملك آبائه - أي فأشك في نبوته - والمعنى من كان آباؤه ملوكًا، فهو يحلم بملكهم، ويروم أن يكون ملكًا مثلهم، هذا فإذا درس تاريخ آبائه لابد وأن يتحرك بذلك رغم العراقيل.

وسبق لنا في بعض المقالات فيه قولنا: (التاريخ مدرسة الحوادث الكونية، ولسان معبر عن ما تمشي عليه المواشي الإنسانية، ودعاية عامة إلى الأعمال العالية، ونعي شاهر للأفعال السالفة، يجد الناظر فيه الأعمال الحرة الفاضلة، كما يجد ضدها من المقاصد السالفة، ويقتبس منه العاقل فوائد قد لا يجدها في غيره، ويتسلح منه الكامل سلاح السياسة السامية).

وهي كلمات حقها أن تكتب بماء الذهب على جبهة الدهر؛ لتخلد طيلة الأيام عنوانًا لسر التاريخ، ومما يقطع به دراسة التاريخ تلقح الأذهان، وتنجب بني الإنسان، ويورث درسها قوة الجنان، وحصافة الرأي، وصادق الاعتبار؛ لأن فيها درس أحوال الزمان، وقضايا البرية مختلفة الأحوال متباينة الأعمال، فيرى فيه قارئه إحسان الأخيار، وإساءات الأشرار، وجور البغاة، وكفر الطغاة، ويرى السياسات العالية للملوك السامية، ويتجلى فيه خبث الطوايا، وسوء النوايا، بحيث يخرج الدارس فيه وهو من أبطال الرجال المثقفين.

ولا شك أن أفعال الأوائل سلاح الأواخر، وحجة الأكابر، وبه يأمن المرء من لوم اللائمين، وتأنيب المختصين، والأتباع أأمن من الابتداع، والعمل على

نهج من مضى من أهل الحق نفس الإتباع. وإذا أخذ العاقل بعمل من سبقه من المسلمين لم يعنفه أحد من المؤمنين، وأفعال السابقين حجة اللاحقين، ومن لم يفهم عمَّن سبق، لم يدرك من الحق إلا القشر، ولم يعرف من الدهر إلا الاسم.

والحقيقة أن التاريخ مدرسة عالمية تجمع مختلف الإرادات، ومتباين الأغراض، وتجتمع فيها المواهب والمطالب من جميع الإنسانية أفرادًا وجماعة، ملوكًا وشعبًا، وما أبدته الدول من تقريب أمة، وإبعاد أخرى على حسب مقتضى السياسات الخاصة والعامة، وانقلاب الأمور من أمة إلى أخرى، وانهيار صرح، وقيام آخر ضده، والعمل المتباين في الأمة يقضي على العقول بالعجز عن إدراك الحقائق، ويعبر عن الدنيا تعبيرًا صحيحًا لمن يفهم لا لمن يسمع بأذنيه، ويمر على القضايا لا يلقي لها بالاً ولو كانت على عتبت بابه، وقد أشار القرآن إلى هذا في قوله ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] ولا شك أن من حَكَّم هواه، وتعامى عن حُكم الله؛ فإنه متعرض لزوال نعم الله، فإن ذلك يسبّب انفجار البراكين الضخمة، ولا يبعد عليهم وقت انفجارها، فإذا انفجرت أعجزه ردها، وأعياه تيارها، فغاية ما عنده الخضوع لحُكمها، والسكون تحت وطأتها، وكم لهذا من دليل عقلي ونقلي.

قال الإمام السالمي في تحفته في الجزء الأول صحيفة مائتين وثمانين إذ يذكر راشد بن الوليد المختلف فيه قيل كِندي، قال: (ولولا أن أبا سعيد ـ يعني الكدمي ـ ذكر هذا الطرف من سيرته، لغاب عنا علمه كما غاب عنا علم غيره من الأئمة، قال: وذلك كله لإهمال التاريخ وقلة الإعتناء به، قال: وأن للتاريخ فضلاً عظيمًا لا يقدر قدره)، فانظر هذه الجملة التي وضعها هنا، وتأسف وتلهف على ضياع التاريخ.

ولا يخفى أن التاريخ مرآة تتجلى فيها أحوال الأمم أخلاقًا وأعمالاً، وعواطف ومكارم، وغلظة وشدة، والتاريخ خازن هذه الأحوال بعد استجلائها، وكشف حقائقها، وإنه لمعتبر لأهل العقول، وحجة لأهل المنقول، ومن لم يعتبر بأحوال

الدهر، وما يتحدث عنه التاريخ، فهو خال من العقل، فاقد للشعور، يرتمي في الهلاك غير مبال بما يلاقي، وهيهات أن يحيا إلا على سيء الأحوال، وقال عبد القادر المذكور: (ولكنها ـ أي عُمَان ـ سرعان ما أعلنت توبتها، وانضوت تحت لواء دين الله).

قلت: على فرض صحة المدعي، فالحمد لله الذي ردها إلى الحق راغبة غير مقهورة، كما أسلمت كذلك، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له؛ ولكن الحق هو ما قدمت لك، وإنما يرجع إلى أصله المجبور الذي لم يدخل في الأمر إلا مكرهًا، وقد عُلم أمر عُمَان أنه لمَّا أسلم ملكاها جَيْفر وعبد طائعين، قاما على الفُرس الباقين بعُمَان إذ أنه لا يجتمع في عُمَان دينان، فأما أن تدخلوا فيما دخلنا فيه، وإلا فالسيف هو الحكم حتى أخرجوهم عن بكرة أبيهم منها، وقد خلّيا بين عَمْرو بن العاص والزكاة وأتمرا بأمره، ودعوا من خالفه إلى الحق، وكانا له عونًا على مهمته، وخرجا بصحبته إلى المدينة، لما بلغتهم وفاة النبيّ ﷺ، وأخرجهما أبو بكر ـ رضي الله ـ عنهما لقتال آل جفنة بالشام، وبعد ذلك ردهما إلى بلدهما مزوّدين بالأوامر والنصائح. وسوف ترى ما يؤيد هذا حتى تعلم بُطل ما قال هؤلاء الذين يتبعون كل ناعق، ويكتبون الغث والسمين غير مبالين بما يكتبون عن الأمم التي يتكلمون عنها في سِيَرهم وتواريخهم، والله سائلهم عن كل نقطة يحرّرونها، وكل كلمة يكتبونها في أساطيرهم.

واعلم أنا إذ نذكر التاريخ، أو تاريخ عُمَان على الأخص، لا نريد أن نجعله أقصوصة من الأقاصيص اللاهية، أو أحدوثة من الأحاديث الواهية، أو ملهى للسمار، أو سلوة للمجتمعين في المجالس والنوادي، أو الدارسين في المساجد، أو الفارغين في بيوتهم، أو العاطلين من الأعمال؛ إنما نريد أن نحدث النّاس عن أعمال الرجال الكُمّل، أو عن الأعمال الفاضلة التي يعتمد عليها الرجال المعنيون بحب أوطانهم، أو باستقامة دينهم، أو بسعادة شعوبهم، أو بأمن رعاياهم، أو

بحسن العمل لدينهم ودنياهم، ولندل النّاس أن الحق يشترك فيه القوي والضعيف، والغني والفقير، والسابق والمسبوق، وأن الله لم يجعل الحق لِناس مخصوصين، أو أسرة معلومة، وإنما الحق للكل يستحقه النّاس بقدر أعمالهم، ولا نريد أن نمشي على منهج من مشى محبًا للمُنفق عليهم، وإن كان ظالمًا جبارًا جائرًا على الأمة، ولو أنفق عليها أموالاً طائلة، ولا يسألون عنها من أين نهبها؟ أو من أين اكتسبها؟ مع العلم بأنه ظالم جائر نهاب يأكل أموال النّاس بغير حق، بل نريد أن تمشي الأمة أميرها ومأمورها، على الصراط المستقيم، والطريق السوي الصحيح، الذي لا شائبة فيه من الباطل، غير ناظرين إلى المجرم الذي يقرب الأمة مختدعًا لها بالعطاء، وضارًا لها بدينها ودنياها، فنأخذ منه العطاء ونرضى عنه بذلك، ونحارب من أجله ونقاتل معه، والحق يقول لنا: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هُود: ١١٢]، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعرَاف: ١٤٢].

فلو ضربنا مثلاً بسلطان له وزيران: أحدهما يراعى منازل النّاس الدنيَوية، فيعطيهم عطاء يغمرهم به، فيخرجون عنه يمدحون، ولا يسألون من أين أعطاهم؟ أمن مال زيد، أم من مال عَمْرو؟ وآخر لا يعطيهم ما ليس لهم، ويمنعهم من ذلك، ويعطيهم مالهم، ولا يمنعهم إياه، ويقوم بمصالح دينهم ودنياهم كما يجب لهم، فمن الأوّلى بالإتباع والطاعة؟ فهنا وجهان: وجه يميل بهم إلى الذي يغمرهم بالعطاء، فهو وإياهم ينبغي إقصاؤهم معًا من واجبات الإسلام، والثاني: هو الذي يجب أن يطاع، ويؤيد ويناصر؛ ولكن أين هو؟ قد لا يوجد، قال عُمر بن عبد العزيز: ما طاوعني النّاس على أمر أردته من الدين إلا إذا أعطيتهم جانبًا من الدنيا، وإذا كان النّاس كذلك، فالداء فيهم عياء، ولا يخفى على العاقل أن الأسد مطبوعٌ على حب الافتراس خصوصًا إذا جاع من غير أن يُراقب أن ذلك الفعل ظلم وعدوان، لا ينبغي أن يأكل حيوان حيوانًا مثله عاش في أرض الله، وأن الذئب يأكل القاصية من الغنم، وأن له شنشنة على ذلك خصوصًا إذا خلا بغنم، وأن

السنور لا يؤمن منه أن يسرق، ولو كان أأدب السنانير كلها، وأن بقية الحيوانات كلها كذلك، وأن الحق أمر صعب الوقوف على حدوده كالوقوف على الجمر، وأن العمل به كذلك بل أصعب؛ لكن على الإنسان أن يجاهد معهم نفسه أولاً، ثم يصهرها في بوتقة التصفيات مرات لعلها أن تنصلح.

فانظر فرار النّاس عن علي إلى معاوية حتى أصبحوا يقاتلون معه، وانظر إلى فرارهم عن الأئمة إلى الجبابرة العتاة، كفرار جبلة بن الأيهم عن عمر بن الخطاب إلى قيصر، ولو قال جبلة لمّا كان عمر بن الخطاب لا يرى إلا الإنصاف مني أنا، فمن باب أولى لا يرى إلا الإنصاف ممن هو دوني، وهكذا ينبغي، وعلى مثل هذا تعيش الأمة في أمن ورخاء وسعادة وهناء، أي حيث ينصف من قويها لضعيفها ومن رئيسها لمرؤوسها؛ وذلك هو الذي يحييها من مماتها، ويرفع شأوها بالأمن والاطمئنان، وبه يستقيم الأمر لدولة المسلمين، وبدون ذلك لا يكون صلاح، وأنا أرى أن أعطيه عيني الصحيحة، وأقعد تحت ظله أعمى، ولا يضرني ذلك بل الانقياد للحق يزيدني شرفًا وعزًا، ولأن أعيش عزيزًا بعدل عمر بن الخطاب السيد العربي خير لي من أن أعيش عزيزًا عند قيصر بالكفر في دار غربة لاجئًا محتميًا.

وأولى بي أن أحدث من جاءني حدثته عن عدل عمر بن الخطاب، ويكون دستور لحياة الأمة الجديدة بالإسلام؛ ولكنه لم ير هذا، بل رأى أن يعيش كافرًا، ويموت كافرًا، في بلاد غربة، وما ذلك إلا للجهل، والغطرسة الجاثمة على قلبه، وغرته لذة عاجلة لا تطول أيامها، ولا يبعد مرامها، فبهذا وأمثاله نريد أن نبرهن في التاريخ العربي أن ذكرى [الطالحين][1] الذين هم على نهج جبلة، أو على نهج معاوية بن أبي سفيان، خلطوا عملاً صالحًا، وآخر سيئًا. فالأول ارتد، والثاني أجرم، وأن يعلموا أن أئمة الأباضية على خلاف ذلك هو نهجهم، حيث يقتل احدهم أبناء عمه، وأهل جلدته على كتاب بيعة، وعلى الذين يعطى أحدهم كل

(١) في الأصل الصالحين.

شهر سبعة دراهم يقتتلون بها في غلاء من العيش، تاركين كل شيء لله، وفي الله.

دخل أحد علماء الإسلام المدينة المنوّرة، فلمّا بلغ مجتمع الأمة قال:أين قصر رسول الله ﷺ؟ قالوا: لا قصر له، قال: ولم أكان فقيرًا معسرًا؟ قالوا:لا. قال: أين قصر أبي بكر؟ فقالوا:لا قصر له. فقال: ولم أكان فقيرًا معسرًا كالرسول ﷺ؟ قالوا: نعم. قال: بلغني أنه كان له مال. قالوا: أنفقه في سبيل الله. قال: ولَم لمْ يبنِ قصرًا فخمًا يشار إليه بالبنان من ماله، لا من مال الدولة؟ قالوا: إن ماله أنفقه في عز الدولة. قال: ولم لم يتعوض منها له؟ قالوا: ما أعزه الله بالمال بل بالصلاح في الإسلام والتقوى. وطال الجدل فيه بينهم وإياه. ثم جاء إلى عمر فاتح الأمصار، وجامع الأموال، وواضع العطايا في الدواوين، والقاهر على النواصي، فكان الأمر فيه كالأمر في أبي بكر رحمهما الله، ثم إلى عثمان الذي جهّز بأمواله جيش العُسرة ونحوه، وكانت الأموال تأتيه كالأودية، ولم يدخر منها وسعًا له، وهكذا علي بن أبي طالب. فقال: إذًا لمن هذه القصور؟ فقالوا: لفلان بن فلان، وفلان بن فلان، وهكذا. فقال: هل كانوا أغنى من أولئك الذين تنصب إليهم أموال الدنيا؟ فقالوا:لا. قال: فهل هؤلاء أشرف أولئك المذكورين؟ فقالوا: لا. فقال: إذًا ماذا صنع هؤلاء إذ خالفوا أولئك في عملهم؟ فقالوا: تبدلت الأحوال. فقال: من أعز الآن أولئك أم هؤلاء؟ فقالوا: أولئك.

فعرف اقطاع الحجة بتوضيح المحجة. فحينئذٍ يتبيّن للقارئ الكريم الذي همته إتباع الحق، والاعتماد عليه، أنا نريد أن ندل على الحقائق كما هي، ونعرب عن الظواهر الواجبة التي مشت عليها الأئمة، ونبرهن على زهد الجُلَندى بن مسعود وأعماله، والوارث بن كعب، وخصاله، والمهنا بن جَيْفر، وجلاله، وناصر بن مرشد، وأفعاله، ونعرب للناس عن أئمة آل يعرب الذين ملكوا جانبًا من الدنيا، ولم يخلفوا وراءهم القصور الفخمة، ولا المصانع الضخمة، إلا ما اعزوا به الإسلام، ولا كانت لهم الحدائق الغناء، ولا النقود التي تفوت العد،

ولا اختصاصات الذاتية، بل هلكوا، ولا يوجد لأحدهم بيت خاص لهم دون المسلمين، مع ما ملكوه من الأموال، ولم تعرف البنوك عنهم لكوكًا، ولا ملايين. ولا، ولا. وإنما عُرِف الدهر عنهم العدل الناصع، والأنصاف الجامع، والحال الكامل، والفضل الشامل، ولا يزيد المثقال عندهم عن كونه مثقالاً، فإلى هؤلاء نريد أن نهيب بالنّاس لا إلى هارون الرشيد، وقيناته ومغنياته، ولا إلى ملاهيه ومتنزهاته في الدر والجوهر المضاع على غير أهله، وقد قاتل عليه ناس، وجعله هو وأضرابه تحت نعاله يدوسه بحميره وبغاله.

وليعلم التاريخ العالمي ورواده أن لكل وقت سياسة لا ينبغي إخلالُ بها، وإلا كان الفساد أكثر من الصلاح، بل ربما انعدم الصلاح. إذا أقبل فريقان يختصمان، أحدهما: يحمل المدفع المدمِّر، وعلى رأسه الصاروخ الحاشر، وفي يديه القنابل اليدوية، وفي جيبه المفرقعات الساحقة، وخلفه النسافات العظيمة، والآخر: يحمل السيف الأحمر المصطبغ بالدم من عهد العمالقة، والعصا الضخمة المتقطعة من عهد عادٍ الأولى، لا بل قل والرمح الأزرق، والسهم ذي الأوتار، فبِيَد من ترى النصر؟ أم إلى من يجنح؟ فإن أسبابه بِيَد الأول رغم المعقول والمنقول، لا بِيَد الذي يحمل السيف البتار الذي لا يصل إلى خصمه إلا والنار تشتعل في أردانه، وقد احترق بين يدي خصمه، فهلك قبل الميعاد بمسافات، وقد ألقاه الرصاص على وجهه قبل أن يتخطى إلى خصمه شبرًا واحدًا من الأرض، وهكذا.

وليعلم النّاس أن التاريخ حدث عمَّا سبق، ولم يحدث عن ما لحق، بل عمَّا يأتي، فمجاراة الوقت بما لا ينافي في العقل، ولا يعترض على الشرع، أمر مطلوب قطعًا، بل واجب شرعًا؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وسترى أيها القارئ في تاريخ عُمَان أنواعًا من ذلك، وسترى في تغلب النصارى على المسلمين نوعًا يدل على ما قلنا، وخصوصًا

في جعلان بني بو علي، وهم مسلمون، أولئك نصارى كفار أعداء لأهل لا إله إلا الله مطلقًا، ولأهل الإسلام عمومًا.

ولتعلم أيها القارئ أنّا إذ نكتب التاريخ نريد أن نجعله وسيلةً لتثقيف النّاس بالحقائق الروحية العارضة الزمنية، وسبيلاً لمساعدة الأمة على ما يعانون من مشكلات تصيبهم ونوب تحل عليهم، ونخبرهم بقضية اجتماع المسلمين في مهماتهم الماضية مهما كان الاجتماع، فهو فعال، وإليك صورة ستمر عليك في الاجتماع على حرب راشد بن النضر الجلنداني وأحزابه، وتدميرهم، وهكذا؛ لتكون على ثقة كاملة، أن الاجتماع أول مرحلة تعيش بها الأمة في رخاء العيش، وسعادة الحياة، وأن الافتراق والتلاشي، داعيان إلى الانهيار، ولو شاء النّاس أن يزيلوا الجبل الأخضر من عُمَان بالاجتماع لأزالوه، وإذا كنا على غير ذلك فقد أضعنا أعمارنا في لا شيء. فإن تدوين قضايا التاريخ قد وقع، وإن الكل على ذلك قد اطلع، وأن العمل الصحيح ما عليه المجتمع، أن المسلمين اليوم كما رأيناهم يدرسون التاريخ لكي يعرفوا أن فلانًا كان أشجع، أو أعظم بأسًا بأساليب الحرب، أو أنه أفضل من فلان لا يزيدون على ذلك، بدلًا من أن الإفرنج يدرسون التاريخ تحليلاً للمقاصد، والتفاتًا إلى المراصد، واهتمامًا بالقاصد، لا يدرسونه أقاصيص، أو خرافات، أو حكايات كتسليات، بل هم الباحثون فيه المتعمقون في معانيه، والآخذون بأركان مبانيه، لا كمن إذا سمع أقاصيص الماضي يهز رأسه، ويهمهم، أو يدمدم، وربما يعجب من شجاع يخوض المعامع فنجا، وهكذا؛ بل يحاولون بالتاريخ تثقيف العقول بما في التاريخ من عظات بالغات، وعِبر صالحات، لأن تكون دستورًا ، فتراهم يدرسون التاريخ سِيَر أفرادٍ من الرجال فتحوا الممالك، ووضحوا المسالك وبيّنُوا الناجي من الهالك. إلا أنهم لا يفهمون عنهم إلا أن فلانًا مات شهيدًا، ليتنا كنا معه، وأن فلاناً مات فاسقًا، والعياذ بالله منه، وهم في كلا الوجهين كاذبون، أو مخادعون، أو مارقون، أو على الأقل لا تفكير لهم

في شيء إلا مجرد أحدوثه، كان رجل كثير البكاء على أحد الشهداء، وكلما ذكر ذلك الشهيد يكاد أن يتمزق، أو يحترق عليه إذ قتل تلك القتلة الشنعاء، ومثّل به العدو، وهكذا؛ حتى شاء القدر، ورأى ذلك الشهيد في النوم، والجنود محيطة به، والسيوف تنتاشه، ويرشح دمه، وهو يجالد العدو صابرًا، وهذا الرجل البكاء ينظر على الحال التي عليها ذلك الشهيد، وإذا به يتقاعس، ويختفي عنه شيئًا فشيئًا، ويود أن يتوارى بسرعة حتى لا يراه الشهيد، فيستنصره على عدوه، حتى هَمَّ بالهرب، فقدَّر الله أن رآه الشهيد في أخريات النّاس، فدعاه، فخجل ألا يجيبه فأجابه من غير قلبه، فقال له: ترى الحال الذي أنا فيه، وهؤلاء الأعداء من حولي، فخذ هذا السيف والترس، وقاتل معي عسى الله أن يفرج عنا بك، فأخذ السيف والترس واختفى عن نظر الشهيد، ثم هرب بهما معه، وباعهما، وأكل ثمنهما وراح، فأين بكاؤه الذي يبكيه، وأسفه الذي تأسفه؟ وأين غيظه على العدو الذي يزعمه؟ فقد هرب حتى بالسلاح، ولم يرده لصاحبه، وإن قيل هذه رؤيا منامية، فالواقع هي برهان على ما في اليقظة، وأن أحوال هؤلاء النّاس أغلبها هكذا.

فالتاريخ يبدي لنا تمحيص الحقائق ناصعة غير مستورة، ويعبر عن طوايا النّاس كما هي واضحة، ومن يعتبر يجد الحق فيه واضحًا، أن الغرض الوحيد من التاريخ هو الإقتداء، ومعنى الإقتداء كبير إلى حد بعيد لا يكاد يستطاع القياس عليه، فإن معنى الإقتداء يفتح أبوابًا تفوت الحصر، وتعجز الدهر، فمعنى الإقتداء في الأخلاق والديانات والأحكام، ووضع القوانين السياسية الملائمة لكل زمان، المناسبة لكل أوان، عملاً بمعنى الإقتداء، فإنهم ساروا على النهج الصحيح الوارد عن الشارع في إخراج الأحكام الشرعية في محلها، والقوانين العرفية بدلها عند عدمها، وفي تطبيق الأنظار بحسب الأصول المشروعة، وإلى هذا يشير قول القائل: أحدثوا أحداثًا فأحدثنا لها أحكامًا، والمعنى: أخرجنا لها أحكامًا تطابق وضعها، فإن الشرع وضع أصولاً يرجع إليها المنقول، ولا ينافيها المعقول، فإن

لكل إمام سياسة كما لكل زمان كذلك، وإن تطور الدهر لا يخفى على كل ذي عقل سليم، فكم جاء في وقت خاص ما لا يتفق إلا في وقته الخاص به، وكم جاء مناسبًا لكل وقت، وإذا أردنا أن نذكر من هذا النوع أمثلة أتتنا مندفعة من كل وجه تزدحم على الأفكار، بحيث تركنا نقول لا حاجة إلى ذكرها لشهرتها، وهذه هي ميزة خاصة بالموضوع، ولكل مقام مقال.

وهنا كلمة لعمدة المؤرخين العلامة ابن خلدون نرى أن نضعها هنا ختامًا لهذا المقام في علم التاريخ. قال في مقدمة تاريخه العبر، في خطبة الكتاب:

أما بعد. فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدوام، والسوابق من القرون الأول تنمي فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعَمْروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل الكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق، إن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر، وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها، أو ابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها.

وسار في خطبته سيرًا واسعًا بيّن فيه أحوال التاريخ، والمؤرخين إلى مدى بعيد يطول بنا ذكره. وقال: (مقدمة في فضل علم التاريخ: اعلم أن علم التاريخ

عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضيين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سِيَرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الإقتداء في ذلك لمن يرويه في أحوال الدنيا والدين، فهو محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر، وتثبيت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبّان به عن المزلات والمغالط؛ لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة، طبيعة العمران، والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قِيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيهما من العثور، ومزلة القدم، والحيد عن جادة الطريق الصادق، وكثيرًا ما وقع للمؤرخين، والمفسرين، وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًا، أو سمينًا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلّوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط، ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر، إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنة الكذب، ومطية الهذر، ولابد من ردها إلى الأصول، وعرضها على القواعد، وهذا كما نقل المسعودي، وكثير من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل، وأن موسى أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها، فكانوا ستمائة ألف، أو يزيدون، ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام. واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش لكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها، وتقوم بوظائفها، وتضيق عمّا فوقها تشهد بذلك العوائد المعروفة، والأحوال المألوفة)، وذهب هذا المذهب منتقدًا، ومحققًا، وباحثًا، وقانسًا، وموبخًا للذين يأخذون القضايا جزافًا، ولا يهتمون بنظر يتحقق معه المقام، وأشار إلى دول الفُرس، وأنها أعظم من ملك بني إسرائيل بكثير، وأشار إلى بخت نصر، وما كان له من السلطان على بني إسرائيل، وأشار

إلى جيش رستم في القادسية، وما كان من أمره، وأطنب في ذكر تلك الأحوال بين بني إسرائيل والفُرس. وليس ذلك من غرضنا، وإنما نشير إلى أن مثل هذه الأحوال حفظها لنا التاريخ كما قال ابن خلدون. وعلى كل حال، فقد أطال المذكور في فوائد التاريخ بحسب الفن المعروف، ولقد أشار إلى فوائد أيضًا من قال وقد أجاده:

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

فلولا التاريخ من أين لنا أن نعلم ما فعلت أوائلنا؟ وبالجملة فقد صح الإجماع على أن علم التاريخ من أشرف العلوم في الإسلام، ومما ينبغي أن يشتغل به، ويدوّن، وأن يعار اهتمامًا بالغًا، ويحرَّر تحريرًا كاملاً؛ فإن فيه أسرارًا جوهرية، تتجلى فيها العبقرية كما هي، ولا تضيّعه إلا الأمم المكتوب لها الانحطاط، فإن من يدري عمل سلفه من الأعمال الفاضلة لا يرضى أن يتركها إلى الأعمال السافلة، إلا إذا كان مختل الشعور، أو خائر العزيمة، أو منهار العقل، فإن الغالب كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وكم قامت الغيرة برجال للسير إلى منهج آبائهم، ويرون مخالفة ذلك نزولاً عن الشرف، كما صح عن كثير من النّاس أمثال ذلك في كل جيل؛ فلذلك ترى الإفرنج تدرس سير رجالها درسًا دقيقًا، وتتبع حركاتهم وسكناتهم بكل مالها من قوى.

والحقيقة أن ميدان التاريخ أوسع الميادين، وأن مادته متسعة كاتساعه، فإن موضوعه القضايا البشرية، وهي كما شاءها الله عديدة، لا تكاد تدخل تحت حصر، ومن ذلك صار التاريخ معتبرًا وقانونًا، ومصباح سياسة، وعنوان رئاسة، وكان أحق به ذوو المناصب في الأمة من ملك، وسلطان، وأمير، وغير ممنوع منه غير هؤلاء، فكم في الزوايا من خبايا، وكم في الرجال من البقايا، والله أودع خلقه أسرار حكمته، وهو عليم خبير.

ولدائرة المعارف، ولفريد وجدي، كلمة في التاريخ عظيمة تؤيد ما قلنا، نعرض عنها حتى لا يطول على القارئ هذا المقام؛ فإن ما قلناه وحررناه هنا كاف لبيان حقيقة منافع علم التاريخ، وفوائده.

الحلقة الأولى من تاريخ عُمَان
في التعريف بعُمَان

قال ياقوت الحموي: (عُمَان بضم أوله، وتخفيف ثانيه، وآخره نون، اسم كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند، وعُمَان في الإقليم الأول طولها أربع وثلاثون دقيقة درجة وثلاثون درجة، وعرضها تسع عشرة درجة وخمس وأربعون دقيقة في شرقي هَجَر ـ أي هي واقعة شرقي هَجَر ـ قال: تشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزرع، إلا أن حرها شديد، ويضرب به المثل، وأكثر أهلها في أيامنا خوارج إباضية ليس بها من غير هذا المذهب، إلا طارئ غريب، وهم لا يخفون ذلك)، قلت: لا أدري ما المراد بقوله: وهم لا يخفون ذلك. هل يُراد منه التأنيب والقدح، أم الثناء والمدح؟ أم ماذا يُراد به؟ وإلا فكيف يخفون الحق؟ وهل يخفى في الظلام ابن جلا؟ وكيف يخفونه؟ وهو مذهبهم الصحيح الذي عاش عليه رسول الله ﷺ، وعاش عليه الخلفاء الراشدون، والمسلمون المخلصون الذين باعوا نفوسهم لله، وتجردوا لِنصرة الحق في هذه الحياة، ومذهب الإباضية يستدعي الكلام كشفًا عن الحقيقة؛ لأن أكثر النّاس يجهلونه، والخيبة لمن يجهل الحق، ويعتمد غير الصدق، ومن حارب مذهب الإباضية، أو نال منه، فليتأهب لنقمة الله ﷻ وسوف نبسط ـ إن شاء الله ـ الكلام عن هذا المذهب في أول الجزء الثاني من هذا الكتاب فمن أراده فليلتمسه من هناك.

قال الحموي المذكور: (وأهل البحرين بالقرب منهم ـ أي البحرين الأولى التي هي الحساء وتوابعها ـ قال: هم بضدهم – أي ضد الإباضية – كلهم روافض سبأيون لا يكتمونه، ولا يتحاشون عنه).

وهذا دليل على أنه أراد الغمز منهم، والله على لسان كل ناطق، قال: وليس عندهم من يخالف هذا المذهب ـ أي مذهب الروافض ـ إلا أن يكون غريبًا، قال الأزهري: يقال: أعمَنَ، وعمّنَ إذا أتى عُمَان، وقال رُؤْبة:

* نَـــوًى شـــأمٍ بـــانَ أو مُـعَـمِّـن *

قال: ويقال: أعمَنَ يُعمن إذا أتى عُمَان، قال الممزق، واسمه شاس بن نهار:

أحقًا أبَيْتَ اللعنَ أن ابن فرتنا   على غير أجرام بريق [مشرّق]
فإن كنتُ مأكولاً فكن أنت آكلي   وإلا فأدركني ولما أُمَزّق

وفي رواية خير آكلٍ، إلى أن قال:

فإن يُتهموا أُنجِدْ خلافًا عليهمُ   وإن يُعمنوا مستحقبي الحرب أُعرِقِ

والمعنى أخالفهم فأن يُتهموا - أي يأتوا تهامة - فأنا أتي نجدًا، وإن يأتوا عُمَان أنا أتي العراق. وكذلك جاء في كلام الإمام أبي أسحاق الحضرمي رحمه الله قوله:

لعمرك ما أعرضت عنك لياليًا   وأعمنتُ عن بغضٍ ولا عن معائب

أي ما أعرضت عنك لعيب، ولا أتيْت عُمَان من أجل عيب أعده عليك. وفي القاموس: (أعمن أتى عُمَان). قال الحموي: (وقال ابن الأعرابي: العُمُنُ المقيمون في مكان، يقال رجل عامن وعَمُون، ومنه اشتق عُمَان، وقيل: أعمَنَ دام على المقام بعُمَان، وقصبة عُمَان صُحار، وعُمَان تُصرف، ولا تُصرف، فمن جعله بلدًا صَرَفه في حالتي المعرفة والنكرة، ومن جعله بلدة ألحقه بطلحة).

وقال الزجاجي: (سميت عُمَان بعُمَان بن إبراهيم الخليل) - عليه الصلاة والسلام.

قلت: لعله كان بها فسميت به. (وقال ابن الكلبي: سميت بعُمَان بن سبأ بن يفثان بن إبراهيم الخليل الرحمن - عليه الصلاة والسلام -؛ لأنه بنى مدينة عُمَان)، قلت: ومما يؤيد هذا أن عاصمة عُمَان إذ ذاك صُحار، وقد صح أن بانيها صُحار بن مدين بن إبراهيم الخليل، وإذا كان بانيها عُمَان بن سبأ بن يفثان بن إبراهيم خليل الرحمن، فيكون قد سَكَنها هو ومن معه من قومه؛ لأنه لا يعقل أن يكون بناها وحده، بل لابد أن يكون مع قومه وخاصته.

قال: وفي كتاب ابن أبي شيبة ما يدلُّ على أنها المرادة في حديث الحوض لقوله ﷺ: «ما بين بُصْرَى وصنعاء، وما بين مكة وأيلة، ومن مقامي هذا إلى عُمَان». قال: وفي مسلم: «وعرضه من مقامي هذا إلى عُمَان».

قال وروى الحسن بن عادية قال: لقيت ابن عمر، فقال: من أي بلد أنت؟ فقلت من عُمَان، قال: أفلا أحدثك حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**إني لاعلم أرضًا من أرض العرب يقال لها عُمَان على شاطئ البحر الحَجة منها أفضل، أو قال خير من حَجتين من غيرها**». قال: وعن الحسن: يأتين من كل فج عميق؛ قال: عُمَان. وعنه عليه الصلاة والسلام: **من تعذر عليه الرزقُ فعليه بعُمَان**؛ وقال القتال الكلابي:

حلفت بحج من عُمَان تحللوا ببئرين بالبطحاء مُلْقَى رحالها

في أبيات ذكرها الحموي المذكور تركناها.

قال: (وينسب إلى عُمَان داود بن عفان العُمَاني، روى عن أنس بن مالك، ونفرٍ سواه، وأبزون بن مُهَنْبَرْذ العُمَاني الشاعر، وأبو هارون غطريف العُمَاني، روى عن أبي الشعثاء عن ابن عباس، روى عنه الحكم بن أبان العَدَني، وأبو بكر قريش بن حيّان العجلي أصله من عُمَان، وسكن البصرة، ويروى عن ثابت البناني، روى عنه شعبة والبصريون).

ومعنى قول الحموي وأكثر أهلها خوارج إباضية كعادة أعداء الإباضية الذين يلمزون الإباضية باسم الخوارج، وإلا فلا جامع بين الإباضية والخوارج أبدًا، فإن الخوارج كانوا يدينون بحل مال من خالف مذهبهم، وبحل دمه، وهم في نظر الإباضية أهل كفر في الدين، حيث استحلوا ما حَرَّم الله، ودانوا بحله حتى استحلوا قتل الأطفال، وسبي الذرية، ولم يقل بذلك أحد في الإسلام غيرهم.

وقال وَصفي عنتباوي، المفتّش بإدارة المعارف في فلسطين، وسعيد الصباغ مؤلف كتابي الجغرافية العامة الحديثة، وجغرافية سورية العمومية المفصلة، الطبعة الخامسة المطبوعة ١٣٦٨هـ قال: (يُطلق اسم عُمَان على قُطر كبير يمتد من الشحر على بحر العرب إلى شبه جزيرة قطر في خليج البصرة، ويزيد عدد سكانه على مليوني نسمة)، قال: وبلاد عُمَان جبلية كبلاد اليمن، وترتفع جبالها في الداخل،

والساحل أيضًا، وتتجه هذه الجبال إلى الشمال، فتكون رأسًا يدعى رؤوس الجبال، أو رأس ما سندوم، ويكاد يلامس هذا الرأس بامتداده ساحل بلاد إيران عند مضيق هرمز، وهو يفصل خليج البصرة عن خليج عُمَان).

قال: (وأعلى جبال عُمَان الجبل الأخضر الذي يرتفع ثلاثة آلاف متر عن سطح البحر- قلت: أكثر من ثمانية آلاف متر- ومنطقة هذا الجبل أعمر جهات عُمَان، يكثر فيها السكان، وتغزر المياه، وتخصب الأرض، ومناظرها الطبيعية بهجة للناظرين). قال: (وتشبه بلاد عُمَان اليمن بجوها، وأوديتها الخصبة، وسكانها متحضرون كسكان بلاد اليمن، وهم يقطنون المدن، والقرى على سفوح الروابي، وفي الأودية، غير أن كثرة المراعي الجيدة في السهول الواقعة وراء جبال عُمَان الضيقة جعلت قسمًا كبيرًا من السكان يفضلون حياة البداوة، وينتشرون في تلك السهول).

قال: (وبلاد عُمَان تشتهر بأنها موطن أجمل الهجن وأسرعها ركضًا، وتدعى هذه الهجن بالعُمَانيات، وهي تصدَّر منها لسائر أقطار جزيرَة العرب)، قال: (وفي بلاد عُمَان أقنية كثيرة تحت الأرض لجري مياه الينابيع العذبة إلى المدن، وأهم مدنها الداخلية الرستاق ونزوة)، قال: (والساحل يقع على خليج عُمَان أمام سلسلة الجبل الأخضر سهل ساحلي يدعى الباطنة، وهو خصب التربة يمتد نحو (٢٤٠) كيلومترًا)، قلت: بل أكثر من ألف كيلومترًا شمالي مسقط، (ومتوسط عرضه (٤٧) كيلومترًا، وهو مملوء ببيارات النخيل، وبسَاتين الفاكهة التي تعتمد عليها عدة مدن في معيشتها، أهمها صُحار، وصحم، والسويق)، قال: (وينخفض ساحل عُمَان في خليج البصرة، فيطغى البحر على البر ليلاً بواسطة المد، وتتكون هناك سبخات ملحية تعيش من استخراج ملحها قرًى كثيرة)، قال: (وقد دُعِي هذا الساحل بساحل القرصنة) - أي الملصة - قال: (لأن سكانه كانوا قديمًا يحترفون صناعة القرصنة في البحر) - أي هم يتلصصون - وقال: (أما اليوم

فيشتغل معظمهم بالغوص على اللؤلؤ الذي يستفيد منه العُمَانيون كما يستفيد منه أهل البحرين، والقطيف، والكويت).

قال: (وأهم مدن هذا الساحل الشارقة) ـ التي سماها هو شرجه ـ (ودبي، وأبوظبي)، قال: (وتقع جزر كثيرة معظمها بعيد عن البر خال عن السكان)، ثم ذكر مسقط قال: (مسقط تقع على خليج عُمَان، وترتفع وراءها تلال عالية فيها أبراج عالية، وقلاع حصينة، ويحيط بالمدينة سور عالٍ، وخارجه عدة بيوت، وبعض حدائق لا تكفي محاصيلها حاجة المدينة من الخضر والفواكه، وهي من أشد مدن العالم حرارة، وتمتد تجارتها إلى الهند، وشرقي أفريقية، وتصدر التمر، والملح، والأسماك، وهي عاصمة بلاد عُمَان)، ثم قال: (صور تقع بين رأس الحد ومسقط، ويشتغل معظم سكانها بالملاحة بين الهند والبصرة، وتصل سفنهم البحر الأحمر، والقطر المصري، وهي مدينة قديمة يرجح أنها موطن الفينيقيين الأولين).

فتراه يذكر مساحة عُمَان من الشحر إلى قَطَر، وأنها كبلاد اليمن، وهي في الحقيقة من بلاد اليمن، كما سوف تسمعه في كلام ابن خلدون إلى مضيق هرمز وأم سندم، ويقابل حدود إيران في البحر العُمَاني الفاصل بين القطرين، وَوَصف الجبل الأخضر، وأنه أعمر جهات عُمَان، ولا لوم عليه؛ لأنه وَصف غريب لا اطلاع له على الحقائق؛ لكنا ننقل عن الغير في تعريف عُمَان لغرض له بالمقام إلمام، وَوَصف عُمَان بأنها موطن الهجن الجميلة، كما وَصفها أيضًا بذلك غيره، والحقيقة أن الذين جاءوا عُمَان، وعلموا عنها فوق ما كانوا يسمعون أجمعوا في أوصافهم وقرروا في جغرافياتهم كل شيء صالح في عُمَان، ولو قلناه نحن لقال قائل: أنهم يمدحون بلادهم، والواقع يشهد على ما نقول، وسوف نقول ـ إن شاء الله ـ بعد ما نفرغ من نقل ما قيل، ونحقق الحقائق، فإن أهل مكة أدرى بشعابها، وَوَصف سهل الباطنة وعد منه صُحار، كما سماها صهار بالهاء بدل الحاء المهملة، وصحم وسماها سهام

بالسين المهملة بدل الصاد، والهاء بدل الحاء المهملة، والسويق وقلب قافها كافًا، ولا لوم على غريب؛ فإنه أخذ ذلك بالنقل عن مثله.

وَوَصف مسقط بشدة الحر، وعُمَان كلها غالبًا تغلب عليها الحرارة في الصيف، كما قال واصفوها جاهليةً وإسلامًا، من أنَّ صيدها عتيد، وحرها شديد، وكأن عُمَان بأسرها كذلك، وإن كان بعضه أحر من بعض كمسقط؛ وذلك لأنها تحيط بها الجبال مكتظة بها من جميع الجهات، فلا يخلص إليها الهواء لعسر طريقه إليها، كأنما يشير إليها قول أبي الطيب، حيث يقول:

إذا أتتها الرياح النكب من بلد فما تهب بها إلا بترتيب

وذكر صور وهي كما ذكر من العمران القديم، وأهلها الأقدمون هم الذين عَمّروا صور الشام لما ارتحلوا من عُمَان، وسموها باسمها، وأهل صور أقوى من يصارع البحر منذ الجاهلية، وقد عرفوا بذلك، وهم حتى الآن على ذلك، ومن أشد أهل عُمَان على صراع البحر باتفاق أهل الملاحة فإنهم يتغلغلون في أقاصي الهند، وبحر الهند معروف بأنه أخبث البحار، كثير الأمواج كثير الأخطار، ويسيحون في البحار الأخرى حتى النيل، والبحر الأحمر كاد أن يكون موطنهم الخاص، وكم هلكوا في هذه الأبحر؛ لكنهم مطبوعون على حب المغامرة البحرية، ويشوقهم إليها ما يجدون من خيرات، وما ينالون من أرباح؛ فلذلك يستلذون الأسفار البحرية التي تدر عليهم بالغنى، فيتنافسون في ذلك أشد منافسة، ولا يكترثون بما يلاقون، ومن اعتاد أمرًا سهل عليه.

وأهم مدن عُمَان قَلْهات وصُحار الجاهلية خصوصًا في الساحل، وأما مسقط فكانت أهميتها الملحوظة بعهد البرتغال، وأما نزوى فكانت أهميتها بعد تعيينها مقرًا للإمامة، وسوف ترى الكلام على ذلك في محله. أما صور فهي قديمة العمران لها موقعها الطبيعي، ومقامها الإستراتيجي كما يفهم ذلك أهل هذا الصدد.

وأما صُحار الآن فقد لحقت قَلْهات، فسقطت الأهمية منها تصديقًا لحديثه ﷺ: (ما رفع الله شيئًا إلا وضعه)، وقد شهرت الآن دبي، وأبوظبي، ورأس الخيمة، والشارقة، وجاءت الآن موجة عارمة لمسقط ترفعها على متن الأثير تدعمها فيه الثروة البترولية، ونالت الشهرة معها مطرح، فهما العينان الباصرتان في الساحل، وأما الجبل الأخضر فهو عرش عُمَان وحصنها الرفيع، وعلى الرغم من وجود الطائرات، فهو غاب منيع لا تفتح قفله إلا البيضاء والصفراء.

قال عبد القادر زلوم في كتابه الذي ألفه في (عُمَان والإمارات السبع) قال: (إن عُمَان جزء من الجزيرَة العربية يقع إلى الجنوب الشرقي منها، ويمتد قسم منه بشكل شبه جزيرة تشبه المثلث، رأسه إلى الشمال، وينطح به بلاد فارس ـ أي يقرب منها مسافة لامتداده في البحر، حيث رأس أم سندم ـ كما أن شبه الجزيرة دعيت بساحل عُمَان، وهي التي تشمل المحميات السبع، وجزءًا من سلطنة مسقط، أما قاعدة هذا المثلث فهي ترتكز على خط وهمي ممتد بين قطر وسلطنة مسقط، وأما باقي القطر العُمَاني فيشمل سلطنة مسقط والجبل الأخضر، وتتاخم الأولى بلاد المهرة، وأما الجبل الأخضر فيأخذ في الانحدار تدريجيًا حتى يتلاشى مع كثبان الربع الخالي في الغرب ـ قلت: هذا خطأ فبين مسقط وبلاد المهرة بعد بعيد، والجبل لا يتلاشى مع كثبان الربع الخالي ـ وعلى ذلك يمكن تقسيم القطر العُمَاني في الوقت الحاضر على هذا الشكل):

أولاً: سهل الباطنة، ويقع على خليج عُمَان، وهو سهل ساحلي.

ثانيًا: داخلية عُمَان.

ثالثًا: المنطقة الجنوبية.

والحالة الاجتماعية في القطر العُمَاني أن أول من سكن قُطر عُمَان القديم فرع من العرب البائدة، وهم العماليق، ثم نزله بعد ذلك قبيلة عُمَان القحطانية التي أعطت اسمها للبلاد، فَدُعِيَت ببلاد عُمَان، وبالقطر العُمَاني، ثم حدث بعد

انفجار سد مأرب أن رحلت الأزد إلى عُمَان، وهي من كبرى بطون كهلان، وضربت في الأرض، فسكن قسم منها تلك البلاد، فسمو أزد عُمَان، ويظهر أن أول بقعة جَذَبتهم لِسكنى تلك البلاد هي الجبل الأخضر، حيث الأرض الخصبة، والماء الغزير، ثم توزعوا من هناك في سائر القُطر أنجادًا وسواحل، وأما باقي البطن من الأزد، فقد تابعوا سيرهم إلى بلاد أخرى، ومنهم أزد شنوءة، وغيرهم، وقد تبع أزد عُمَان قبائل أخرى عدنانية وقحطانية بعد ذلك، فسكنت تلك البلاد، وقد ظهر الإسلام والأزد هم أهل عُمَان وملوكها، وقد دخلوا في الإسلام عندما دخل النّاس في دين الله أفواجًا على يد الصحابي عَمْرو بن العاص، وفي عهد ملكيهم جَيْفر وعبد ابني الجُلَندى، وبعد مداورات ومناورات من القائد العربي الداهية، وبين الملكين المذكورين، وكان هو أول والٍ مسلم لتلك البلاد.

وكانت تعرف عُمَان في عهده عليه الصلاة والسلام باسم الغبيراء، والغبراء، فلمّا بلغه إسلامهم قال: (**رحم الله أهل الغبيراء آمنوا بي ولم يروني**)، وروى ابن عمر عن النبيّ ﷺ أنه قال: (**إني لاعلم أرضًا من أرض العرب يقال لها عُمَان على شاطئ البحر الحَجة منها أفضل، أو قال: خير من حَجتين من غيرها**) ، كما ذكرت أحاديث أخرى في فضل عُمَان، والحث على انتجاعها للرزق، ومعلوم أن رسول الله ﷺ قد توفى والجزيرة العربية تدين بكاملها بالإسلام، وعلى ذلك فعُمَان هي قطعة من الدولة الإسلامية التي نشأت على يد رسول الله ﷺ. ويقال أن عُمَان قد أخذت حظها من الردة في عهد أبي بكر ﷺ؛ ولكنها سرعان ما أعلنت توبتها.

قلت: لم تأخذ شيئًا من الردة أبدًا، وإنما وقع سوء تفاهم بين أهل دَبَا من شمال عُمَان والمُصَدّق، فظن أن القوم قد ارتدوا؛ لأن بركان الارتداد من العرب الذين لم يدخل الايمان في قلوبهم قد انفجر، فقاس المُصَدِّق أمرهم على ما يسمع، أو يسمع من غيرهم، فعاجلهم وهم رهن الإشارة الإسلامية، فقبض عليهم قبضة قادهم بها إلى المدينة، وأبلغ الخليفة عنهم، فسرعان ما تبين للخليفة الغلط من المُصَدِّق، فرد

القوم إلى مأمنهم مكرمين محترمين، فلقى بذلك الطاعنون في أهل عُمَان لتعليق الردة عليهم، وهل يصح أن يقال لو فرضنا ارتداد أهل دَبَا أنه صحيح، ودَبَا بلاد من أداني بلاد عُمَان لا أهمية لها من الوجهة الزعامية، ولا رئاسة لها، وإنما النظر يصح أن لو كان ذلك من زعماء عُمَان، وأولياءِ الأمر فيها، وهذا أمر قاله أحد المؤرخين بناءً على الشبهة التي ذكرناها، فسرى في أقوال المؤرخين، وتداولوه في تواريخهم، ونادوا به في عُمَان؛ ليكون أحدوثة سيئة لعُمَان، ولأهل عُمَان، والحق هو هذا، وسوف ترى بسط ذلك في محله عند الكلام على إسلام أهل عُمَان إن شاء الله.

ومن مدنها المشهورة، مسقط ونزوى وصلاله وصحار وسمائل، وتاريخها: ذكر ابن خلدون أنها سميت باسم عُمَان بن قحطان أول من نزلها من العرب في عهد أخيه يعرب بن قحطان، ونقل صاحب (تحفة الأعيان في سيرة أهل عُمَان): (أن قبيلة الأزد اليمنية التي هاجرت إلى هذا القطر بعد حادثة سيل العرم، وتهدم سد مأرب هي التي أطلقت عليه هذا الاسم باسم واد كانوا ينزلون حوله بالقرب من مأرب يدعى عُمَان)، كما تحدث عن وقوع حوادث حربية بين العرب من رجال الأزد المهاجرين من اليمن وبين الفُرس الذين كانوا يحتلون هذا القطر العربي، تغلب العرب في نهايتها على الفُرس، وأجلوهم عن البلاد، ثم لحقت بعُمَان قبائل عربية من بني سعد، وعبدالقيس، وتميم، وغيرهم، فقد خضع هذا الجزء من بلاد العرب قبل ذلك لحكومة التبابعة في اليمن الذين امتد سلطانهم على كثير من لأقطار الجزيرة العربية، كما سبق في موضعه، فلمّا جاء الإسلام كان ملك عُمَان إلى عبد وجَيْفر ابني الجُلَندى الأزدي، فبعث إليها رسول الله ﷺ عَمْرو بن العاص السهمي بكتاب يدعوهما فيه إلى الإسلام، وقال في (تحفة الأعيان) في تعريف عُمَان (قال ابن خلدون: هي من ممالك جزيرة العرب المشتملة على اليمن، والحجاز، والشحر، وحضرموت، وعُمَان)، قال الإمام: (يعني عُمَان

بعض جزيرة العرب المشتملة على هذه البلدان).

قال: (وهي خامسها إقليم سلطاني منفرد على بحر فارس من غربيه مسافة شهر، شرقيها بحر فارس، وجنوبيها بحر الهند، وغربيها بلاد حضرموت، وشماليها البحرين كثيرة النخل، والفواكه، وبها مغاص اللؤلؤ سميت بعُمَان بن قحطان أول من نزلها بولاية أخيه يعرب بن قحطان) - يعني أن يعرب ولّى عليها أخاه عُمَان، فسميت باسمه - (وصارت بعد سيل العرم للأزد، وجاء الإسلام، وملوكها بنو الجُلَندى)، إلى أن قال: (وهي في الإقليم الثاني، وبها مياه، وبساتين، وأسواق، وشجرها النخل، إلى أن قال: وقَلْهات هي فرضة عُمَان على بحر فارس من الإقليم الثاني ومما يليها الشحر، وحجار في شماليها) - وأراد بها صُحار تحريفًا للصاد المهملة بالحاء المهملة - (إلى البحرين) - أي الأحساء - (بينهما سبع مراحل، وهي في جبال منيعة) - أي عُمَان في جبال منيعة - (فلم تحتاج إلى سور)؛ وسيأتي أن عُمَان كانت قبل العرب في يد الفُرس، وأنها صارت إليهم بعد سيل العرم بعد حروب الخ، إلى أن قال: (وأنهم أسموها باسم وادٍ كانوا ينزلون حوله، إذ كانوا في مأرب، وأن الفرس كانت تسميها مزون، وفي ذلك يقول قائلهم:

إن كسرى سمى عُمَان مزونًا ومزون يا صاح خير بلاد

بلدة ذات مزرع ونخيل وراع مشرب غير صادِ

وقال المسعودي في المروج: وسنجار قصبة أهل عُمَان وأراد بها صُحار).

قلت: هي صُحار بعينها، وإنما حرّف اسمها غلطًا.

(وقال الأندلسي الشريسي: صُحار سوق عُمَان)، سيأتي ذلك عند الكلام على صُحار، قال: (ومرساها فرسخ في فرسخ) - أي كانت مرسى عظيمًا تكثر فيه السفن، بحيث يصير امتدادها إلى هذه المسافة - إلى أن قال: (وبلاد عُمَان ثلاثون فرسخًا).

قلت: إن كان أراد طول ساحل عُمَان ربما قارب ذلك كما سوف تقف عليه

في محله.

قال: (ما ولي البحر سهول ورمال، وما تباعد حزون وجبال، وهي مدن) - أي عديدة - قال: (منها مدينة عُمَان) - أي صُحار؛ لأن لها الشهرة إذ ذاك - قال: (وهي حصينة على الساحل).

قلت: كانت تحصينها بأسوار تحيط بها قوية متينة، قال: (ومن الجانب الآخر مياه تجري إلى المدينة) - أي أن صُحار كانت تسقيها المياه بالقنى المنجرة إليها من الأودية التي هي في أعلاها وهي التي تعرف عند أهل عُمَان بالأفلاج عرفًا شائعًا عامًا إلى آخر ما وصفها به، وسيأتي ذلك في محله - إن شاء الله.

إلى أن قال: (أحوازها مغاص اللؤلؤ)؛ لأن أحواز عُمَان كما عرفت إلى الأحساء، وكل الساحل تابع لعُمَان، وأن قيل تابع لصُحار غير بعيد؛ لأن الشهرة في ذلك العهد لصُحار في الساحل الشمالي.

قال في (معالم الجزيرة) صفحة (٢١):

(إن البراكين في القديم هي التي كوّنت الجزيرة على هذا الوضع الحاضر، إنما هو من عمل البراكين التي نرى من آثارها الآن الشيء العظيم، فجميع الحرارة الموجودة في جزيرة العرب ما هي إلا اندفاعات بركانية خلفت لنا الحجارة السوداء النخرة فوق الرمال القديمة، فأمسكتها عن التفتت والزوال)، إلى أن قال: (لقد حدثتْ حركات أرضية فوق الأدوار القديمة؛ سبّبت تكون أخدود البحر الأحمر، وانقسام القارة العظيمة إلى قسين قسم غربي البحر الأحمر نعرفه الآن بأفريقيا، وقسم آخر شرقية نعرفه الآن ببلاد العرب، وقد تكوَّنت عُمَان، والجبل الأخضر بحركات أرضية مماثلة)، قال: (فإن المستر برترام توماس يؤكد في كتابه(العربية السعيدة) إن بلاد عُمَان كانت في الأعصر الجيولوجية قسمًا من بلاد إيران).

قلت: إن كان يعني أنها قسم من بلاد إيران أي تابعة لها فمسلم؛ لأن الفرس

تولوا عُمَان، وألحقوها ببلادهم حتى جعلها أحد ملوكهم منفى لمن أراد نفيه من بلاده، ومكثوا فيها عهدًا طويلاً إلى أيام نبي الله موسى بن عمران ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى أجلاهم العرب في عهود قريبة من البعثة، وتم جلاؤهم بعهد الإسلام في عُمَان، وإن كان يعني أن عُمَان من بلاد إيران، وتكوَّن هذا البحر الفاصل بين عُمَان، وإيران ففصلهما عن بعضهما بعضًا، فمن الممكن ذلك؛ إلا إنا لم نقف له على صحة، وعلماء البحار يذكرون أمكنة كانت أبحرًا، فصارت برًا، وبرًا صار بحرًا، وذلك بعد الطوفان، ولعل هذه الحرارة بلاد العرب نتيجة تلك البراكين، أو الغازات، وأخص بالحرارة بلاد العرب وعُمَان من أحرها، فلعلها أكثر بلاد العرب غازًا، وبراكين الغازات فيها غزيرة المادة.

فعُمَان مملكة خالدة من عهد عريق تتولى ممالك فتضمها إليها أحيانًا، وتتأخر في بعض الأحايين، فتبقى على كرسيها بعُمَان، وربما غزاها غزاة في بعض الأزمنة، فيتغلغلون في قلبها، ويتولون أمرها بشأن الممالك الهامة التي تطمح إليها الأنظار، وعُمَان كما قيل عنها كرسي الجزيرة في الشرق كثيرة المعادن المتنوعة.

واعلم أن عُمَان قديمًا اسم يشتمل هذه الرقعة التي هي مُنتهى شبه الجزيرة إلى البحرين الحساء، فهذه كلها عُمَان فيدخل فيها العقير، وقطر، ثم تبدل هذا الحال بعد ذلك فانفصل عن اسم عُمَان ذلك الطرف الغربي المشار إليه، ثم انفصلت قطر، وأعلنت أنها قطر مختص بواحاته وصحاريه، وبقي الاسم العُمَاني شاملاً لأبوظبي، وما يليها تشريقًا إلى مسقط، ثم كاد أن ينفصل هذا إلى أقطار خصِّيصة حتى صار الخارج من دبي يقول: أنه رائح إلى عُمَان، وكذلك أهل الساحل على طوله، فيبقى اسم عُمَان مختصًا بالبلاد الداخلية، وهكذا؛ وهذا من باب التغير الطارئ لأحوال اقتضاها الحال في عُمَان، وبلغني أن علي بن عبدالله آل ثاني لما أطلع على (الإسعاف)، ورأى فيه اسم عُمَان يشمل قطر استنكر ذلك، ولو رجع إلى أصول التاريخ لم يستنكر ذلك، ولأيقن أن لعُمَان

الشرف الطويل العريض، ولم يتبرم من كون قطر قطعة من عُمَان، ولو ألقى نظرته إلى كلام ابن المقرب العيوني، حيث يقول في قصيدته اللامية الهائية، وهو البيت الثالث والخمسون منها وهو قوله:

وجازت قرى البحرين عيسى وأصـ ـبحت عُمَانية واستسهلتها سواحله

قال الشارح: (ويعني بالسواحل سواحل البحرين من عُمَان) ـ أي أن سواحل البحرين من عُمَان ـ لو نظر ذلك الأمير إلى هذا، وأمثاله لما استنكر كون قطر من عُمَان، ولا عبرة بالتقسيم الطارئ على الممالك، فإن ذلك شيء آخر غير ما نحن بصدده، فقد صارت عُمَان في القرن العشرين [الميلادي] وهو القرن الرابع عشر الهجري ممالك متعددة، وأقطار منفصلة تتنافس في الشؤون، ولاسيما لما صار الساحل المعروف بالمتصالح أو المحمي كله إمارات، وفي قلب عُمَان إمامة مختصة بجانب منه، وفي ساحله سلطنة جاثمة عليه، وهكذا؛ صار اسم عُمَان يتعلق بالقلب الداخلي، وبهذا البيان تعلم أن عُمَان اسم شامل لهذه الإمارات كلها، وتقع البريمي في القلب من عُمَان لا علاقة لها بأي قُطر من أقطار الجزيرة العربية، اللهم إلا إذا كان الحكم للسيف لا للقلم، فللسيف حكم التغلب والقهر، وللقلم حكم التحقيق والعدل، ويرجع العدل إلى الحق لا إلى التغلب، ولو كان الحكم للسيف فلعُمَان أكثر بلاد العرب في الجزيرة إلى رأس الرجاء الصالح بشهادة الأجانب من اليهود والنصارى، وباعتراف العرب في معظم البلاد.

فانظر في (حياة الشرق)، وغيره من كتب التاريخ جاهلية وإسلامًا تجد التحقيق، أما عُمَان الطبيعية: فهي ما يشمل ما ذكرناه لا ما يقوله الغير. قال الخضري في محاضراته إذ يذكر جزيرة العرب قال: (وأسياف البحرين وقطر وعُمَان)، قال في التعليق: (بلاد على ساحل الخليج بين البصرة وعُمَان)، قال: (وكانت هي وعُمَان أيام بني العباس عملاً واحدًا)، أي أن البحرين وقطر وعُمَان كانت تعتبر بلدًا واحدًا في ذلك العهد، وذكر قَطَر: (وهي بفتح القاف

وفتح الطاء المهملة قرية على سيف الخط بين عُمَان والعقير، وهي - أي العقير - بحذاء هجر، وقال في صُحار: (كورة عربية على ساحل بحر الهند بين حضرموت وعُمَان)، قال: (وتنتهي إلى البحرين)، أي عُمَان نهايتها البحرين، قال: (وقصبتها مدينة صُحار).

قال صاحب (جغرافية الشرق الأدنى) إذ يذكر الشحر: (تمتد هذه المقاطعة - أي مقاطعة الشحر- شرق شمالي مهرة، وتعد جزءًا من بلاد عُمَان)، قال: (وينتشر سكانها في الساحل بين جزائر كوريا موريا، وجزيرة مصيرة)، إلخ، وعلى كل حال أن الشحر قطعة من عُمَان، وأن كوريا موريا هما من عُمَان باتفاق المؤرخين القدماء الذين هم الحجة في تحقيق التاريخ، أما الذين يتبعون أهوائهم فلم يكونوا حُجة في شيءٍ ما، والتاريخ العربي، والإفرنجي شاهد بما قلناه.

قال بعض الكتابيين: أن عُمَان وهي جزء من جزيرة العرب تمتد من حدود قَطَر إلى حدود حضرموت)، قال: (وغير مضبوط عدد سكانها، ولا يوجد بها إحصاء رسمي، ولا اهتمام لأهلها بذلك).

قلت: بل لهم اهتمام أيام كانت عُمَان حية راقية، ألم تسمعهم يذكرون أن سِعال محلة واحدة من نزوى بلغ سكانها أربعة عشر ألفًا، ولو لم يكن لهم به اشتغال من أين علموا ذلك؟

قال: (ولا يعرف أول من سكنها على الصحيح، ذكر بعض المؤرخين أن قبائل العرب البائدة طسم وجديس كانوا بها، والعمالقة هم الأخص بها).

قال: (ولا يفهم أنهم انقرضوا، أو أخرجهم الفرس منها).

قال: (وَكَتَبَ أهل التاريخ القديم، والحديث كثيرًا عنها، وعن سكانها).

قال: (ولابن خلدون وابن الأثير قدم السبق) أي في التحدث عن عُمَان.

قال: (وذكرها غيرهم كالطبري، واليعقوبي، والمسالك والممالك).

قال فيلبي: (إن الأقسام الجنوبية من شبه جزيرة العرب هي الوطن الأصلي

للساميين)، وأراد بهم ذراري سام بن نوح عليه السلام وقد سبق لنا ذلك.

ذكر العوتبي في (الأنساب) وهو أحد رجال العلم في أوائل أهل عُمَان...

وفي كلام بعض التميميين يقول:

ألا يا من لصب مستهام قريح القلب قد ملّ المزونا

بفتح الميم وضم الزاي المعجمة، قال المبرد: في معناه المزون: عُمَان، وهو اسم من أسمائها، قال الكميت:

فأما الأزد أزد بني سعيد فأكره أن أسميها المزونا

والمعنى أن اسم المزون اسم لعُمَان فأكره أن أطلقه على الأزد أي لا أطلق عليهم اسم بلدهم، وقال جرير:

❊ وأطفأت نيران المزون وأهلها ❊

[انتهى] من شرح أبي حديد على (نهج البلاغة) في الجزء الرابع صحيفة ١٥٨أ.

قلت: ولنا في (رعاية الأحساب) عن العمالقة: هم بنو عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، قال السويدي: (هم عظيمة طوال القامات يضرب بهم المثل في الطول، فيقال: رجل عملاق، أي بالغ الطول قامات العماليق، وكذلك عظم الجثمان، تفرقوا في البلاد، فكان منهم أهل المشرق، وأهل عُمَان، والبحرين، والحجاز)، قلت: وهذا يدل أن من أول من سكن عُمَان العماليق، قال: (وكان منهم ملوك العراق، وجبابرة الشام، والجزيرة، وفراعنة مصر، ومنهم قبيلة جاشم بجيم بعدها ألف فشين فميم)، قال السويدي: (هم بنو جاشم بن عملاق كانت مساكنهم يثرب والبحرين وعُمَان) إلخ.

❊ ❊ ❊

مناخ عُمَان

أما مناخ عُمَان: فهو طيب جدًا شتاءً أو صيفًا، وإن وصفت بالحر في الصيف، فقد صح أن غيرها من بلاد العرب أحرُّ منها، فنجد أحرُّ من عُمَان بمسافات، وكذلك سائر الجزيرة، وإن كان العراق، والشام، وباقي بلاد العرب من غير الجزيرة لا حرَّ بها، فعُمَان طيبة الهواء جدًا، أما السموم الحار الذي يهب في الصيف فليس لعُمَان منه أكثر من غيرها، بل هواء عُمَان دائمًا سجسج بارد، أو معتدل، وكذلك البرد لم يكن بها برد شديد بالنسبة على باقي بلاد العرب، فالرياح في الطرف الشرقي من جعلان إلى أطراف نزوى والظاهرة طلق نظيف لطيف، وهواء البريمي كذلك، أما هواء الباطنة ففيه بعض اللزوجة في أوقات غير طويلة المدى، ثم تذهب لزوجته، ويبقى باردًا رطبًا تعشقه النفوس، وإذا تبرم منه أهل عُمَان، فمعناه لم يتعودوا على هواء البلاد الأخرى، فالرياح لم تكن زعزعًا إلا نادرًا، ولا تقف أيضًا بتاتًا، بحيث يسبّب توقفها ثقلاً على النفوس كبيرًا، وأما هواء الجبل الأخضر في الحر يكون رخيمًا طيبًا يسلي النفس، وينعش القلب، وينشط الدم، وأما في الشتاء بارد جدًا، بحيث تؤذي برودته لغير المتعود بها لارتفاعه؛ فإنه يقدر ارتفاعه بأكثر من عشرة آلاف متر عن سطح الأرض، بحيث لا يحس الماشي بحر الشمس إذا مشى فيه وقت الحر ولو حافيًا، وفي الشتاء إذا وقعت الأمطار، وهبت الريح يجمد الماء.

❊ ❊ ❊

جبال عُمَان

أهم جبال عُمَان الجبل الأخضر، وهو الجبل الخاص ببني ريام عند الاطلاق، ثم جبل الكور الخاص ببني هناءة، ثم قنة وادي السحتن وهو الخاص بآل عبرة بن زهران، ثم تبقى قطع من الجبال بعُمَان لها حكم الجبل الأخضر في بعض الأحوال كجبل صيا في حطاط، وهو جناح مستطيل بوادي الطائيين، وقطعة منه

بجعلان تدعى بجبل قهوان، ثم جناح يمتد من جبل بني ريام مغربًا حتى يعانق جبال الحدان بن شمس، فيستمر سائرًا في الغرب حتى يشرف على سفح البريمي. ثم تمتد جبال ليس لها من صفات الجبل الأخضر لا اسمًا، ولا معنى. وبعض هذه الجبال التي ذكرناها ليس لها حكم الجبل الأخضر إلا في اللون، أو في العلو، أو البرودة فقط، أما جبل بني ريام: فهو جنة عُمَان وَجُنتها، وأما جبل الكور ففيه بعض من نوع ما في جبل بني ريام، وأما قنة وادي السحتن، فهي قطعة من الجبل الأخضر فيها بعض الصفات الملحقة بها بحكم جبل بني ريام، ثم بقيت جبال في عُمَان فخمة ضخمة في ذاتها؛ لكنها تخالف ما ذكرنا في صفاتها، والجبل الأخضر على الأجمال حصن عُمَان من العدو الغازي، وحوض عُمَان لحفظ مياهها، وكرس الأمن في غالب الأحوال، ومستشفى المرضى من أمراض عديدة لا علاج لها إلا استنشاق هواه، وأكل ثمره، إذ هو روض من الرياض في فواكهه وزهره، ولطيف نسيمه، وحسن رباه.

❊ ❊ ❊

رمال عُمَان

اعلم إن عُمَان أخذت حظها من الرمال المتناثرة، والمتكدسة القارة، والمتنقلة، ففي الباطنة رمال مفروشة عليها معروشة، وغير معروشة، هادئة قارة لها عمقها في الأرض صالحة للغراس على اختلاف أنواعه، بإجماع أهل الفلاحة؛ ولذلك صار إقليم الباطنة عامرًا أغلبه مأهولاً مملوكًا على طول الساحل المتصالح إلى حيث ينتهي، وفي عُمَان الداخلية رمال متنوعة منها الهادي، والمتنقل، والمتراكم، وغيره من جعلان، والدقم، ومحوت إلى ظَفَار في الجنوب، وإلى الأحقاف في الغرب إلى قَطَر، وبادية الظفرة إلى أبوظبي، ودبي في الجانب الشمالي.

❊ ❊ ❊

مراعي عُمَان

اعلم أن مراعي عُمَان كثيرة متنوعة لا يحصيها قلم كاتب مهما كان، ومهما صح له من فراغ وخصوصًا أيام توالي الأمطار؛ فإنها تصير كلها سهلاً وجبلاً روضة خضراء، دوحة زهراء، وجنة بهجة، إلا إن أمطارها قليلة غالبًا.

❁ ❁ ❁

حيوانات عُمَان

اعلم أن عُمَان بها كل الحيوانات الأهلية من الإبل التي يضرب بها المثل في حسنها وجمالها، وفي ركضها وأحمالها باتفاق خبراء العرب الذين لهم الخبرة والتجارب، وقد شاع هذا عند المؤرخين قديمًا وحديثا، وقضت به التجربة، والعادة أيضًا، وقد صح أيضًا أن لبن الحيوانات أصح الألبان، ولحمها أطيب اللحوم، بحيث لا يمتري في هذا أحد، وأما البقر في عُمَان فكالإبل بغير مدافع ألبانها ولحومها على حد سواء، فالسمن العُمَاني لا مثيل له في العالم بإجماع أهل الأقاليم، وإن قال بعضهم أن سمنهم قليل فيتمكنون من تصفيته، فالحق أنه أطيب الأسمان إن لم يغش؛ لأن المراعي العُمَانية أطيب المراعي؛ فلذلك يكون اللبن والسمن أطيب الألبان والأسمان واللحوم كذلك، فإن طيب المرعى مؤثر في الراعي، وهذا لا يدفعه أحد إلا مكابرة.

وأما الغنم بعُمَان فهي كالإبل والبقر في طيب الألبان والأسمان واللحوم، وأنواع الغنم في عُمَان كلها موجودة، ولها نهاية الجودة، بل ربما قال بعض الخبراء الذين لهم الدراية الكاملة إن حيوانات الداخل تفوق حيوانات الساحل، وحيوانات الجبال تفوق حيوانات الأودية، والسيوح بعظم الأجسام، وطيب الألبان والأسمان واللحوم حتى بالغ بعضهم فقال بالفرق في الأرواث لدى الأسمدة، وذلك غير بعيد أيضًا.

وأما الخيل فخيل عُمَان تفوق على خيل باقي بلاد العرب؛ لأنها تطعم القت،

والتمر العُمَاني، وذلك هو الذي يكسبها التفوق في ركضها، والحسن في هيئتها وجمالها، ثم تليها خيل البحرين، فخيل نجد كذلك.

وأما حَمِيرُ عُمَان فهي أنواع منها حَمِير الجبل الأخضر كالبغال، لا تختلف عنها في شيء أبدا، ولا تصلح في الجبل غيرها، وباقي الحمير عديدة الأنواع.

وأما الحيوانات الوحشية:

ففي عُمَان الوعل والظباء بكثرة؛ إلا أن السيارات الآن فرقت بها شغر بغر، ويوجد بها الثعالب، والأرانب، ومن الحيوانات الضارية بعُمَان الذئاب، والضباع، أما الأسود، والنمور، والفهود، فلا توجد بها أصلاً إذ لم نجد لها ذكرًا في التاريخ القديم والحديث، وتوجد بها الحيات المتوسطة الحجم، والصغيرة الحجم أيضًا، أما الحيات الكبار التي تذكر في البلاد الأخرى فلا توجد بعُمَان أصلاً.

* * *

وأما بحر عُمَان

فهو بحر الخير، ومخزن الأرزاق؛ لأنه كثير الأسماك الطيبة اللذيذة صغارًا، وكبارًا، ونوعًا يسميه أهل عُمَان العومة، وآخر يطلقون عليه ما دام طريًا اسم البرِّيَّة بتشديد الراء المهملة والياء المثناة من تحت، وإذا جف سموه قَاشعًا بقاف مفتوحة فشين مثلثة فعين مهملة، ومن هذه الأنواع يُصَدَّر إلى الخارج كميات كبيرة تعود على الأهالي بأثمان وافرة، ومبالغ مهمة، كما تكلم على هذه الأنواع كثيرون من المؤرخين، وفي بحر عُمَان من أنواع السمك ما لا يوجد في غيره كثرةً وطعمًا.

وفيه مغاص اللؤلؤ الذي هو أكبر الذخائر في العالم، ولا يوجد في غير بحر عُمَان ما يوجد في بحر عُمَان من ذلك، وإن وجد فشيء غير كبير الأهمية، وما زال بحر عُمَان هادئًا مطمئنًا قليل الأخطار كثير الخيرات عظيم البركات، وعند

أهل عُمَان يرجع ذلك لدعائه ﷺ حين استدعاه الصحابي الكريم مازن بن غضوبة السعدي السمائلي، وقد شهر ذلك، وعسى أن نذكره في محله إن شاء الله.

* * *

أودية عُمَان

لقد ذكرنا في مقدمتنا لتاريخ عُمَان بعضا من أودية عُمَان، ونذكر هنا بعض منها، وأهمها في الداخلية وادي القريات، وقد ذكرنا مبتداه ومنتهاه، وهو واد كثير المزارع طويل المدى فيه قرى متعددة، وأفلاج مبعثرة، ومزارع متناثرة على طول خطه.

وقريب منه وادي عندام المنحدر من رؤوس العق والجرداء، ويمر إلى أن ينتهي في الرمل الجنوبي من عُمَان، مأهول مسكون قراه وفلواته إذ هو كثير الفلوات، واسع الغابات ذو ريف جميل لا يخفى على من مشى فيه.

ووادي حَلْفِّين بحاء مهملة مفتوحة بعدها لام ساكنة ففاء فمثناة تحتية فنون، ينحدر من الجبل الأخضر من سفحه الشرقي، فيمتد إلى الرمل الجنوبي، ويسقط في الرمل كثير البلدان والسكان.

ووادي سمائل النازل من الجبل الأخضر بعض شعابه الغربية خاصة، ثم يلتقي بشعاب أخرى عديدة كثير البلدان المحتوية على عشرات الآلآف من الرجال دون النساء والولدان، لا يزال خصبه مستمرًا إلى أن ينزل في رمال الباطنة بالسيب، يحتوى على أمهات القرى في عُمَان.

ووادي بني خالد في الجانب الشرقي واد متسع مأهول كثير السكان متسع البلدان، واقع في شرق عُمَان، من أكبر الأودية العُمَانية التي لها أهميتها، ووادي الطائيين واد عظيم له شعاب واسعة، وبه قرى وبلدان متعددة القبائل كثيرة العدد، ووادي دما يشتمل على قرى لبني شهيم، وغيرهم من سائر القبائل، وبه بلدان واسعة بالنسبة إلى تلك القرى الجبلية.

ووادي المعاول المشتمل على تلك الديار الفيحاء ذات الحدائق الجميلة، وفي رأسه نخل، وهي من أمهات القرى في هذا الوادي المنحدر من سفوح الجبل الأخضر المعروف أعلاه بوادي مُسْتَّل بميم مضمومة سين مهملة ساكنة وتاء مثناة فوقية وآخره لام، وهذا الوادي من أكبر الأودية وأكثرها عمرانًا.

ووادي الأبيض المعروف من أعلاه بوادي بني خروص لاشتماله على بلدان بني خروص، وفي آخره قرية الأبيض المأهولة ببني صبح.

ووادي الرستاق أعمر الأودية العُمَانية، وأكثرها أرزاقًا على الإطلاق؛ لأن في أعلاه قرى لبني عوف، وفي وسطه إلى آخره قرى الرستاق المتعددة ذات الحدائق الغناء، والبساتين الزهراء، والغياض الخضراء، أو على الإطلاق هو وادي الخيرات، وادي الأرزاق كثير القبائل، واسع الفضائل.

ووادي بني غافر من الأودية المتسعة التي لها أهميتها في عُمَان مأهول بقبائل عديدة تحت اسم بني غافر في بلدان رائقة حسنة يبتهج بها القلب؛ ووادي الجهاور كذلك من الأودية المأهولة العامرة بقبائله العريقة.

ووادي بني عمر من الأودية الهامة المعروفة المتعددة البلدان، والقرى، والمزارع الذي لا يزال عامرًا كسائر أودية عُمَان ذو أهمية قبائلية، وأمته التي تعيش فيه عيشة الأحرار.

ووادي الجزئ المنحدر من جبال واحة البريمي المنصب في النواحي الصحارية عامر بسكانه المتعددين من كنود، ومقابيل، وغيرهم من القبائِل، ويشتمل على بلدان معروفة لا تخفى على أحد؛ لأنه طريق البريمي إلى صُحار إلى الشميلية في الغرب، وإلى مسقط في الشرق.

ووادي القور آخر الأودية في الجهة الشمالية معروف عند الكل من مواطنين، وأجانب، وسكانه كذلك لا يخفى مقامهم، وبلدانهم معروفة لا تحتاج إلى ذكر، وعلى كل حال إن هذه الأودية التي ذكرناها هي أمهات الأودية في عُمَان، وإلا فقد

بقيت أودية كثيرة مأهولة عامرة لم نذكرها لصغر بلدانها، وقلة قطانها؛ لكن مجموعها يسد فراغًا هامًا في عُمَان الداخلية، ولا يخفى أنّا لم نذكر البلدان الواقعة في هذه الأودية بأسمائها فضلاً عن أممها، وقبائلها؛ لأن ذلك شيء يطول، وربما كان عسيرًا، فإن مساحة عُمَان تقدر بمساحة بريطانيا، وكلها مأهولة مسكونة بقبائل متعددة.

ولا يخفى أن الوضع العُمَاني ينقسم إلى قسمين، والقاسم له الجبل الأخضر، فإنه صار سنام البعير وغاربه، فأما الجانب الشمالي منه جوزة رأس الحد في الشرق إلى رأس أم سندم في الغرب، فهو منخفض جدًا نهايته البحر، فإنه يسير في الانحدار، بحيث يغلب على القياس حتى يتصل بالبحر انحدارًا ملموسًا، فترى أمطاره تنقص إلى البحر انقضاضًا باهرًا، بحيث يحسبها الرائي انفجار براكين هائلة لا صاد لها ولا راد.

أما القسم الجنوبي بخلاف هذا فإنه يتنازل تدريجيًا إلى أن ينتهي في الرمل كما قلنا، ثم إن الله جلت قدرته جعل قيعان الأودية المنصبة إلى الشمال كلها صخرًا يمنع بقاء الماء في قيعانها، بل سرعان ما يسيل إلى البحر، وبعكس الأودية الأخرى، ثم إن الجبال الحالة في الوسط العُمَاني هي الكفيلة بتقسيم مياه الأمطار على هذا الوضع الذي ذكرناه.

الولايات العُمَانية

اعلم أن عُمَان تشتمل على أكثر من أربعين ولاية في الوقت الحالي، والمراد بالولاية منطقة يحكمها والٍ وقاضٍ، أو أحدهما ينفذان فيها حكمهما بشرع الله، ويحكمان على القوى والضعيف، ويستمد قوتهما من الحاكم الأعلى، ولهما جنود مدنيون يقومون بتنفيذ الأوامر، وأرزاقهم جميعًا إما من السلطة العليا، أو من خراج نفس الولاية على حسب الاتفاق بينهم على هدى القوانين الإسلامية عن السلف الصالح كما هو معروف عندهم أشبه بأيام الخلفاء الراشدين.

❊ ❊ ❊

العواصم بعُمَان

عواصم عُمَان الساحلية:

أولها: مسقط، قال الحموي: (مدينة من نواحي عُمَان في آخر حدودها مما يلي اليمن على ساحل البحر). قلت: هذه صفة لم تنطبق على مسقط؛ ولكنها وصفُ غريب يصف الشيء على غير صفته، فهي على ساحل البحر مما يقابل فارس، أو على الأقل مما يلي مكران، فأين مسقط من اليمن؟ بل هي عاصمة عُمَان من البحر في الجانب الشرقي الشمالي، فهي مدينة من مهام المدن على البحر العربي الفارسي علا شأنها، وعظم مكانها منذ القرن الحادي عشر للهجرة، حين حل بها البرتغاليون وبنوها حصنًا لهم بل حصنونًا وسوّروها من الجبال بأسوار مكينة حين صار مُلك عُمَان بأيدي الطغاة من آل نبهان، واستمر بها الحال أيام اليعاربة الأجلاء الذين يفتخر بهم الدين، وتبتهج بهم الدنيا، ثم اتخذها آل بوسعيد عاصمتهم الوحيدة، وهكذا تطور وقتها حتى الآن، ولله في أرضه وبلاده نظرات، والحمد لله.

والثانية: مطرح، وهي العاصمة الراقية لا تبعد عن مسقط فوق نصف ساعة على الماشي، وعلى السيارة الآن عشر دقائق أو دونها، وهي مدينة تجارية أقام صرحها الحالي البترول، وأنعش روحها السلطان الحالي قابوس بن سعيد، فقام بعنايته شرفها الجديد، فهي مصب التجارة العُمَانية على اختلاف أنواعها، وهي في الثغر الباسم في وجه القادم إلى مسقط، وهي محاطة بجبال منيعة كمسقط المار ذكرها، وبها الرصيف الذي أقامه بها السلطان قابوس.

ثم الثالثة: صور، وهي العاصمة الثالثة، لها المقام المرموق في العواصم الساحلية العُمَانية من نواحٍ عديدة، فهي بالجنبة عزيزة منيعة، وبعُمَان قلعة رفيعة، وبالسلطان العُمَاني كِورة وقيعة، تمون عُمَان الشرقية، وترمي بأبطالها في المغامرات في وجه الطليعة، في أفق مكشوف، وفضاء معروف، لها منظر بديع

في البلاد العُمَانية، لا تباريها فيه بلدة من البلاد العُمَانية الساحلية مهما كانت، إلا أن أهلها فاقدون الحضارة، ولهم في سبر البحر زائد المهارة، وبها في الأعلى منها حدائق غناء ناشئة على مياه عذبة لا يتصل بها البحر، بها مزارع للخضروات لا تزال وافية بحاجياتها، إلا أنها قائمة على الزجر لا على الأنهار، والآن يسر الله الآلات العصرية التي تقرب من الأنهار لتسير مؤنتها، وبذلك تصبح البلاد متقدمة جدًا.

ثم صُحار في الجانب الغربي: صُحار، العاصمة الرابعة، قال ياقوت الحموي في الجزء الثالث: (في حرف الصاد بالضم ـ أي بضم الصاد المهملة، وآخره راء مهملة ـ قال: (و صُحار قصبة عُمَان مما يلي الجبل، وتؤام قصبتها مما يلي الساحل).

قلت: هذا غلط فاحش، إن لم يكن قلبًا مطبعيًا، فإن الأمر بالعكس، فصُحار على البحر، وقد أكل البحر منها، أذرعًا بل أبواعًا.

وتوام اسم للبريمي، والبريمي في عنق عُمَان، وهي إحدى عواصم عُمَان، وأكبر مقاطعاتها في الداخل، قال الحموي: (وصُحار مدينة طيبة الهواء والخيرات والفواكه مبنية بالآجر، والساج)، أي لكون الحجر بعيدًا منها في الجبال العالية، والمرتفعات النائية، قال الحموي: (كبيرة) – أي صُحار. مدينة كبيرة – قال: (ليس في تلك النواحي مثلها، سميت بصُحار بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام، وهو أخو رباب، وطَسمْ، وجديس. قال اللغويون: إنها تلي الجبل).

قلت ليس هذا مما يختص به اللغويون؛ بل هذا مما لكل ذي علم بالإطلاع عليه أن يقوله فلا مزية للغويين فيه يختصون بها، ثم (قال البشّاري: صُحار قصبة عُمَان ليس على بحر الصين بلد أجلّ منه عامر آهل حسن طيبٌ نزهٌ ذو يَسار، وتجار، وفواكه، أجلّ من زَبيد، وصنعاء، وأسواق عجيبة، وبلدة ظريفة ممتدة على البحر دورهم من الآجر والساج شاهقة نفيسة)، قال: (والجامع على الساحل له منارة حسنة طويلة في آخر، الأسواق)، قال: (ولهم آبار عذبة وقناة حلوة ـ أي

فلج بحسب العرف العُمَاني ـ قال: (وهم في، سعة من كل شيء)، قال: (وهو دهليز الصين، وخزانة الشرق، والعراق، ومغوثة اليمن)، قال: (والمصلّى وسط النخيل، ومسجد صُحار على نصف فرسخ ـ أي في وسط البلاد والمسافة لمنتهى صُحار نصف فرسخ من الشرق إلى الغرب، أو من الجبل إلى البحر، أو من الكل، وجميع ذلك غير بعيد من الحق، فإن صُحار كما وصفها أنها دهليز الشرق، وإن أهلها في سعة من كل شيء، وهذا ما ليس عليه من مزيد، وأنها خزانة الشرق كِناية عن كثرة الأموال والأرزاق بها، إذ كانت تصب إليها أموال عظيمة — قال الحموي وهو يذكر محل مسجدها: (وثَمّهْ بركت ناقة رسول الله ﷺ).

قلت: لم نعرف هذه الناقة متى بركت هناك؟ ولعلها في عهد عَمْرو بن العاص أيام جاء لإسلام أهل عُمَان، وكان الركوب على النوق، وأن مركوبته هي ناقة رسول الله ﷺ، أي إحدى نوقه ﷺ.

قال: (ومحراب الجامع مكوكب يدور، فتارة تراه أصفر، وتارة تراه أحمر، وأخرى أخضر، وهكذا).

قلت: إن المحاريب في المساجد أول من أحدثها عمر بن عبد العزيز الأموي أيام تولي المدينة قبل خلافته تعييناً لموضع الإمام من الجماعة في الصلاة.

قال الحموي: (ولا أدري كيف كان بروك الناقة)، وكأنه أخذ ذلك نقلاً عن غيره، ولعل حقيقته ما ذكرت لك قال: (وفتحها المسلمون في أيام أبي بكر الصديق ﷺ في سنة اثنتى عشرة صلحًا).

قلت: وهذا من الخطأ الفاحش الذي يقع فيه المؤرخون، ومنه يتضح خطأ ما قالوه في ردة أهل دَبَا، بل ردة أهل عُمَان، لقد صح واشتهر عند أهل العلم بالسير والتاريخ أن رسول الله ﷺ أرسل عَمْرو بن العاص السهمي القرشي إلى جَيْفر وعبد ابني الجُلَندى ملكي عُمَان في إسلام أهل عُمَان، وذلك في سنة ثمان للهجرة، والقضية عند أهل التاريخ أشهر من نار على عَلَم، فسبحان من له الكمال وحده.

قال الحموي: (وإليها ينسب أبو علي محمد بن زوزان الصُحاري العُمَاني الشاعر، وكان قد نكب، فخرج إلى بغداد فقال يتشوق بلدته من قصيدته:

لَحَى الله دهـرًا شرّدَتْني صروفُه عن الأهـل حتى صرت مغتربًا فَرْدا
ألا أيها الركبُ اليمانيون بلّغوا تحيّة نائي الدار [لُقّيتمُ] رُشْدَا
إذا حللتم في صُحار فألموا بمسجد بشّار وجوزوا به قصدا
إلى سوق أصحاب الطعام فإنّه يقابلكم بابان لم يوثَقا شَدًّا
ولم يُرْدَدا من دون صاحب حاجة ولا مُرْتَجٍ فضْلاً ولا آملٍ رِفْدا
فعوجوا إلى داري هناك فسلّموا على والدي زُوزانَ وُقّيتمُ جُهدا
وقولوا له إنّ الليالِيَ أوهنت تصاريفها رِفْدي وقد كان مشتدًا
وغيّبْنَ عني كلّ ما قد عهدته سوى الخُلق المرضيّ والمذهب الأَوْدا
وليس يضُرّ السيفَ إخلاقُ غِمده إذا لم يفُلّ الدهّرُ من نصله حدًا

وهذا ليس من محل ذكر العواصم، بل من محل ذكر أعيان عُمَان من علماء، ونبغاء، وخطباء، وشعراء؛ ولكن ذكرناه استطرادًا كالتعريف بصُحار.

واعلم أن العواصم الساحلية هي المنظور إليها من الوجهة الإستراتيجية، فإنها هي ثغور القطر، وهي أبوابه فمهما تكون قوة الأبواب، وحصانة الثغور تكون قوة القطر؛ فإذا كانت الأبواب خشبية أكلتها الأرضة أو النار، وإذا كانت حديدية، فيحسب قوة حديدها، وضخامته، وضعفه، ودقته، والقوة في الكون هي العمدة فيه، وإليها المنتهى، والثغور هي أسوار البلاد، وهي حصون الأقطار، وهذا ما لا يمتري فيه أهل النهى.

أما العواصم الداخلية: فهي عبارة عن مواطن الحكام الذين يحكمون البلاد، وأهم العواصم الداخلية: نزوى إذ هي مقر الإمامة، وعرش العدالة، وكرسي الشريعة منذ عهد غير يسير، وأهل عُمَان بطبيعة مقضى مذهبهم غير وادعين إلى الزخرفة العصرية، ولا راكبين إليها لأسباب أبقتهم على هذه الحال لا تخفى على عباقرة الرجال، فنزوى عرش عُمَان الداخلية على كل حال.

الحلقة الثانية في الأمم التي قطنت عُمَان

اعلم أن عُمَان كغيرها من بلاد الله التي هي موطن الإنسان، وبالأخص فإن جزيرة العرب هي قلب المعمورة بالنسبة إلى الوضع الطبيعي؛ ولذلك فإن الله جعلها مقر أجلّ النبوات العامة منذ أوجد الله الأمم البشرية في الأرض، وبالأخص أيضًا الأمم السامية، وقد فرضنا على تاريخنا هذا ذكر الأمم التي قطنت عُمَان من سائر الأمم التي مرت بها الأزمان حتى يقف القارئ على تحقيق الأمم التي قطنت الوطن، ومرحت فيه قبله عهدًا من الزمان غير يسير، وما كان لها فيه من العيش، وما أبدعت فيه من المصانع، وما كان لها، وعلى الأقل يكون محلاً للاعتبار، وعظة بمن سبق، ولذلك أمر الله ﷻ بالاعتبار في الكون وما احتوى عليه من بدائع وغرائب، وعلى ذلك يعلم القارئ علمًا يحسن السكوت عليه.

فاعلم أن من أمم عُمَان في القديم السومريين، وهم أول من أخرج النحاس، أول ما أخرج للعالم أخرجوه من عُمَان، وكانوا يسمون عُمَان أرض ماجان، وذلك لأربعة آلاف سنة قبل الميلاد، أو يزيد عليها، وأن الكلدانيين أيضًا من الأمم التي قطنت عُمَان، كما يقول المؤرخ البريطاني برترام توماس، المؤرخ بليني الكلاسيكي الذي كان في القرن الأول للميلاد، وكانوا يسمون عُمَان إبليتا، وجاء الفُرس ثم جاء قوم عاد، فسكنوا عُمَان حتى أجلاهم منها عُمَان بن قحطان لما تولى عُمَان من قبل أخيه يعرب بن قحطان، وكانت منازلهم بالرمل المعروف برمل الأحقاف وهو من عُمَان بغير خلاف.

وإن الفينقيين سكنوا عُمَان وكانت صور بلادهم فارتحلوا عنها جلاءً إلى الشام، وبنوا فيها مدينتهم المعروفة بصور الشام، بدلاً من صورهم في عُمَان؛ لكن لم أعرف الذي أجلاهم، ولعله عُمَان بن قحطان، قال في المنتخب: (وكان مالك بن حمير قد ملك عُمَان، ثم ابنه قضاعة، ثم ابنه الحاف، ثم ابنه مالك، ثم حاربهم السكسك الحميري فأخرجهم من عُمَان).

قال بعض المؤرخين القدماء: «أما الآشوريون، فقد استولوا على عُمَان، وذلك

زمن ملكهم تفلت فلاس الآشوري، ثم حل محلهم البابليون الأخيرون فازدادت عُمَان بهم قوة وازدهارًا، ونشطت تجارتها إذ كانت الإمبراطورية البابلية الثانية ذات أعتناء بعُمَان، وأخذت فيها ردحًا من الزمن، وذلك في القرن السابع قبل الميلاد، ثم جاء كورش أحد ملوك الفُرس، فاجتاح البابلية اجتياحًا من عُمَان، واستطاع أن يحقق أحلامه في السيطرة على الخليج العربي، وموانئه المزدهرة على ساحل عُمَان، وأزال البابليين من عُمَان كليًا، وحل محلهم الفُرس.

فيتبين من هذه الأقوال أن أول من حل بعُمَان السومريون، وهم أول من أخرج النحاس قبل أن يكون له وجود، فصنعوا منه المزهريات، وهم الذين سموا عُمَان بلاد ماجان، أي بلاد النحاس، وذلك قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة، وهذا يدل أنهم تواطنوا عُمَان، وتمكنوا من نواصي الأعمال فيها حتى أذن الله بزوالهم منها.

ثم جاء الكلدانيون فنزلوا عُمَان، وقطنوا بها أعوامًا غير يسيرة، وهم الذين سموا عُمَان إبليتا.

ثم جاءت الفُرس الأولى، فنزلت عُمَان، وتولوا زمام الأمر فيها أعوامًا لا تقل عن سبعة قرون، ثم أراد الله زوالهم منها بعد ما مرحوا فيها تلك القرون المشار إليها، وزاحمت فيها قوم عاد إذ أفاضوا عليها من الجزيرة العربية موجات متوالية مزدحمة، فكانت الأحقاف مركز زعامتهم، ومحل العتاة منهم، كما أشار القرآن إلى ذلك، وكان لقوم عاد في عُمَان النقض والإبرام، ولهم الصولة والطولة، حتى لما تعاظم بغيهم، وبالغوا في تحكيم عواطفهم، وعتوا عتوًا كبيرًا في أرض الله، فأراد الله الذي بيده كل شيء الانتقام منهم أرسل عليهم نقمته، ودوّخهم سخطه، كما قص الله عنهم في كتابه الكريم.

ثم جاء عُمَان بن سباق الفنجديهي أحد الملوك، فتولى عُمَان، وَطَرَد منها بقايا قوم عاد، وعاش فيه هو وأرهاطه ردحًا من الزمن، ثم جاء عُمَان بن قحطان واليًا على عُمَان من قِبل أخيه يعرب بن قحطان، وقد علمت أن أول من سكن عُمَان،

عُمَان يفثان بن إبراهيم، وقيل عُمَان بن إبراهيم، وقيل عُمَان بن سبأ بن يفثان بن إبراهيم أول من بناها، وهذا هو الأقرب إلى الصواب، قال في المنتخب صحيفة ٩١: (وصار أولاد نصر بن الأزد في أرض فارس وجوا بن شجر، وهي عشيرة الجُلَندى بن كركر).

قلت: عشيرة الجُلَندى بن كركر معولة بن شمس أهـ. وقيل: هو من أولاد مالك بن فهم، ثم عاش العرب القحطانيون في عُمَان ردحًا من الزمن، وعُمَان إمارة مستقلة لها أهميتها في كل عهد حتى الآن.

قال الخضري في محاضرته: (عطف عمران بن عَمْرو مفارقًا لقومه نحو عُمَان، وقد انقرض من بها من طسم وجديس، فنزلها واستوطنها هو وبنوه، وهم أزد عُمَان)، فهذا يدل أن طسم وجديس كانوا هم أهل عُمَان أي قبل الأزد، ولم يذكر من أجلاهم منها، أما الفُرس وهم آخر الأمم بعُمَان جلاء، أجلاهم مالك بن فهم، وذلك يدل أن الفُرس أجلوا الأزد من عُمَان حتى جاء مالك بن فهم، وهم العريقون بها حتى أجلاهم مالك المذكور من عُمَان. ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وتلك الأيام نداولها بين النّاس، فتبين أن الأمم التي قطنت عُمَان قبل القحطانيين أكثر من عشر أمم على الأقل، فمنهم السومريون، ثم الكلدانيون، ثم العاديون، ثم الفينيقيون، ثم الآشوريون، ثم البابليون ثم الفارسيون الأولون، ثم الفنجديهيون، ثم القحطانيون، ثم السبأيون، ثم الطسميون، ثم الجديسون، ثم الأزديون الأولون، ثم الفُرس الأخيرون، ثم الأزد الأخيرون، وكان ملك الفنجهديهيين عُمَان بن سباق.

والسبأيون آل سبأ بن يفثان بن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وأما الأزد الأولون فهم آل عمران بن عَمْرو، ثم الفارسيون الأخيرون المرازبة وأعوانهم، ثم الأزد الأخيرون وهم مالك بن فهم وأتباعه، ويدل على أن الأزد تولوا عُمَان مرتين قول مالك بن فهم لجنوده، عند ملاقاتهم للمرازبة في حال حربهم، إذ

قال لهم مالك بن فهم من جملة ما يحرّضهم به: (حاموا عن أحسابكم، وذوبوا عن مآثر آبائكم) فقوله: عن مآثر آبائكم يدل أن لآبائهم بعُمَان مآثر، يحرّضهم على الذب عنها، وما هي تلك المآثر هي كون آبائهم كانوا ملوك عُمَان قبل هؤلاء المرازبة، والمعنى إذا كنتم معشر المرازبة تعدون عُمَان ملككم فنحن كذلك، فأما أن تقاسمونا فيها بناء على أنكم كنتم بها كما كنا نحن بها، وإما أن نتقابل بدعوى أنا كلنا ندعيها، ولعل هذا كان أول ما اقتضاه نظر مالك بن فهم في زحفة عليها، وهذا الذي ذكرناه منصوص في كلام مالك بن فهم.

وكان مالك بن فهم بعُمَان في أيام نبي الله موسى بن عمران ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا، وذلك دأبه إذا أراد التنقل من بلد إلى آخر، أمر بأخذ السفن المارة ببحر عُمَان، وكانت قَلْهات عاصمة عُمَان في أيامه، وكان أكثر نزوله بها لحصانتها من الغزاة، فإنها بلاد جبلية ضيقة على الغازي يشق عليه دخول عُمَان منها، وكانت تُرى الأمم على الساحل كالغنم، وهم مسلوبو سفنهم لا يدرون أين يتوجهون، وهذا شأن الملوك إلا ما شاء الله خصوصًا في الجاهلية.

وكان مالك من هذا الطراز، وكانت قَلْهات حصنة الساحلي، قال فيها ياقوت الحموي: (مدينة على ساحل البحر إليها ترفأ أكثر سفن الهند) قلت: ومنها يصطاد مالك السفن المارة على البحر العُمَاني إذ ترسو بها، قال: (وهي الآن فرضة تلك البلاد، وأمثل أعمال عُمَان عامرة آهلة)، وهي من أقدم العواصم إذا اشتهر نزول مالك بن فهم بها، وتحصنه فيها، وأما ياقوت فيظنها جديدة العمران، وليس الأمر كما ظن.

وفي مروج الذهب للمسعودي: (أن مالكًا سار من اليمن مع ولد جفنة بن عَمْرو بن عامر مزيقيا، فسار بنوجفنة نحو الشام، وانفصل مالك نحو العراق، فملك على مضر بن نزار اثنتي عشرة سنة)، فدل ذلك أن العراق إذ ذاك مضرية،

فلمّا نزل بها مالك كان ذلك، وفق شقاق القوم فيما بينهم، فملكوا مالك بن فهم عليهم دفعًا للشقاق بينهم، قال: (ثم ملك بعده ابنه جذيمة فامتد ملك ـ جذيمة ـ إلى مشارف الشام إلى الروم نحو الفرات، وكانت داره بالموضع المعروف بالمضيرة بين بلاد الخانوقة وقرقيسيا، قال: وأقام جذيمة ملكًا في زمن ملوك الطوائف خمسًا وتسعين سنة، وفي ملك أزدشير بابك وسابور الجنود بن أزدشير ثلاثًا وعشرين سنة، فكان ملكه ثمانية عشر سنة ومائة سنة).

وذكر العوتبي في الأنساب عن الكلبي: ([كان] أول من لحق بعُمَان من الأزد مالك بن فهم بن غانم بن دوس بن عدنان بن عبدالله بن زهران بن كعب بن الحارث بن عبدالله بن نصر الأزد» قلت: نعم إن أول من لحق بعُمَان من الأزد الأخيرة هو مالك المذكور؛ لأن بلاد العرب قد عرفت نزول من نزل بها من الأزد الراحلين من اليمن، وعرفت أن مالكًا انفصل إلى العراق، وأقام بها في جوار مضر، فملكوه عليهم حين أبوا أن يملكهم واحد منهم لعتوهم على بعضهم بعضًا، ثم لم ير مالك المقام مع قوم ملكوه على أنفسهم، فكانت المنة لهم عليه بذلك، وليس بملك من مُلك؛ لأن الملك إذا لم يكن ملكُه عن قوة له على من مَلك، فإن ملكه عارية مستردة؛ فلذلك حوّل مالك بن فهم عزيمته إلى عُمَان؛ ليناطح الفُرس فيها، ويمتلك منها بقوته، وعُمَان سبق الأزد فيها، ثم أنجلوا عنها فعاد إليها مالك ليعيد ملكها له إن استطاع، ويعيش فيها عيشة الأحرار.

قال بعضهم: إن الدولة المعينية: وهم من عمالقة العراق، وقيل هم من الآراميين امتد سلطانهم إلى عُمَان، ثم جاء الحمورابيون بعدهم، ثم السبأيون الذين هم آل سبأ بن حمير القحطاني، فكوّنوا دولة الحميريين، ثم تلاهم الفينيقيون، ثم الأكاديون، ثم الكلدانيون أيضًا، وهم من أهالي الجزيرة العربية.

قال في (معالم الجزيرة): (إن سلطانهم امتد على الجزيرة العربية بأجمعها إلى خليج فارس، والبحر الأبيض المتوسط)، قال: (وأما دولته فقبل الميلاد بثمانية

قرون)، قال: (وأما التبابعة فقبل الميلاد بتسعمائة سنة)، قال: (ويشترط في التبابعة ان يكون الملك ضامًا إليه مع اليمن حضرموت والشحر، وإلا فلا يقال له تبع)، قال: (وتبتدئ مدتهم بسنة خمس وسبعين ومائتين بعد الميلاد)، قلت: وهذا يخالف ما قاله أولاً إن التبابعة قبل الميلاد بتسعمائة سنة، قال: (ومدة ملوك حمير تبلغ أكثر من ألفي سنة)، قال: (والآشوريون منسوبون إلى أشور كما أن الفينقيين منسوبون إلى فينيق)، والحقيقة أن التحقيق للمدة التي عاشتها هذه الأمم وتحقيق ملكهم يعسر على أهل هذه العهود، فإن التدوين لم يكن موجودًا خصوصًا مع العرب، وأن الذي يقال إما من أحاديث النبوات وأخبارها، وإما من أقوال أهل الكتاب والتخليط فيه غير مستنكر.

وخراب سد مأرب قيل القرن الثالث للميلاد، وقيل في الخامس وقيل في السادس، ومنه يعلم خروج مالك بن فهم إلى عُمَان، وكم كانت مدته، وعلماء التاريخ ليس هم الذين يدونون الوقائع، أو يكتبون الحوادث ونحوها، وإنما هم الذين يستنتجون الأمور من مقدماتها، ويفهمون الأحوال من سير الأعمال، ويستخرجون أحكام القضايا من وقائعها، وهكذا؛ وفي التاريخ العُمَاني أمور هامة وقعت في العهود التي مرت على الوطن في حقها وباطلها سوف ترى ذلك في هذا التاريخ إن شاء الله.

وهذه دبي في زهوها، وجمالها أصبحت طافحة بالأجانب يمتلكون نواصي الأموال، ويقبضون على خيرات البلاد، ويتغلغلون في الأحوال الخاصة، فضلاً عن العامة، المضلة اللهم إنك تعلم ما نقول قبل أن نقول، فأحفظ لنا ديننا من الأديان الباطلة، وأحفظ وطننا من أعدائنا إنك كريم رحيم.

* * *

الحلقة الثالثة في نزول مالك بن فهم بعُمَان وحروبه للفرس إلى انتهاء أمرهم

قال الإمام السالمي رَحِمَهُ اللهُ: (وسمعت من يدعي المعرفة بذلك يقول: إن ذلك كان قبل الإسلام بألفي عام)، وذلك يقتضي سبقه على عهد المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ بقرون، وإذا كان هذا قبل الإسلام بألفي عام، وقد علمت أن عمران بن عامر نزل عُمَان قبل مالك بن فهم بمدة طويلة، وكان قد سبقه بها أيضا عُمَان بن قحطان، فكان بين عُمَان بن قحطان، وعمران بن عامر قرون متطاولة، وبين عمران بن عامر، ومالك بن فهم أيضًا كذلك، فغير مستنكر إذا قيل بين ذلك وبين الإسلام ألفي عام، فيكون القحطانيون تولوا عُمَان ثلاث مرات، وهذا قريب من الصحة، بحسب استقراء التاريخ، ولما قضى الله على مأرب بالخراب، وقضى على أهلها بالانتقال والذهاب، وأن يتفرقوا في نواحي الأرض لحكمة أرادها الله عَجَلَّ وقضى بها في محكم الكتاب، أرسل الله على مأرب سيل العرم، فاجتاح السد الذي بناه سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، فهلكت البلاد، وتفرقت العباد، وخرجت الرواد ترتاد لهم البلاد، فكان بعضهم خرج إلى مكة، وبعضهم إلى المدينة، وبعضهم إلى الشام، وبعضهم إلى السّراة، ثم إلى عُمَان.

كان مالك بن فهم على ما يظهر آخر من خرج منهم إلى عُمَان؛ لأن قرناء الأجلاء الذين سبق لهم العلم الأكيد بخراب السد، ورأوا الآيات الدالة على ذلك كما شُهِرَ من أمر كاهنتهم طُرَيفة خرجوا إلى البلاد، وتوطنوا فيها آهلين، وعاشوا عهدًا طويلاً، ولعل مالكًا كان يفضِّل المقام ببلاده مهما كان إمكان ذلك حتى إذا تحقق الأمر ورأى ضرورة الخروج، خرج ولابد أن يكون له سابق علم بعُمَان، من حيث إن أعياص الأزد وعباهلها الذين قطنوا عُمَان في تلك العهود المشار إليها هم من قومه وبني جلدته؛ فلذلك على ما يظهر اختار عُمَان لاسيما أن عمران وآله حلوا بالشام قال في المنتخب إذ يذكر تفرق الأزد منهم: (سار إلى السّراة، ومنهم من سار إلى مضر، ومنهم من سار إلى العراق، ومنهم من سار عُمَان)، قال: (فأما من سكن عُمَان من الأزد فيحمد، والحدان، ومالك)، يعني بن فهم، قال: (ومن الأزد

الحجر، ولهب، ونارة، وعائذ، وبارق، وسوام، وحارثة، وسنجار، علي، وعُمَان) إلى آخره، فدل ذلك أن قبيلة من الأزد تُدعى عُمَان سكنت في جملة من سكنها من الأزد، فلعل اسمها أطلق على عُمَان، فشاع ذلك على القطر كله ساحليًا وداخليًا، أما يحمد بن حمى الأزد، وأما الحدان فهو [ابن[1]] شمس فرع أزدي، وأما مالك فهو معروف، وأما الحجر فليس من الأزد، وأما لهب، ونارة، وعائذ، وبارق فلم يبق منهم بعُمَان فيما علمنا، ولعلهم دخلوا في القبائل الاخرى، وكذلك سوام وحارثة لم نعرف عنهم شيئًا، وكذلك سنجار، وجاء في (تحفة الأعيان) أن سنجار قصبة عُمَان، والمراد بها صُحار والله اعلم بما قاله صاحب المنتخب. وكذلك علي وعُمَان أما إن كان أراد بهم بنو علي فموجودون بعُمَان، أما بنو عُمَان فلا.

قال الإمام السالمي نقلاً عن (المروج) للمسعودي: (إن مالكًا سار من اليمن مع ولد جفنة بن عمر بن عامر مزيقيا، فسار بنو جفنة نحو الشام، وانفصل مالك نحو العراق) كما سبق، وبقي عند المُضريين بالعراق مَلكًا مُكَرَمًا محترمًا معظمًا، إلا أنه كان مُملكًا، ولم يكن ملكًا، كما هي العادة عند الملوك، واستمر به الحال عهدًا غير يسير.

وقال أبو حاتم السجستاني عن أبي عُبيدة عن أبي اليقظان [قال]: «(أن سبب خروج مالك بن فهم عن قومه، بعد تَفرُّقهم في البلاد، حين أخرجهم سيلُ العَرِم من جَنَّتي مأرب، ونزلوا بالسّراة، أنّ راعيًا لمالك بن فهم خرج بغَنم، وكان في طريقهم كلبة)، وفي رواية: ثَنّية فيها كلبٌ عَقورٍ لغلام من دوس، فشدَّ الكلب على راعي مالك، فرماه الراعي بسَهم فقتله، فتعّرض صاحب الكلب لراعي مالك، فخرج [مالك] من السّراة هو ومن أطاعه من قومه)؛ وذلك لأن دوسًا من أعياص مالك الأقربين إليه، فخشي الفتنة بينهم، (فاسم ذلك النجد الكلبة من ذلك اليوم).

فخرج مالك يريد عُمَان فيمن أطاعه من ولده وقومه (وعشيرته من الأزد،

---

(١) في الأصل (بن).

ومن أطاعه واتبعه من أحياء قضاعة، وسار متوجهًا إلى عُمَان، وقد اعتزل عنهم من قبل ذلك وَلَدُهُ جذيمة الأبرش بمن صحبه إلى العراق) من سائر أبطال الأزد.

(قال أبو المنذر بن هشام بن محمد بن السائب الكلبي: أخبرني [أبي] وشرقي بن القطامي، قالا: لما خرج مالك بن فهم من السّراة يريد عُمَان، و[قد] توسّط الطريق حنّت إبله إلى مراعيها، وأقبلت تلتفت [نحو] السّراة، وتردد الحنين)، والإبل دأبها ذلك؛ لأنها تألف المواطن، وتستوطن الأماكن فوق سائر الحيوان، وعند ذا أهاجت حفيظة مالك فأنشد شعرًا له في ذلك لم نذكره، قال: (سار من فوره يريد عُمَان، فجعل لا يمر بقبيلة من قبائل العرب من معد، وغيرهم من قبائل اليمن، إلا سالموه ووادعوه لمنعته، وكثرة [عساكره])، ودل ذلك أن المسير كان على الإبل عن طريق البر، وانظر من أين يدخل مالك عُمَان، قال: (ثم سار في مسيرة ذلك، حتى أخذ على برهوت، وهو وادٍ بحضرموت، فلبث فيه حتى [أراح واستراح])، فوجه قصده إلى عُمَان، [وبلغه] أنّ بعُمَان الفُرس، وهم أهلها، وساكنوها)، ولابد أن تقع بينه وإياهم منافرات، فأستعرض رجاله فإذا هم (زهاء ستة آلاف فارس وراجل)، فرأى أنهم كتائب تُغني عند الحاجة عن كثير من الجيوش؛ لأسباب لا تخفى على الفطن، فأقبل بهم يريد عُمَان على الرضى والسخط، (وقد جعل على مقدمته هناءة بن مالك، ويقال فراهيد بن مالك)، وكأن هذين النجيبين عنده من أنجب أولاده، فجعلهما (في ألفي فارس من صناديد الأزد وفرسانها، ثم سار يؤم عُمَان حتى انصب إلى الشحر، فتخلفت عنه هناك مهرة بن حيدان بن عَمْرو بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير)، وتأخرت عنه هناك، (قال الكلبي: كان أول من خرج من العرب من تهامة مالك بن فهم الأزدي، وعَمْرو وأبناء فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن ثعلبة بن حلوان بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير، فنزلت الشحر، وتقدم مالك بن فهم في قبائل الأزد ومن معه من أحياء قضاعة إلى أرض عُمَان، فوجد بعُمَان الفُرس

من جهة الملك دارا بن دارا بن بهمن بن اسفنديار، وهم يومئذ أهلها وسكانها، والمتقدم عليهم المرزبان عامل ملك فارس، فعند ذلك أنزل مالك بن فهم من كان معه من الحَشَم والعيال والنساء والأثقال إلى جانب قَلْهات)، قلت: يتبين من هذا أنه جاء عُمَان من طريق البحر إذ لا سبيل إلى عُمَان من هذه الجهة على الخيل والإبل، وكنت أحسب أنه جاء من طريق الشحر، فدخل عُمَان من تلك الناحية الصالحة للدخول بالرواحل العادية إذ ذاك، أما من طريق قَلْهات فيلزم أنه تحمل بخليه وإبله في السفن إلى قَلْهات، قال: (ليكون أمنع لهم، وترك عندهم من الخيل والرجال من [يحفظونهم])، أي ترك حامية تمنعهم من العدو إذا هاجمهم، قلت لعله وجه الثقل والعائلة في السفن على طريق قَلْهات وهو الواضح.

* * *

مالك بن فهم يروم التغلغل في داخلية عُمَان

لما نزل مالك بقَلْهات ترك الثقل هناك للمنعة التي تصون الحرم؛ لأن قَلْهات كورة منيعة بالجبال، وعند الحرم حامية كافية، فإن الفُرس في صُحار، وما إليها من أعمال، وإلى أن يبلغ خبر نزوله صُحار، ويتحقق مقصده، فقد تمكن من تركيز دعائم إمارته، وضرب معسكره بعُمَان.

قال: (ثم سار هو ببقية عساكره وصناديد رجاله، وقد جعل على مقدمته ابنه هناءة في ألفي فارس حتى دخل ناحية الجوف)، وهي قلب عُمَان، فتغلغل فيها على عزيمة ثابتة وجأش لا يتزعزع، رضي الفُرس بقراره أم لم يرضوا، قال: (فعسكر بالصحراء، وأرسل إلى الفُرس يطلب منهم النزول في قُطر من عُمَان)، أي يريد منهم أن يخصّصوه بجانب يستقر فيه، فلا يضايقهم فيما عداه، ولا يضايقونهم وكان المرزبان هو منهم بمنزلة الرئيس يمثل الملك فيهم، فطلب منهم أن يسمحوا له بذلك، (ويمكنوه من الماء والكلأ)، فيبقى بصفة لاجئ بعُمَان حتى يرى لنفسه ما يصلح فيقيم معهم أو يرحل عنهم.

الفرس يعقدون مؤتمرهم في ذلك

لما وصل إليهم عِلم نزول مالك بعُمَان، وأنه يطلب منهم النزول والاستقرار بعُمَان على حال المسالمة والموادعة والاطمئنان، ولذلك أطالوا المقال فيما بينهم، وائتمروا وتشاوَرُوا، وبعد التمحيص للخطب أجمع رأيهم على عدم قبول ما طلب مالك، وأنْ لا يمكنوه، وهو عربي صميم، كما أنه ملك عظيم فهم يخشون من وجوده بعُمَان الاستيلاء عليها، وصارحوه قائلين: (لا نحب أن ينزل هذا العربي معنا، فيضيّق علينا أرضنا وبلادنا)، لاسيما وأن الملك دارا بن دارا ربما لا يرضى منهم وجود مالك بن فهم بعُمَان.

وسورة الملك، وغيرة الملوك على الممالك لا تسمح بمثل هذا الحال لمثل هؤلاء الأقيال، فقالوا: (لا حاجة لنا في قربه وجواره، فلمّا وصل جوابهم إلى مالك) بعدم الرضا بمقامه في عُمَان كشف عن حقيقة ما انطوى عليه، وأنه لابد له من المقام في قطر من عُمَان، وأن يواسوه في الماء والمرعى قائلاً: (إن تركتموني طوعًا نزلتُ من عُمَان وحمدتكم، وإن أبيتم أقمت على كرهكم، وإن قاتلتموني قاتلتكم، ثم إن ظهرت عليكم قتلت المقاتلة، وسبيت الذرية، ولم أترك أحدًا ينزل عُمَان أبدًا). قال: (فأبت الفُرس أن تتركه طوعًا وجعلت تستعد لحربه وقتاله).

* * *

مالك بن فهم يتأهب لمصادمة الفرس بعُمَان

قال: ثم إن مالك لما تحقق قيام الفُرس عليه، وأنهم غير تاركيه، وتحقق ذلك بعد ما كان يظنه أثبت دعائم واستقراره، وقرر في نفسه عدم الخروج مهما كانت الحال، ولابد من الصراع بينه وبين القوم، رتب أعماله، ونظم رجاله، ونفض غبار الأمن، وتَحَمَّسَ تَحمُّسُ الأسد في غاباتها، ولم ينظر إلى الفُرس إلا نظرة النهم للأكل، وقرر أن يحتسيهم احتساء السم، فإما شفاءً، وإما قضاءً، وعلى العز يحيا العربي أو يموت، وكان معسكر مالك بن فهم وقومه بواحة منح في قلب عُمَان،

وهو الذي حفر بها الفلج المعروف بفلج مالك، والفُرس إذ ذاك بالساحل من عُمَان، ومعسكرهم بصُحار عاصمة عُمَان، وخزانة الشرق، ولما رأت الفُرس لابد من حرب مالك بن فهم، أو يزول من عُمَان، قامت في عَدِّها وعديدها، وضربت أبواقها، ونادت لحشدها، وضربت طبولها، وجاءت في جيشها الضخم الكامل في تعبئته الشديدة الشكيمة في صرامته حنقًا على العربي المحتل قلب عُمَان، وصال المرزبان وجال، (وأمر أن ينفخ في البوق الذي يؤذن فيه للحرب، وركب هو في جنوده وعساكره، وخرج من صُحار في عسكر جم، فيقال: إن عسكره كان [في زهاء] أربعين ألفًا، وقيل ثلاثين ألفًا وخرج معه الفيلة)، وكان الفيل الواحد في الحرب يعد عن ألف رجل، وتوجه لإخراج مالك من عُمَان، وكان مالك بن فهم في جوف عُمَان اسمًا، ومعنى، فخرج المرزبان إليه فعسكر بصحراء سلوت بالقرب من الجبل الأخضر، فبلغ مالك بن فهم سيد الأزد بعُمَان فركب ومن معه جميعًا، (وكانوا في زهاء ستة آلاف فارس وراجل، وعلى مقدمته البطل المقدام هناءة بن مالك في ألفي فارس من صناديد الأزد وفرسانها، فأقبل في تلك الهيئة حتى أتى صحراء سلوت، فعسكر بإزاء عسكر المرزبان فمكثوا يومهم ذلك)، والروع ملء القلوب، والشنشنة التعصبية تشتد بين الفريقين، والنصر من الله، ولم يقع بينهم تلك اليوم حرب، ثم بات الفريقان قومهما، وينظمان جندهما، وإذا بجند مالك بن فهم بالنسبة إلى جيش العدوه قليل العدد إلا أنه قوي العزائم، فكتبوا كتايبهم، وجهزوا جهاز الحرب، فأوقف مالك بن فهم رجاله مواقفهم وعهد إليهم بأوامره، وكان هناءة بن مالك على الميمنة، وفراهيد بن مالك على الميسرة، وأكرم بمليك يكون أحد أولاده على ميمنته في الحرب، وثاني أولاده على ميسرته، ويكون هو قلب الجيش في أهل النجدة والشدة من أصحابه، وبات المرزبان أيضًا يعبئ جيشه، ويرتبه على نظامه في ذلك الوقت.

ولما أصبحوا في اليوم الثاني، وتواقفوا للقتال، وتأهب كل واحد من الفريقين

لقتال عدوه، قام مالك بن فهم (وظاهر بين دِرعَيْن، ولبس عليهما غلالة حمراء)، ولبس على رأسه قطعة حديد تكون وقاية من ضرب السيوف وطعن السهام والرماح، وغطى عليها بعمامة صفراء، وركب جوادًا له أبلق، ثم ركب معه أولاده على تلك التعبئة، (وقد تقنّعوا بالدُّروع والجواشن)، وكذلك فعل أبطال الأزد الذين معه والبيض على رؤوسهم، فلا يرى الناظر إلا حَدق العيون تلمع كالنجوم.

فلمّا توافقوا للحرب خطب مالك بن فهم رجاله خطبة الحرب، ودعاهم دعوة القتال، وحرضهم تحريض المستميت، وجعل يطوف عليهم رايةً راية، وكتيبةً كتيبة، ويقول في خطبته: (يا معشر الأزد أهل النّجدة، والحِفاظ حاموا عن أحسابكم، وذُبّوا عن مآثر آبائكم، وقاتلوا عدوكم، وناصحوا ملككم، وسُلطانكم، فإنّكم إن انكسرتم، وهُزمتم اتّبعتكم العجَم في كافّة جنودكم فاختطفوكم بين كلّ حَجَر ومَدَر، وَبَادَ عَنْكم مُلككم، وزال عَنْكم عزُّكم وسلطانكم، فوطّنوا أنفسكم على الحرب، وعليكم بالصّبر والحفاظ، فإنَّ هذا اليوم له ما بعدَه). خطبة مالك بن فهم لرجاله الصناديد، وجعل يُحرّضهم، ويناصحهم، (ويأمرهم بالصّبر والجَلَد، ويدور عليهم رايةً راية، وكتيبةً كتيبة حتى استفرغ جميع كتائبه وعساكره).

* * *

المرزبان يبتدئ بفتح الحرب

لما رأى المرزبان الهيئة العربية حوله مستعدة لقتاله، وكان هو جاء من صُحار لذلك، (زحف بعسكره، وجميع قوّاده، وجعل الفِيَلة أمامه، وأقبل نحو مالك بن فهم وأصحابه)، ونادى مالك أصحابه بالجملة عليهم قائلاً لهم: (يا معشر فرسان الأزد احملوا معي فداكم أبي وأُمّي على هذه الفِيَلة، فاكْتَنِفُوهَا بأسنّتكم وسيوفكم)، أي فإنها قوتهم التي يعولون عليها، وجُنّتهم التي يتسترون بها، ثم حمل مالك بن فهم، وحملت أبطاله معه حملة عربية مملوءة حماسًا وشدة، ورموا

الفيلة بالرّماح والسّهام، ثم أردفوها بالسّيوف، (فولّت الفيلة راجعة بجملتها على عسكر المرزُبان، فوطئت منهم خلقًا كثيرًا)، ثم (حمل مالك في كافّة رجاله الصناديد وأصحابه الأبطال على المرزُبان وأصحابه، فانتقضت تعبئة المرزُبان وجالوا جولةً، ثم [ثابَت] العجم، ورجعت إلى بعضها بعض، وأقبلت في حدها وحديدها، وصاح المرزبان في أصحابه، وكافة جنوده، وأمرهم بالحملة فحملوا، والتقى الجميع، واختلط الضرب، واشتد القتال، فلا يسمع إلا صليل الحديد، ووقع السيوف، واقتتلوا يومهم ذلك أشد ما يكون من القتال، وثبت بعضهم لبعض إلى أن حال بينهم ظلام الليل فانصرفوا، وقد انتصف بعضهم من بعضهم)، وعرفوا موقفهم الراهن، وعظمت بينهم المحنة، فإن كل فريق يقول: إن غُلِبنا غُبِنّا، وإن غَلَبنا لنفعلن في العدو ما يشفي غيظنا، وقد أكل السيف شرارة الرجال من الفريقين، إلا من الفُرس أكثر عددًا، والعرب أقوى جلدًا.

ثم أعادوا الحرب في اليوم الثاني على ذلك النظام، فكثر في الفُرس القتل، وقويت جرأة العرب على القتال، وما زالوا كذلك حتى حجز الليل بينهم، فكان الليل لدفن الأموات، وعلاج الجرحى، وفي اليوم الثالث كذلك، أو أشد، فكان القتل آخذًا مأخذه من الرجال، والسيف يضحك في أكف الأبطال، والأسنة لها الطعنة النجلاء في ثغور الأقيال، والحرب نار تلتهم كل ما تلحق بلا جدال، فلمّا رأوا الحالة على هذا المنال خرج أربعة رجال من المرازبة والأساورة (ممن كان يعد الرجل منهم عن ألف رجل حتى دنوا من مالك) بن فهم سيد الأزد، وزعيم هذه الحرب، فقالوا له: (هلم إلينا أيها العربي لننصفك من أنفسنا، ويبادرك من رجلٌ [رجل]) فلم ير مالك إلا إجابتهم، ولم يَظُن بنفسه رهبة منهم، إذ كان جأشه ثابتًا، ونفسه أبيّة، وقد تجرد لهذا الأمر، ووقع فيه، فلا مناص ولا خلاص منه إلا بأحد الوجهين، فتقدم سيد الأزد، وقلبه جُنَّته، وخرج له واحد من أولئك الأربعة الأبطال، وتطاردا ساعة، فما كان إلا دقائق حتى اختطفه مالك بالسيف على غرة، فأرداه قتيلاً. قال: ثم خرج

له الثاني: فعطف عليه مالك، ومعه نجدة الملوك، وحمية العرب، فلم يتمالك أن قضى عليه بطعنة طعنه إياها خر بها صريعًا على الأرض، ثم خرج له الثالث فكان مالك بن فهم أسدًا فاغرًا فاه ليَلْتهم ما يلاقي، وكان الفارس الثاني ضرب مالكًا على رأسه فلم تصنع ضربته شيئًا، ثم لما ضرب مالك الفارس الثالث، وكان عليه الدرع والبيضة، فضربه مالك ضربة فلقت البيضة وانتهت إلى رأس الفارسي، وضربه أيضًا ضربة على عاتقه، وكانت عليه الدرع فأبان العاتق والدرع نصفين (حتى انتهى سيف مالك بن فهم إلى [سرج دابة] الفارسي، فرمى به في الأرض قطعتين)، فلمّا نظر الفارسي الرابع ما فعل مالك بأصحابه اندهش، فهاله الأمر، فأحجم عن ملاقاة مالك بن فهم، وعلم أنه إن خرج فهو لا محالة مقتول، فكاعت نفسه القتال، وولى راجعًا إلى أصحابه، فدخل فيهم، ثم انصرف مالك إلى موقفه، ونفسه في نشاط بالظفر، وفي قوة بالنصر، وفرحت الأزد بذلك، ورأت أنها منتصرة على العجم، فإن النصر يسبب النصر، وأن المنتصر لا يزال يأمل النصر، فيزيد في نشاطه، يعظم من اغتباطه، (فلمّا رأى المرزبان ما صنع مالك في قواده الثلاثة دخلته الحمية والغضب، وخرج من بين أصحابه، وقال: لا خير في الحياة بعدهم، ثم نادى مالكًا قائلاً له: أيها العربي أخرج إليَّ إن كنت تحاول ملكًا فأينا ظفر بصاحبه كان له ما يحاول، ولا نعرِّض أصحابنا للهلاك)، وكان أنصف مالكًا فيما دعاه له، وقد أثار ذلك الغيظ، وفضَّل الفارسي العاتي الموت على الحياة في سبيل العز والشرف، ولعله يرى من نفسه سطوة على مالك لم يهتدِ لها أولئك، وإذا بمالك ذلك البطل المقدام يزحف إلى قرينه المرزبان البطل الغضبان على قَتلِ من قُتل في ذلك الميدان، (فخرج إليه مالك برباطة جأش، وشدة قلب، فتجاولا مليًا)، والنّاس تنظر إليهما، حيث هُما زعيما تلك الحرب، وقائدا وغاها، وقد قبض الجمعان أعنة خيلهما ينتظرون ماذا يفعل الزعيمان؟ وبقية القوم من الطرفين واقفون ينتظرون ماذا يكون، وما وراهما؟ فصال المرزبان على مالك صولة الأسد الباسل، فراغ عنه الماهر المحنك

بلبان الحرب روغان الثعلب، ثم عطف عليه عطفة فلق بها رأس المرزبان من مفرقه بضربة قطعت البيضة، وأبانت الرأس، فخر ميتًا على الأرض، وحملت الازد على الفُرس حملة أدارت رحى الحرب، ولها زفير، فحملت أبطال الفُرس على مالك وأصحابه، فاقتتلوا قتالاً شديدًا من ظهر النهار إلى العصر، وأكل السيف فرسان الرجال، وصدقتهم الأزد ضربًا وطعنًا، (فولوا منهزمين حتى انتهوا إلى معسكرهم، وقد قتل منهم خلق كثير، وكثر الجراح في عامتهم).

❊ ❊ ❊

الفرس تطلب من مالك بن فهم الهدنة

بعد هذه الحرب استشعرت الفُرس العجز عن حرب مالك بن فهم، ورأوا طالع نحسهم يرتفع في السماء كل آن، وإقبال الأزد في استقبال، وأيقنوا بالغلبة، وماذا يكون عليهم غدًا؟ فلعل رجال مالك تقضي عليهم نهائيًا، (فعند ذلك أرسلوا إلى مالك يطلبون منه أن يمّن عليهم بأرواحهم، ويجيبهم إلى الهدنة والصلح، وأن يكف عنهم الحرب، ويؤجلهم سنة) كاملة؛ ليستظهروا على حمل أهلهم من عُمَان، وأن يخرجوا منها بغير حرب ولا قتال، وأعطوا على ذلك العهد والجزية على الموادعة، فأجابهم مالك على ما طلبوه منه، ووافقهم على ما سألوه، فتحملوا من سلوت إلى صُحار مقر زعامتهم، وما حولوها من البلدان المنتشرين فيها، فبقوا في تلك الأطراف الساحلية على المهادنة بينهم، وأعطاهم عهدًا على ذلك، وميثاقًا أنه لا يعارضهم بشيء إلا أن يبدأوه بحرب وقتال، فكف مالك عنهم الحرب، وأقرهم في عُمَان ما سألوه، فبقوا في حال أمن مسالمين للعرب ملازمين للساحل، وكانت الأزد ملوكًا في الداخلية سهولها وجبالها، وإليهم أمر زعامتها، وقد أندقت عصا الفُرس، وأنهار صرحهم.

مالك بن فهم يلقى نظرة إلى قَلْهات

قد قدمنا أن مالكًا خلف بقَلْهات النساء والأطفال، وترك معهم حامية مانعة،

فبعد انتهاء حرب الفُرس زحف إلى قَلْهات ليؤيد زعامته فيها، وهي الكورة المنيعة والفرضة الرفيعة التي لها الشأن إذ ذاك في الساحل عُمَان، لإلتقائها الوارد من الهند إلى عُمَان، والوافد من بحر العرب إلى الخليج العُمَاني قبل صُحار، وأغلب محطات التجارة العُمَانية من هذه الوجهة هنا، وربما كانت أقرب لاستطلاع الأحوال الفارسية؛ لأن طرق المواصلات البحرية لا تزال [تؤدي إليها]، فانتقل إليها ريثما يتمهد أمره، وتستقر دعائمه، ويتوطد ملكه، ولم يدخل بذراريه داخلية عُمَان لعلمه أن العدو لابد أن يرى منه ما يكره، ويقصد العدو بيضة القوم، فتكون الذراري في مأمن من الحوادث المتوقعة، وهذا من بديع سياسته، ولما رأى أن الدائرة تدور على الفُرس، وخرجوا من قلب عُمَان مدحورين، هب إلى قَلْهات، وللملوك سياسات بقدر ما هم فيه.

قال الإمام السالمي: (وانحاز مالك بن فهم إلى جانب قَلْهات)، ثم لم يزل على باله أمرهم، فكان يستعد لما أقبل من أيامه، فإنه لا يدري ماذا يكون عليه من القوم أو من غيرهم، وصروف الدهر غير مأمونة، وقد تمرس مالك بقتال العجم، وشاع الواقع في أحياء العرب، فزاد ذلك من إكبار مالك وإجلاله في القلوب، وعلت هيبته في الهامات، وصار لا يأمل إلا حربًا، ولا يهوى إلا طعنًا وضربًا، وفي أثناء مهدنة مالك بن فهم للعجم قام العجم يطمسون الأنهار، ويدمّرون الأفلاج، ويخربون ما قدروا عليه، فطمسوا أكثر الأنهار الكبيرة، لأنهم يعلمون أنهم لا قرار لهم بعُمَان إلا ريثما يرتحلون منها في تلك المدة؛ لأن المراسلات والإبلاغات في تلك العهود بالراجل، أو الراكب الناقة أو الفَرس، وفي كل شيء حكمة إلهية، ولكل زمان أحوال ومناسبات وقتية، وهكذا؛ ولم تكن الهدنة بين مالك بن فهم والعجم تتناول إلا إعلان الحرب بينهم، ووفاء العرب معروف عند الكل، وغدر العجم لا شك [فيه] لاسيما وهم يفارقون البلاد مرغمين على الخروج منها، فلا يتركون شيئًا يستطيعونه إلا فعلوه.

وقد أشعروا الملك بما وقع عليهم من مالك بن فهم، وذكروا له من قتل منهم من أبطالهم ومرازبتهم وأساورتهم، وذكروا له ما حل بهم من الهوان، وإن مالك بن فهم حكم عليهم بالجلاء من عُمَان، فهم في هدنة منه ليرتحلوا من البلاد لا ليقروا فيها، وكان ملكهم دارا بن دارا ملكًا عنيدًا، فاستشاط غضبًا لِقدوم مالك بن فهم على عُمَان، ومن معه من صناديد العرب وقتله المرزبان في جل قواده وعسكره، وجميع ما كان بينهم، وما قابلوه به من الحرب، وما صار عليهم من الغلب، وما حل بهم من الوهن والضعف، ويطلبون منه الإذن بالجلاء من عُمَان بأهلهم وذراريهم إلى فارس؛ لإستشعارهم العجز عن الحرب.

* * *

الملك يُجَهِّز قواته لحرب العرب في عُمَان

لما وصل الخبر إلى الملك دارا، وصح معه ما وقع على قومه من القتل، وما فعله مالك بن فهم فيهم، وما أصابهم من الهوان، غضب غضبًا شديدًا، وداخله القلق، وحميت حفيظته، وثارت به سورة الملك على العرب؛ ولكن كان من يُمن الطالع لمالك أن العجم لم يبلغوا الملك من أول مرة عن قدوم مالك بن فهم، وعن ما طلب منهم من النزول بعُمَان على الرضى والسخط، وإنما ظنوا أنهم قادرون على إخراجه، وطرده من البلاد، فخانهم الظن، وكان ذلك خيرًا لمالك، ولو أبلغوه لساق القوات، ووالى الغزوات، فلا يزال مالك بن فهم منه في أزمات؛ ولكن كما قيل إذا أراد الله أمرًا هيَّأ له أسبابًا.

وهنا أخذت الملك الحمية لمن قُتِلَ من أصحابه وقواده، فعند ذلك دعا بقائدٍ من قواده المرازبة العظماء عنده، وأمره بالمسير إلى عُمَان، وعقد له على ثلاثة آلاف من رجاله الشجعان المجربين، وقدمه على المرازبة والأسارة، سيّره مددًا لأصحابه المذكورين بعُمَان الذين نكبهم مالك بن فهم، وحرّض عليهم المناصرة والمؤازرة، وعهد إليهم حرب العرب، وإخراجهم من عُمَان إن ستطاعوا،

فتحملوا إلى البحرين، فنزلوا بها، وواصلوا سيرهم إلى عُمَان، وكل هذا ولا علم بمالك بن فهم بشيء منه، فلمّا وصلوا صُحار، واجتمعوا بأصحابهم، وأخذوا يتشاورون فيما بينهم، ويتأهبون للحرب، حتى انقضى أجل الهدنة، فبلغ مالك بن فهم خبرهم، واهتم لهم اهتمامًا كبيرًا، وجعل يستطلع الأخبار عنهم، فتحقق وصول المدد إليهم فهاجت نفسه الأبية لما سمع، وثارت به سورة العرب.

* * *

مالك بن فهم يتأهب لمصادمة العجم مرة أخرى

لما تحقق مالك نزول المدد المذكور، ووصوله صُحار، وأنهم قاصدون حربه، كان من مقتضى سياسته أن يظهر التجلد، ويهتز للقاء، وأن لا يروا منه وهنًا، أو ضعفًا، أو استكانةً؛ فلذلك كتب إليهم يُهدِّدهم قائلاً: (إنّي وفيّت لكم بما كان بيني وبينكم من العهد، وتأكيد الأجل، وأنتم بعدُ حُلولٌ بعُمَان، وبلغني أنه أتاكم مَددٌ من قبل الملك، وأنّكم تستعدّون لحربي وقتالي، فالآن إمّا أن تخرجوا من عُمَان طوعًا، وإلاّ زحفت عليكم بخَيلي ورَجلي، ووطئت ساحتكم، وقتلت مقاتلتكم، وسَبيت الذّراري، وغنمت الأموال)، بهذا صارحهم غير وانٍ، ولا وكلٍ، وهو من إذا قال فعل.

فلمّا وصلهم رسوله هالهم أمره، وعظم في أعينهم خطره، وضاق عليهم ما هم فيه، وأكبروا الأمر إذ جربوه بالأمس، وأنه لا يقول إلا ويفعل، مع قلة عسكره، وكثرتهم بالنسبة إليه، وقوتهم المتغلغلة بعُمَان، وبذلك وبما صار عليهم منه سابقًا من القتل تحمسوا وتجردوا لقتاله، لاسيما وقد أُرسلوا لذلك، ولم يسعهم إلا مصادمته، فرَدُّوا عليه أقبح رد، وأغلظوا له في المقال، فلمّا رأى منهم ذلك الحال زحف عليهم كما قال، ومعه عزمه القوي، وصبره العظيم، إذ يباشر الحرب بنفسه، ويلاقي الأبطال قبل رجاله، فخرج إليهم بخيله ورجاله، حتى

أتى أماكنهم التي تجمعوا فيها، ووضعوا قواتهم عليها، فقامت الفُرس للقاء البطل العربي، والملك الأزدي الذي عرفته بالأمس، وعرفها، فجاءوا بالفيلة أمامهم؛ لأنها أعظم قواتهم وهي من أعظم القوات إذ ذاك، فإن الفيل الواحد يقوم مقام جيش، وكان الفُرس أعدوها لذلك، وليس للعرب منها إلا قلوبُهم، وسواعدُهم، والنصر من الله ينصر من يشاء.

فلمّا تقارب الزحفان، وتلاقى العسكران، قام مالك بن فهم يتفقد أصحابه رايةً راية، وكتيبةً كتيبة، ويحرضهم ويلقي إليهم تعاليمه، كما هي عادته السابقة، وتركهم يهتزون للقاء العدو الذي جاءوا له، وكان هناءة على الميمنة، وفراهيد على الميسرة، وهما الجناحان، وبهما يطير الجيش، وهما قوته الموقفية، وأركانه الحربية، ونزل الشيخ في القلب مع الأبطال المجرّبين، والتقوا هم والفُرس لقاءً رائعًا، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، ودارت رحى الحرب كأشد ما يكون مليًا من النهار، ثم انكشفت العجم وزالت عن مواقفها، وخلفت في موضع الحرب فِيلها العظيم، فقام إليه هناءة بن مالك، وضربه ضربة كادت تقضي عليه، ثم لحقه فراهيد الصنديد، فعرقب رجليه فخرج يدوس الرجال، ويطأ الأبطال وله صياح، وكان ذلك مما يهزم العجم، ويزعزهم عن أمانيهم، ويردهم على ورائهم، ويفت في عضدهم لاسيما وأن الإنهزامات لا زالت تتوالى عليهم مرة بعد أخرى، ويزيد نشاط العرب لقتالهم، ثم إن العجم ثابوا وتراجعوا وهم أبطال لا تنكر وليوث حرب.

❊ ❊ ❊

الحرب تشتد بين مالك بن فهم والفرس لتنتهي

لما رأت الفُرس في هذه المعركة لوائح التقهقر، وأن مالكًا لابد أن ينفّذ فيهم ما صرّح به لهم من أنه يقتل المقاتلة، ويسبي الذري، أعلنوا لِرجالهم الهجوم على مالك بغير مبالات، وأن يصبروا لحرب مالك صبر المستميت، ورأوا أن يحملوا على الأزد حملة رجل واحد، بحيث لا يبقى منهم أحد في موقفه، فأما النصر على مالك، وإما الانهزام النهائي، فزحفوا عليهم بغير مبالات، فجالت الأزد جولتها، ونادت في رجالها البواسل، وناداها مالك الهمام قائلاً: (يا معشر الأزد اقصدوا إلى لوائهم فاكشفوه)، فإن لهذا اليوم ما بعده، وتهاووا عليهم من كل وجه، وحمل الشيخ حملته الملوكية، فهوى على العجم كالنجم المنقض للرجم، فسرعان ما انكشف لواء القوم، واختلط الطعن، والتحم القتال، وعظم النزال، وارتفع الغبار، وثار العجاج حتى حجب عين الشمس، فلا تسمع إلا وقع السيوف، وصَلِيلَ الحديد، وغمغمة الأبطال، وتراموا بالسهام فتقصدت، وتجالدوا بالسيوف فتكسرت، وتطاعنوا بالرماح فتحطمت، وصبروا صبرًا جميلاً، وكثر الجراح والقتل في الفريقين، فبدرت بوادر الهزيمة للفُرس الأشداء، ولم يروا لهم قوة تقابل العرب غدًا إذا زحفوا عليهم، ففكروا في المصير، ورأوا الهزيمة، أو الموت النهائي، وهما أمران أحلاهما مر، ثم فضّلوا الهزيمة، فولوا منهزمين على وجوههم، فأتبعهم فرسان الأزد الأبطال المنتصرون بنشوة النصر يقتلون، ويأسرون من لحقوا، وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وأسروا كذلك، والحظ في صالحهم يمشي.

وفي ذلك الأثناء كان المقدر أن التقى فراهيد بن مالك بن فهم بأسفنديار بن المرزبان، وكان من أعظم قواد الجيش الفارسي، فطعنه فراهيد طعنة أرداه بها قتيلاً، ثم جلله بالسيف ليستأصله، فهلك تمامًا في تلك الخطفة التي اختطفه بها، ثم سارت فرسان الأزد في أثر العجم، وهم منهزمون، فظلوا يقتلونهم ويأسرون،

وينهبون الأموال غنيمة طيلة يومهم ذلك، حتى حال بينهم الليل فحجزهم عن بعضهم بعضًا، ولم يفلت منهم إلا من ستره الليل.

قال الإمام: (فتحمل من بقى منهم من تحت ليله) هاربًا مستخفيًا يتدارك النجاة، ويستبقي الحياة، حيث لم تنفع الحرب، وما كانت يومًا ما في صالح الفُرس طول تلك المعارك، وركبوا في السفن، وعبروا إلى أرض فارس، واستولى مالك بن فهم ومن معه على سوادهم، واستباحهم، وغنم أموالهم، وسجن من الأسرى خلقًا كثيرًا، فمكثوا في السجون زمنًا طويلاً، ثم أطلقهم، ومنَّ عليهم بأرواحهم، وكساهم ووصلهم وزودهم، وحملهم في السفن إلى أرض فارس، واستولى على عُمَان كلها، وملكها وما يليها من أعمالها على الخليج العُمَاني، وسار فيها سيرة جميلة، وبذلك انتهى جلاء الفُرس من عُمَان، فلم يبق فيها إلا مواطن تحت سلطان مالك المالك سيد الأزد في عُمَان وزعيمهم المقدام، وبذلك شاعت له أخبار في أحياء العرب، وأصبحت أحاديثه ألهوجة السامرين، وأحدوثة المؤرخين، فتنادت العرب يمنها ونزارها للحاق بالملك الفاتح لعُمَان، وإن بعُمَان الخيرات المتنوعة، والحياة العربية العزيزة، فما مضى وقت طويل إلا ورايات العرب تتوالى على عُمَان.

ولم يكن ليهدأ روع مالك بن فهم خوفًا من العجم، وقد علم ما وقع بينه وإياهم، وتوتّر الحال إلى أقصى حد، ولم يزل مالك بن فهم يلاحظ الحركة الفارسية بدقة، ومازال مستعدًا للقاء القوم غير مطمئن من جانبهم لما سبق بينه وإياهم، وهم من عرفت، وقد خرجوا من ملك عُمَان بين أسيرٍ، وقتيلٍ، وجريحٍ، والذي يظهر من استقراء التواريخ أن العجم لم يعودوا لحرب مالك بن فهم؛ ولعل ذلك لأجل أحوال داخلية عندهم، فكان دارا بن دارا قد مات في ذلك الأثناء؛ لذلك تأخرت حركات العجم عن عُمَان، وتولى الملك ولد دارا بن دارا، ولم يتحرك لحرب عُمَان، فإنه كان جبارًا ظالمًا عاتيًا بالغًا في العتو أقصى المبالغ، ثم كان قتله

على يدي سليمة بن مالك بن فهم في خبر عجيب ذكره المؤرخون، وأشار إلى القضية الإمام السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ في «تحفة الأعيان» إذ قال: (وكان الملِك إذ ذاك على أرض كرمان، ولد دارا بن دارا)، وكان الكلام في قضية سليمة إذ قتل هذا الملك المذكور، قال: (وكان ملكًا جبارًا كثير العسف والظلم لأهل مملكته وقومه) إلخ، فدارا بن دارا بن بهمن هو الذي أرسل الإعانة للمرازبة الذين قاتلوا مالك بن فهم في عُمَان، وهذا الملك الذي قتله سليمة بن مالك بن فهم، ابن ذلك الملك، فكأنه على أثر خروج عُمَان من يده إلى يد مالك بن فهم قضى الله عليه، وتولى المُلك بعده ابنه، وسليمة بن مالك بن فهم، فهما في عهد واحد، فدل ذلك على ما قلناه، وهو واضح، فإن مالك بن فهم ودارا بن دارا تعاصرا، وسليمة وولد دارا المشار إليه، كذلك فإن الفُرس عادوا إلى عُمَان بعدة وشدة.

وقال الإمام السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ في تحفة الأعيان صحيفة ٤٧ من الجزء الأول: (ثم لم يزل المُلك في أولاد مالك بن فهم، ولم يرجع أحد من الفُرس إلى عُمَان حتى انقضى ملك ولد مالك بن فهم، وصار مُلك عُمَان إلى آل الجُلَندى بن المستكبر، وهو من معولة بن شمس، وصار ملك فارس إلى آل ساسان، وهم رهط الأكاسرة، فتهادنوا هم وآل الجُلَندى بعُمَان على أن يجعلوا فيها أربعة آلف من الأساورة والمرازبة مع عامل يكون له بها عند ملوك الأزد، فكانت الفُرس في السواحل وشطوط البحر، والأزد ملوك في سائر البلاد، والأمور كلها منوطة بهم)، فهذا يدل أن الأمور تراجعت، ووقعت فيها اتفاقيات تقتضي السماح للفُرس بالمقام في الساحل، وهم قدر أربعة آلاف كصفة حامية لهم، ولعله كانت لهم رعايا، أو بقيت لهم بقايا، فراجعوا فيها، واقتضت الأنظار في ذلك الوقت السماح لهم بالحُلول بعُمَان؛ لتهدأ الأمور، وتخف نعرة الشيطان، فكان الساحل لهم، والداخل للعرب، وكان أمر العرب هو النافذ في البلاد، وإن الخراج إذ ذاك في الساحل لا في الداخل، وإنما المنعة في البلاد لأهل الداخل، إلا أن الفُرس يفضّلون

الوجود بالساحل لذلك، ولإمكان اتصالهم بقوتهم، فإن بين الساحل وبلاد فارس القرب المعروف، فإن نيران ساحل مكران تتراءى من الساحل العُمَاني، فبقى الفُرس المذكورين هنا حتى جاء الإسلام، فأجلاهم ملوك بني الجُلَندى من عُمَان إذ لم يقبلوا الدخول في الإسلام، فارتحلوا كليًا من عُمَان).

قال الإمام السالمي رحمه الله: (وكان مالك بن فهم ملكًا عظيمًا، وكانت قبائل اليمن وغيرهم على منازلهم وعددهم يهابونه، ويخافون بأسه، فيفتخرون به، ويتعززون بمنعته، وكانت له جرأة وإقدام ما لم يكن لغيره من الملوك، وكان ينزل ما بين عُمَان إلى ناحية اليمن).

قلت: ولم لا تهابه قبائل اليمن وغيرهم، وقد علمتَ ما صار بينه والفُرس من التعارك في عُمَان حتى أجلاهم منها راغمين مدحورين بعد قتال عنيف، ومالك لا يزال وسط المعمة، وتتساقط القتلى بين يديه، ولم لا يخافون بأسه، وهذا حاله وقد عرفتَ جرأته وإقدامه، ونزوله ما بين عُمَان واليمن كان للاستطلاع على أحوال البلاد لمّا تحقق انكسار العصا الفارسية، ولعله أيضًا وافق حسن الحظ بموت الملك دارا كما أشرنا إليه سابقًا، فكان مالك بن فهم يتجول في النواحي العُمَانية، ويتفقد أحوال الوطن.

قال الإمام: (وأكثر نزوله بشاطئ قَلْهات من شط عُمَان، وينتقل منها إلى غيرها)، أي كان اتخذ قَلْهات محل أمنه، وعاصمة مملكته. قال: (وكان في ناحية [أخرى] من نواحيه ـ أي من بلاد عُمَان ـ قد نزل ملك من ملوك الأزد يقال له مالك بن زهير من ولده عبدالله بن الأزد)؛ ولكنه لم يحقق الناحية التي نزلها، ولا ممّن هو من قبائل الأزد، ولا على أي كيفية كان نزوله. قال: (وكاد يكون مثل مالك بن فهم في العزة والمنعة والقدرة، فخشي مالك بن فهم أن يقع بينهما تحاسد، وأن يطمع أحدهما في ملك الآخر فتقع بينهما الحرب)، وهذا يدل أنه كان لمالك بن زهير قسم من ملك عُمَان؛ ولكنه لم يسبق له ذكر في حروب الفُرس، ولعله

كان نزل على بعض العواصم العُمَانية، فرأى مالك بن فهم الأغضاء والتغافل عنه ليكون له عونًا وعضدًا إذا تحركت الفُرس عليه، فإنه في قلق من القوم، ولذلك لم يعارضه، وكان من التفكير بمكان، فوسَّع المجال لمالك بن زهير.

قال الإمام: (فخطب مالك بن فهم ابنته الحزام بنت مالك بن زهير) قطعًا لشافة التحاسد والتباغض بينهما.

* * *

أعمال مالك بن فهم بعد انتهاء الحرب

لما رأى مالك بن فهم انهيار صرح العجم في عُمَان، وانكسار شوكتهم رجع إلى شؤونه الداخلية ليؤيدها بسياسته الحكيمة، وآرائه السديدة، وألقى نظرته إلى ما حول عُمَان من الممالك، وما يتبعها من البلدان، [وظل] يتردد على الأطراف؛ لأنها الأبواب، وكان ينزل في النواحي المختصة، ويقيم في الأمكنة المنظور إليها، وهو الذي كان يأخذ كل سفينة غصبًا، فكان ملكاً عظيماً في العرب.

قال الإمام، في صحيفة ٣٥: (وكان ينزل قَلْهات من شط عُمَان، وينتقل من هناك إلى ناحية أخرى)، أي كان ذلك عادته، وقد علمتَ أمر قَلْهات في عُمَان إذ ذاك، وفتح للعرب دار الهجرة إلى عُمَان ليطمئن بهم، وتقوى شوكته بقومه، فسرعان ما هاجرت العرب إلى عُمَان زرافاتٍ ووحدانا، يمانية ونزارية، حتى ملأوا عُمَان، فامتد سلطان مالك في عُمَان حتى ضمَّ إليها البحرين، وأطراف العراق، فكان الملك الكبير العظيم السلطان بين ملوك الجزيرة العربية، كما أشار إلى ذلك الإمام السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: (وسبب ذلك أن مالكًا لمّا ملك عُمَان، وأطراف العراق، وما حول عُمَان)، فدل ذلك أن مالكًا مَلَك أطراف العراق، وما حول عُمَان كالبحرين وأعمالها، وكان ينتقل في النواحي العُمَانية متفقدًا شؤونها، ومتطلعاً أحوالها، ومراقباً سير الأعمال في الجزيرة، ولم يكن له معارض، أو مزاحم، ولم يذكر التاريخ عن مالك بن زهير شيئًا من الأعمال في عُمَان، بل

السلطان الوحيد، والأمر النافذ لمالك بن فهم الذي لا يتغير دمه عند ملاقات الأبطال، وقد طال عمر مالك بن فهم في الملك، فقد ملك عُمَان وما حولها سبعين سنة، ولم ينازعه في ملكه منازع من العرب أو من العجم، وملك على مضر عشرين سنة، وعاش مائة وعشرين سنة، وكانت وفاته نتيجة الكيد الأخوي الأشبه بكيد إخوة يوسف، وذلك أن مالك بن فهم تزوج بنت مالك بن زهير، كما قدمنا، واشترط على مالك بن فهم أن يكون الملك في ذريتها، فوافقه مالك بن فهم، ولابد أن يكون ذلك مؤثرًا في قلوب أولاد مالك بن فهم خصوصًا إذا جاءت برجال يتولون الملك بالوراثة عن بقية إخوتهم، فكان من القضاء والقدر أن جاءت الحزام بولد سموه سُليمة مبالغةً له في السلامة، وكان ولدًا تلوح عليه مخائل النجابة، وأحبه مالك بن فهم حبًا بالغًا، فقال إخوته: هذا ما كنا نتوقعه، وإن سليمة لاشك أنه سيكون الملك علينا تبعًا للشرط الذي شرطه والد أمه مالك بن زهير، فتآمروا عليه أن يكيدوه بمكيدة تسقطه من كرسي محبة الوالد الذي له الشفقة التامة عليه، والعطف البالغ له حد الغاية، وكان مالك بن فهم وضع الحرس الداخلي الذي يسميه العصريون حرس الشرف على كواهل أولاده إذ لا يطمئن بغيرهم مهما كانوا، وكان لكل منهم نوبة، فقالوا لِوالدهم: أيها الملك إن ابنك سليمة لا يقوم بواجبه في الحرس، وإنه ينام، فنخشى عليك من قبل نوبة سليمة، وكان القصد من ذلك أن ينكسر خاطر الملك عن سليمة فيطرده، أو يرفضه، ولا يقبل منه في الأعمال الخاصة شيئًا، فينتج ذلك سقوط سليمة من عرش الملك، وكان بلغ من حب لولده سليمة أنه كان يعلمه الرمي بالسهام إلى أن أتقنه، وكان ذلك هو القوة في الحرب في ذلك العهد، وكان يحرس كإخوته، فنسب إليه إخوته ضعف الهمة، وثقل العجز، (وأنه إذا جن الليل يعتزل عن فرسان قومه، ويتشاغل بالنوم، والغفول عما يلزمه، فلا تكن لك فيه كفاية، ولا غنى، وجعلوا يوهنون أمره عند أبيه، وينسبونه إلى العجز والتقصير، فقال لهم

مالك: إنكم لكذلك، وما أحد منكم إلا وهو قائم بما عليه، وأما قولكم في ابني سليمة فليس هو كذلك، وأن ظني فيه كعلمي) به، قال: (ولم تزل الإخوة تحسد بعضهم بعضًا لإيثار الآباء بعضًا دون بعض، فانصرفوا من عنده أجمعين راجعين بغير ما كانوا يأملون).

قال الإمام: (ثم إن مالكًا دخله الشك) قلت: لم يكن شكًا؛ ولكنه رعاية، وهذا شيء من واجب كل أمير أن لا يكون الأمير غير ناظر في الأحوال؛ فإن ذلك من قبيل الإهمال الذي لا ينبغي، قال: فأسر مالك كلامهم ذلك في نفسه إلى أن كانت الليلة التي كانت فيها نوبة سليمة ولده، فخرج سليمة في فرسان للحرس كعادتهم، ثم اعتزل عنهم سليمة في المكان الذي يكمُّن فيه، وما كان لسليمة علم بذلك التآمر الذي تآمر به الإخوة من شأنه، ولم يكن منه قصور، ولا تقصير فيما سبق، فكمَّن سليمة في مكمّنه المعتاد بالقرب من دار أبيه، فبينما هو كذلك إذ أقبل مالك من قصره في جوف الظلام مختفيًا من حيث لا يعلم به أحد ليحقق مقال الأولاد في أخيهم، فتوجه قاصدًا للموضع الذي فيه سليمة ليرى ما هو عليه من الحال، فكان من قدر الله الذي لا محال عنه أن لحقت سليمة سِنة في تلك اللحظة التي ساق الله لها مالكًا لتكون سببًا لحتفه، فأغفا سليمة على ظهر فَرسه، وهذا طبعًا يعتري الإنسان، وكان سليمة قد تنكب كنانته وفي يده قوسه، وهو على ذلك الحال، فأحست الفَرس شخص مالك، وقد ألهم الله الخيل من الحس، وجعل لها من البصر ما لم يجعله لغيرها، وكان مالك بعيدًا فصهلت الفَرس عند ذلك لتعطي راكبها إنذارًا بما أحست به، فانتبه سليمة ذلك البطل الشاب الجديد في حركاته كلها القوي على أداء أعماله كما يلزم مذعورًا من صهيل الفَرس، إذ من عادة الخيل ألا تصهل إلا لأمر تراه، فنظر سليمة إلى فَرسه، وهي ناصبة أذنيها إلى الشخص الذي أحسته، وكان ذلك إخبارًا منها لصاحبها، ففوّق سليمة سهمه في كبد قوسه، ويمّمه نحو الشخص الذي تشير إليه الفَرس، ولا علم له أنه أبوه،

ولم يعلم بما لمالك من الاهتمام في ذلك الوقت، فسمع مالك صوت السهم حين يجذبه سليمة موجهًا له نحو أبيه الملك، فصاح به: (لا ترم أنا أبوك)، فبينما هو يقول أنا أبوك، وقد أطلق السهم محلقًا في طيرانه نحو الشخص المرمى فقال سليمة عند ذلك بصوت المتلوّم على ما فرط: (السهم ملك قصده) أي لا حيلة لي على رده، فأصاب السهم مالكًا في قلبه فخر صريعًا، وأرسلها سليمة مثلاً، وعند ذلك أنشد مالك تلك القصيدة التي جعلها تاريخًا لحياته، وعبّر فيها عن مهام أعماله، وفيها يقول نحو سليمة ابنه:

اعـلـمـه الـرمـايـة كـل يـوم   فـلـمّـا أشـتـد سـاعـده رمـاني

والمعنى أني كنت [اعلمه] الرماية ليرمي عني الأعداء، فلمّا اشتد وقوى كان راميًا إياي، وفيه تأنيب لسليمة، ولعله يظنه عرف الشخص حين رماه، أو أني ناديته لا ترم، فلم يكن منه إلا الرمي، ومن أين لسليمة العلم أنه أبوه؟ ولما سَمِع نداء مالك لم يكن للسهم بمالك، والقدر حاكم على الإنسان، ولابد من وقوعه، ولكل شيء غاية ينتهي إليها، وليست الجريمة على سليمة، فإن ذلك وَاجِبَهُ؛ ولكنها نتيجة الكيد الأخوي، كما قلنا، وحب الرئاسة، والتنافس فيها يقتضيان مثل هذه الأحوال؛ ولكن لم نعلم وقوع هذا الحادث في أي موضع من عُمَان؛ لأن التاريخ العُمَاني قد ضاع بعدم النشر، وتطاول الأيام عليه.

ولا شك أن خبر مقتل مالك كبير له أهميته الملكية، ولابد أن يكون له ذكر في السير، إلا أن السير العُمَانية ذهبت بجور السلطان في عُمَان، وطول الزمان المار على عُمَان منذ ذلك العهد، وليتنا أدركناه، فإنه من مهمات التاريخ، ولعله في قَلْهات، والله اعلم.

❊ ❊ ❊

أولاد مالك بن فهم وأعمالهم بعد أبيهم

اعلم أن أولاد مالك بن فهم كانوا خمسة عشر رجلاً، أولهم النوبي، وبه يكنى مالك؛ ولكنه لم يذكر عنه التاريخ شيئًا، ولعله مات قبل وقوع حرب الفُرس ومالك ، أو أنه انعزل إلى مكان آخر، فلم يعرف خبره، وقضايا العرب عديدة.

وأما جذيمة بن مالك: ويقال له الأبرش والوضاح لوضح كان به، فعدلوا عن الأبرش إلى الوضاح، كان ملكًا عظيمًا طال عهده، وامتد سلطانه من مشارف الشام إلى الفرات من جهة الروم، وكان ينزل بين الخانوقة وقرقيسيا بموضع يقال له المضيرة، وعاش أيام ملوك الطوائف خمسًا وتسعين سنة، وعاصر من ملوك الفُرس أزدشير بن بابك، وولده سابور الجنود، ومضى له في عهدهما ثلاث وعشرون سنة، فكان جملة ملكة ثمان سنين ومائة سنة، وقتلته الزباء في خبر شهير عند أهل التاريخ والسير.

وأما جمّاز بن مالك بن فهم: وكان اسمه زياد، فلقب جمّازًا، كان تملك على طوائف من معد بن عدنان، وطوائف من اليمن؛ ولكن لم يذكروا أين كان ملكه؟ بل ذكروا أنه هو الذي ذكره الله في القرآن بقوله عزوجل ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥ﴾ [الكهف: ٣٤] إلى قوله ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: ٤٢] الآيات، وعاش في الملك عشرين ومائة سنة، وكان جبارًا عنيدًا عاتيًا ظالمًا كافرًا، يضرب به المثل في الكفر والظلم والجبروت، فيقال: أجبر من جمّاز، وأكفر من جمّاز، وأظلم من جمّاز، قال الإمام: وقيل (لم يملك العرب قط ملك كان أعظم كبرًا، ولا أقتل لمعد منه)، ذكروا من جبره وظلمه قطرة من بحر، ويقال: (كان ملكه من بلاد العالية إلى جانب أيلة من الشام)، قال الإمام: (فصار كفره في النّاس يضرب به المثل)، وقهره على معد بالغ فوق الحد، (ولم تستطع معد أن تخرج من سلطانه)، ولا أن تكلمه في شيء من الشؤون، ولا يقبل معديًا يقابله مهما كان، وإن قابله أساءَ إليه غاية الإساءة، وعامله بأسوأ المعاملة، بحيث لا يبقى شيئًا من

سيء المعاملات إلا عامله به، فالوَسِم يشينه، والشين يزيده شينًا، وهكذا دأبه معهم بغير مبالغة.

وأما هناءة بن مالك بن فهم: فكان أعقل أولاد مالك كلهم، وأثبتهم في الأزمات، وأعزهم نفسًا، وأكثرهم شأنًا في عُمَان، وحسبك أنه مازال ميمنة أبيه في تلك الحروب الفارسية العصِيبة، وكان مثالاً للنزاهة السلطانية في وقته، وهو الذي ملك عُمَان بعد أبيه، وأحسن إلى الرعية، وساسها سياسة الحكيم الماهر، فلم تقم عليه قائمة، ولم ينكر عليه منكر، ولا تنازل عن شبر من الأملاك العُمَانية، حتى مضت أيامه على ذلك، وهو الذي كان عزز ملك أخيه سليمة بن مالك في أرض فارس حتى ثبتت دعائمه، وقوى سلطانه، واستقر ملكه، وسكنت ثائرة الفُرس عليه، واستمر ملكه فيهم عهدًا طويلاً حتى مات هناك على عزته وشرفه.

وأما سليمة بن مالك بن فهم: فقد خرج إلى أرض فارس بعد قتله لأبيه، كما عرفتَ القضية بأسبابها، فتخوف من مَعن بن مالك، فنزل جاشك وهي المعروفة بجاش، ثم توغل في أرض كرمان لاجئًا في أيام ولد دارا بن دارا بن بهمن، وراجيًا منهم الإيواء الجميل اللائق به، حيث كان قاتل أبيه مالك بن فهم عدو الفُرس، فيتقرب بذلك إليهم، ويمدون له المدد الذي يؤيده في حياته، حيث قضى على عدوهم أبيه، فبقي في كرمان حتى ساعده الحظ، وسارت الأقدار في صالحه، حتى تملك عليهم إذ قتل ملكهم الطاغية بجوره عليهم في حديث ما زال من طُرَف الأخبار الملوكية، وتولى الملك في ذلك القطر بمعونة أعيان البلاد حتى عاش فيهم همامًا ممنعًا إلى أن حسدوه، فقالوا: إلى متى يملكنا هذا العربي؟ وهموا بمناوأته، وهناك استصرخ أخاه هناءة بن مالك ملك عُمَان، فلبى نداءه، وأرسل إليه من صناديد الأزد مقاديم الرجال، حتى نزلوا أرض كرمان، فاهتزت لهم أرجاؤها، وقام لنزولهم دهش الفُرس، فبدل أن يزيلوا سليمة عن الكرسي أصبح سليمة يهددهم في عقر دارهم قاهرًا عليهم، وقد طردهم أبوه من عُمَان، ودقهم

دق العصف، فصار سليمة يطأ على أنوفهم سلطانًا عليهم حتى مات هناك بأرض كرمان، وكان له عشرة أولاد وهم نجب الأسفاهية؛ لكنهم اختلفوا فيما بينهم من بعده، فوجد العدو باختلافهم السبيل إلى زوالهم عن الملك.

قال الإمام: (ومنهم الجُلَندى بن كركر) أي من ذراريهم، قال: (وقد ملك عُمَان من ولده الصفاق)، وتسلسل من ذراريه ملوك، قلت: لم أدرِ متى كان ملك الصفاق؟ ولكن لا يستغرب ذلك، فإن أخبار العرب في الجاهلية مشهورة الغموض، بإجماع أهل العلم والأدب، وخصوصًا في عُمَان، فإن الأمية في العرب شهد بها القرآن، فلا يستغرب إذا ذهبت عنا أخبارهم، ولعله تملك في الآونة الأخيرة، وهي الأيام التي زال فيها الملك عنهم إلى بني الجُلَندى، فإنه وقع بينهم خلاف وشقاق، وتلاشت الأمور، ولكل شيءٍ غاية ينتهي إليها.

قال الإمام: (وجمهور بني سليمة بأرض فارس وكرمان) أكثر منهم بعُمَان؛ ولكنهم اندمجوا فيهم فلا يستطاع إخراجهم، والذين جاءوا عُمَان من ذراري سليمة أقليتهم، فتناسلوا فيها.

وأما فراهيد بن مالك بن فهم: كان معدودًا من أشجع أولاد مالك بن فهم، فكان ميسرة أبيه في حروبه الفارسية، وقد شهرت شجاعته، وعرف مقامه، وعاش أيام أبيه وهو سهمٌ ثاقب، ولا بدع فإن أباه من عرفتَ، وقد عقب ذراري عديدة، ومن أشهرها آل فراهيد الخليل بن أحمد في الإسلام أكبر العلماء الأعلام، وأجل الفقهاء الكرام.

وأما ثعلبة بن مالك بن فهم: فهو الذي اعتزل إخوته حين اختلفوا في سليمة، ورأى أخاه مَعنًا يتألب على قتل سليمة بعد ما حسدوه عند أبيه، فكأن قتله على يديه، فخرج ثعلبة إلى أخواله التنوخيين، إذ كانت أمه تنوخية، فاندمج فيهم، ثم سارت تنوخ بأجمعها إلى جذيمة الوضاح، وهو إذ ذاك ملك الحيرة، فذراري ثعلبة بن مالك فيهم بالشام والجزيرة إلى اليوم.

وأما مَعن بن مالك بن فهم: فكان أشد النّاس على سليمة فلم تُرضِهِ دية، ولا قبل عذر سليمة، ولا خضع لمقال إخوته، فكان يتحيّن الفرصة لسليمة، فيأخذه على غُرة فيفتك به؛ ولكنه لم يظفر به ارتحل سليمة من عُمَان إلى فارس من أجله.

وأما عَمْرو بن مالك بن فهم: فلم تكن له أخبار بعُمَان، وكذلك أولاد الحارث بن مالك بن فهم، ومن ذراريه الشحوح المعروفون في شمال عُمَان، ويقال إنهم لقبوا بالشحوح حين شحوا بالصدقة أيام أبي بكر  وهم من أولاد الحارث بن مالك بن فهم على صحيح النسب عن أهل عُمَان، ولهم لهجة ينفردون بها دون غيرهم، ولهم لغة يختصون بها فيما بينهم، ويتفاهمون بها، وهم على ذلك منذ ذلك العهد القديم إلى الآن بالنسبة إلى جيرانهم.

❊ ❊ ❊

الحلقةُ الرَّابعة في بدءِ الإسلام بعُمَان
إلى انقضاء أيام الخُلَفاء الأربعة

لا يخفى أن بدء إسلام أهل عُمَان كان بسبق الصحابي الوجيه (مازن بن غضوبة بن سبيعة بن شماسة بن حيّان بن مر بن حيّان بن أبي بشر بن خطامة بن سعد بن نبهان بن عَمْرو بن الغوث بن طي، وكان من أهل سمائل، قَدَم على رسول الله ﷺ عند أول ظهور الإسلام بعُمَان، وأسلم ودعا له النبيّ ﷺ ولأهل عُمَان بخير، وكان من خبره أنه كان يسدِن صنمًا له في الجاهلية في سمائل يقال له ناجَر، تعظّمه بنو خُطامة، وبنو الصامت من طي، قال مازن: فعَترنا يومًا عند الصَّنم عَتيرة، فسمعت صوتًا من الصَّنم يقول: يا مازن اسمَع تُسَرّ ـ أي يسرك ما تسمع ـ ظهر خيرٌ وبَطَن شَرّ، بُعث نبيّ من مُضَر بدين الله الأكبر، فدَعْ نَحيتًا من حَجر، تَسلَم من حَرّ سَقَر)، وهو اسم من أسماء النار أعاذنا الله منها.

قال مازن: ففزعتُ لذلك فعَترنا بعد أيام عَتيرةً أخرى، فسمعت صوتًا من الصَّنم يقول: أقبل إليَّ أَقبِلْ تَسمَعْ مالا يجهَل، هذا نبيٌّ مُرسَل، جاء بحقٍّ مُنْزَل، آمِنْ به كي تُعدَل عن حَرّ نارٍ تُشْعَل، وَقُودُها بالجَنْدَل. فقلت: إن هذا لَخَيرٌ يُراد بي، وإنه لَعَجب ـ أي مثل هذا الحديث عجب يظهر من الصنم، وهو يؤنب عليه ويعظ ـ قال: فبينما نحن كذلك ـ أي نتحدث عن هذا الحال الذي سمعناه من الصنم، وأنه لا شك أن له نبأ ـ إذ قدم علينا رجل من أهل الحجاز، فقلنا له: ما وراءك؟ فقال: ظهر رجل من العرب يقال له أحمد، يقول لمن أتاه أجيبوا داعي الله، فقلت: هذا نبأ ما سمعت من الصنم، فقمت إلى الصنم فكسرته، وركبت راحلتي فقدمتُ على رسول الله ﷺ وأسلمتُ، وفي [العوتبي]: أن القادم قال: (ظهر رجل يقال له محمّد بن عبدالله بن عبدالمطّلب بن هشام بن عبد مَناف يقول لِمن أتاه: أَجيبوا داعي الله، فلستُ بمُتَكبّرٍ، ولا جَبّار، ولا مختالٍ أدعوكم إلى الله، وترك عبادة الأوثان، وأُبشّركم بجَنّة عرضُها السّماوات والأَرض، واستنقذكم من نار [تَلَظّى] لا يُطْفَأ لهيبُها، ولا يَنعم من سكنها)، قال مازن: فقلت هذا والله نَبأ ما سمعتُه من الصَّنم، فوثبتُ إليه وكسرتُه جذاذًا ـ أي قطعًا ـ وركبت راحلتي

حتى قدمتُ على رسول الله ﷺ ، فسألته عمّا بُعث له، فشرح لي الإسلام ونَوَّر الله قلبي للهُدى، فأسلمت، وقلتُ:

كَسّرتُ ناجَرَ أجذاذًا وكان لنا رَبّا نُطيف به ضُلاً بتَضلالِ
بالهاشميّ هَدانا من ضَلالتنا ولم يكن دينُهُ منّي على بالِ

أي ما كنت أحتسب لدينه، ولا أتوقعه حتى مَنَّ الله به علي، فهداني له، وهذا من الحظوظ السماوية المخزونة لأهلها، قال:

يا راكبًا بَلِّغَنْ عمرًا وإخوتَه أنّي لمن قال ربّي ناجَرٌ قالي

قال [العوتبي]: قوله: بَلِّغَنْ عمرًا يريد بني الصامت، واسمه عَمْرو بن غنم بن مالك بن سعد بن نبهان بن الغوث بن طي، وقوله: وإخوته، وفي رواية وإخوتها يريد بني خُطامة بن سعد بن نبهان بن الغوث بن طي، قال مازن: (فقلت: يا رسول الله صلى الله عليك وسلم وآلك: ادعُ الله تعالى لأهل عُمَان). فقال: (اللهمَّ أهدِهم وأَثبهم) ـ أي ارزقهم الهداية والثواب، أو من الإثابة، وهي الرجوع أي ارزقهم الرجوع إلى الحق، والمراد به الإسلام ـ قال مازن: فقلت: (زِدْني يا رسول الله). فقال: اللهمَّ ارزُقهم العفافَ ـ أي الصيانة ـ والكَفاف ـ أي الاستغناء ـ و[الرِضى] بما قَدّرت لهم) ـ أي حسب تقديرك لا حسب قدرتك، فإن قدرة الله يعجز عنها الكون كله ـ قال مازن: قلت: يا رسول الله البحر يَنضح بجانبنا ـ أي قريبًا منا، أي إن بلدنا قريبة من البحر، والمراد بها عُمَان ـ فادعُ الله في مِيرتنا، وخُفّنا، وظَلْفنا ـ والمراد بالمِيرة: الطعام، وبالخُفّ: الإبل والبقر، وبالظَلْف: الغنم ونحوها. فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: «اللهمَّ وسِّع [لهم] وعليهم في مِيرتهم، وأكثر خيرهم من بحرهم»، قلت: زِدْني. فقال: «اللهم لا تُسلِّط عليهم عدوًّا من غيرهم»، فكان بحر عُمَان أكثر الأبحر خيرًا على الإطلاق. قال رسول الله ﷺ: «قل يا مازن آمين، فإن آمين يستجاب عنده الدعاء» ـ أي إن قول آمين سبب لاستجابة الدعاء عند الله، كما صح في روايات تناقلها أئمة العلم، وأطالوا المقال في شرح هذه الكلمة

الوجيزة، فينبغي أن تقال عقب كل دعاء يدعو به المسلم له، أو لغيره، وهي خاتم رب العالمين. قال مازن: (فقلت آمين). ومعناها: استجب على الصحيح، فهي اسم فعل.

* * *

مازن يشكو حاله لرسول الله ﷺ

كان من حسن حظ مازن ﷺ أن شكا إلى رسول الله ﷺ لما عَلمَ صدق النبوة، وتحقق خالص الايمان، ورسخ الإسلام في قلبه، فقال (يا رسول الله: إنّي مُولَعٌ بالطَّرب، وبشُرب الخمر، لجوج بالنّساء، وقد نَفد أكثر مالي في هذا،[وليس لي ولد]، فادعُ الله أن يُذهب عنّي ما أجد، ويهبَ لي ولدًا تَقَرُّ به عيني، ويأتينا بالحَيا، فقال النبيّ ﷺ: اللهمَّ أَبْدله بالطرب قراءة القرآن، [وبالحَرام] الحَلال، وبالعَهْر - أي الزنى - عِفّة الفرج، وبالخمر رِيًّا لا إثْمَ فيه، وآتِهم بالحَيا، وهَبْ له ولدًا صالحاً تقر به عينه)، قال مازن: فأَذْهبَ الله تعالى عنّي ما كنتُ أجد من الطرب، والنشاط لتلك الأسباب، وحّججتُ حِججًا، وحفظتُ شطر القرآن، وتزوّجتِ أربع عقائل من العرب، ورُزقت ولدًا [أسميتُه] حَيّان - باسم أبويه الرابع والسادس - وأخصبت عُمَان في تلك السنة، وما بعدها، وأقبل عليهم الخُفّ والظِّلْف، وكثُر صيد البحر، وظهرت الأرباح في التجارات، وآمن عدد من أهل عُمَان)، فدل ذلك أن مازن المذكور قام بنشر الإسلام فيمن أطاعه، ووفق الله ناسًا للإسلام بواسطة مازن المذكور وأسلموا، وظهرت بعُمَان من دعاته - عليه الصلاة والسلام - لهم بركات عظيمة، وعمّت عُمَان كلها، حيث قال رسول الله ﷺ: (اللهم أهدهم)، فأهل عُمَان أكثر أهل الجزيرة العربية هُدًى، وأصدقهم إيمانًا، والدليل عليه أن أكثر العرب ارتدوا، ونبذوا الإسلام غير أهل عُمَان، فإنهم ثبتوا على إيمانهم، ولم يغيروا شيئًا، ولم يبدلوا أمرًا من أمر منذ ذلك العهد، قال الإمام: ولمازن في ذلك شعر، حيث يقول:

إلـيـك رسـول الله خَـبَّـت مَطِيّتي   تجوب الفَيافي من عُمَانَ إلى العَرْجِ

والعَرْج: موضع بقرب المدينة المنورة، والمراد به نفس المدينة قال:

لِتشفعَ لي يا خير من وَطِـئ الـثَرى   فـيـغـفِـرَ لي ربّـي فـارجِـعَ بـالـفَـلْـج

والمراد بالفَلْج النصر أي فأرجع منصورًا بالإسلام، قال:

إلى معشَرٍ جانبت في اللهِ دينَهم   فلا دينهم ديني ولا شَرجُهم شَرجي

ومعنى جانبتُ: خالفتُ، والمراد بالشرح: المخالفة، أي يقال ليس من شرجه أي شكله وطبقته. قال:

وكنتُ امرءًا باللَّهو والخمر مُولَعًا   شبابي إلى أن آذَن الجِسمُ بالنَّهْج

يذكر في هذا البيت ما ذكره لرسول الله ﷺ عند إسلامه، فأبدله الله بذلك الخير الذي لا يناله إلا من وفقه الله، فتبدلت حال مازن إلى أطيب الأحوال، فكأنه يعرب عن شكره، ويصرِّح بذكر الخير الذي وفقه الله له، وأعانه عليه، فَبَدَل أن يكون ربه ناجرًا، ربه الله ﷻ، وأبدله بالطرب قراءة القرآن، وحفظه شطره، فكان ذلك من حسن الحظ للشيخ السعدي رحمه الله قال مازن:

فـبـدّلـنـي بـالخَـمـر أمـنًـا وخَـشـيـةً   والعَهْرِ إحصانًا فحصَّن لي فَرجي

فأصبحتُ هَمّي في الجِهاد ونيَّتي   فـلـلّـه مـا صَـومـي ولله مـا حَـجّـي

هذا من الشكر بمكان، وذكر النعمة شكر ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

قال: فلمّا كان في العام القابل الذي وفدت فيه على رسول الله ﷺ وآله - هذا يدل أن مازنًا عاد على الرسول ﷺ في السنة الثانية، فقص عليه عن حال أهل عُمَان - فقلت يا المبارك ابن المباركين الطيّب ابن الطيّبين، قد هَدى الله قومًا من أهل عُمَان ومَنّ عليهم بدِينك، وقد أخصبت عُمَان خِصبًا هَنيًّا، وكثرت الأرباح والصَّيد بها، فقال ﷺ: «ديني دين الإسلام سيزيد الله أهل عُمَان خِصبًا وصَيدًا، فطُوبى لمن آمن بي ورآني، وطُوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرَني ولم يرَ من رآني، وأن الله سيزيد أهل عُمَان إسلامًا»، أي سينتشر الإسلام حتى يعم أهل عُمَان كلهم، فكان الأمر كذلك.

وجاء في خبر الفُرس الذين بقوا بعُمَان إلى أن جاء الإسلام وانتشر في الجزيرة العربية، وكتبَ رسول الله ﷺ إلى ملك الفُرس، وهو كسرى أبرويز بن كسرى أنوشروان يدعوه إلى الإسلام، فمزّق كتاب النبيّ ﷺ، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: (**اللهمَّ مزّق شمله كلَّ ممُزّق**)، فلم يُفلح كسرى بعد دعوة النبيّ ﷺ، فسلّط الله عليه ابنه فقتله، وابنه هذا هو شيرويه، ثم إنّ شيرويه هذا اهتم بأمر النبيّ ﷺ، وخاف على نفسه، فكتب إلى عامله بعُمَان واسمه باذان، ويقال الفستحان، وهو المرزبان القائم عنهم بعُمَان، ولقبه المرزبان بحسب عُرف العجم، يقول له في كتابه: (أن أبعث من قِبلك رجلاً عربيًا فارسيًا ـ أي يعبِّر بالفارسية عن العربية يحسنهما معًا ـ صَدُوقًا [مأمونًا] ـ أي يمكن أن نعتمد على مقاله ـ ويكون قد قرأ الكتب ـ أي له علم بخبر ما يأتي من النبوات ـ وأرسله إلى الحجاز يتعرف خبر هذا النبيّ العربيّ) الذي يشيع خبره الآن في العالم، فبعث باذان، ويقال الفستحان رجلاً من طاحية يقال له كعب بن برشة الطاحي، وكان قد تنصر، وقرأ الكتب ـ أي كتب النصرانية ـ فقدم كعب المذكور المدينة، وأتى النبيّ ﷺ، فكلّمه فرأى فيه الصفّات التي يجدها في الكتب، فعرف أنّه نبيّ مُرسل، فعرض عليه النبيّ ﷺ الإسلام، فأسلم كعب، ثم رجع إلى عُمَان، فكان الصحابي الثاني بعُمَان، قال: فأتى باذان فأخبره أنّ النبيّ ﷺ نبيٌّ مُرسل، فقال [باذان]: هذا أمرٌ أريد أن أُشافه فيه الملك، واستخلف على أصحابه الذين بعُمَان رجلاً من قومه يقال له مسكان، وخرج باذان إلى الملك كسرى بفارس ليشافهه فيما هو بصدده من أمر هذا النبيّ الوارد ذكره على مسامع العالم، (ثم إن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل عُمَان ـ أي يدعوهم للإسلام ـ وكان الملك بعُمَان في ذلك العهد الجُلَندى بن المستكبر، وأرسل إليه رسول الله يدعوه للإسلام هو ومن معه من أهل عُمَان، فأجاب الداعي، وأرسل إلى الفُرس الذين بعُمَان، وكانوا مجوسًا فدعاهم إلى التديّن بهذا الدين والإجابة إلى دعوة محمد ﷺ فأبوا، فأخرجهم الجُلَندى قهرًا وصغرًا من عُمَان)، أي أرغمهم على الخروج من عُمَان، حيث لم يقبلوا الدخول في الدين،

ولم يروا بدًا من الخروج، حيث إن العرب أقوى منهم بعُمَان، وإليهم أمرها.

قال الإمام: (وقال آخرون: إنّ النبيّ ﷺ وآله كتب إلى أهل عُمَان يدعوهم إلى الإسلام، وعلى أهل الرِّيف منهم عبد وجَيْفر ابنا الجُلَندى، وكان أبوهما قد مات في ذلك العصر).

قلت: من الجائز أن يكون الجُلَندى هو المدعو أولاً، وقد أجاب الداعي، ثم إنه مات، فكتب ﷺ إلى عبد وجَيْفر، أو أن الجُلَندى كما هو المشهور أنه لقب لكل من ملك عُمَان في الجاهلية، كما قيل لكل من ملك اليمن تُبَّع، ولكل من ملك مصر فرعون، ولكل من ملك على الروم قيصر، ولكل من ملك على الفرس كسرى وهكذا.

قال: فكان في كتابه ﷺ إلى أهل عُمَان: (فأقِرّوا بشهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّي محمد رسول الله، وأدّوا الزكاة، واعمُروا المساجد وإلا غزوتكم)، ولم يذكر في هذه الرواية الصلاة، ولعلها كانت مفهومة، ونص على الزكاة؛ لأنها مالية، وشح النفوس بالمال معروف، ويدل لما قلناه أمره بعمران المساجد، فإنها لا تكون إلا للصلاة.

قال: وعن الواقدي بإسناد: أن النبيّ ﷺ كتب إلى جَيْفر وعبد ابنَي الجُلَندى الأزديّ بعُمَان، وبعث عَمْرو بن العاص بن وائل السَّهمي بكتابه إليهما، وكان صحيفة أقلّ من الشبر فيها نص الكتاب: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى جَيْفر وعبد ابنى الجُلَندى، السّلام على من اتبع الهدى، أمّا بعدُ فإني أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلَما، فإني رسول الله إلى النّاس كافّةً، ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٧٠]، وإنّكما إن أقررتُما بالإسلام ولّيتُكما، وإن أبيتُما أن تُقرّا بالإسلام، فإن مُلككما زائل عنكما، وخيلي تطأ ساحتكما، وتظهر نُبوّتي على مُلككما).

وكان الكاتب لهذا أُبَيّ بن كعب، وهو ﷺ المُمْلي عليه، وطوى الصحيفة، وختمها بخاتمه المبارك، وكان نقش الخاتم لا إله إلاّ الله محمد رسول الله)، وفي

هذه الرواية التصريح منه ﷺ بالرسالة إلى كافة النّاس، كما في القرآن، وأن الإنذار من جملة ما أرسل به عليه الصلاة والسلام، وأن نفس الإقرار بالإسلام يجعل المقر مسلمًا يولى الأمور، ويتولى في الدين، وأن الامتناع من الإقرار بالإسلام يبيح قتال الممتنع مهما كان، وفيه التصريح بأن الإسلام لا يحابي، ولا يداهن، ولا سياسة له غير ما يقتضيه الحق، فمن أقر بالإسلام حَرُمَ دَمُه وماله، ويقاتل على البغي من غير أن يستحل ماله ما لم يصرّح بموجبات الكفر، أما ما كان من خصال الكفر بالتأويل فلا يبيح مال امرئ مسلم، ولا سبيه أبدًا خلافًا لمن رأى ذلك، وقد توعد رسول الله ﷺ جَيْفر وعبد بزوال ملكهما إن لم يُسلما، وأن خيل المسلمين لابد وأن تقاتل من أبى، وقد قاتلت العرب وغيرهم ممّن أصرّ على كفره.

قال الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ: فقدم عَمْرو بن العاص بكتاب النبيّ ﷺ إلى عبد وجَيْفر ابني الجُلَندى بعُمَان، فكان أول موضع دخله من صُحَار دستجرد: وهي مدينة بنتها العجم في صُحار في حال مهادنتهم لبني الجُلَندى، فنزل بها عَمْرو بن العاص وقت الظهر، وبعث إلى بني الجُلَندى، وهم ببادية عُمَان، ولعلهم في الداخل، كما هو المعروف من أن العرب في الداخل، والعجم في الساحل، قال: فكان أول من لقيه عبد بن الجُلَندى، وكان أحلم الرجلين، وأحسنهما خُلقًا، فأوصل عَمْرًا إلى أخيه جَيْفر بن الجُلَندى بكتاب النبيّ ﷺ، فدفعه إليه مختومًا ففض ختامه، وقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته.

❊ ❊ ❊

ملك عُمَان جَيْفر يعقد مؤتمرًا للنظر في الدعوة النبوية

لما عرف جَيْفر جلل الأمر، وهاله الحادث، ولا يدري منتهى المصير فيه، أرجأ الأمر، واستدعى بأهل مشورته. قال الإمام: (ثم التفت إلى عَمْرو فقال له: إنّ هذا الذي تدعو [إليه من جهة صاحبك أمر] ليس بصغير، أو هذا الأمر الذي يدِّعو له أي النبيّ ﷺ بالمثناة التحتية، وقوله من جهة صاحبك يدل أن الخطاب لعَمْرو بن العاص، وأنه هو الداعي، قال جَيْفر: وأنا أُعيد فكري فيه واعلمك، وأنه استحضر جماعة الأزد، ودارت بينهم الآراء والأنظار، ثم حاج الأمر إلى طلب كعب بن برشة للاستفسار عمّا رأى من أمر النبيّ ﷺ وللتأكد منه، فأرسلوا له، فسألوه عن أمر النبيّ ﷺ، فقال كعب: الرجل نبيّ مُرسل، وقد عرفتُ صفته، وسيظهر على العرب والعجم، فأجاب جَيْفر إلى الإسلام بعد ما تحقق الأمر، فأسلم هو وأخوه في ساعة واحدة، ثم بعث جَيْفر إلى وجوه عشائره، فبايعهم لمحمد ﷺ.

قلت: هكذا ينبغي من أهل المناصب إذا عرفوا الحق أذعنوا له، وناصروه ووازروه، وكانوا له أَعيانًا وعُيونًا.

فأدخلهم أي جَيْفر في دينه، وألزمهم تسليم الصدقة، وأمر عَمْرو بن العاص بقبضها، فقبضها على الجهة التي أمره بها النبيّ ﷺ، ثم بعث إلى [دَبَا] ، وما يليها إلى آخر عُمَان ـ أي في الأطراف الشمالية الساحلية ـ قال: فما ورد رسولُ جَيْفر على أحدٍ إلاّ وأسلم وأجاب دعوته إلاّ الفُرس الذين كانوا في ذلك العهد بعُمَان، واجتمعت الأزد إلى جَيْفر بن الجُلَندى، وقالوا: لا يجاورنا العجم بعد هذا اليوم، وأجمعوا على إخراج مسكان ومن معه من الفُرس الباقين في دستجرد، فدعا جَيْفر بالمرازبة والأساورة، فأعلن لهم بأنّه بُعِثَ منّا في العرب نبيّ، فاختاروا منّا إحدى حالتين، إمّا أن تسلموا ـ أي كما أسلمنا ـ وتدخلوا فيما دخلنا فيه، وإمّا أن تخرجوا عنّا بأنفسكم، فأبوا أن يسلموا، وقالوا: لسنا نخرج. قلت: هذا لسوء

حظهم، وقد مارسوا العرب في عُمَان منذ عهد مالك بن فهم وأصحابه، ولم تزل الدوائر تدور عليهم، والهزائم تتوالى عليهم، ولو دخلوا في الدين لأحبهم العرب، ولكان لهم في عُمَان مقام ثابت الدعائم؛ لكن أراد ارتحالهم من عُمَان كليًا، وعندما تحقق إصرارهم على مجوسيتهم، وعلى عدم الخروج من عُمَان بسهولة، اجتمعت الأزد على إجلائهم، ولم يروا بدًا من قتالهم، فزحفوا عليهم بعزائم الإيمان، وكانوا قبل والكل على حال شرك، والنصر للعرب، فكيف بهم الآن والعرب على الإيمان؟ فتقاتلوا قتالاً شديدًا، وقتل [مسكان] الذي أبى الإيمان، وأصر على عبادة النيران، وقتل من أصحاب مسكان كثير، وكذلك قُوّاد جيشه وضباطه، وبقيت منهم بقية تحصّنت في حصنهم بدَسْتَجِرد، فزحف عليهم، وقد استبسلوا، وصار النصر حليفهم، ونشوة الانتصار كادت أن تطير بهم، فضايقوهم بالحصار أشد ما يكون، فلمّا طال بهم الحصار، ورأوا أن لا مناص لهم من الخضوع لأمر العرب طلبوا الصّلح، أو قل طلبوا الإذن لينجوا بأنفسهم فوافقهم العرب على الخروج من عُمَان بتاتًا على أن يتركوا كلَّ صفراء وبيضاء وحلقة وكراع، ويحملوهم بأهاليهم وحاشيتهم في سفينة حتى يقطعوا إلى أرض فارس، فأجابوهم إلى ذلك، وخرجوا من عُمَان كليًا، وذلك آخر عهدهم بها إلا أن الأيام لازال تغريهم على العودة إلى عُمَان، فلم يكن لهم طالع سعيد يستقرون به في عُمَان، فكلما جاءوا غزاة قضى عليهم طالع نحسهم، وسوف ترى منهم في غزواتهم لعُمَان العَجب، والدمار لا يزال حليفهم، والأمر لله.

قال الإمام رَحِمَهُ اللهُ: (وفي السيرة الحلبية أن عَمْرو بن العاص قال: خرجت حتى انتهيت إلى عُمَان، فعمدت إلى عبد، وكان أحلم الرجلين) - أي ألينهما جانبًا - (وأسهلهما خُلقًا، فقلت: إني رسولُ رسولِ الله ﷺ إليك وإلى أخيك، فقال: أخي هو المقدم عليّ بالسن والملك) - أي هو أكبر مني سنًا، وهو الملك - (وأنا أوصلك به حتى يقرأ كتابك).

النقاش يدور بين عبد وعَمْرو

لما تحقق عبد بن الجُلَندى صحة الأمر الذي جاء له عَمْرو بن العاص، فتح له باب النقاش؛ ليعرف الغاية من هذا الطلب، ويدري غاية المصير فيه، فقال: (وما تدعو إليه؟) أي أي شيء تريد؟ وما هو الذي تطلبه بصفتك رسولاً؟ قال عَمْرو: (قلت أدعوك إلى الله وحده، وتخلع مَا عُبد من دونه، وتشهد أن محمدًا عبده ورسوله) ـ أي أدعوك أولاً إلى معرفة الله وتوحيده، وأنه لا شريك له، وترفض سائر المعبودات من دون الله ﷻ، ثم تعترف برسالة مُحمد ﷺ – فقال: أي عبد لعَمْرو بن العاص: (إنك ابن سيد قومك، فكيف صنع أبوك؟ يعني العاص بن وائل، فإن لنا فيه قدوة)، والمعنى أنك من أكابر قريش؛ لأن أباك من لا يجهل شرفه، وشهرته في قومه، وأهل الشرف لا يليق بهم إلا قول الصدق الذي لا يخل بشرفهم، ولا يقدح في مناصبهم، وكأنه استكبر الأمر، فإن العاص، وأمثاله هم عتاة قريش، فإنه لابد أن يكون حجة لنا في هذا الأمر الذي جئت له، قال، أي عَمْرو بن العاص: (قلت مات ولم يؤمن بمُحمد ﷺ، وودت له لو آمن، وصدق به) لكان خيرًا له، وقد كنت على دينه، (وعلى مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام)، قال عبد: (فمتى تبعته؟) ـ أي قبل موت أبيك أم بعده؟ ـ فقال عَمْرو: (قريبًا) ـ أي أتبعته من قريب ـ قال: (فسألني أين كان إسلامي؟ قلت عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم، قال فكيف صنع قومه بملكه؟ قلت: أقروه واتبعوه، قال) ـ أي عبد ـ: (والأساقفة ـ أي رؤساء النصرانية والرهبان ـ قلت: نعم). ـ أي كذلك ـ وهنا استكبر الأمر، واتهمه فيه، فقال أي عبد: (انظر يا عَمْرو) ـ أي فيما تقول ـ (إنه ليس خصلة في رجل أفضح له – أي أكثر فضيحة من كذب) ـ أي أن هذا الأمر الذي تخبرني به كبير، ولا يتأتى بالهوينا، وبالخصوص عند النصارى لاسيما وهم أعداء العرب ـ قال عَمْرو: (قلت: وما كذبت، وما نستحله في ديننا، ثم قال) ـ أي عبد ـ: (ما أرى هِرَقل علم بإسلام النجاشي؟) ـ أي هو تحت سيطرة

هِرَقل، وهِرَقل ملك عظيم، والنجاشي من أخص أهل طاعته ـ قال عَمْرو: (قلت له بلى) ـ أي علم بذلك ـ فقال: (بأي شيء علمت ذلك يا عَمْرو؟ قلت: كان يُخرج له النجاشي ﷺ خراجًا، فلمّا أسلم النجاشي وصدّق بمحمد ﷺ وآله، قال: لا والله لو سألني درهمًا واحدًا ما أعطيته) ـ أي لأن العطاء يكون عونًا له، ولا تصح إعانة الكافر فيما يتقوى به على المسلمين ـ قال: (فبلغ ذلك هِرَقل قوله، فقال له أخوه: أتدع عبدك لا يخرج لك خراجًا ويدين دينًا محدثًا؟) وهذا على عادتهم إذ يرون عمالهم عبيدًا لهم، قال: (فقال هِرَقل: رجل رغب في دين واختاره لنفسه ما أصنع به؟) وحرية الأديان في الشريعة الأولى معروفة، أشار إليها القرآن بقوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦] الآية في أمثالها. قال هِرَقل: (والله لولا الضن بملكي لصنعتُ كما صنع)، ومعنى قوله لولا الضن بملكي ـ أي لولا أن نفسي لا تسمح أن أتخلى عن هذا الملك الذي في يدي لأسلمتُ كما أسلم النجاشي.

قلت: وقد جاء ذكر إسلام هِرَقل في روايات شهيرة. فقال عبد لعَمْرو: (انظر ما تقول يا عَمْرو؟) وهو يتهمه. قال عَمْرو: (قلت: والله قد صدقتك) ـ أي قلت لك الصدق والواقع ـ (قال عبد: فأخبرني ما الذي يأمر به، وينهى عنه؟ قال: (قلت: يأمر بطاعة الله ﷻ، وينهى عن معصيته). قلت: لما فَرَغ عبد من البحث عن أحوال هؤلاء الملوك، وسمع ما سمع من قبولهم الإسلام، وخضوعهم لأوامره، واعتناقهم له، إلتفت إلي استفسار ما يأمر به هذا النبيّ، وما ينهى عنه، وهل هو مما يقبله العقل ويصوّب له، أم يرى في أوامر اضطرابًا؟ ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢].

وما أغزر عقل هذا البطل الأزدي، وما أدراه بموارد الأمور ومصادرها، قال: (ويأمر بصلة الرحم والبر، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنى، وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب).

قلت: وهذه الأوامر والنواهي في هذه الكلمات الوجيزة هي عمود الإسلام وجوهره، فإن الأمر بطاعة الله ﷻ والنهي عن معصيته جماع كل خير، وصرف كل شر، وكذلك الأمر بالبر، فهو اسمٌ جامعٌ لأنواع الطاعات وقوله: وينهى عن الظلم، وهو اسمٌ لكل شرٍّ قليلاً كان، أو كثيرًا، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وكذلك العدوان، فإن كل ما خرج عن كونه طاعة وخيرًا، فهو عدوان سواء كان قولاً، أو فعلاً، أو نحو ذلك، ثم صرح أيضًا بالنهي عن الزنى، وشرب الخمر، وعن عبادة الأحجار والأوثان ـ أي التماثيل ـ وكذلك الصلبان، ففي هذه الأوامر جماع روح الإسلام وجوهره، ولا ريب فإن رسول الله ﷺ أوتي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارًا؛ فلهذا خرجت أوامره بمثل هذه العبارات، فتلقاها أصحابه منه، فخرجوا بها إلى سائر الأمم دعاةً، وهداةً مبلغين عنه ومبشرين ومنذرين.

فلمّا سمع عبد بن الجُلَندى هذه الأوامر سرته واستحسنها، وبطبيعة الحال إن الحق مقبول، وله في القلوب تأثير، ولو جاء على لسان كافر، فلذلك قال عبد: (ما أحسن هذا الذي يدعو إليه!) كما شهد به أيضًا هِرَقل في حديثه مع أبي سفيان. قال عبد: (لو كان أخي يطاوعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ﷺ) ـ أي لكان من الواجب أن نَفِدُ عليه ﷺ في مقره ـ (فنصدق به)، ونواجهه، فيكون ذلك لنا أكبر شأنًا، وأعلى قدرًا عند الله، ولا نكتفي بالإيمان به من بعيد، وعلى لسان رسوله عَمْرو بن العاص، ولله در عبد لذلك السيد الطويل النظر، الصحيح الفكر، ولله در الأخلاق إنها لدليل على حقائق أهلها. قال عبد: (ولكن أخي لا يتابعني)، وفي رواية (لكن أخي أضن بملكه من أن يدعه، ويصير ذنبًا، ـ أي تابعًا) ـ قال: (قلت إنه إن أسلم مَلَكَهُ رسول الله ﷺ على قومه) ـ أي لا غرض له ﷺ في الأمور الدنيوية، ويعلم عَمْرو بن العاص وهو رسوله ﷺ أن كل ما يرمي إليه النبيّ طاعة الله ﷻ، وإذا لم يخضع للإسلام فلن يتركه ﷺ على ملكه، وهو مُصِر على كفره، فإن حجة الله على الأمة أنبياؤها على ملوكها، وملوكها على

رعيتها، وبإصرار الملوك تستباح حرم الملوك كما في أحاديث شهيرة عنه ﷺ، وبالانقياد للحق من الزعماء يكتفي عن الباقين، كما دل عليه قول عَمْرو نفسه - (فأخذ الصدقة من غنيهم فردها [على] فقيرهم) - أي أن الله - عز وعلا - فرض النفقة على الأغنياء للفقراء، فكانت منه تعالى وصلةَ رابطةٍ بين المسلمين، وموفرة على الفقراء أحوالهم، ومسعدة لهم من أهل الأموال - قال عبد: (إن هذا الخلق حسن). قلت: كيف لا يكون حسنًا؟ وهو سياسة حكيم السماوات والأرض، خالق الحكمة، ومنظم الأمة سبحانه وتعالى، ما أعظم شأنه، وما أعلى ميزانه. قال عبد: (وما الصدقة؟) أي ما صفتها وما حكمها؟ قال عَمْرو: (فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ على أمته من الصدقات في الأموال) - أي على اختلاف أنواعها - قال: (ولما ذكرت المواشي، قال) عبد: (يا عَمْرو ويأخذ من سوائم مواشينا التي ترعى في الشجر، وترد المياه) - أي رأى ذلك مستغربًا عنده، وغفل عما عداها من نوعها؛ لأنه كان يعلم ضرائب الملوك على أموال العباد على غير هذا النمط، وإنما هي قوانين تسنها الملوك على الأمة بمقتضى الهوى - قال عَمْرو: (فقلت: نعم) - أي يأخذ ذلك الذي استنكرته، وليس بمستنكر، والله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون - فقال أي عبد: (والله ما أرى قومي في بعد دارهم، وكثرة عددهم يطيعون بهذا) - أي يرونه عظيمًا أن يتصرف أحد في أموالهم كهذا التصرف، فينزع منه قسمًا لأجنبي.

قال عَمْرو بن العاص: فبقيت أتردد على باب جَيْفر، (وقد أوصل إليه أخوه خبري، ثم إنه دعاني فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعي أي عضدي، قال: دعوه. فأرسلت) - أي أطلقوني - قال: (فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعوني أجلس)، وأظهروا له عتوًا، قال: (فنظرت إليه) - أي في ذلك الحال - فقال: (تكلم بحاجتك)، قال: (فدفعت إليه كتابًا مختومًا، ففض ختامه فقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه أي عبد)، ثم أدار النقاش جَيْفر من نوع نقاش

أخيه عبد قائلاً: (ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت؟) أي وهم أشد مراسًا، وأطول يدًا ولسانًا، وأخص به من غيرهم؟ قال عَمْرو: (فقلت اتبعوه إما راغب في الدين، وإما راهب مقهور بالسيف)، وإنه لجواب مدهش جامع لمقتضى المقام، وهكذا ينبغي أن تكون رسل الزعماء والأكابر. قال جَيْفر (ومن معه) أي الرسول ﷺ. قال عَمْرو: (قلت النّاس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا في ضلال مبين)، أي أن الإسلام مال إليه النّاس بطبيعة حاله الجذابة الفعالة في العقول السليمة، انقيادها إلى عزها وشرفها الذي جابهها به الإسلام وصارحها به سيد الأنام، قال عَمْرو: (فما اعلم أحدًا بقى غيرك في هذه الخرجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه تطؤك الخيل، وتبيد خضراءك). قال الإمام: ـ (أي جماعتك) ـ (فأسلم تسلم، ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال)، أي فإنك لا شك تتأهب لحرب المسلمين الذين دوخوا الأكاسرة والقياصرة، ولست بأقوى منهم.

ولما سمع هذه الكلمات من عَمْرو بن العاص ذلك الداهية، هزته وزلزلت من كيانه، وعلم أن الحرب ما بينه وإياها إلا رجوع عَمْرو بن العاص، فقال لعَمْرو: (دعني يومي هذا، وارجع إلي غدًا). قال: (فلمّا كان الغد أتيته فأبى أن يأذن لي، فرجعت إلى أخيه فأخبرته أني لم أصل إليه، فأوصلني إليه، فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملّكت رجلاً ما في يدي وهو لا تبلغ خيله إلى ها هنا، وإن بلغت خيله ألفت ـ أي وجدت ـ قتالاً ليس كقتال من لاقى). قال عَمْرو: (قلت وأنا خارج غدًا). قال: (فلمّا أيقن بمخرجي خلى به أخوه، فأصبح فأرسل إلى فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه وصدقا، وخلّيا بيني وبين الصدقة، وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عونًا على من خالفني).

وانظر إلى جرأة عَمْرو بن العاص، حيث يقول لجَيْفر لما قال: فكّرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملّكت رجلاً ما في يدي، وهو لا تبلغ

خيله إلى ها هنا، وإن بلغت خيله ألفت قتالاً ليس كقتال من لاقى، قال له: إن لم تسلم اليوم وتتبعه تطؤك الخيل وتبيد خضراءك، أي رجالك، وهذا من الجرأة بمكان، حيث بقولها للملك في عرش ملكه، وبين أرهاطه وجنوده؛ ولكن مقام الإسلام عظيم، والرسول في الحقيقة عين المُرسل، وقد انتخب الرسول ﷺ ذلك الداهية المعروف بأرطبون العرب.

وفي الحقيقة أن عبد بن الجُلَندى كان داعية الرسول ﷺ إلى الإسلام، حيث أسلم جَيْفر بالأفكار الطيبة من عبد، وفي النص الإلهي يقول: (من ثمارهم تعرفونهم)، وقد جاء في بعض الروايات: أن عبدًا قال لأخيه جَيْفر: (أطعه، فإن كان الرجل صادقًا فيما يدعي كنت ممن أطاع، ولك بذلك الشرف، وإن كان كاذبًا، فقد أطاعته العرب) إلخ، وهذا من التفكير الصحيح الذي لا يهتدي إليه إلا الموفق من النّاس، فلمّا أسلم جَيْفر وعبد أسلم أهل عُمَان حالاً، وفشا الإسلام مصداقًا لقوله ﷺ: (النّاس في دين ملوكهم). ولهذا كان الرسول ﷺ يُحَمِل جرائم الأمة على الزعماء؛ لأن لهم الطاعة عليهم طبعًا، ويدل حديث عَمْرو بن العاص مع ملكي عُمَان أن الأمة إذا أسلمت وجبت عليها الزكاة حالاً، فلا ينتظر بها الحول منذ وقع الإسلام، بل يتعين الوجوب، وهو واضح، وكان جَيْفر وعبد عونًا لعَمْرو بن العاص على النّاس، فبلغ بهما الأرب الذي أراده رسول الله ﷺ وهو إنقاذ الأمة من هوة الكفر الموجب للخلود في النار والعياذ بالله منها.

ولما فشا الإسلام في عُمَان، وعمَّ الداني والقاصي فيهما، وصار عَمْرو بن العاص حاكم البلاد، ونفذت أوامره الإسلامية بمعونة ذينك الملكين الكريمين اللذين كانا عونًا لعَمْرو بن العاص على نشر الدعوة، وبث روح الإسلام، وأقام عَمْرو بين القوم معززًا مكرمًا حتى هم بالرجوع إلى المدينة، وتحفز للخروج، وإذا بالمنية تقضي على سيد الأولين والآخرين.

قال الإمام ﷺ: (بعد أن مكث عَمْرو بن العاص في عُمَان عاملاً عليها لرسول

الله ﷺ وأهلها له طائعون، ولقوله سامعون إلى أن بلغته وفاة رسول الله ﷺ فعزم على الرجوع إلى المدينة).

❊ ❊ ❊

عَمْرو بن العاص أمير عُمَان يخرج إلى المدينة معبرًا عن انقياد أهل عُمَان للإسلام

لقد قضى عَمْرو بن العاص تلك الثلاثة الأعوام في عُمَان آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، باثًا أوامر الإسلام، معلمًا للناس أمر دينهم، رأى الرجوع إلى المدينة للتعبير عن مهمته الوحيدة ومؤديًا إلى ولي الأمر الواجبات المحمولة على عاتقه عزم على الخروج راجعًا إلى المدينة عاصمة الإسلام وبيضة الدين.

فقام لصحبته السيد الهمام عبد بن الجُلَندى لسان الملك، وعون ابن العاص رسول الرسول ﷺ، مؤديًا للواجب ومعززًا للأمير القرشي السهمي لسان الإسلام في عُمَان، ومظهرًا لإسلام أهل عُمَان، وانتخب معه من أعيان قومه الرجال الفطاحل، مثل جعفر بن جشم العتكي، وأبي صفرة سارف بن ظالم من كبراء الأزد في عُمَان، ومن المنظور إليهم في ذلك الأوان، وأن الرجل من أجلة العُمَانيين كما عبّرنا عنه في [كتاب] (رعاية الأحساب)، مع جملة من أعيان عُمَان ذكرهم التاريخ العُمَاني، وغيره، كما سوف تسمع عنهم، واصطحب معه الخفراء من الأزد، وعبد القيس يأمن بهم في طريقه عملاً بالقضايا العربية إذ ذاك.

ومر على المنذر بن ساوى حاكم البحرين في هجر، ومر على بني حنيفة، فأخذ منهم أيضًا خفراء حتى نزل أرض بني عامر، فنزل على قرة بن هبيرة القشيري، وقيل خرج قرة بن هبيرة مع عَمْرو في مائة رجل من قومه خفراء له، قال: (وأقبل عَمْرو بن العاص يلقى النّاس مرتدين ـ أي عن الإسلام ـ حتى أتى ذا القصة، فلقيه عيينة بن حصن خارجًا من المدينة، وذلك حين قدم على أبي بكر، ويقول: إن جعلت لنا شيئًا كفيناك ما وراءنا، فقال له عَمْرو بن العاص: ما وراءك

يا عيينة من ولى النّاس أمورهم؟ قال أبو بكر، فقال عَمْرو: الله اكبر. قال عيينة: يا عَمْرو استوينا نحن وأنتم، فقال عَمْرو: كذبت يا ابن الأخابث من مضر، قال: وسار عيينة فجعل يقول لمن لقيه من النّاس احبسوا عليكم أموالكم، قالوا: فأنت ما تصنع؟ قال: لا يدفع إليه رجل من فزارة عناقًا واحدة، ولحق منذ ذلك بطليحة الأسدي، فكان معه، قال: ولما فرغ خالد ـ أي ابن الوليد ـ من بيعة بني عامر) صال على عيينة بن حصن المذكور صولة الأسد الباسل، فأوثقه كتافًا، وأوثق معه قرة بن هبيرة القشيري، (وبعث بهما إلى أبي بكر ﷺ).

(قال ابن عباس ﷺ: فتقدم بهما إلى المدينة في وثاق، فنظرت إلى عيينة مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ينخسه غلمان المدينة بالجريد، ويضربونه ويقولون: أي عدو الله أكفرت بالله بعد إيمانك، فيقول: والله ما كنت آمنت بالله. قال: فلم يعاقب أبو بكر ﷺ قرة وعفا عنه، قال: وكتب له أمانًا وكتب لعيينة أمانًا، وقبل منه)، قلت: إنما كان ذلك سياسة من أبي بكر ﷺ بهؤلاء المؤلفة قلوبهم، ولهم في النفاق حظ وافر؛ لكي تهدأ العرب، ويسكن روعها، فإن عهدهم بجاهليتهم قريب، والشيطان يراوحهم ويغاديهم، وبكفره يناديهم.

قال: (وفي (كامل) ابن الأثير: مات رسول الله ﷺ وعَمْرو بعُمَان، قال: فأقبل حتى انتهى إلى البحرين، فوجد المنذر بن ساوى في الموت، ثم خرج عنه إلى بلاد بني عامر، فنزل بقرة بن هبيرة، وقرة يقدم رجلاً، ويؤخر أخرى) ـ أي في الارتداد، وقد لعب به الشيطان ليرديه ـ. قال: (ومعه عسكر من بني عامر، قال: فذبح له، وأكرم مثواه، فلمّا أراد الرحلة خلا به قرة، وقال: يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفسًا بالإتاوة) ـ أي ضريبة الملوك، ويعني بها الزكاة، فهو يعتقدها من ذلك النوع ـ قال: (فإن أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم، فقال له عَمْرو: أكفرت يا قرة تخوّفنا بالعرب، فوالله لأوطئن عليك الخيل في حفش أمك)، والمراد به البيت المسترذل بسكونه، وكان

ذلك تهديدًا من الداهية القرشي السهمي الذي قيضه الله لتركيز دعائم الإسلام كسائر إخوانه المخلصين في مساعيهم، وفي ذلك تأييد للدين، وتدعيم قواعد المسلمين، قال: (وقدم على المسلمين بالمدينة، وأخبرهم فطافوا به يسألونه، فأخبرهم أن العساكر معسكرة من دَبَا إلى المدينة، قال: فتفرقوا وتحلقوا حلقًا، وأقبل عمر يريد التسليم على عَمْرو بن العاص، فمر على حلقة فيها علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد، قال: فلمّا دنا منهم عمر سكتوا، فقال ـ أي عمرـ: فيم أنتم؟ فلم يجيبوه، فقال لهم: إنكم تقولون ما أخوفنا على قريش من العرب) ـ أي لأن ما وقع من الرسول الله ﷺ في العرب من قتل وأسر واستئصال معدود على قريش؛ لأن الرسول الله ﷺ منهم، وهو الأمر وهو الفاعل، وقريش قومه وهم معه، وكان ذلك يترآى له بألمعيته المخصوص بها من الله؛ لذلك لما قال لهم هذا المقال قالوا كلهم ـ: (صدقت، قال عمر: لا تخافوهم إنا والله منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم، والله لو تدخلون معاشر قريش حجرًا لدخلته العرب في آثاركم)، قلت: ذلك لما علمه من الرسول الله ﷺ، إذ يقول: «النّاس تَبَعٌ لِقُرَيشٍ مُسْلِمُهُمْ لِمُسْلِمِهِمْ وَكَافِرُهُمْ لِكَافِرِهِمْ»، وقوله: «لا يَزَالُ هَذَا الأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ منهم رَجُلانِ، أو قال ما بقي فيهم رجلان»، أو كما قال عليه الصلاة والسلام، وقد رسخ في ذهن الفاروق تحقيق الحقائق التي علمها من الشارع ﷺ، وما أدركه بألمعيته النيّرة الوقّادة رضي الله عنه وغفر له.

وبذلك المقال السياسي أيضًا أسكن حفيظة القوم، وهدّأ روعهم وبشرهم بمستقبلهم الحسن، قال عمر: (فاتقوا الله فيهم) ـ أي في العرب ـ قال: (ومضى عمر فلمّا قدم بقرة بن هبيرة على أبي بكر أسيرًا استشهد بعَمْرو على إسلامهم، فأحضر أبو بكر عَمْرًا فسأله: فأخبره بقول قرة إلى أن وصلا إلى ذكر الزكاة، فقال قرة: مهلاً يا عَمْرو، فقال: كلا والله لأخبرنه بجميعه، فعفا عنه أبو بكر، وقبل إسلامه). وقوله: لما وَصَلا إلى ذكر الزكاة قال قرة: مهلاً يا عَمْرو ـ أي

لا تخبره، فإن ذلك بيت القصيد، وقوله: كلا والله لأخبرنه بجميعه كان ذلك واجب الأمانة الدينية في الإسلام - وكان من سياسة أبي بكر ﷺ تألف الأمة ليهدّأ روعها، وتسكن ثائرتها، ويصطلك حجر الإسلام على بعضه بعض. وللرجال سياسات كما للأوقات كذلك.

قال الإمام: (وذكر ابن الأثير في كامله أيضًا في قدوم عَمْرو على معاوية بعد قتل عثمان قال: وكان قد علم الذي يكون فعمل عليه؛ لأن النبيّ ﷺ كان قد بعثه إلى عُمَان، فسمع من خبر هناك شيئًا عرف مصداقه، فسأله عن وفاة النبيّ ﷺ ومن يكون بعده، فأخبره بأبي بكر، وأن مدته قصيرة، ثم يلي بعده رجل من قومه مثله تطول مدته، ويقتل غيلة، ثم يلي بعده رجل من قومه تطول مدته، ويقتل عن ملأ. قال ذلك أشر، ثم يلي بعده رجل من قومه ينتشر النّاس عليه، ويكون على رأسه حرب شديدة، يُقتل قبل أن يجتمع النّاس عليه، ثم يلي بعده أمير الأرض المقدسة، فيطول ملكه، وتجتمع عليه أهل تلك الفرقة، ثم يموت).

وكان الرجل الذي تطول مدته ويقتل غيلة هو عمر بن الخطاب ﷺ والمراد بالرجل الذي تطول مدته، ويقتل عن ملأ هو عثمان، إذ اجتمع عليه المسلمون من نواح عديدة وحصروه في بيته مدة حتى قتل، والمراد بالرجل الذي تكون على رأسه حرب شديدة، ثم يقتل قبل أن يجتمع النّاس عليه هو علي بن أبي طالب، والمراد بالرجل الذي يكون أمير الأرض المقدسة، ويطول ملكه معاوية بن أبي سفيان، وقد قال ابن الأثير بهذا في كتابه الكامل متلقيًا له بالنقل عمّن لهم العلم به، والمعنى لذلك مال عَمْرو بن العاص إلى موطأة معاوية بن أبي سفيان، إذ رأى القضايا جاءت تترى كما قيل له، فكانت طبق ما قيل له.

ولا شك أن مثل عَمْرو بن العاص الداهية الوحيد في قومه يرى القضايا رأي العين، كما قيل له عنها لا يرضى أن يكون فيها ذنبًا، بل يرضى أن يكون فيها رأسًا وهامة، وقد تلقى عَمْرو بن العاص هذا الأمر من يهودي من يهود صُحار،

كما أشار إليه ابن الأثير.

قال الإمام السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يذكر إسلام أهل عُمَان في (تحفة الأعيان)، (وفي تاريخ الخميس: كان عَمْرو بن العاص عاملاً للنبي ﷺ على عُمَان فجاءه يومًا يهودي من يهود عُمَان، فقال له: أرأيتك إن سألتك عن شيء أأخشى عليّ منك؟ قال: قال لا. قال اليهودي: أنشدك بالله من أرسلك إلينا؟ قال: اللهم رسول الله. قال اليهودي: آلله [أنك] لتعلم أنه رسول الله؟ قال عَمْرو: اللهم نعم. فقال اليهودي: [لئن] كان حقًا ما تقول لقد مات اليوم، فلمّا رأى عَمْرو ذلك جمع أصحابه وحواشيه، وكتب ذلك اليوم الذي قال له اليهودي فيه ما قال، ثم خرج بخفراء من الأزد وعبد القيس يأمن بهم في طريقه، قال فجاءته وفاة رسول الله ﷺ في الطريق أي في بهجر ـ المعروفة إذ ذاك ـ ووجد ذكر ذلك عند المنذر بن ساوى، فسار حتى قدم أرض بني حنيفة، فأخذ منهم خفراء حتى جاء أرض بني عامر، فنزل على قرة بن هبيرة القشيري)، وذكر الحديث الذي قدمناه، ومفاده أن عَمْرو بن العاص تلقى من ذلك اليهودي الذي حدثه بصُحار عن وفاة النبيّ ﷺ معلومات هامة، فسار في حياته على ضوئها فرآها لا تزال تأتي كما قال له ذلك اليهودي، فلذلك تحيّن الفرصة، وعمل بمقتضى ما صح معه، وكان الأمر جليًا نصب عينه، وغير بعيد أن يصح ما قاله ذلك اليهودي؛ لأن اليهود أتاهم الله التوراة، وفيها ذكر الرسول ﷺ صريحًا، وذكر قومه، وما يكون بينهم، وما يقع لهم من النصر على من عاداهم، والظفر لمن خاصمهم، وقد قال اليهود في المدينة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنا نجدك في التوراة، قال تجدوني ماذا؟ قالوا: نجدك قرنًا، قال قرن ماذا؟ قالوا قرن من حديد.

ولا يدركون مثل هذا إلا بنص نبوي، وقد صح ذكر هذه الأمة في الكتب السابقة حتى تمنى موسى بن عمران ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يكون منها، كما في خبر الألواح، فكان ما قاله يهودي صُحار أمرًا واقعًا، وكان عَمْرو من مشاهير

رجال الدنيا الذين يرغبون فيها، ويميلون إليها.

قال الإمام رَحِمَهُ اللهُ: دخل عَمْرو بن العاص على أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومعه رجال الأزد من عُمَان، (فقام سارف بن ظالم خطيبًا، فقال: يا خليفة رسول الله ﷺ، ومعاشر قريش، هذه أمانة كانت في أيدينا وفي ذمتنا وديعة لرسول الله ﷺ، فقد برئنا منها إليك. فقال أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: جزاكم الله خيرًا، وأثنى عليهم المسلمون خيرًا، وقام الخطباء بالثناء عليهم المدح، فقالوا: كفاكم معاشر الأزد قول رسول الله ﷺ وثناءه عليكم، ثم قام عَمْرو بن العاص - والي عُمَان - فلم يدع شيئًا من المدح والثناء إلا قاله في الأزد، ثم جاءت وجوه الأنصار من الأزد، وغيرهم مسلمين على عبد ومن معه، فلمّا كان من الغد أمر أبو بكر فجمع النّاس من المهاجرين والأنصار، وقام أبو بكر خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر النبيّ فصلى عليه وقال: معاشر أهل عُمَان إنكم أسلمتم طوعًا لم يطأ رسول الله ﷺ ساحتكم بخف ولا حافر، وجَشَّمْتُمُوه ما جَشَّمَهُ غيركم من العرب، ولم ترموا بفرقة، ولا تشتت شمل، فجمع الله على الخير شملكم، ثم بعث إليكم عَمْرو بن العاص بلا جيش ولا سلاح، فأجبتموه إذ دعاكم على بعد داركم، وأطعتموه إذ أمركم على كثرة عددكم وعدتكم، فأي فضل أبر من فضلكم، وأي فعل أشرف من فعلكم، كفاكم قول رسول الله ﷺ إلى يوم الميعاد، ثم أقام فيكم عَمْرو ما أقام مكرمًا، ورحل عنكم إذ رحل مسلمًا، وقد مَنَّ الله عليكم بإسلام عبد وجَيْفر ابنى الجُلَندى، وأعزكم الله به، وأعزه بكم، وكنتم على خير حال حتى أتتكم وفاة رسول الله ﷺ، فأظهرتم ما يضاعف فضلكم) - أي وهو انقيادكم للحق، وتعزيزكم له، حيث لما بلغتكم وفاة الرسول ﷺ ثبتم على الإسلام، ولم تتزعزعوا كما تزعزع غيركم من النّاس، ولا تقلقلوا كما تقلقوا، وأنتم كثيرو العدد - قال أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (وقمتم مقامًا حمدناكم فيه)، وهو ثباتهم على الحق، ومؤازرتهم له وتأييدهم، قال: (ومحضتم بالنصيحة)- أي أخلصتموها وصارحتم بها - قال: (وشاركتم بالنفس

والمال، فيثبت الله ألسنتكم، ويهدي قلوبكم، وللناس جولة)- أي لابد لهم من تزعزع وحيرة ودهشة - قال: (فكونوا عند حسن ظني فيكم) - أي وهو ثباتكم القوي على دينكم، وفي طاعة إمامكم وزعيمكم -، قال: (ولست أخاف عليكم أن تغلبوا على بلادكم) - أي لأنكم صارعتم الجنود الفارسية مدة طويلة حتى قضيتم عليهم، فلا أخشى عليكم أحدًا بعدهم بحسب ظاهر الحال لا حكمًا على الغيب - قال: (ولا أن ترجعوا عن دينكم) - أي دلائل الحال قاضية بذلك، ودلائل المقال عن رسول الله ﷺ شاهدةٌ بذلك - وسوف تقف عليها أيها القارئ الكريم في فضائل أهل عُمَان من هذا الكتاب إن شاء الله.

قال: (جزاكم الله خيرًا)، ثم سكت) أبو بكر، ولقد ساس وهذّب وقوّى وأيّد وحذّر ووحّد ودَعَا وأرشد، وهكذا البلغاء وعلى ذلك يقوم علم الحق فوق الرؤوس، ولله در أبي بكر سيد المسلمين وخليفة المصطفى الأمين.

* * *

أبو بكر يُجَهّز عبد بن الجُلَندى ومن معه لحرب آل جفنة

لقد سُر أبو بكر ﷺ بملقى عبد بن الجُلَندى ومن معه من أبطال الأزد، وابتهج بهم تمام الابتهاج، فأثنى عليهم في خطبته المارة آنفًا، وشكرهم شكرًا لا يخفى على أهل العقول الصحيحة، وَلِما رأى، وما سمع عنهم، وما فَهِم منهم عوّلِ عليهم في حرب آل جفنة من أزد الشام، فكان أراد أن يدق الصخر بمثله، ويرمي الهدف عن خبرة، فأراد من عبد بن الجُلَندى أن يهاجم الغساسنة العتاة في أرض الشام، فإنهم حجر خشن، فما تلكأ عبد وأصحابه على أبي بكر، ولا اعتذروا له بالمعاذير. ولولا أنا معنيّون بتاريخ عُمَان لذكرنا قضايا الارتداد كيف كانت، وفيمن كانت؟ كما أنا لم نذكر الحوادث الخارجية عن عُمَان، وإن كان وقوعها بأهل عُمَان لاسيما ما كان من غير أهل عُمَان، وإن كانت له علاقة بتاريخ عُمَان؛ لأن ذلك شيء يطول علينا، وحسبنا ذكر الأهم من تاريخنا العُمَاني، وإن أشرنا

إلى هذه القضية العُمَانية الغسانية فما ذلك إلا كالتعريف بفضائل عبد بن الجُلَندى وأهل عُمَان معه.

قال الإمام رَحَمَهُ اللهُ: (وقيل أن عبدًا استنهضه أبو بكر لمقاتلة آل جفنة، فأجابه إلى ذلك، قال فسرى له سرية وأمره عليها، فخرج عبد) المذكور يقود جيشًا فيه أعيان المهاجرين والأنصار، ومن لف معهم من العرب، قال: (فخرج عبد على السرية) - أي أميرًا عليها - وجد في السير (حتى أتى آل جفنة بالشام في ديارهم).

قال الإمام رَحَمَهُ اللهُ: (ولها حديث يطول ذكره).

قلت: لما كان ليس من أخبار بلادنا العُمَانية نكتفي بالإشارة إليه هنا عن سرد ذكره. قال: (وقد شهر مقام عبد، وعرف مكانه)، قال: (وكان في السرية) من شعرائه ﷺ، (حسان بن ثابت الأنصاري، فلمّا قدموا من ديار آل جفنة قام حسان) بين ظهراني المسلمين يعلن الثناء البليغ على عبد بن الجُلَندى، ومن جملة مقاله: (قد شهر مقام عبد في الجاهلية والإسلام، فلم أر رجلاً أحزم ولا أحسن رأيًا وتدبيرًا من عبد، هو والله ممن وهب نفسه لله في يوم غارت صباحه، وأظلم صباحه).

فتهلل وجه أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وسر به، فقال: (هو يا أبا الوليد كما ذكرت، والقول يقصر عن وصفه، والوصف يقصر عن فضله)، فلمّا بلغ ذلك عبدًا بعث إلى حسان بن ثابت بمال عظيم، وأرسل إليه قائلاً: (إن مالي يعجز عن مكافأتك فأعذر فيما قَصُر، واقبل ما تيسر)، وعندما عزم عبد ومن معه من العُمَانيين على الرجوع إلى أوطانهم زوّدهم أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (كتابًا إلى أهل عُمَان كافة يشكرهم فيه، ويثني عليهم)، ولقد أقر أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جَيْفر على ملك عُمَان كوالٍ لعُمَان من طرف الخليفة.

قال الإمام في تحفة الأعيان: (ذكر في بعض السير العُمَانية أن أبا بكر أقر جَيْفر وأخاه جميعًا على ملك عُمَان، وجعل لهما أخذ الصدقات من أهلها وحملها إليه)، كما سوف ترى بسط ذلك في محله إن شاء الله، وهو دليل على جعله واليًا لعُمَان كما قلنا، ولعل بعد ذلك أراد اختبار القوم، أو أن السياسة اقتضت أمرًا،

ولكل زمان سياسة، ولكل وقت أعمال، ولكل أمير وجهة، وأبو بكر أفضل الأمة بإجماع من يعتد بإجماعه في شيء بعد رسول الله ﷺ.

* * *

عُمَان وأبو بكر رحمه الله تعالى طيلة حياته

لقد تولى أبو بكر ﷺ، ورضي عنه ـ أمر المسلمين، وعُمَان بيد واليها عَمْرو بن العاص يدبر شؤونها معززًا بملكيها، جَيْفر وعبد، ولما بلغت عَمْرو بن العاص وفاة رسول الله ﷺ هم بالرجوع إلى بيضة المسلمين راجعًا بأمر ولايته إلى الخليفة المستخلف، مصطحبًا معه من خيار أهل عُمَان سبعين راكبًا تحت رايته يقدمهم ذلك السيد الهمام عبد بن الجُلَندى ملك عُمَان حتى وصل المدينة، وإذا بالخليفة للمسلمين أبو بكر أول إمام صحيح الإمامة، وأول رجل سد الله به فراغ الثلمة التي أدهشت المسلمين، وانزهقت منها أرواح أهل الإيمان، وزاغت بها قلوب أهل الجهل الذين لم يتمكن الإسلام من قلوبهم، ولم يرسخ الإيمان في أذهانهم، فكان أبو بكر الحجر الثقيل الذي لم يقدر الزائغون على تحريكه عن مقره، فألقى عَمْرو بن العاص إليه مهمته التي جاء بها، وتلقاها أبو بكر بصدر رحيب، وقلب منشرح، وعزيمة ثابتة، لا تؤثر عليها الهيشات، فأثنى أبو بكر على أهل عُمَان ثناء بالغًا، وشكرهم شكرًا وافرًا، حيث آمنوا طائعين، ووصلوه مذعنين خاضعين، مع أن أغلب العرب تزعزعت، فمنها المرتد، ومنها على وشك الارتداد، وإذا بأبي بكر يُجهّز العُمَانيين لحرب المرتدين من آل الجفنة بنواحي الشام، فقاموا بمهمتهم خير قيام، ورجعوا بالنصر والظفر إلى الخليفة الإمام، فأقرهم على مُلك عُمَان، وأيّدهم وشد عضدهم، وأعرب عن مناهج مصالحهم، فازدادوا بذلك شرفًا على شرفهم، وعزًا يؤيد عزهم، ورجعوا إلى عُمَان محترمين مكرمين.

وجاء في بعض التواريخ: (أن أبا بكر ﷺ استعمل على عُمَان عكرمة بن أبي جهل، ثم عزله وسيّره إلى اليمن، واستعمل على عُمَان حذيفة القلعاني).

قال: (فلم يزل واليًا على عُمَان إلى أن توفي أبو بكر ـ ﷺ).

قلت: لعل هذه التولية، وتولية عكرمة كانتا سياسة من أبي بكر، وهو الواضح، ثم لم يطل عهدها؛ لأن أبا بكر رحمه الله لم يطل عهد خلافته، وقد خرج عنه عبد بن الجُلَندى وأمر عُمَان إليه وأخيه جَيْفر، فلعله بعد مدة غير طويلة اقتضى النظر تولية عبد، ثم تولية حذيفة على أثرها أيضًا، ولم يطل العهد.

ذكر في (أسد الغابة) بغير تحقيق، قال: (وضبط القلعاني في نسخة أبي عمر بالقاف واللام والعين المهملة).

قال الإمام: (قال ابن الأثير: وأنا أشك فيه، قال: و[ذكره] الطبري، فقال: حذيفة بن الحصين الغلفاني بالغين المعجمة واللام والفاء).

قلت: لعله القلهاتي، وهو غير بعيد، فإن الكلمة متقاربة في صورتها، قال: (وله في قتال الفُرس آثار كثيرة).

قال: (واستعمله عمر على اليمامة)، وسيأتي ذكره في خلافة الإمام عمر بن الخطاب رحمه الله، ورضي عنه.

وفي أيام أبي بكر الصديق وقعت قضية دَبَا من عُمَان، وذلك في آخر حياة أبي بكر، وذلك أن أبا بكر وجّه حُذَيفة بن مِحْصَن الغلفاني الذي سبق ذكر الخلاف في ضبطه، قال: (وهو من بارق)، وجّهه إلى عُمَان (وكان حليفًا للأنصار، وكان له بَصر). قال: (وليس هو حذيفة بن [اليمان]، فوجّهه أبو بكر أميرًا) على عُمَان (فصدّقهم).

قلت: لعله كان أميرًا فقط على الصدقة.

وفي خبر عبد بن الجُلَندى المتقدم أن أبا بكر رحمه الله أَمرَه بأخذ الصدقة، فكأن إمرته انتسخت. قال: (فلمّا صار في ولد الحارث بن مالك بن فهم ليصدّقهم، تناول بعض أصحابه امرأة من العفاة ليصدقها، وكان عليها فريضة شاة مُسنّة، فأعطتهم عَتُودًا أو عَناقًا مكان الشاة [المسنّة] ـ أي بدلاً منها ـ فأبوا أن يأخذوها فأخذوا ما أرادوا)، فصاحت المرأة (يا آل مالك! فقال حُذيفة ـ وهو أمير

الصدقة: دعوة جاهلية ـ أي مثل هذا التداعي كان في الجاهلية، وكان بركان الارتداد في قوته إذ ذاك؛ فلهذا قال حذيفة دعوة الجاهلية، (وخاف أن يكون القوم قد ارتدّوا)، ولعله وسوس له الشيطان أن القوم مرتدين، لذلك سمع تداعي الجاهلية، وما هي وأيم الله إلا نزغة عرضت تخالفت فيها المفاهيم، وربما وقع مثل ذلك من أهل الجهل وعوام المسلمين بغير قصد الارتداد. قال: (فأغار عليهم) حذيفة، فقبض على ناس منهم، وأوثقهم قهرًا وهم قليلون، ولعلهم ضَعَفَتهم، فمضى بهم إلى المدينة بدعوى الارتداد الذي فهمه من تداعيهم.

قال الإمام: فثار سُبيعة بن عراك أحد زعمائهم وهو من صيلم، والمُعَلّى بن سعد الحُمامي، والحارث بن كلثوم الجديدي في أصحابهم، فوفدوا على أبي بكر ـ ﷺ، فقالوا: يا خليفة رسول الله ﷺ إنّا على إسلامنا لم ننتقل عنه، ولم نمنع زكاة، ولم ننزع يدًا من طاعة، ولم نرجع عن دين، وقد عجِل علينا عاملك، وكففنا أيدينا إلى أن أتيناك، فقال أبو بكر ﷺ أصنع بكم ما صنعت بالعرب، إن شئتم خلّيت المال، وأخذت السَّبْي، ففادوا السَّبي فقالوا على كل أسير أربعمائة وخمسون درهمًا)، قال الإمام: كذا ذكر العوتبي في الأنساب).

(ويقال أن سُبيعة بن عَراك خرج إلى أبي بكر الصديق ﷺ في سبي دَبَا الذين أخذهم حُذيفة الغَلفاني، وكان سبيعة المذكور زعيم القوم، والمعلا بن سعد [الحُمامي]، وكان اسم المعلا ثعلبة) ـ ومن حيث أن ثعلبة اسم للثعلب، وقد شهر الثعلب بالروغان والحيل، ([فسمّاه] أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ المُعَلاً)؛ وكان هو وسبيعة بن عراك زعيمي القوم، وإليهما الحل والعقد، (فقدموا المدينة، وقد مات أبو بكر الصديق ـ رحمه الله تعالى ـ وتولى أمر النّاس عمر بن الخطاب ﷺ فكلّماه في سَبي أهل دَبَا، وقال المعلاّ بن سعد [الحُمامي]: يا أمير المؤمنين إنّ حذيفة بن محصن الغلفاني تعدّى طوره، وعظُم في النّاس حدثه، ولولا مُراقبة أمير المؤمنين لكان شكامُه [منانًا] جزاءً له عن غيره، فيكون واعظًا لغيره؛ ولكن

حملَنا على مخافة نَكْله، فنرادف العثرة، وسكنت الحرّة، ولم [تكد]).

قلت: هذه كلمات مضطربة لا معنى لها بحسب الظاهر، (فقال عمر: يا معلاّ إنّ في الحقّ سعة، وكّفّ غَربك أولى بك، إنّ الإسلام سَوّى بين النّاس، فرفع الوضيع، ووضع الشَّريف إذا خالف الحق، وأعطى كل امرئ قسطه من خيره وشرّه، ثم أمر عمر بردّ السبي)؛ ولذلك قال الإمام السالمي رحمه الله:

تـأول السـابي لهم يـوم دَبَـا وأنـكـر الـفـاروق ذاك المذهبا

ومن هنا يعلم أن الإباضية لا يحكمون بالتأويل لتكفير النّاس أي تشريكهم، فإن التكفير بالتأويل يقع على غير أصل؛ لكن الوهابية يحكمون بذلك، فمن اقترف كبيرة شرك بالتأويل، قالوا له: أنت مشرك دمك حلال، ومالك غنيمة، فاستعرضوا النّاس بذلك، وحكموا عليهم بما لا يرضاه الدين، ولا حكم به أحد من الصحابة فيما علمنا.

قال الإمام: وفي سيرة الشيخ خلف بن زياد البحراني قال: (بلغنا أن أبا بكر رحمه الله، ورضي عنه ـ بعث إلى أهل عُمَان مصدّقًا يأخذ صدقات أموالهم، وهم مقرون بالحكم كله، فأعطوه الصدقة جميعًا لم يمنعها منهم أحد، غير أن امرأة من أهل دَبَا شاجرت بعض المصدّقين، فزعمت أنه [قد] استوفى [جميع حقه]، وزعم هو أنه بقي عليها بقية منه، فتنازعا في ذلك فقرعها قرعة استغاثت ببعض أهلها، فأغاثها، فأقبل هو ومن معه إلى الذي قرعها ومن معه من المصدقين، فتواقعوا وتنادوا عند ذلك يا آل بني فلان حين رأوا أن القبائل قد نشبت بينهم، قال: وكانت دعوة جاهلية، قد كان يقال لمن قالها أو دعا بها حل دمه حين يدعو بها، أو يتوب، فاقتتلوا ما شاء الله، وظهر المصدقون عليهم، فجاء حذيفة الغلفاني وكان ولي ذلك فسبى أهل دَبَا، وفيهم ذرية لم يقاتلهم من النساء والولدان، وذرية من كان قد غاب، أو كان قد مات وهو مسلم ونساؤه في غير إنكار منهم بشيء من التنزيل، ولا امتناع منهم، بما قبلهم من الحق، قال: فلم يبق أحد من أهل دَبَا

قدر عليه إلا سباه، فوافق بذلك خلافة عمر بن الخطاب ـ رحمة الله عليه ـ وكان أول مبعثهم في حياة أبي بكر ـ رحمة الله عليه ـ ولم تحقق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب القضية غضب غضبًا لم يكن فيما علمنا منه غضبًا حتى قال: (والله لو أني اعلمك تسبيهم بدين دوني تقطع فيهم عليَّ لقطعتك طوائف، ثم بعثت إلى كل مصر منك بطائفة)، والمعنى لو كنت اعلم أنك فعلت ذلك بدين ـ أي تعتقد حله في الدين أي تدين بحله لعاقبتك عقوبة تكون عبرة لغيرك ـ والقصد الزجر والتغليظ لمن يجعل التأويل دينًا. فرحم الله عمر لو رأى من يعتقد اليوم تأويله دينًا ماذا يفعل فيه حين يرى أموال المسلمين تقسم فيئًا، والدماء تراق دينًا، وتسبى الذراري، وهم يدينون لله بالإسلام، ويعتقدون صحة أوامر دين الله ﷻ.

قال الشيخ خلف بن زياد البحراني رحمه الله: (ثم نقض) ـ أي عمرـ (أمر أهل دَبَا) ـ أي أبطل الحكم الذي حكم به المصدّق فيهم بعد ما هدده ذلك التهديد الكبيرـ ورد القوم ـ أي السبي من أهل دَبَاـ (إلى منازلهم بأموالهم إلا من استحق منهم بشيء خيانة) ـ أي إلا من ظهرت خيانته فيما فرض الله عليه، قال: (وأجاز المسلمين بما أصيب منهم، ولما أصابهم من البلاء بثلاثمائة ثلاثمائة) ـ أي لكل واحد من المصابين بتلك النكبة ـ (وأخرج ذلك لهم من) بيت المال، ولعله رأى الخطأ بالتأويل في بيت المال، وهو وجه في آثار المسلمين.

قال الإمام السالمي رحمه الله: (هذا حاصل قضية دَبَا) عند المسلمين كما هي في (الكتب العُمَانية، وهم أعرف بحالهم)، وأخبر بقومهم، قال الإمام: (ولا يصح ما ذكره ابن الأثير في كامله، حيث قال: (وأما عُمَان فإن نبغ بها ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي). قلت: وأشار بهذا إلى مالك بن فهم، وأين مالك بن فهم من لقيط؟ فإن بينهما قرونًا كثيرة، فإن مالك بن فهم كان زمن نبي الله موسى بن عمران، وكم بين موسى بن عمران ومحمد ﷺ من القرون فلا وجه لما ذكره ابن الأثير من هذه الناحية قبل كل شيء. قلت: هذا جهل بالتاريخ وتخليط،

والأجانب يأخذون الأخبار بغير تحقيق وخصوصًا فيمن خالفهم والحازم من يأخذها تحقيقًا.

قال: (وكان يسمى في الجاهلية الجُلَندى، قال: وادعى بمثل من تنبأ وغلب على عُمَان مرتدًا، قال: والتجأ جَيْفر وعبد إلى الجبال، وبعث جَيْفر إلى أبي بكر بخبره ويستمده عليه، قال: وبعث أبو بكر حذيفة بن محصن الغلفاني من حمير، وعرفجة بن هزيمة البارقي الأزدي، حذيفة إلى عُمَان، وعرفجة إلى مهرة، وكل منهما أمير على صاحبه في وجهه، فإذا قربا من عُمَان يكاتبان جَيْفرًا، فسارا إلى عُمَان، وأرسل أبو بكر إلى عكرمة بن أبي جهل؛ وكان بعثه إلى اليمامة فأرسل إليه أن يلحق بحذيفة وعرجفة بمن معه يساعدهما على أهل عُمَان ومهرة، فإذا فرغوا منها سار إلى اليمن)، قال: فلحقهما عكرمة قبل أن يبلغا عُمَان، فلمّا وصلوا رجاما - وهي قريب من عُمَان -) كأنه أراد بلدًا؛ ولكن لم نعرفها بهذا الاسم. قال: (كتبوا جَيْفرا وعبادًا وجمع لقيط جموعه، وعسكر بدَبَا، وخرج جَيْفر وعبد وعسكرا بصُحار، وأرسلا إلى حذيفة وعكرمة وعرفجة، فقدموا عليهما وكاتبوا رؤساء من عند لقيط، وأرفضوا عنه، ثم التقوا على دَبَا فاقتتلوا قتالاً شديدًا، واستعلى المسلمين لقيط - أي غلب عليهم - فرأى الظفر، ورأى المسلمون الخلل، فبينما هم كذلك إذ جاءت المسلمين موادهم العظمى من بني ناجية، وعليهم الخريت بن راشد، ومن عبد القيس وعليهم سيحان بن صوحان وغيرهم. قال: فقوى الله المسلمين فولى المشركون الأدبَار، قال: فقتل منهم في المعركة وبعثوا عشرة آلاف، وركبوهم حتى أثخنوهم، وسبوا الذراري، وقسموا الأموال، وبعثوا بالخمس إلى أبي بكر مع عرفجة، وأقام حذيفة بعُمَان يسكّن النّاس)، قال: (وأما مهرة فإن عكرمة بن أبي جهل سار إليهم لما فرغ من عُمَان ومعه من استنصر من ناجية وعبد القيس وراسب وسعد، فاقتحم عليهم بلادهم فوافق بها جمعين من مهرة، أحدهما مع سخريت رجل منهم، والثاني مع المصبح

أحد بني محارب، ومعظم النّاس معه، وكانا مختلفين، فكاتب عكرمة سخريتًا فأجابه وأسلم، وكاتب مصبح يدعوه فلم يجب فقاتله قتالاً شديدًا، فانهزم المرتدون، وقتل رئيسهم ركبهم المسلمون، فقتلوا من شاءوا منهم، وأصابوا ما شاءوا من الغنائم، وبعث الخمس إلى أبي بكر مع سخريت، وأراد عكرمة وجنده قوة بالظهر والمتاع، وقام عكرمة حتى اجتمع النّاس على الذي يحب، وبايعوا على الإسلام. وانتهى كلام ابن الأثير).

قال الإمام: (وكله باطل).

قلت: هؤلاء المؤرخين يتلقون أخبارًا لا أصل لها، أو لها أصل؛ لكن غير ما يُلقى إليهم، وأحيانًا يتلقون أخبارًا من قبل النّاس، ويعلقونها على آخرين غير أصحابها (وما آفَة الأَخبارِ إلاَّ رُواتُها).

❊ ❊ ❊

الحلقة الخامسة في فضائل أهل عُمَان وذكر مشاهيرهم في صدر الإسلام

وبه يتم الجزء الأول من تاريخ عُمَان إن شاء الله.

اعلم أن لأهل عُمَان فضائل لها قيمتها عند المسلمين، وقد نوه ﷺ بها في أحاديثه الغراء، وشهد بها الخليفة الأول ﷺ وأكدّها بلغاء العرب على اختلاف مذاهبهم، ولا ينكرها إلا جاهل غبي، أو حاسد دني، وهل ينكر الحق إلا أهل الباطل؟ وهل يعرف الحق لأهل الحق إلا أهله؟ فأهل عُمَان أسلموا طوعًا، ووالوا رسول الله ﷺ ولم يروه وتولوه، فسمعوا له وأطاعوا رسوله على بعد دارهم، وكثرة عددهم، بينما أهله وبنو جلدته عادوه حتى أخرجوه من وطنه، وتألبوا على عدائه إلا من شاء الله ممن سبقت لهم من الله الحسنى، كما أن أكثر العرب ناصبوا أوامره العداء، وعارضوا معجزاته التي يرونها رأي العين بالبذاء، فكانوا عليه أشد من اليهود والنصارى، بينما أهل عُمَان قالوا لرسوله: أهلاً ومرحبًا، وسلموا إليه مقاليد أمورهم، وكانوا لدعوته دعاة مخلصين، ولداعية عضده اليمين، ولأوامره خاضعين ومسلمين، فلم ير منهم طيلة حياته إلا الخير الذي يحبه الله، والجميل يتجلى بأخلاقهم لله؛ فلذلك قال ﷺ: (**رحم الله أهلا الغبيراء آمنوا بي ولم يروني**)، وهذا من رسول الله ﷺ وآله، أعظم شهادة على فضلهم.

(وروى أحمد من طريق أبي لبيد، قال: خرج رجل منا يقال له بيرج بن أسد، فرآه عمر بن الخطاب ﷺ فقال: ممن أنت؟ قال: من أهل عُمَان، فأدخله عمر على أبي بكر ﷺ فقال: هذا من أهل الأرض التي سمعت رسول الله ﷺ يقول، أي فيها: «**إني لاعلم أرضًا يقال لها عُمَان ينضح البحر بناحيتها، لو أتاهم رسولي ما رموه بسهم ولا حجر**». ولقد صدّق الله ظنه فيهم، فأتاهم عَمْرو بن العاص رسولاً من عنده ﷺ فلم ير منهم إلا خيرًا، ولا سمع عنهم أيضاً كذلك إلا الخير الذي سرّة منهم، (وعند مسلم من حديث أبي برزة الأسلمي قال: بعث رسول الله ﷺ رجلاً إلى قوم فسبوه وضربوه، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال الرسول ﷺ: «لو أهل عُمَان أتيت ما سبوك ولا ضربوك»، فترى رسول الله ﷺ، يتمثل بهم في الخصال

الحميدة، وحسبهم بذلك شرفًا وفضلاً.

(وفي حديث مازن بن غضوبة السعدي قال: قلت يا رسول الله ﷺ، ادع الله [تعالى] لأهل عُمَان، فقال ﷺ: «**اللهم أهدهم وأثبهم**»، فقلت زدني يا رسول الله، فقال: «**اللهم ارزقهم العفاف والكفاف والرضى بما قدرت لهم**»، فكان أهل عُمَان أعف النّاس في كل معاني العفة، وهم أقنع النّاس بالكفاف، وأرضاهم بما قسم الله لهم بخلاف غيرهم ممن ألهاهم التكاثر واستهواهم الرياش الفاخر، (قال مازن: قلت يا رسول الله: البحر ينضح بناحيتنا)، في رواية: (بجانبنا، فادع الله في ميرتنا وخفنا وظلفنا. فقال عليه الصلاة والسلام: «**اللهم وسع عليهم في ميرتهم وأكثر خيرهم من بحرهم**». قلت: زدني يا رسول الله. قال ﷺ: «**اللهم لا تسلط عليهم عدوًا من غيرهم، يا مازن قل آمين؛ فإن آمين يستجاب عنده الدعاء**»، قال مازن: قلت آمين). فاستجاب الله ﷻ بمنّه وفضله دعاء نبيه لأهل عُمَان، وظهرت بركاته فيهم بغير نكران. (قال مازن: فلمّا كان في العام القابل، وفدت على رسول الله - أي عدت إليه وافدًا من أهل عُمَان، فأخبرته بما مَنَّ الله به عليهم من بركة دعاء الرسول ﷺ - (فقلت: يا المبارك ابن المباركين، الطيب ابن الطيبين؛ قد هدى الله قومًا من أهل عُمَان، ومَنَّ عليهم بدينك).

قلت: لعله أشار إلى الذين أسلموا على يد عَمْرو بن العاص، فتحدث مازن عنهم، قال: و[قد] أخصبت عُمَان خصبًا هنيًا، وكثرت الأرباح والصيد بها فقال ﷺ « **ديني دين الإسلام، سيزيد الله أهل عُمَان خصبًا وصيدًا، فطوبى لمن آمن بي ورآني، وطوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني ولم ير من رآني، وأن الله سيزيد أهل عُمَان إسلامًا**»). أي سينتشر الإسلام في أهل عُمَان وسيعمهم، فكان ذلك دليلاً على صدقه، فهو من معجزاته الدالة على نبوته.

(وذكر الإمام أبو يعقوب في لواحق المسند من روايات الإمام الربيع بن حبيب، عن شيخه أبي سفيان محبوب بن الرحيل) القرشي المخزومي - رحمهم

الله، ورضي عنهم - (عن أزور رجل من المسلمين، [قال:] أن نسوة من نساء أهل عُمَان استأذن على عائشة أم المؤمنين ﵂ فأذنت لهن فسلمن عليها، وفي رواية فسلمت عليهن، ثم قالت: مَنْ أنتن؟ قلن: من أهل عُمَان، قال فقالت لهن: لقد سمعت حبيبي ﷺ يقول: ليكثرن ورّاد حوضي من أهل عُمَان، وفيه أيضاً من روايات الربيع عن أبي سفيان، قال: دخل جابر بن زيد على عائشة ﵂ فأقبل يسألها عن مسائل لم يسألها عنها من قبل - أي على كثرة تردده عليها لأخذ العلم عنها، إذ هي من أجلة شيوخه ﵀ سألها جماع النبيّ ﷺ، [كيف كان يفعل؟] وإن جبينها يتصبب عرقًا، وتقول: سل يا بني، ثم قالت: ممن أنت؟ أي لما رأته يبالغ في السؤال حتى عن مثل هذا، وهو كان سألها عن مقدمات الجماع التي لا حرج في السؤال عنها، كالتقبيل ونحوه، كما أنها لا زالت تقول، كان النبيّ ﷺ يقبلنا وهو صائم، وفي رواية: وأيكم مثل رسول الله وهو أملك لأربه، ولمّا قالت له ممن أنت؟ وقال لها: من أهل المشرق من بلد يقال لها عُمَان، قال أبو سفيان: فذكرت له شيئًا لم أحفظه إلا أني أظن أنها قالت: أظن أن النبيّ ذكره لي وأشباه هذا).

قال أبو إسحاق: (المراد أنه سألها عن مقدمات الجماع التي يجوز السؤال عنها حرصًا منه على نقل السنة ﷺ وجمعها كي يكون المسلم مقتديًا برسول الله ﷺ في كل أعماله دقيقها وجليلها، لا السؤال عن نفس الجماع؛ فإنه لا يجوز السؤال عنه، ولو سأل عمّا لا يجوز لزجرته)، ولا هوادة في الدين، وقد شهر عنها قولها لسائلها: (اسألني عمّا كنت سائلاً عنه أمك) - أي ما جاز لك أن تسأل عنه أمك سلني عنه - وقول الطاعنين في الإمام أبي الشعثاء ﵀ لا يلتفت إليه؛ فإن جابر بن زيد من أجلة علماء الشريعة، ومن أكبر أئمة السنة، إذ نقل عنهم جميعهم، ورأوه أهلاً لأن يؤخذ عنه، واتفقوا على عدالته وضبطه، وإنكار بعض المتنطعين لهذا الحديث مردود عليهم؛ فليس كل السنة هم مصدرها، أو لا تصح إلا منهم، فكم ترك الناقل لغيره، وكم ورد ذلك النهر من الرجال منهم من عاش، ومنهم من مات بما معه، وكم نسى الناقلون مما نقلوا، ولم يحصر العلم في قوم

مخصوصين، أو في أفراد معينين، فيكون ما عندهم عليه المعول، فكم قال رسول الله ﷺ: «رب حامل فقه وليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»، وهكذا.

وكذلك حديث: «ليصلك شيخ العُمَانية، فعلميه جميع الدين»، وفيه «فيجدني ميتًا» في روايات ليس بمستغرب، وفي آخره (أنا أحبك يا أم المؤمنين) عملاً بقوله ﷺ: «إذ أحب أحدكم أخاه فليخبره أنه يحبه»، فقالت رضي الله عنها: (وأنا كذلك أحبك. قال: ثم لام نفسه، فقال لها: أنا أحبك في الله)، كما قال رسول الله ﷺ للأنصاريين إذ مرَّا حول المسجد، ورأيا رسول الله ﷺ مدليًا رأسه لزوجته ترجله، وهو معتكف في المسجد، فلمّا رأياه على تلك الحال أسرعا مَشْيًا هيبةً لرسول الله ﷺ واحترامًا له، ولزوجه، فلمّا فرغ استدعاهما، فلمّا حضرا قال لهما: «إنها فلانة» إحدى زوجاته»، فقالا: (يا رسول الله حتى عليك أنت، فقال: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» ـ أي خفت أن تُسيئَا ظنًا بإغراء اللعين لكما فتقعا في الخطر؛ فإن سوء الظن بالمسلم من اكبر الكبائر، فكيف برسول الله ﷺ؟ فإن سوء الظن كبيرة من كبائر الذنوب ـ ولما قال لها جابر ما قال نهرته، فقالت: (أتظن أني أحبك في غير الله يا أعور)، وكان جابر أعور رحمه الله.

وقال رسول الله ﷺ: «بدأ الدين غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء من أمتي». قالوا ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «الذين يعملون بكتاب الله حين يترك، ويتمسكون بحبل الإسلام حين يقطع». قال الإمام: (قال محمد بن أحمد الغرباء أهل عُمَان، من سره أن ينظر إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فلينظر إلى الصلحاء من أهل عُمَان). قلت: وإليهم يشير من قال:

سمت الملوك وهدي الأنبياء على ... أخلاقهم فكأن الفقر تيجان

وفي بعض الكتب العُمَانية: قال رسول الله ﷺ: «من تعذر عليه الرزق فعليه بعُمَان»، وعنه ﷺ: «من أعيته المكاسب فليأت عُمَان، بلاد الأمان لا ظلم فيها ولا جور»، وهذا من أعظم خصال أهلها.

وعنه عليه الصلاة والسلام: «**يوشك في آخر الزمان أن ينتقل إليها النّاس**».

قلت: لقد بدأ انتقال النّاس إليها في زماننا هذا تصديقًا لهذا الحديث، الذي مازلنا ننتظر وقته، ومتى هو كائن؟ فإذا بالنّاس ينتقلون زرافات ووحداناً إلى قطر، وأبوظبي، ودبي، والآن إلى النافذة الشرقية مسقط، ومطرح وأعمالهما، فهاهم وهم في أول بدأهم قد ملئوا هذه البلاد المذكورة من جميع الأمم الإسلامية والإفرنجية والمجوسية، من مختلف البلاد أوروبا فآسيا. قال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن يسكن عُمَان فليسكن، فإن فيها القنوع والرضى باليسير**»، وهذا موجود في أهل عُمَان رجالاً ونساءً بالنسبة إلى أمم البلاد الأخرى.

وسمع عبدالله بن سلمة رجلاً يودع رجلاً فقال له: أين تريد؟ فقال أريد عُمَان، قال: فالحق بها يا ابن أخي، فإن بها أمان الليل وأمان النهار؛ والمعنى أن ليلها آمن كأمان نهارها لا فرق في ذلك، ومنه يوشك أن ينتقل النّاس إليها في آخر الزمان فرارًا من جور السلطان، وأعوان الظلمة، وحطاط النبط، قال: وعن النبيّ ﷺ أنه قال: «**يوشك أن تكفر أمتي ويلي عليهم أعوان الظلمة في البلدان**» ـ أي في بقية البلدان التي يتولاها الظلمة، الذين يخلقون القوانين، ويرفضون البراهين، ويتبعون الأهواء، ويقدسون الأقوى، وهذا هو الكفر بعينه؛ فإن الكفر منه الشرك، ومنه كفر النعمة ـ وفي ختام هذا الحديث: «**يلتجئ النّاس إلى عُمَان، وأن عُمَان في ذلك الزمان**»، ثم وقع سقط في الرواية، وآخره نعم، «**وإن عُمَان عند اقتراب الساعة يعمر خرابها، ويكثر سكانها، وتضيق بها أمتي حتى تباع مربض الشاة، ومقعد الرجل بعشرة دنانير، وعشرين دينارًا، فلا يقدر على ذلك**»، أي لا يقدر على شراء ذلك إلا خواص النّاس؛ وذلك لكثرة الأموال في أيدي أهلها، ومنه وكذا فيها الأرزاق ـ أي متسعة وميسورة ـ قال: «**ويأمن النّاس فيها بأوسع الأمان، ينضح البحر بناحيتهم تأتيهم أرزاقهم من بحرهم**»، وفي رواية: «**من بحورهم، آمن ليلهم، طيب نهارهم**».

ففي هذه الأحاديث المتجلي الآن أوَّلُ مدلولٍ لها ما يقضي بفضل عُمَان، وفضل أهلها، ولا يخفى أن الأمان على الأنفس والأموال من أعظم النعم في هذه الحياة الدنيا، وأمان النّاس مع تيسر الأرزاق، وتسهيل المؤونة أعظم فضل من الله على عباده، وهذا موجود في عُمَان.

وهذه الأحاديث أذهبت وضعها في الصحيح أقلام الرواة والنساخ، فإن المآثر العُمَانية أضاعتها أيدي الإهمال القاضية بتلاشي الأعمال؛ لكن مدلولها يشهد به الواقع، والحمد لله.

وقد ذُكرت هذه الأحاديث في كتاب من أهل نزوى لأحد رجال الحق في عُمَان، وكنا نستغربها لما انطوت عليه من المعاني البعيدة، فإذا بالأيام تعرب لنا معانيها، وذكرها مرتب جوابات الإمام الخليلي رحمه الله وهو الشيخ سالم بن حمد بن سلمان الحارثي لنكتة لاحظها، و لا ريب فإن أهل عُمَان شاركوا في كل فضل، كما سوف ترى في هذا الكتاب من أعمالهم السامية، وقد دعا رسول الله ﷺ لأهل عُمَان حين استدعاه الصحابي الوحيد مازن بن غضوبة السعدي، ودعا لهم أبو بكر رضي الله عنه.

قال الإمام السالمي رحمه الله: (وظهرت إجابة رسول الله ﷺ، ودعاء خليفته لأهل عُمَان، وصدق الله توسمهما فيهم، فهم أكثر النّاس هدى وصوابًا منهم الأئمة العادلون، والعلماء الراشدون، لم يتسلط عليهم عدو من غيرهم، ولم تخرج بلادهم من أيديهم، وإن غلبوا على دولتهم في بعض الأحيان لما أراد الله تمحيص المؤمنين، وتمحيق الكافرين، فما زالت دعوتهم بالحق ظاهرة، وسيرتهم بالعدل شاهرة، ودولتهم بالفضل زاهرة، منهم العلماء النجباء، والعقلاء الفضلاء، والخطباء البلغاء.

ولقد شاركوا في صحابة الرسول ﷺ بأربعة رجال عُرِف مقامهم، وحمد مرامهم.

الأول: الشيخ مازن بن غضوبة السعدي الطائي السمائلي، ولا يخفى على أحد من رجال الإسلام.

والثاني: كعب بن برشة الطاحي، ويعرف بالعودي الذي أرسله زعماء الفُرس إلى النبيّ ﷺ لاستطلاع خبره، وكشف صحة نبوته، وأتى النبيّ ﷺ، وعَرَفَ نبوته وصدّق برسالته، إذ كان ممن قرأ الكتب، وعلم عن نبوة الرسول الأعظم، فعاد إلى القوم بصحبة النبوة المحمدية؛ ولذلك لما وصلهم قالوا: هذا أمر نريد نشافه فيه الملك، إذ كانوا يعلمون صدق كعب المذكور، فكان داعية إسلامية في عُمَان.

والثالث: صُحار بن العباس العبدي من عبد القيس من أهل عُمَان، فكان من أجلة العلماء الأتقياء الأوفياء المرضيين.

والرابع: أبو شداد العُمَاني المعروف عند الغير بالذماري، كان يأتي ذمارًا فقالوا فيه: العُمَاني الذماري، ذكره صاحب (الاستيعاب)، وغيره ممن كتبوا عن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وإن أنكر فضل أهل عُمَان من أنكره من أعدائهم، فهذه حقائق واضحة في أفق التاريخ وضوح الشمس رابعة النهار، لا ينكرها إلا أعمى عن الحقائق، وأي فضل أعظم ممن أثنى عليه رسول الله ﷺ ذلك الثناء العظيم، ثم أثنى عليهم أبو بكر رضي الله عنه ذلك الثناء الجسيم، ثم عمر بن الخطاب رحمه الله، ورضي عنه ـ وأثنت عليهم الأنصار في ملأ من المهاجرين والأنصار؛ ولذلك لم يزالوا على الحق رغم الدهر الذي من طبعه التقلب، فأهل عُمَان أهل خير لم يتزعزعوا عن دينهم منذ أسلموا، ولا نقضوا عهدًا ولا ذمة، ولا بدلوا من الأوامر الشرعية شيئًا أبداً، بل هم على الحق ثابتون، وعلى المذهب الصحيح عاضون بالنواجذ تبعًا لوصيته عليه السلام.

قال عَمْرو بن بحر المعروف بالجاحظ، وهو يرد على من ينكر فضل أهل عُمَان قال: (لربما سمعت من لا علم له يقول: ومن أين لأهل عُمَان البيان؟) فقال الجاحظ المذكور، وهو يرد على هذا القائل كما قرر عليه: (أنه لا عِلم له، وهل يعدون لبلدة واحدة من الخطباء والبلغاء ما يعدون لأهل عُمَان) ـ أي لا يوجد لأهل بلد واحد كعُمَان ما يعدون لأهل عُمَان، وهذا أكبر شهادة من هذا العالم

الوحيد في قومه بعلاميته الشهيرة ـ ثم أخذ الجاحظ يذكر فضائل أهل عُمَان فقال: (منهم: ـ أي أهل عُمَان ـ مصقلة بن الرقية أخطب النّاس قائماً وقاعداً، ومفرداً ومنافساً، ومجيباً ومبتدئاً) ـ أي في كل الأحوال ونحوها أخطب النّاس، أي أوسعهم مقالاً، وأسرعهم بياناً، وأقواهم حجة ـ قال: (وابنه من بعده كرب بن مصقلة). قال: (ولهما خطبتا العجوز في الجاهلية، والعذراء في الإسلام) ـ أي هاتان الخطبتان شاعتا عند العرب الأولى: في الجاهلية، فتناقلتها العرب، والثانية: في الإسلام، وقد جمعتا من العلم والأدب ما خضعت له أعناق فطاحل العرب، ولولا أن ذكرهما يطول بنا لجئنا بهما؛ ولكن لنا أغراض أخرى، تدعونا إلى السير في أعمالنا قُدُمًا.

قال الجاحظ: قال أبو عبيدة: (ما سمعنا مثلهما في الإسلام إلا خطبة قيس بن خراجة بن شيبان في حمالة داحس، فقد ضرب به المثل).

قال: (وذلك أن قيسًا أتى الجاهلين وهما خارجة بن شيبان، والحارث بن عوف، فضرب مؤخر راحلة ابنه بالسيف، وقال: مالي وهذه الحمالة [أيها] العيسميان؟ فُقِأت عين بعير عن ألف بعير، قالوا: وما عندك؟ قال: رضى كُلِّ ساخط، وقِرَى كُلِّ نازل)، قال: (وخطب من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب، أمر فيها بالصلة ونهى فيها عن القطيعة، وخوّف درك العواقب، وما تجيء به النوائب)، قال: (فزعموا أنه خطب من غدوة إلى الليل، فقال قائلهم: وهو يذكر غيره فلو قال: حتى تغرب الشمس قائمًا لكان كقيس في ديار بني مرة)، قال: (وهو خطيب قيس في الجاهلية، وخطيبهم في الإسلام سحيان بن وائل الباهلي).

قال الجاحظ: (ومن خطباء عُمَان وعلمائها صُحار بن العبدي)، [قال] أبو إسحاق: (هو ابن العباس العبدي)، قلت: هو الذي سبق عده في الصحابة، فهو الصحابي الثالث من عُمَان، قال [أبو] إسحاق: (قيل أدرك النبيّ ﷺ، وروى عنه ثلاثة أحاديث)، قال: (وهو من أئمتنا، وشيخ أبي عبيدة بن مسلم بن أبي كريمة،

وهو أول من ألّف في الأدب، وله تأليف في أمثال العرب، ذكره ابن النديم في (الفهرست)، قال: (وكان من أخص أصحاب الإمام أبي الشعثاء جابر بن زيد رحمهما الله)، قال [أي الجاحظ]: (ومن خطبائهم صعصعة بن صوحان بن زيد، وأخوه، خطيبان مصقعان).

قلت: لقد شهر صعصعة بن صوحان بين أعلام الأدب، وأبطال العرب، ومازالت خطبته مأثورة متداولة، يتناقلها العلماء الأعلام، وتزدان بها المؤلفات.

قال: (ومن خطبائهم مرة بن البليد الأزدي، لم يكن في الأرض أجود منه ارتجالاً وبديهة، ولا أعجب فكرًا وتحبيرًا منه)، قال: (وكان رسول المهلب إلى الحجاج) ـ أي وأن الرسول عين المرسل ـ قال: (وله عنده كلام محفوظ. قال: ومنهم عرفجة بن هزيمة البارقي) أحد الرجال القادة في الزعامة الإسلامية، وله الشهرة في أيام أبي بكر ﷺ خصوصًا في حروب أهل الردة. قال: (ومنهم بشر بن المغيرة بن أبي صفرة، لم يكن في أرض عُمَان أنطق منه).

قلت: والمرء بأصغريه، كما قال رسول الله ﷺ.

قال – أي الجاحظ –: (وكان خطيب المصريحي بن يعمر)، قال: (وكان منشأه ومولده إلى أن بلغ الأهواز)، وأصله من عُمَان، قال: (وكذلك الجحاف بن حكيم، وغيرهما). قال أي الجاحظ: (فالذي ينكر أن لا يكون بعُمَان خطيب ليس يقول ذلك بعلم)، [أنتهى] كلام الجاحظ.

(وقال الأصمعي عن أبي عَمْرو بن العلاء قال: رأيت أعرابيًا بمكة فاستفصحته ـ أي أعجبتني فصاحته ـ (فقلت: من الرجل؟ فقال: من الأزد، قلت: من أيهم، قال: من بني الحدان بن شمس، فقلت: من أي بلاد؟ فقال: من عُمَان، قلت: صف لي بلادك، فقال، سيف أفيح، وفضاء صحصح، وجبل صلدح، ورمل أصيح، فقلت: أخبرني عن مالك، قال: النخل، قلت: وأين عن الإبل؟) ـ أي ولها الشهرة إذ ذاك عند العرب ـ (فقال: كلا إن النخل أفضل، أما علمت أن النخل

حملها غذاء، وسعفها ضياء، وكربها صلاء، وليفها رِشاء، وجذعها غماء، وفروها إناء، قلت: وأنى لك هذه الفصاحة؟ ـ أي من أين لك هذه الفصاحة البليغة التي تجابهني بها في موقفي هذا بداهة؟ ـ (قال: إنا بقطر لا نسمع فيه ناجحة التيار) ـ أي نحن بعيدون عن ساحل البحر الذي لا يزال الأعاجم والأنباط يختلطون بأهله، بل نحن بعيدون منهم، حيث منابت الشيح والقيصوم من عُمَان أي في داخلها.

وفي خبر الحجاج بن يوسف الثقفي، قال: (خرج إلى القاوسان وإذا هو بأعرابي في زرع له، فقال له الحجاج: ممن أنت؟ قال: من أهل عُمَان، قال: فمن أي القبائل أنت؟ قال: من الأزد. قال: فكيف علمك بالزرع؟ قال: إني لاعلم منه علمًا. قال أي الحجاج: أي شيء خيره؟ قال: ما غلظت قصبته، واعتم نبته، وعظمت جثته، قال: فأي العنب خيره؟ قال: ما غلظ عوده، وعظم عنقوده، قال: فما خير التمر؟ قال: ما غلظ لحاه، ودق نواه، ورق شحاه)، فأدهشه بما أبداه من فصاحة علمية.

قال الإمام: (ومن أهل عُمَان كعب بن سور قاضي عمر بن الخطاب على البصرة، قال: وهو أول من قدم على البصرة بعد تمصيرها). قلت: ولتوليته القضاء بها خبر بديع ذكره المؤرخون، وهو من روائع الذكاء، وبدائع الإدراكات الذهنية التي يختص الله بها من شاء من عباده، والله يزيد في الخلق ما يشاء، ولن نذكر هذه القضايا، وإن كان لها تعلق بالتاريخ العربي الإسلامي العام، فتاريخنا هذا خاص، وإنما نشير إلى الحوادث كهذه من بعيد، ونكل علم ذلك إلى غيرنا، فإن أهل العلم قد ذكروا كل ما يلزم، وفوق ما يلزم.

ومن أهل عُمَان (أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي رحمه الله تعالى)، وقد تحدثنا عنه في (العرى الوثيقة) بما يشفي ويكفي، (وكان غاية في العلم والورع)، مثالاً للنزاهة والتقوى، ومرجعًا للمشاكل، ومنتهى الطالب للفقه الإسلامي بجميع

معانيه في أيامه، أجمعت الأمة على ثقته، وعدالته، وضبطه، وصيانته، وعاش عمرًا طويلاً قضاه في تحصيل العلم وحفظه وجمعه ونشره في الأمة، فطلب العلم عهد التابعين عيال عليه، فأين رجال العلم عند جابر تلميذ ابن عباس رضي الله عنهما قال الإمام: (وشهرته عند الموافق والمخالف كافية عن إطالة ذكره)، وكان مقامه في البصرة، ومات بها، وهو من أهل فرق من داخلية عُمَان، خرج لطلب العلم، فكان الغاية القصوى فيه، والحجة العليا على مخالفيه، وقد بسطنا طرفًا هامًا من ترجمته في (العرى الوثيقة).

ومن أهل عُمَان الإمام الربيع بن حبيب الفراهيدي صاحب المسند الصحيح، (انتقل إلى البصرة، ونسب إليها)؛ وعاش فيها عهدًا إذ هي إذ ذاك حضيرة علم، ودوحة فقه، ومعدن فضل، ثم (رجع إلى عُمَان في آخر عمره)، فعاش قدوة الأمة، وعمدة أهل المذهب، قال الإمام: (وكان يضرب به المثل في العلم)، كذلك وضعنا ترجمته في (العرى الوثيقة)، ومن أهل عُمَان أبو حمزة الشاري المختار بن عوف السليمي من أهالي مجز من أعمال صُحار، صحب الإمام عبدالله بن يحيى الكندي المعروف بطالب الحق في حضرموت، وكان المختار عنده السيف البتار، والضيغم الزآر الذي ذكرنا عنه في (الإسعاف)، ما ساء بعض أهل الخلاف، وغاظ أهل الاعتساف، وتحدث عنه وعن أصحابه صاحب (الأغاني)، وذكر طرفًا من تاريخهم الزاهر، وذكرهم العاطر، فكانوا جمال الكتب، وزينة الدفاتر.

قال الإمام: (وهو خطيب مصقع). قلت: خُطب أبي حمزة الشاري لا تخفى على أحد من أهل العلم، فلا نذكرها؛ بل رواها أجلة الله العلماء كمالك ابن أنس، وقال فيها مقالته المشهورة، وهي: (خطبنا أبو حمزة خطبة حيّرت المبصر، وردت المرتاب)، وهذه أعظم شهادة في ذلك العلم الجليل بحق أبي حمزة، وأنه على الحق، حيث ردت المرتاب عن ارتيابه، وحيّرت المبصر عن الذي يرى أنه البصير في دينه، لما سمع خُطبة أبي حمزة رأى نفسه في حيّرة لا مزيد عليها، حيث كان

يعتقد الحق عنده، وإذا هو خلو منه، والله المستعان، إن الهدى يختص به من عباد الله من وفقه الله.

أرتـنـي هـدى زيـد وفي العـلـم قلة وضـلـة عَـمْـرو والـعـلـوم بـحـور

قال الإمام السالمي رَحِمَهُ اللهُ: (يعني [أن] البصير في دينه المخالف لأبي حمزة صار بعد سماع خطبته محتارًا غير مبصر لِمَا سمع فيها من الحجج الباهرة، والبراهين القاهرة الناقصة لما هو عليه من سوء الاعتقاد، وإن المرتاب في مذهبه رجع بسماع خطبة أبي حمزة إلى مذهب الحق، وترك ما كان عليه من الريب)، قال: (وكان يشير بالمبصر إلى نفسه، فهذا من قوله يدل على أنه صار محتارًا في مذهبه، حيث أنه لم يستطع جوابًا لحجج أبي حمزة؛ ولا دفعًا للحق الذي نطق به، والحق إذا قام صرع معانده)، قال: (وليته ترك الحيرة، وأخذ بالبصيرة)، قال: (ومحل ذكر خطبه في سيرة طالب الحق من أهل اليمن، فلا نطيل بذكرها). قلت: لما كان الرجل عُمَانيًا، ونحن نؤرخ عن عُمَان كان من اللائق أن نذكر فضائل أهل عُمَان ومكارمهم في تاريخ عُمَان؛ لكن أرجأنا ذلك آملين أن نجمع خطب أهل المذهب في كتاب مستقل، فنذكر فيه هذه الخطب وأضرابها من خطب الأعياد، والجمعات، والإستسقاء، وأن نعلق عليها شروحًا تبين معانيها، وتشهد بحقها، وتعرب عن مقتضى جملها ومفرداتها مع خطب عرفة، وما يناسب ذلك؛ فلهذا أخرنا عن ذكرها هنا، فإن وفق الله لذلك فهو المسؤول أن يعين عليه، وإن حالت الأقدار بيننا وبين أملنا، فنسأل الله أجر ما قصدنا، وهو أكرم الأكرمين.

(ومن أهل عُمَان الخليل بن أحمد الفراهيدي، وكان من أهل ودام من الباطنة، خرج إلى البصرة، وأقام بها) حين أعرق أهل عُمَان بها منذ عهد أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذ انحاز إليها الركب المصاحب لعبد بن الجُلَندى وهي إذ ذاك تخطط من جديد، فنسب إليها حتى لا يعرف إلا بالبصري، وهو علامة شهير بالعلم بين أعلام الأمم، وفي مقدمتهم فقهًا وأدَباً وتاريخًا وشعرًا، وله بدائع علمية لم

تكن لغيره من رجال العلم، ولا عرفها أحد قبله، فهو صاحب العروض الذي لم يكن له سبق وجود في عالم العلم، وقد سماه باسم المكان الذي فتح له به فيه، وهو العروض فرتب أبحر الشعر ستة عشر بحرًا، ورتب قوافيها على غير مثال سبق، فكأنه من آيات أفكاره الوقادة، وقد ذكره ابن خلكان وغيره، وله (كتاب العين) الذي هو إمام الكتب في اللغة)، وشهرته تغني عن ذكره، وما سبقه إلى تأليفه أحد، أي لم ينسج أحد قبله على منهاجه البديع، وإليه يتحاكم أهل الأدب، فإنه إمام فيه وذلك فيما يختلفون فيه فيرضون بحكمه، ولا ينتظرون بعده غيره، فيسلمون لحكمه، (وهو صاحب النحو، وإليه ينسب، وهو أول بوّبه وأوضحه ورتبه، وشرحه وهذَّبه، وهو شيخ سيبويه في النحو)، وسيبويه أنحى أهل الأرض في أيامه، وكان الخليل المذكور (أخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي) هذا الفن، وهو أيضًا صاحب الشكل والنقط في الألفاظ العربية، ولم تكن قبله مشكولة بل أشكَلَتْ فأزال الخليل إشكالها، ومشت الأمة على عمله هذا منذ ذلك العهد تبعًا له، وله فضيلة السبق فيه والتقدم.

ومن أهل عُمَان ابن دُريد المعروف بأدبه وعلمه، وهو أبو بكر أحمد بن محمد بن أبي الحسن بن دريد الأزدي، صاحب كتاب (الجمهرة) المشهور بين أهل الأدب لغة وغيرها، ولو لم يكن له غيره لكفى، بل له مصنفات عدة ذكرها مترجموه، وهو الخطيب المشهور، والأديب المذكور، (والشاعر المعروف، والفصيح الذي يقف عند كلامه البلغاء، ويستعير من بلاغته الفصحاء)، ويعجز عن مجاراته في الأدب أجلة الأدَبَاء، ويستعين بعباراته اللغوية الخطباء، فهو خطيب في شعره مصقع في نثره، وقدوة في خطبه وأدبه، وحكيم في وضعه، وأديب في شعره، ومجيد في نظمه ونثره، (لا زيادة عليه في فنون الأدب والعلم)، ولو لم يكن له من الشعر إلا مقصورته لكفت دليلاً على بلاغته، وبرهانًا على حكمته، وقد تداولها الشراح، وتسابقوا إلى التعليق عليها، لما حوته من المعاني الأدبية، وما

انطوت عليه من الحكم الشعرية، فهي جامعة كلية في الأدب العربي، وقد ذكره المؤرخون في كتبهم قديمًا وحديثًا، وأشاروا إليه لمن سعى إلى الأدب سعيًا حثيثًا، وإن العلم ليفتخر بمثله.

ومن أهل عُمَان أبو العباس المبرد، وصاحب كتاب (الكامل» المشهور الذي هو أحد كتب الأدب المشهورة في تاريخ والأدب، وأيام العرب، وقد عده كثير من أهل العلم في طليعة الوعاة العرب، وله مصنفات، والكامل أشهرها، وشيوعه عندهم غير منكور لاسيما في تحليل المعاني الشعرية، وذكر محتويات كلماتهم فله يد طائلة، ولهجة واسعة، ومقالات جامعة، ولا يخفى أن أهل عُمَان في الركب العربي من المتقدمين في الأعمال الإسلامية بجميع معانيها، فلأهل عُمَان في سياسات الممالك السهم الأكبر، والحظ الأوفر، (وناهيك بسياسة المهلب ابن أبي صفره العُمَاني الأزدي)، فقد وصفه أهل التاريخ بأوصاف سياسية يحتار في وضعها كثير من فطاحل الرجال، وله في الحزم والعزم على مراوغة الأبطال، بحيث يعييهم أمره، وبذلك (استنقذ البصرة من أيدي الأزارقة)، وكادت الدولة الإسلامية تؤيس من إرجاعها إلى دائرتها، فجاءها هذا البطل الأزدي العُمَاني، فأخرجها من أشداق الأزارقة، وأراهم منه صولة لا ترد، ونكايات لا تعد، ودهاء لا تصل إليه عقولهم، فأعاروها اسم بصرة المهلب، وقد أشبع العوتبي الفكر العربي بأعمال المهلب حتى همَّ أن يتولى مهام الدولة إلى حد بعيد، وهو هو في سيره وسراه، وكان قيامه على الأزارقة في حرب البصرة بأبطال عُمَان من قومه وآله، وهم العمدة معه في ذلك، وإن كان معه من غيرهم، ومن قرأ التاريخ العربي الإسلامي أدرك ما قلناه واضحًا، فلم تزل المعارك دائرة بينه والأزارقة عهداً طويلاً حتى ردهم الله بسببه خاسرين، حليفهم الفشل، وإذا استقرأ الحُر التاريخ العربي رأى فيه لعُمَان نقاطًا هامة.

قال الإمام: (ولهم في الشجاعة المنزلة العليا، والسهم الأوفر؛ وذلك فيهم غير

مجهول ولا مستنكر)، قال: (فمنهم بلج بن عقبه الفراهيدي الذي كان يعد عن ألف فارس، وهو شاب في سن العشرين من عمره)، قال (وخبره في سيرة الإمام طالب الحق الكندي)، قلت: وكم مثله من الأبطال العُمَانيين ذكر أفرادٌ منهم في تاريخ الإمام سلطان بن سيف بن سلطان اليعربي، من أرادهم فليرجع إليهم منه يجد رجلاً تفوق الرجال وأبطالاً لها في الشجاعة أعلى مثال. قال الإمام: (ولهم في السياسات التي يحار فيها الواصفون) مقام، ونوّه بسياسة المهلب، ولآل المهلب تاريخ ضخم يدل على الرجال المنظورين، والأبطال المشهورين، وهم من منابت عُمَان.

ومن هذا الطراز في كل دولة من دول عُمَان، ولله يوم يصبح البطل العُمَاني فيه مرفوع الأعلام في أفق التاريخ، وغير بعيد ذلك ـ إن شاء الله ـ فإن الزمان قد هَمَّ أن يستدير كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، فيعرف الحق لأهله، ويرد الباطل على ذويه، وفي عُمَان من أهل الفضل في المجالات الأخرى من يعد في طليعة ركب الرجال الميامين، ففي عُمَان علماء أجلاء لا يكاد يمكن أن يقاس بهم في أدوار الحياة، ذكرنا منهم طرفًا في (أصدق المناهج) ونموذجًا في (العنوان)، فإذا أردنا ذكرهم هنا يضيق بنا المقام، فإن محبوب بن الرحيل، وولده محمد بن محبوب، وولده بشير بن محمد بن محبوب، وابن ابنه الإمام سعيد بن عبد الله بن محمد بن محبوب، ومحبر بن محمد هؤلاء أهل بيت واحد في صُحار أشبه بهالة البدر في السماء، كل واحد منهم أفضل من الثاني، كأنما يشير إليهم القائل، حيث يقول:

مَـنْ تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

فهم في الفضل النمط الأوساط يرجع إليه العالي، ويلتحق به التالي، وهم في العلم البحور التي تقذف بالآلي، وهم بين الرجال في ميامين الشرف الأطم العوالي، هؤلاء نقطة من غيث، وبلة من البحر، وكم مثلهم في كندة وفي خروص وفي بقايا المسلمين، بعُمَان إذ أردنا ذكرهم على عادة أهل التراجم، لم نقدر، بل

إذا أردنا سرد أسمائهم، وذكر قبائلهم ومواقعهم في عُمَان لم تساعدنا الأقلام، وحسبك رجال الدولة اليعربية الذين خاضوا الأبحر فاتحين، وصارعوا الأمم منتصرين، ونظموا الجيوش محاربين؛ حتى أصبح العالم يحسب لهم ألف حساب، ولا بد أن يعود لعُمَان مجدها السالف، وشرفها العريق، والنّاس معادن، وأهل عُمَان أمامهم، ولله في خلقه أسرار، والأحاديث تؤيد ما قلنا، وعن قريب تبلغ عُمَان ذروة الشرف، ويشار إليها بالبنان بين الممالك، وإن غدًا لناظره قريب.

* * *

أَبُو بَكر الصدِّيق وَعُمَان

لما توفى النبيّ ﷺ، وقام بالأمر الخليفة الصديق أبو بكر ﷺ، ورضي عنه - خرج عَمْرو بن العاص راجعًا إلى المدينة للنظر في أحوال المسلمين، وكيف يدور مدارها، ومعه سبعون راكبًا من خيار أهل عُمَان وفضلائهم، ولما وصلوا إلى أبي بكر ﷺ وسلموا إليه الأمر، وتبرءوا إليه من أمر البلاد عُمَان، ووضعوها في يده، وتخلوا من سلطة الأمر والنهي، فشكرهم أبو بكر ﷺ وشكرهم المسلمون، وأثنى عليهم أبو بكر ﷺ ثناءً وافرًا، وأحبهم وأدنى مجلسهم، وبعد أن تعرف إلى القوم، والاطمئنان بهم جهزهم أبو بكر ﷺ لحرب آل جفنة، وهم غساسنة الشام، فقاموا بما وجّهه الإمام إليهم، وحمله على عواتقهم، وبعد رجوعهم من الشام، ولاّهم أبو بكر أمر بلادهم، وألقى إليهم ما عنده من الخطاب، وأقرهم على أعمالهم، ووضع لهم النظام اللازم، ولما ارتدت العرب، وكان أبو بكر السد الذي أوقف مجاري الارتداد، وقضى على النزعات الشيطانية بنور الايمان، ولم يغمد سيوف الحق عن أعناق أهل العناد، وإذ ذاك أرسل الجباة لزكاة أهل عُمَان، ووقع سوء التفاهم بين الجباة وأهل دَبَا من شمال عُمَان، وآل الأمر إلى التداعي بدعاوى الجاهلية، فوقع في أنفس المصدّقين أن القوم مرتدون، فتأخروا ليعبّئوا قواتهم للهجوم القاضي على القوم قيامًا بواجب الدين، وفي الحقيقة أن

ذالك واجبهم أن لو كان الأمر كما ظنوا، إلا أن الظن لا يغني من الحق شيئًا، وما كان القوم مرتدين؛ ولكن سوء التفاهم مهَّد لظن الارتداد من رجال الإسلام، فصال عليهم الجباة صولة الأسود الضارية، فما كان إلا عشيةً أو ضحاها، وإذا بالقوم في وثاق الأسر، بقهر أمير الصدقة، فقبض عليهم، والقوم متبرمون من صنع الأمير ثابتون على دينهم، ولو كانوا مرتدين [لحتاج] ردهم إلى الدائرة الإسلامية إلى جيوش جرارة تنتج دقًا وحطيمًا، فقادها إلى أبي بكر ﷺ أسارى على أنهم هم، وأموالهم غنيمة للمسلمين، ولما شاع خبرهم في المدينة، وجرى الكلام فيهم بين الصحابة ﷺ أنكر ذلك خيار الصحابة على أمير الصدقة ومن معه، وردوا عليهم عملهم، هذا وقد مر عليك ما جاء فيهم عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رحمه الله تعالى.

وفي التاريخ العُمَاني (أن أبا بكر رَحِمَهُ اللهُ وجّه حذيفة الغلفاني، أو القلعاني، وهو ابن محصن، أو ابن الحصين، كما في الرواية الأخرى، وكان من بارق حليفًا للأنصار، وكان له بصر ـ أي حكمة في الأمر مواردها ومصادِرها ـ فوجّهه أبو بكر رَحِمَهُ اللهُ إلى عُمَان أميرًا ـ أي على الصدقة ـ فصدقهم، فلمّا صار في آل الحارث بن مالك بن فهم ـ أي وهم المعروفون في أهل عُمَان بالشحوح الآن إذ علقوا عليهم صفة الشح بالصدقة، فقيل لهم: الشحوح، وشاع فيهم ـ ولما صار المصدّق إليهم تناول بعض أصحابه امرأة من القوم، وكان عليها فريضة شاة مسنة، فأعطتهم عتودًا، أو عناقًا مكان الشاة المسنة، فأبوا أن يقبلوها، فأخذوا ما أرادوا ـ أي مما وجب لهم ـ فلمّا كان الأمر كذلك، وكانت امرأة لا عقل لها، والشح بالمال أهلك من كان قبلنا، وأنه موجود في الرجال، فكيف به في النساء؟ فلمّا رأت ما فعل الجباة صاحت على قومها بما كانوا في الجاهلية يتداعون به، وهو قولهم يا آل فلان، فلمّا سمع حذيفة تلك الدعوة قال: دعوة جاهلية، فالقوم مرتدون، فعند ذلك أغار عليهم، وقبض على رجالهم، فساقهم إلى المدينة إلى آخر ما جاء فيهم.

وكان سبيعة بن عراك، والمعلا زعيمين فيهم، فلحقا بالقوم حتى تلاحقوا بالمدينة، فشكا الزعيمان إلى الصحابة فعل الأمير المصدّق، فلمّا تحقق عمر، وتبين أصل القضية لم ير المسلمون إلا رد القوم على بلادهم، وجبر خواطرهم بالمال، فحملوا عنهم مصاريفهم، وزوّدهم من بيت مال المسلمين ما خفف الوطأة عليهم، وهوّن المصيبة، ورجع القوم إلى بلادهم، وبذلك طَنْطَن المرجفون في أهل عُمَان، وزعموا أنهم مرتدون زعمًا لا أصل له، وشادا بذلك ابن الأثير في كامله أخذًا للقضايا من غير مصدرها، وعدم توثق في النقل، فقرروا ارتداد أهل عُمَان، وكيف يرتد أهل عُمَان؟ وقد أسلموا طوعًا، وأذعنوا للحق راغبين.

وقد سمعت ما قاله أبو بكر ﷺ فيهم، حيث قال: (معاشر أهل عُمَان إنكم أسلمتم طوعًا، ولم يطأ رسول الله ﷺ ساحتكم بخفٍ ولا حافر، ولا جشّمتموه ما جشّمه غيركم) - أي لم تكلفوه المشاق كما كلفه غيركم من العرب، فإن أهل مكة أهله وأقاربه وعشيرته آذوه وطاردوه حتى آواه الله إليه برجال من الأنصار الأمجاد الذين وفقهم الله، فواسوه بالحال والمال، ووازروه. في الحل والترحال -.

قال أبو بكر ﷺ: (ولم ترموا بفرقة، ولا قطيعة رحم، ولا تشتت شمل)، ثم دعا لهم أبو بكر ﷺ دعاء شاملاً، فشكرهم المسلمون شكرًا عظيمًا خصوصًا من أبي بكر المذكور، ثم حكى عنهم الحال الذي سره منهم قائلاً: (ثم بعث إليكم عَمْرو بن العاص بلا جيش ولا سلاح، فأجبتموه إذ دعاكم على بعد داركم، وكثرة عددكم، وأطعتموه إذ أمركم، فأي فضل أبر من فضلكم، وأي فعل أشرف من فعلكم، كفاكم قول رسول الله ﷺ شرفًا إلى يوم المعاد). قلت: يشير أبو بكر رَحِمَهُ اللهُ إلى قوله ﷺ للصحابي الذي أرسله الرسول ﷺ، إلى قوم فسبوه وضربوه، فقال ﷺ، **«لو أهل عُمَان أتيت ما سبوك ولا ضربوك»**، أو كما قال ﷺ.

ومن دعاء أبي بكر رَحِمَهُ اللهُ لأهل عُمَان قوله: (فيثبت الله ألسنتكم، ويهدي قلوبكم) في حديث يذكره المؤرخون، فهذه هي عُمَان تحت راية أبي بكر رَحِمَهُ اللهُ

وتلك تنويهاته ﷺ فيهم، فأين دعوى الارتداد؟ فأهل عُمَان من ذلك العهد إلى الآن لم يزالوا ثابتين على إسلامهم، وعاضين على سيرة أهل الحق فيهم بالنواجذ، وإن كانوا قد غشيتهم الآن المذاهب الأخرى الطارئة على عُمَان، فلن يتزعزع أهل الحق عن أصولهم، ولن ينقلبوا على أعقابهم، وإن تكدر صفو دهرهم، فإن الذهب الإبريز وإن أخنى عليه الدهر، وطال عهده بالتراب، فهو هو، وأهل عُمَان كذلك، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرعد: ١٧] وأهل عُمَان هم الذين يمكثون في الأرض لمنافع النّاس إن شاء الله.

ولقد قال الإمام سلطان بن سيف اليعربي ﷺ: (لأن أعاشني الله ـ أي أطال في حياتي ـ لأتركن المسافر يذهب من عُمَان إلى مكة بغير زاد) هذا وما زال أهل عُمَان يتقدمون الأمم بأخلاقهم الحميدة، ومكارمهم الجميلة، وعفافهم في الدين بالنسبة إلى غيرهم، ولا زالت غيرتهم الدينية، وها نحن في هذا الزمان العصيب، يقول لنا الوافدون من سائر العالم: إن بلادكم هذه بالنسبة إلى الأمم الأخرى عبارة عن مسجد، لقد قال لنا بهذا كثيرون ممن سافروا ورأوا ما عليه باقي الأمم، فالحمد لله.

وإذا رجعنا إلى أبي بكر ﷺ والعهد بالكفر جديد، فذلك حال أهل عُمَان معه، وتلك كلماته فيهم، وهذا حال أبي بكر رحمه [الله] معهم، والله يؤتي فضله من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. فأهل عُمَان لا ينال أحد من باقي الأمم منالهم، فهم أكرم من الريح المرسلة على قلة ما في أيديهم، إذ يسير الراكب في نواحي عُمَان لا يحتاج إلى زاد إلا إذا شاء بنفسه، وإنما أهل عُمَان يتزاحمون على الضيف تزاحم العطاش إلى الورد، كان الضيف كبيرًا، أو صغيرًا، وسواءً كان معروفًا، أو منكورًا، فهل يوجد هذا في سائر الأمم العالمية الآن.

وتوفي أبو بكر ﷺ وهو راضٍ عن أهل عُمَان، وهم راضون عنه، وكانت وفاته ﷺ ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء لثمان بقين من جمادي الآخرة سنة (١٣هـ) ثلاث عشرة للهجرة، وله ﷺ ثلاث وستون سنة، وهي سن رسول الله

ﷺ، فكانت المصيبة الثانية بالمسلمين، بعد رسول الله ﷺ بأبي بكر خير الأمة كلها بعد نبيها.

* * *

عمر بن الخطاب ﷺ وعُمان

لقد تقدم عن الإمام الأول لدولة الإسلام المسلمين الصديق الأكبر أبو بكر رَحَمَهُ اللهُ، ورضي عنه ـ وأعماله في عُمَان، وأنه أقر جَيْفر وعبدًا على مُلك عُمَان، جعل لهما أخذ الصدقات من أهلها، وحملها إليه، وجاء في (أسد الغابة) لابن الأثير صاحب (الكامل): (أن أبا بكر استعمل عكرمة بن أبي جهل القرشي على عُمَان، ثم عزله، وسيّره إلى اليمن، واستعمل على عُمَان حذيفة القلعاني، ولما تولى عمر بن الخطاب ﷺ عزله عن عُمَان، وولّاه اليمامة، وولى على عُمَان والبحرين عثمان بن أبي العاص الثقفي في سنة (١٥هـ) خمس عشرة للهجرة) إلى آخر ما جاء من أمره، وحكى العوتبي في(الأنساب) تولية الثقفي المذكور، وتولية أخيه الحكم على البحرين، ثم أمر عليه عمر رَحَمَهُ اللهُ أن يقطع البحر إلى ابن كسرى ـ أي الذي قتل أباه بفارس ـ وخرج عثمان المذكور بأهل عُمَان الأبطال، وهم ثلاثة آلاف فارس، وقيل به ألفان وستمائة من الأزد وراسب وعبد القيس وناجية، وكان زعماءُ الجند العُمَاني الغازي هم صبرة بن سليمان الحداني في أزد وشنوءة، ويزيد بن جعفر الجهضمي رأس آل مالك بن فهم، وكان أبو صفرة الذي لم يرغب الأمير في مشاورته إذ أتاه أمر عمر بن الخطاب بعد وقعة جلولا رأس بني عمران بن عَمْرو بن عامر، ومعهم جماعة، فخرجوا غزاة لفارس إلى آخر ما كان منهم في مسيرهم وتغلغلهم في النواحي الفارسية حتى نفذوا إلى أرض توج في شمال العراق، فخاضوا قتالاً عنيفًا، وصارعوا موجات ضخمة، وبذلك طن لهم في الأفق العربي صوت داو حتى تشوفت الأعين إليهم، ومثلت العُمَانيين مثلاً رائعًا، حيث خرجوا بالأمس في عهد أبي بكر ﷺ لمقاتلة آل جفنة

بالشام، واليوم يخوضون أرجاء فارس كذلك فاتحين؛ وبذلك رمقتهم الأعين بالإكبار، ولحظتهم بالوقار، وأجلَّهم أهل البصرة إذ أفاضوا عليها من توج، وقد ذكر القضية العوتبي في (الأنساب)، وأشار إليها الإمام السالمي ـ رحمه الله تعالى ـ في (التحفة)، وذكرناها في (العنوان)، كذلك كإشارة وتفصيل الحوادث يستدعي الفراغ الواسع، لاسيما أن التاريخ العُمَاني أغمض وأعمق من كل شيء، حيث لم تقم له مصادر عالمية كما حدثناك عنه في مقدمتنا لهذا الجزء.

ومن أعمال الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعُمَان قيامه على الأمير الذي قبض على أهل دَبَا متأولاً فيهم الارتداد، كما ذكره أهل العلم، وأن كان ذلك في خلافة أبي بكر ـ رحمه الله تعالى ـ وقد غضب عمر بن الخطاب على أمير الصدقة غضبًا لم ير مثله، حيث قال له: (والله إني لو اعلمك تسبيهم بدين دوني تقطع فيهم ـ أي بهذا الحكم الذي حكمت به فيهم، وهو سبيهم، وغنيمة أموالهم ـ لقطَّعتك طوائف، ثم بعثت إلى كل مصر منك بطائفة)، وفيه المبالغة بالتهديد ـ أي حيث تجعل التأويل في محل التنزيل ـ والمراد به التشهير بالعقوبة ليعلم النّاس أن الحق أكبر من الولاة، وفي بعثه به إلى الأمصار قِطَعًا تصريح ببطل ذلك الفعل، وتشهيرًا له بين المسلمين في أنحاء الأرض، ورد على من يقول: إن أهل عُمَان ارتدوا؛ ولكن الإمام رضي الله عنه أغضى عن عقاب أميره هذا، حيث رأى الحال يحتمل أشياء، فكان تهديده كافيًا لرد جماحه الذي جمح به عليهم قبل التحقيق، ولم تقم للأمير حجة تبرّر فعله، بل اعتمد على شبهة ظنها حقًّا، فأخطأ فيما فعل، والدين لا يثبت بالاحتمال، ومن اتخذ الظن دينًا كما يفعل بعض فرق المسلمين؛ فقد ركب محجورًا، وتنسم ضلالاً، وهذه أفعال الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فيمن فعل ذلك، وهم القدوة الصالحة، والحجة الراجحة، وإليه يشير قول الإمام رضي الله عنه في جوهره:

تأول الساعي لهم يوم دَبَا وأنكر الفاروق ذاك المذهبا

أي أنكر عليه تأويله ارتدادهم حين تداعوا بدعاوي الجاهلية، فإنه لا يكفي

للحكم عليهم بالارتداد بذلك، فإنه يحتمل أنهم جروا على المتعارف معهم سابقًا بقطع النظر عن معنى الارتداد، وكيف يرتد أهل عُمَان، وقد أسلموا طوعًا، ولم يطأهم رسول الله ﷺ بخف ولا حافر مع مدحه لهم بما علم من أحاديثه الواردة؟

قال الشيخ خلف بن زياد البحراني، وهو أحد عُلماء المسلمين القدماء رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثم نقض ـ عمر ـ أمر أهل دَبَا) ـ أي أبطل الحكم الذي حكم به المصدّق فيهم بعد ما هدَّده ذلك التهديد الكبير ـ ورد القوم ـ أي المسببين ـ من أهل دَبَا إلى منازلهم ـ أي بعُمَان ـ ورد عليهم أموالهم التي ظنها الجابي غنيمة، حيث لم يثبت منهم الارتداد قال: (وأجاز المسلمين بما أصيب منهم) ـ أي عوّضهم بدل ما ضاع عليهم ـ (بثلاثمائة ثلاثمائة) ـ أي لكل واحد منهم ـ قال: (وأخرج لهم ذلك من بيت مال المسلمين). قلت: هو دليل على أن خطأ العامل من بيت المال، حيث كان عامل المسلمين كإمام وقاض ونحوهما، أي أن بيت المال مجعول لصلاح المسلمين، وهذا من صلاحهم، فكأنه رأى الخطأ بالتأويل في بيت المال، وما هو بيت المال؟ هو الزكاة والغنائم لا غير، وقد حكم الله فيهما بحكمه الصحيح الصريح، وقد أخذ العلماء من ذلك ما كان صلاحًا للمسلمين يجوز الإنفاق عليه من بيت مالهم، فإن السنة فسّرت القرآن، وأفعال النبيّ ﷺ واضحة صريحة، وكذلك أحكام صحابته المتفرعة عن أحكامه ﷺ، للإمام النظر في مصالح المسلمين، ولذلك جعل إمامًا لهم ـ أي لينظر في مصالحهم بدلائل القرآن ـ فكان نظر الإمام ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عين الحق، ولسان الصدق، ولم لا، وهو الألمعي البصير رضي الله عنه.

ولما عَلِم عُمر من أهل عُمَان الصدق، وتقرر لديه ثباتهم أيام أبي بكر، ورأى أحوالهم في عهده، وأنهم لم ينزعوا يدًا من طاعة، ولم يراوغوا المسلمين مراوغة الجماعة، ولم يبدِّل في عُمَان أمرًا عن أمر، ولم يحرك ساكنًا، حيث اطمئن بأقوال النبيّ ﷺ إذ سمعها بأذُنه، وهو مطمئن بصحتها، ولم يكن له في عُمَان عمل أكثر

من هذا الذي ذكرناه، وبقيت عُمَان في عهده كباقي المملكة الإسلامية هادئة مطمئنة، وأهل عُمَان من أهدى الأمم للحق، وأتبعهم وأعرفهم به رغم بعد دارهم كما قيل:

أرتني هدى زيد وفي العلم قلة وضلة عَمْرو والعلوم بحور

على هذا عاشت عُمَان أيام عمر بن الخطاب رَحِمَهُ اللهُ حتى توفي رضي الله عنه قتيلاً لأربع عشر ليلة مضت من ذي الحجة سنة (٢٣هـ) للهجرة، طعنه أبو لؤلؤة، وكان نصرانيًا، وقيل مجوسيًا، ودفن مع صاحبيه النبيّ ﷺ، ووزيره الرضي أبي بكر رَحِمَهُ اللهُ هذه هي عُمَان أيام الخليفتين الرضيين المرضيين أبي بكر وعمر بن الخطاب. والتاريخ أكبر شاهد، وأصدق حجة، إذ يجيء معبِّرًا عن الحوادث، وحافظًا لكل حادث من محدثه، وتلك إحدى فوائده المنشودة.

* * *

عُثْمَانُ بنُ عَفَانَ وَعُمَان في عَهْده

لما توفي عمر بن الخطاب رَحِمَهُ اللهُ وكان جعل الخلافة شورى بين المسلمين، حيث رأى الأنظار تتنافس فيها، وكل يميل إليها نظرًا إلى الرئاسة، وكان ينبغي التباعد منها إلا من ابتلى بها، فيحتسب عناءه وأجره مع الله عز وجل ولا يميل إلى الرئاسة عاقل مهما كان، فإن حب الرئاسة هو الشهوة الخفية، نعوذ بالله منها.

ولا شك أن الكبر لا يفارقها طبعًا، وقد قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**». ولا شك أن الكبرياء لله لا ينازعه فيها أحد إلا كبه الله على وجهه في النار، وما سؤال يوسف الصديق الإمارة؛ إلا لأنه يعلم من نفسه الأصلحية لها، وذلك من الاجتهاد في الحق، كما أشارت إلى هذا إحدى سيّدات المغاربة الأمجاد لما جاءها الشيخ العلامة الجليل هود بن محكوم الهواري يشاورها حين طُلِب للقضاء. فقالت له: (إن كنت تعلم أن في القوم من أصلح منك لهذا الأمر، فقبلت فأنت خشبة في جهنم ـ أي إذا قبلت

مع العلم بمن هو الأصلح، فقد قبلت شهوةً وحبًا للإمارة، وفي ذلك الهلاك نعوذ بالله منه ـ قالت: (وإذا كنت تعلم أنه ليس في الجماعة من هو أفضل منك لهذا الأمر فأبيت، فأنت خشبة في جهنم ـ أي حيث تعيّن عليك الأمر، وصرت مكلفًا به وجوبًا، وإذا أبيت من فعل الواجب عليك استحقيت العقاب من الله ـ ولما ابتلي عُمر بن الخطاب بالإمامة، وعَلِم من أحوال النّاس ما عَلم، وخوطب في الوصاية بها لمن يراه أصلح لها؛ لئلا تنشق عصا المسلمين تبعًا لفعل أبي بكر ﷺ لم يوافق عمر أن يُوصيَ بالإمارة لأحد من المسلمين لِمَا رأى من الأحوال، فجعلها شورى بين ستة رجال من خيار المسلمين لينظروا الأصلح، ويكونوا حجة تقطع الشقاق، وتدفع الافتراق، وهم علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، وكان طلحة غائبًا. فقال: يا معشر المهاجرين الأولين، إني نظرتُ في أمر النّاس فلم أجد فيهم شقاقًا ولا نفاقاً، فإن يكن بَعْدي شقاق ونفاق فهو فيكم، تشاوروا ثلاثة أيام، فإن جاءكم طلحة إلى ذلك الأجل، إلا فأعزم عليكم بالله أن لا تتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم، فإن أشرتم بها إلى طلحة فهو لها أهل، وليصل بكم صهيب هذه الثلاثة الأيام التي تتشاورون فيها، فإنه رجل من الموالي لا ينازعكم أمركم، وأحضروا معكم من شيوخ الأنصار، وليس لهم من أمركم شيء، وأحضروا معكم الحسن بن علي، وعبدالله بن عباس، فإن لهما قرابة، وأرجو لكم البركة في حضورهما، وليس لهما من أمركم شيء، ويحضر ابني عبدالله مستشارًا، وليس له من الأمر شيء.

قالوا: يا أمير المؤمنين إن فيه للخلافة موضعًا فاستخلفه فإنا راضون به. فقال: بحسب آل الخطاب تحمل رجل منهم ليس له من الأمر شيء، ثم قال: يا عبدالله، إياك لا تتلبس بها، ثم قال: إن استقام أمر خمسة منكم، وخالف واحد، فاضربوا عنقه، وإن استقام أربعة، واختلف اثنان، فاضربوا أعناقهما، وإن استقام ثلاثة،

واختلف ثلاثة، فاحتكموا إلى ابني عبدالله، فلأي الثلاثة قضى فالخليفة منهم وفيهم، فإن أبى الثلاثة الآخرون ذلك، فاضربوا أعناقهم، فقالوا: قل فينا يا أمير المؤمنين، أي ما ترى من الأحوال مقال نستدل فيها برأيك، ونقتدي به، فقال: والله ما يمنعني أن أستخلفك يا سعد إلا شدتك وغلظتك، مع أنك رجل حَرْب، وما يمنعني منك يا عبدالرحمن إلا أنك فرعون هذه الأمة، وما يمنعني منك يا زبير إلا أنك مؤمن الرضى كافر الغضب، وما يمنعني من طلحة إلا نخوته وكبره، ولو وَلِيَهَا لوضع خاتمه في أصبع امرأته، وما يمنعني منك يا عثمان إلا عصبيتك، وحبك قومك وأهلك، وما يمنعني منك يا علي إلا حرصك عليها، وإنك أحرى القوم إن وَليتَهَا أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم.

هذه آراء عمر بن الخطاب ﷺ في الخلافة، وتلك فراسته في قومه، وهو أعرف بهم، وإن لهذه الأحوال من عمر بن الخطاب قيمة لا يقاومها شيء عند أهل العقول، ولو شُرِحَت لكانت إحدى آياته العمرية التي لا يدركها إلا الكُمّل من الرجال، ولا يهتدي إليها إلا عباقرة الأبطال، وإنها لتحتوي على السياسة التي لا تعادلها سياسة مهما كانت، فقد لوّح رَحِمَهُ ٱللَّهُ وصرح كما هداه الله، ولله في خيرته من خلقه أسرار لا يدركها إلا أمثالهم، ثم ختم كلمته رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: أوصي الخليفة منكم بتقوى الله العظيم، وأحذّره مثل مضجعي هذا، وأخوّفه يومًا تبيض فيه وجوه، وتسود وجوه، يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية، ثم غشي عليه حتى ظنوا أنه قد قضى، فجعلوا ينادونه، ولا يفيق من إغمائه، فقال قائل: إن كان شيء ينبهه فالصلاة، فقالوا: يا أمير المؤمنين الصلاة. ففتح عينيه فقال الصلاة هاأنذا، ولاحظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة، فصلى وجرحه يثعب دمًا، ثم التفت إليهم. وقال: قد قوّمت لكم الطريق فلا تعوجوه، ثم التفت إلى علي بن أبي طالب فقال: لعل هؤلاء القوم يعرفون لك حقك وشرفك وقرابتك من رسول الله ﷺ، وما آتاك الله من العلم والفقه في الدين، فيستخلفونك، فإن وَلَيت

هذا الأمر فاتق الله فيه يا علي، ولا تحمل أحدًا من بني هاشم على رقاب النّاس، ثم التفت إلى عثمان فقال: يا عثمان لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله ﷺ، وسابقتك وسنك وشرفك، فيستخلفونك، فإن وليت هذا الأمر فلا تحمل أحدًا من بني أمية على رقاب النّاس ثم دعا صهيبًا فقال: يا صهيب صلِ بالنّاس ثلاثة أيام، ويجتمع هؤلاء النفر ويتشاورون بينهم، أخرجوا عني اللهم ألِّفهم واجمعهم على الحق، ولا تردهم على أعقابهم، وولِّ أمر أمة محمد ﷺ خيرهم، فخرجوا من عنده، وتوفي رَحِمَهُ اللَّهُ من يومه ذلك، وصلى عليه صهيب.

فانظروا معشر أهل الحق في أمر عمر رضي الله عنه وهو في حاله ذلك يصرّف أمر الأمة، وهو في تلك الحال، ولم يشغله ماهو فيه، وانظروا في فراسته في رجاله وفي تأنيبهم بالأحوال التي هم عليها، إذ يقول في كل واحد منهم ما ينبغي أن يقال بغير محاباه ولا مداراة برغم ما فيه، فيقول للأنصار: ليس لهم من أمركم شيء، ويقول لابن عباس وللحسن ولابنه عبدالله: ليس لهم من شيء، مع تبيينه للخصال التي هم عليها، وجعل الأجل ثلاثة أيام، وبعدها أمر بضرب أعناقهم، إنها من القضايا التي يتزودها عمر بن الخطاب من أمور المسلمين الهامة بالنسبة إلى حالته، وهو صريع على فراشه، ثم بيَّن في الستة المشار إليهم الأحوال التي تؤهلهم لحمل الإمامة في الإسلام، مع كشفه عن خلال فيهم لها ما بعدها، ثم حكم في القضية عدة أحكام يفهمها المعنيون بأمور الأمة، ولما سألوه أن يقول فيهم ما ينبغي ألا يبقى منه شيء في واحد منهم، قال: في سعد الشدة والغلظة، وهما لا يناسبان في الأمير في أغلب الأحوال؛ لأن الأمير كالطبيب لا ينفر الطبيب من أهل العاهات وإلا لم يفدهم طبه، وقال لعبد الرحمن بن عوف: إنك فرعون هذه الأمة، وهذه طعنة نافذة، وقنبلة عظيمة؛ لأن[ابن عوف] كان معظمًا في الخاصة مطاعًا في العامة لفضله الحسي والمعنوي؛ لأنه كان أغنى الصحابة بالمال، وقال للزبير مؤمن الرضى كافر الغضب، والمعنى إنك إذا رضيت فعلت أفعال المؤمنين، وإذا غضبت فَعَلتَ

أفعال الكافرين ـ أي أن الغضب يهجم بك على الأمور بغير مبالاة ـ والمراد تهديده وزجره عن الغضب الذي يحمله على ما لا تحمد عقباه، فإن من كان كذلك لا يمكن أن يكون ولي أمر عامة. وقال: في طلحة الكبر والنخوة، وهما أيضًا من الخصال المذمومة في الدين، ولا يرضاها الإيمان، والمراد تركها لاسيما أن أمره في يد امرأته، بمعنى لا يخالفها، وهذا الحال من أقبح الأحوال في الرجال، ومتى يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة، والمرأة ضعيفة العقل واهية الإدارة، وذكر في عثمان عصبيته لقومه وحبه لهم، والحب يعمي ويصم، ولا يتناسب مع سياسة المجتمع، وقال في علي بن أبي طالب الحرص على الإمارة، فيخشى عليه أن توكل إليه، فإن رسول الله ﷺ قال: «لا نولي أمرنا من سألنا إياه». وقال لبعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ: «نفس تحييها خير لك من إمارة لا تحصيها». في أحاديث عديدة تُنَفِّر من ذلك تناقلها عُلماء المسلمين، والمعقول هو هذا، فلا يطلبها عاقل قطعًا، ومن ابتلى بها أُعِين عليها، ولقد أوضح الفاروق رحمه الله كل مخفي من أحوال هؤلاء الرجال؛ ليقلع بذلك تلك الجراثيم الجاثمة على صدور هؤلاء الذين هم صفوة الأمة في وقتهم، وعين الإسلام، فرحم الله ذلك السيد الفاروق الذي لم يلهه عن تدبير أمر أمته ومناقشتها، وهو في مثل ذلك الحال شيء، فلله در الرجال الذين هم حجة الله، وإن عمر بن الخطاب في مقدمتهم بإجماع أهل الحق الذين يعتد المسلمون بإجماعهم.

وبعد موته رحمه الله اجتمع المسلمون في النظر لأمر الشورى، واجمع أهل الشورى في بيت أحدهم، وأحضروا عبدالله بن عباس، والحسن بن علي، وعبدالله بن عمر، فتشاوروا ثلاثة أيام، فلم يبرموا فتيلاً، فلمّا كان في اليوم الثالث قال لهم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: أتدرون أي يوم؟ هذا يومٌ عَزَمَ عليكم صاحبكم أن لا تتفرقوا فيه حتى تستخلفوا أحدكم، قالوا: أجل. قال: فإني عارض عليكم أمرًا، قالوا: وما تعرض؟ قال أن تولوُّني أمركم، وأهب لكم نصيبي منها ـ أي لا يكون لي فيها نصيب، بل هي إليكم معشر الخمسة الباقين ـ وكان رحمه الله نظر تشوق القوم

إليها، وتطاول الأعناق لنيلها، وقد قال له عمر: إنك فرعون هذه الأمة، قال عبد الرحمن: وأختار لكم من أنفسكم ـ أي تحكّموني في الاختيار، وتفوضوني فيه ـ قالوا: قد أعطيناك الذي سألت، قال: فلمّا سَلَّم القوم ـ أي الأمر إلى عبد الرحمن وحكّموه في القضية، وتخلى هو منها ـ قال لهم: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، فجعل الزبير أمره إلى علي بن أبي طالب، وجعل طلحة أمره إلى عثمان، وجعل سعد أمره إلى عبد الرحمن بن عوف.

قال المسور بن مخرمة: فقال لهم عبد الرحمن كونوا مكانكم حتى آتيكم، وخرج يتلقى النّاس في أنقاب المدينة، متلثمًا لا يعرفه أحد، فما ترك أحدًا من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء النّاس ورعاعهم إلا سألهم واستشارهم. قال: أما أهل الرأي فأتاهم مستشيرًا، وتلقى غيرهم سائلاً، يقول: من ترى الخليفة بعد عمر كالمستخبر، ليتلقى ذلك من أفواه النّاس، فإن الله يلقيه على ألسنة عباده رغم الأهواء الصادرة عنه، فلم يلق أحدًا يستشيره ويسأله إلا ويقول: عثمان. فلمّا رأى اتفاق النّاس واجتماعهم على عثمان، قال المسور ﷺ: جاءني عشاء، فوجدني نائمًا، فخرجت إليه، فقال: ألا أراك نائمًا فوالله ما اكتحلتْ عيني بنوم منذ هذه الثلاثة ـ أي الأيام ـ ادع لي فلانًا وفلاناً نفرًا من المهاجرين، فدعوتهم له، فناجاهم في المسجد طويلاً، ثم قاموا من عنده فخرجوا، ثم دعا عليًا، فناجاه طويلاً، ثم قام من عنده على طمع ـ أي في الأمر، أي كأنه يراها له ـ ثم قال: ادع لي عثمان، فدعوته، فناجاه طويلاً، حتى فرق بيّنهما أن آنت صلاة الصبح، فلمّا صلوا جمعهم فأخذ على كل واحد منهم الميثاق والعهد، لأن بايعتك لتقيمن لنا كتاب الله، وسنة نبيك، وسنة صاحبيك من قبلك، فأعطاه كل واحد منهم العهد والميثاق على ذلك، وأيضًا إذا بايعت غيرك لترضين، ولتسلمن ويكونن سيفك معي على من أبى، فأعطوه ذلك من عهودهم ومواثيقهم؛ وذلك لأنه لابد أن يبايع بها أحدهم، وعلى الباقين السمع والطاعة، والعون على من خالف

الجماعة؛ لأنها لا تكون للكل قطعًا فنراه قد ربطهم بالعهود والمواثيق ألا يختلفوا عليه، وهو قد تَسَمّع إلى النّاس خاصتهم وعامتهم، وعَلِم منهم أنهم يتوقعون ذلك لعثمان؛ لأنهم يلاحظون أهليته الظاهرة، وكفاءته الشاهرة والغيب لله عزوجل.

قال: فلمّا تم ذلك أخذ بيد عثمان، فقال له: عليك عهد الله وميثاقه، لأن بايعتك لتقيمن لنا كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وسنة صاحبيك، وشرط عمر لا تجعل أحدًا من بني أمية على رقاب النّاس؟ فقال عثمان: نعم. ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب وقال له: أبايعك على شرط عمر ألا تجعل أحدًا من بني هاشم على رقاب النّاس، فقال علي عند ذلك: مالك ولهذا، إذا قَطَعْتَها في عنقي، فإن على الاجتهاد لأمة محمدﷺ، حيث علمت القوة والأمانة، استعنت بها كان في بني هاشم أو غيرهم، فقال عبد الرحمن: لا والله حتى تعطيني هذا الشرط، قال علي: والله لا أعطيكه أبدًا، فتركه، فقاموا من عنده، فخرج عبدالرحمن إلى المسجد، فجمع النّاس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إني نظرت في أمر النّاس فلم أراهم يعدلون بعثمان، فلا تجعل يا علي سبيلاً إلى نفسك، فإنه السيف لا غير، أي عملاً بوصية الإمام الراحل عمر بن الخطاب.

وبهذا تجلت شجاعة عبد الرحمن بن عوف ﷺ فإن الموقف حرج، والأمر جلل، وفي مثلها تتجلى عباقرة الرجال. قال: ثم أخذ بيد عثمان، فبايعه، وبايع النّاس جميعًا، وهنا انتهت قضية البيعة لعثمان، وتركنا ما وقع من القيل والقال، وربما يقول قائل: إنك مَعنيٌّ بتاريخ عُمَان، فما بالك خرجت إلى حديث عمر بن الخطاب في الوصية منه بالخلافة والشورى؟ قلت: لأن عمل عمر هذا هو في نفسه دستور عظيم، وقانون جسيم، فتركز عليه الإمامة في كل أدوار وجودها وأطوار حياتها، واعتمادًا على أمير المؤمنين الفاروق، وأخذًا بتلك القاعدة التي وضعها، فهي من أولها إلى آخرها مبادئ صحيحة، وقواعد رجيحة، ودعائم مكينة، على مثلها يقوم البناء للهيئة الاجتماعية، وعلى مثلها تثبت الأوضاع السياسية.

ولا شك أن عمر هو شمس العدالة التي لا يخفى ضوؤها على أحد من أهل الحق، ولو كان البناء مشى على أعمال لكانت الأمة في أرفع المناصب طيلة الدهر؛ ولكن لما كان الأمر رهن القضاء والقدر، كان الحال على ما سمعناه، وما نسمع ونرى، وعلى كل حال إن القانون الذي وضعه عمر أعجز من بعده، وأين في النّاس كأمثال عمر رَحِمَهُ اللهُ ورضي عنه؟

فهذا الكرسي الذي قعدت عليه إمامة عثمان؛ ولكن ما كل مجتهد مصيب، فقد اجتهد عمر للمسلمين، وهو في ذلك الحال الحرج، واجتهد عبد الرحمن بن عوف كذلك، وإن لم يوفق، فلا يلام بعد الاجتهاد، وهنا استقر الأمر لعثمان وصحت خلافته، وثبتت إمامته، وقام بأعماله، فما كان منه لعُمَان وماذا فعل فيها؟ لم تكن عُمَان أيام الخليفة الثالث إلا هي هي أيام الخليفة الأول والثاني، وحيث إن أمر عُمَان مازال في أيدي ولادتها الميامين أنجال الجُلَندى ملك عُمَان، ولم يكن من أهلها شقاق، ولا نفاق، ولا افتراق، وكان أحكام الشريعَة الغراء ماشية في نشاطها، وجارية في مجاريها لم يدر في خلد عثمان هم عن عُمَان، ولا طن على أذنه عنها صوت يستجذب الأسماع إليه، فيشتغل بها كما اشتغل بغيرها، فقد قام عثمان على من قاومه من أهل الأقطار، وفتح المسلمون على عهده فتوحًا، وعمل أعمالاً لا ينكرها أحد حتى إذا تم ستة أعوام، وهو راق في سماء المجد، والمسلمون حوله يجيبون دعوته، ويؤيدون حجته، حتى إذا أراد الله اختيار قوم ابتلاهم في أفضل أحوالهم، وأكمل خصالهم، فقامت الأحداث في الدين، وهي تسترعي انتباه المسلمين، وتستدعي أهل الحل والعقد من المؤمنين حتى اتقدت جحِيم الشقاق، وقام اللجاج للافتراق، واختلفت الآراء، وساءت الظنون، وإذا بالمسلمين من كل حدب ينسلون، فكّروا على عثمان بالتخلي عن الأمر اختيارًا، وترك الخلافة إلى أهلها لينظروا الأعدل والأصلح، كما أوجب الله ﷻ فكان القيل والقال داعيًا إلى الخذلان والوبال، حتى آل الأمر على قتل

عثمان، وساءت الحال إلى حد بعيد حتى إنه لم يشيّعه في دفنه أحد من المسلمين الذين هم الحجة، والمنظور إليهم بين الأنصار والمهاجرين.

وهم إذ ذاك متوافرون، وذهب عثمان إلى الدار الآخرة، ولم يشك عُمَان، ولم تشكه هي أيضًا ـ والحمد لله ـ وكان قتله على رأس ثمانين سنة من عمره، وقيل على رأس ثمان وثمانين، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة، وأحد عشر شهرًا وأربعة عشر يومًا، وقيل: كانت خلافته اثنتى عشرة سنة، وقتل وهو ابن اثنتين وثمانين عامًا، وقيل: ابن ثلاث وثمانين، وقيل: ابن تسعين عامًا، وقيل: غير ذلك. وكان قتله على ملأ من المسلمين، وحوصر قيل: أربعين يومًا، وقيل، عشرين يوماً، وقيل: تسعًا وأربعين يومًا، وقيل: ثمانين يوماً، وكان قتله يوم الأربعاء بعد العصر، ودفن يوم السبت قبل الظهر، وقيل: يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذي الحجة سنة(٣٥هـ) خمس وثلاثين، وقيل: قتل في وسط أيام التشريق، وأقام ثلاثة أيام لم يدفن، ولم يصل عليه، وقيل: صلى عليه جبير بن مطعم، ودفن ليلاً كما قدمنا لم يشيع جنازته الأعيان، ولم ير من عُمَان سوءًا، ولم تر منه كما قلناه فيما سبق لنا من التحرير.

* * *

عَلِي بنُ أَبِي طَالِب وعُمَان

لما توفي عثمان بن عفان، ماج بالمسلمين تيار السياسة، وهاج في الإسلام الرأي العام الداعي إلى وجوب نصب الإمام، وكانت الشورى التي رآها عمر قد رشحت رجالاً للإمامة، ومنهم أبو السبطين، ووالد الحسنين، الذي قال فيه عمر بن الخطاب ﷺ ما يمنعني أن أوليك يا علي إلا حرصك عليها، وقال له عبد الرحمن بن عوف أيضًا ما قال، وكان علي بن أبي طالب يرى أنه الأحق بها من أول يوم؛ فلذلك تلكأ في بيعة أبي بكر ﷺ ولم ير المسلمون له ذلك خصيصًا، وقد عُلم أمر الخلافة بين المهاجرين والأنصار، ولم يقل أحد منهم إن عليًا أخص بها؛

ولذلك جعلها عمر شورى، ولم يقل إن عليًا أحق بالأمر من غيره، ولو كان أحق لما ترك المسلمون الأحق، وهم أمناء الله في أرضه، وخلفاءه في بريته، بل كان علي بن أبي طالب أحد الرجال المرشحين لها برغم الرغَبات، وعلى كل حال، فإن الرجال محاط الأعمال، وكل يصلح لشيء خاص، وهذا الأمر لا يزال في أحوال البشر، أما الكمال الحقيقي لله وحده ﷻ.

فلمّا تولى علي بن أبي طالب أمر المسلمين، كانت عُمَان من جملة ممالك المسلمين، الخاضعة للحق والدين، التابعة لأمير المؤمنين، وكان والي عُمَان إذ ذاك عباد بن عبد بن الجُلَندى من طرف أمير المؤمنين، قائم بأمور عُمَان، خاضع للخليفة، سامع لأوامره عامل للخلافة عملاً لا هوادة فيه، وكان علي بن أبي طالب سرعان ما انصدع بناء إمارته بما جاء به الداهية معاوية بن أبي سفيان إذ كان يحاول سلطان المسلمين، وله حب في الإمارة لازال يتأملها بكل ما أوتي من إمكان، فلمّا رآها لا تقرب إليه، وقد ترشح لها عمل على قهرها، وأخذها من أين وجدها، غير مبال بما يلاقي فيها، فلمّا أفضت إلى علي بن أبي طالب، رأى إياسه منها يتقدم، وأمله لها يتأخر، فكان من قدر الله أن رأى أن عليًا لا يقره على عمل من أعمال المسلمين مهما كان؛ لأن حاله ينافي استعماله، ولا نولي عملنا من إراده، اختلق لنفسه الطلب بدم عثمان، ونادى أنه قُتل مظلومًا، وصاح في أهل الشام هذا الرأي كان على أمير المؤمنين، وهذا ما فُعِل به، ولم يناصره أحد، وفعلوا فيه، وجاروا عليه، وكان أهل الشام أتباعًا لمعاوية فيما حل وحرم، وقد استحوذ على أفكارهم، وتمكن من استمالتهم إليه، فقام على علي الإمام محتالاً على الخلافة، موهمًا للسواد أشياء جعلها ذريعة مقصده، فقادهم قودَ الصبي للجمال مقطورة خلفه:

فجاء يقرع ظنبوب الشقاق له   روقانِ في الغي من بغي ومن بطر
ينوح في الشام ثكَلى ناشرًا لهم   قميص عثمان نوح الورق بالسحر

فشاغل عليًا، واشتغل به، واضطرب الحبل الذي في يده، ولم يملك استقراره، فكانت الفتن تنبعث عليه من منامها، والشرور تلتهب لديه نيرانها، وذلك هو الذي قيّده عن الاتصال بالممالك الإسلامية، وشغله عن أمصار الدين، فلم يكن لعلي بعُمَان عمل لا حل، ولا عقد، حتى قضى الله عليه من يد عبد الرحمن بن ملجم المرادي المصري، وكانت عُمَان في عافية من قتل هؤلاء الخلفاء الثلاثة الذين تتابعوا قتلاً من أيدي إخوانهم المسلمين. نعم إن قاتل عمر بن الخطاب على الصحيح لم يكن مسلمًا، وبموت علي بن أبي طالب انحل نظام الخلافة الصحيحة، وصارت ملكًا عضوضًا، وكان قتل علي بن أبي طالب ليلة السابع عشر من رمضان في ليلة الجمعة سنة أربعين للهجرة، فمات بعد يومين.

قال كمال الدين محمد بن موسى الدميري: مات سنة٧٥، وقيل: سنة ثمان وخمسين، وقيل: ثلاث وستين، وقيل: سنة(٦٨هـ) ثمان وستين، وعمره خمس وستون سنة. قاله ابن جرير الطبري، وقيل: ثلاث وستون سنة، وهي سن رسول الله ﷺ، وسن أبي بكر، وعمر، وكانت إمامته أربع سنين وتسعة أشهر ويومًا واحدًا قضاها كلها في أزمات مزقت الدين، وفرقت جمع المسلمين، ولم يتمكن علي بن أبي طالب من إقامة أركان خلافته، فإن صوته لم يتجاوز الحدود، وهو كان يأمل أن تكون الأيام طوع يده، والأنام تحت قهرته.

وَلَمَّا قُتِل علي بن أبي طالب كما ذكرنا، كانت المملكة الإسلامية تهتز جدرانها لتداعى حيطانها، والأمة في أقطار أرض في حيّرة وروعة ودهش، لا يعرفون مصيرهم، فمنذ قتل عمر بن الخطاب لم تزل الدولة الإسلامية تتوقع قتل الخلفاء، وأن كان ذلك غير مستغرب، لكنه مثير للقلق والروعة، داعٍ إلى مضاعفة الهموم في هذه المرحلة الدنيوية، وقد بويع للحسن بن علي بعد وفاة والده نظرًا لكفاءته؛ لأنه ابن الخليفة العالم الزاهد الهاشمي المجاهد، علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، وهو السبط الأكبر، وقد توافرت فيه الصفات المطلوبة

في الإمام، ولم يذكر بمعيب إلا بمخالفته وصية أبيه في قتل ابن ملجم، حيث أوصى عليهم ألا يمثلوا به فمثلوا، ولعل الحسن لم يكن ذلك التمثيل بأمره، ولا رضى به، وهو اللائق بمقامه، إلا أن الحسن ألقى الإمامة في نحر معاوية، وهو يعلم أن معاوية غير أهل للإمامة الراشدة، وأن ذلك الإلقاءَ لا يليق بالحسن الهمام ابن علي الإمام، بل اللائق خوض بحار الدماء في نصرة الحق وتأييده، فإن الخلافة في الشريعة الإسلامية لم تكن ملعبة، ولا غنيمة تُهدى، ويؤخذ عليها الأجر، لاسيما وأن معاوية لم يفِ للحسن بما وعده، وقد شُهِر أنه دسّ السم عليه، فمات مسمومًا وصفا الجو لمعاوية.

ومهمتنا أن الحسن لم يكن له في عُمَان أي عمل، كما أنه لم يكن له في بقية بلاد الإسلام كذلك أي عمل، وإنما كانت الأعمال لمعاوية، فكان سيد المسلمين وأمير المؤمنين رضوا أم كرهوا، فإن للسيف حكمًا لا يزال يعرفه كل أحد، وإنما المراد الملك، والتسلط على الأمة، وقد سلم الحسنُ الأمر لمعاوية لخمس بقين من ربيع الأول بعد قتل قيس بن سعد بن عبادة.

فكانت خلافته ستة أشهر إلا خمسة أيام، فلم يقع منه شيء يذكر، وأراح نفسه من الخلافة بعدما تولاها، وقام معاوية في المسلمين ملكًا عَضَّ على الملك بالنواجذ، فاستطردنا لذكره لِمَا له ولمعاوية من العلاقة، فإن كلامنا يتم بذلك كما سبق لنا.

وَلَمَّا تولّى معاوية الملك وَصَفَا له الجو، ولم يخش أحدًا بعد علي بن أبي طالب، ووالده الحسن، ورأى الأمور جاءته خاضعة طائعة، وكان أمر عُمَان إذ ذاك إلى عباد بن عبد بن الجُلَندى، وكان معاوية لا أرب له في التطاول، بل كان يخشى نزع الشام من يده، وكانت عشرون عامًا التي قضاها معاوية بالشام لها أثرها الفعال، فكان غاية ما عنده الرضى بالحال الذي حصل له، وأقام على تأييد زعامته في الشام والعراق ومصر، وهذه هي أمهات المملكة الإسلامية، فكانت مصر حظ عَمْرو بن العاص.

وبقيت العراق والشام، أما الشام: فهي فيئة، وأما العراق: فهي ملكه، ولم يكن له نظر إلى ما وراء هذه الممالك، فلم يكن له في عُمَان تحريك وإسكان، ولا حل ولا عقد طيلة حياته، حتى قضى الله عليه، وعُمَان في يد أهلها وعباد بن عبد أميرها، وكانت وفاة معاوية في مستهل رجب، وقيل: في منتصف رجب سنة ستين، وكان عمره ثمانين سنة، وقيل: خمسًا وثمانين سنة، وقيل: خمسًا وسبعين سنة، وقيل: ثمان وثمانين سنة وقيل تسعين سنة، عاش أميرًا وخليفته أربعين سنة، وقد عافى الله منه عُمَان وأهلها، وعافاه منهم، وكانت له أحوال ونوايا كبيرة ذكرها العلماء المؤرخون. وهكذا يحلو الدهر ويمر، وما هو إلا ظل زائل، والمصير إلى الله الولي الحقيقي.

وهنا تم الجزء الأول من تاريخ عُمَان عشية حادي ربيع الأول سنة (١٣٩١هـ) والله المسؤول التوفيق لرضاه، والعون على تقواه، وأن يبلغنا ما نتمناه مما يحبه الله ويرضاه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وصحبة وسلم.

❊ ❊ ❊

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

اعلم أن إمامة علي بن أبي طالب آخر الإمامة المجتمع عليها من رجال الإسلام، وكانت بيعة علي بن أبي طالب صحيحة ثابتة وقعت من أهل الحل والعقد، الذين جعلهم الله حجته على عباده وثبتت بإجماع المسلمين، ووقوعه فيما وقع فيه من الفتن شيء آخر، وعندي أن عليًا أحب الإمارة وركن إليها وتظلم المسلمين فيها فابتلي بها فاعتاصت عليه ورأى منها ما يكره مدة خلافته وامتنع من بيعة أبي بكر أولًا حتى رآها وقعت رغم رغبته فبايع بعد مدة، ثم لما مات أبو بكر رحمه الله واستخلف عمر بن الخطاب لم يكن لعلي فيها مقال إذ قد حُكِمَ فيها وتولى الأمر عمر بن الخطاب برضى المسلمين حتى إذا هلك جعلها شورى بين ستة نفر من خيار الصحابة الذين اعتقد فيهم أنهم حجة تامة بين المسلمين، وكان علي بن أبي طالب أحد الستة، فتولى رئاستها عبد الرحمن بن عوف الزهري واجتهد في اختيار الأصلح للأمة بحسب الخصال التي كان يعلمها منهم في حالهم السابق الذي مات عليه النبي ﷺ، ومات عليه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فرأى أن عثمان أولى من بقيّة رجال الشورى، فبايعه عهود ومواثيق أخذها عليهم في اختيار الأصلح، والقيام بواجبات الدين وحقوق أمة الإجابة على كل فرد فرد، وبعد اجتهاد مَحَصَ فيه القضية تمام التمحيص.

وبعد موت عثمان اجتمع المسلمون للنظر في أمر دينهم ودنياهم، ولم يروا أولى بها من علي بن أبي طالب للخصال التي ذكرناها فيه، فقام بالأمر وثارت علي ثوائر الشقاق والنفاق، واصطدم بحجر هؤلاء المشار إليهم، وكانت وقعة الجمل ثم تلتها وقعة صفين، ثم وقعة النهروان.

وبعد ذلك تدهور البناءُ الإسلامي، وانحل العقد الديني، وانتشر الشقاق وعظم الافتراق، واعصوصب الأمر على علي الأمر حتى آل الأمر على قتله فقتل كما سبق، والأمر إلى الله وحده يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وذكرنا أن عثمان وعليًا لم يكن لهما بعُمَان أي عمل إذ أحاطت بهما الخطوب من كل جانب؛ لأسباب ذكرها أهل العلم ودوّنوها في آثارهم التاريخية، ومازالت القضايا رهن القيل والقال منذ ذلك العهد إلى الآن، ونحن نقول: تلك أمة قد خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، والله يعلم المفسد من المصلح، وإليه المرجع والمآب.

ثم بعد علي بن أبي طالب بويع لولده الحسن، فلم يكن له في الأمر حل ولا عقد حتى ألقى إمامته إلى معاوية بن أبي سفيان الذي مازال يخطبها وما برح يطلبها حتى أتته راغمة، فتولى الأمر معاوية المذكور، وسار فيه سيرة الملوك إلى أن انتهى أمره وارتحل إلى ربه أسير عمله، والله يتولى من عباده الصالحين، ثم بويع من بعده لولده يزيد، وهي كما بيعة قهرية وقعت في اليوم الذي مات فيه أبوه، وهو مستهل رجب، وقيل بالنصف من رجب سنة ٦٠هـ ستين للهجرة، وقام على وتيرة الملوك آخذًا ببعض أعمال أبيه إلى أن توفي في شهر ربيع الأول سنة ٦٤هـ أربعين وستين، وله تسع وثلاثون سنة، فكانت خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر، ثم تولى الأمر بعده بالوراثة ابنه معاوية بن يزيد بن معاوية، بويع في اليوم الذي مات فيه أبوه فبقي في خلافته أربعين يومًا، وقيل خمسة أشهر وأيامًا، وخلع نفسه منها وخطب على المنبر فذكر أفعال جده معاوية واعتداءه على أهل الحق واغتصابه الأمر عن أهله، ثم ذكر أباه يزيد من سوء أعماله وسيئ أفعاله، وأنّبه تأنيبًا وأبان ما عنده حول الأمة، وصرح بما في ضميره وأعلن للناس الهوايا المزعومة وعبّر عن الواقع الحقيقي ووعظ الأمة، بأبلغ الوعظ، ومات بعد خلعه نفسه بأربعين ليلة، وقيل سبعين ليلة عن ثلاث

وعشرين سنة، وقيل إحدى وعشرين فقط، وقيل ثماني عشرة سنة ولم يعقب على الصحيح.

ثم بويع بعده ابن الطريد مروان بن الحكم كما قال الدميري المذكور، وقام بالأمر وتولى العراق ومصر، وقامت على عهده حروب مذكورة في التاريخ، ثم مات سنة ٦٥هـ خمس وستين للهجرة، وكانت وفاته بيد امرأته قعدت على صدره وهو نائم ومعها خوادمها فلم تفلته إلا ميتا، وكانت خلافته عشرة أشهر وكان عمره ثلاثًا وثمانين سنة، وهو الذي انتسبه إليه المراونة من بني أمية فكان هو كرسيهم الأول.

* * *

خلافة عبد الملك بن مروان وعُمَان

لا يخفى على المطلع أن عُمَان منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم تصل إليها أيادي الخلفاء الذين جاءوا بعده، فمضى عثمان وعلي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وابنه يزيد بن معاوية، وابنه معاوية بن يزيد بن معاوية، ومروان بن الحكم، وكان الحكم طريد رسول الله ﷺ، فهؤلاء الملوك الستة لم يكن لهم بعُمَان عمل يذكره التاريخ، وإنما عاشت عُمَان أيامهم وهي بيد أهلها يديرونها كما تقتضي الشريعة، ويعلمون فيها بواجبات الدين غير متزعزعين عن خطة الحق قيد شعرة، وكان في هذه الفترة أميرها عباد بن الجُلَندى، حتى إذا بويع لعبد الملك بعد موت أبيه وولي الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق في أيام سليمان وسعيد ابني عباد بن عبد الجُلَندى، فحاول الحجاج بن يوسف إلحاق عُمَان بولاية العراق، فلم ير أهل عُمَان طاعة الحجاج الظالم السفاك، بل لا يرون ولاية عبد الملك فضلاً عن الحجاج، فإن عبد الملك كان رجلاً عاقلاً فطنًا بصيرًا بما عليه النّاس وما يرغبون فيه يرغبون عنه.

أما الحجاج فكان طاغيةً عاتبًا سفاكًا للدماء، لا يبالي بها في نصرة هواه

أو نصرة سلطانه، ولما لم ير من عُمَان الخضوع والانقياد جر عليها الجيوش، وظل يهاجمها مهاجمة عنيفة كاد أن يقضي على الروح العُمَانية تمامًا؛ لكن أبى الله إلا أن يعيش الذهب في النار عيشه في الثرى، بل لم تزد حروبه أهل عُمَان إلا صقلاً وصلابةً واتقاد حماس، فإنهم كلما صارعهم بجيوشه قضوا عليها وأرغموها على الهزيمة، قال ابن رزيق في تاريخه: بعد ما وقعت الفتنة وافترقت الأمة، وصار الملك والسلطان إلى معاوية بن أبي سفيان، ولم يكن لمعاوية في عُمَان شيء من الشأن، حتى صار الملك لعبد الملك بن مروان، فاستعمل عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق، وذلك في الزمن على الاتفاق في عُمَان من أساطين سلاطينها سليمان وسعيد ابني عباد بن عبد بن الجُلَندى، وهما القيمان في عُمَان، وكان الحجاج يبعث غزواته عليهما وينتخب عليهما أميرًا بعد أمير، يعني قواد الجيوش، وهما يفضان جموعه ويبيدان عساكره في مواطن كثيرة، وكلما أخرج عليهما جيشًا هزماه واستوليا على سواده، فأشار إليه بعض خاصته أن يخرج عليهما القاسم بن شعوة المري في جمع كبير، فأخرجه عليهما وخرج بجيش عظيم وخميس جرار على سفن كثيرة، فلما انتهى القاسم المذكور إلى ساحل عُمَان، أرسى سفنه على ساحل حطاط، وحطاط كان يشمل وادي بوشر تشريقًا إلى أعمال قريات، فسار إليه سليمان بن عباد الجُلَندى بأبطال الأزد ومن معهم من العرب فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فكانت الدائرة على أصحاب الحجاج وانهزموا شر هزيمة، وقتل القائد القاسم بن شعوة، قتل من قومه خلق كثير، واستولى سليمان على سوادهم، وقيل هلكوا كلهم ولم يسلم منهم أحد، هكذا قال ابن رزيق، وكذلك لشكيب أرسلان.

قال ابن رزيق: فلما بلغ ذلك الحجاج هاله الأمر واندهش لهذا الحادث الذي كان يأمل أن يأتيه بعُمَان يقودها له قود الصاغر، ثم استدعى مجاعة أخا القاسم

المقتول، وأمره أن يندب النّاس ويستصرخهم وينادي في قبائل النزار، بإثارة حفائظهم؛ وإلهاب ضمائرهم ليقضي وطره بهم، وأن تعمّ دعوته حتى حُلفائهم كنذير عام لهم وشيعتهم من الأنام، ويستنصرهم على خراب عُمَان، أو قل على الأقل لإخضاع عُمَان.

قال وأظهر الحجاج حميّة وغضبًا وأنفة أيضًا، على أن عُمَان ترده على عقبه فتكون له في الأحياء أحدوثة سيئة، وكتب ذلك إلى عبد الملك بن مروان، وماذا يقول عبد الملك وصاحب القضية الحجاج، حيث الهزيمة عليه، وإن كان النصر فلعبد الملك، ولا يهم الحجاج حيث يجد العرب تضرب العرب في رضاه ورغبته، ولو كان يخوض المعركة بنفسه خوض الأبطال كعلي بن أبي طالب وخالد بن الوليد وعَمْرو بن العاص، لأحجم عن قصده؛ ولكنه ليس هناك، وكان من سياسته أن أقعد وجود الأزد عن الخروج في هذا الجيش، وكانت قوة الأمير من الأمة، وكان بالبصرة من الأزد أبطال يدرون من أين تؤكل الكتف، وكان عدد الجيش في هذه المرة الذي أخرجهم الحجاج مع مجاعة بن شعوه لضرب العُمَانيين. قال ابن رزيق: على الأصح أربعين ألفًا، فكان الجيش فرقتين: فرقة بحرية، وفرقة برية، وكل فرقة عشرون ألفًا وإن جيشاً كهذا لَعظِيمٌ في نظر الزعماء المعنيين بالحروب.

وقد ذكر هذا الجيش عدة مصادر من أهل الاطلاع، ذكره شكيب في تعليقه، وشاعر دولة مسقط هلال بن بدر بن سيف، والشيخ الطيواني كما ذكره أبو إسحاق صاحب مجلة المنهاج، والزعيم الباروني والإمام السالمي رحمهم الله، وكانت لهذا الجيش شهرة بين زعماء العرب.

قال ابن رزيق: فانتهى القوم السالكون طريق البر، وهم كما ذكرنا عشرون ألفًا أكثرهم أهل خيل وركاب.

قال: فالتقوا هم وسليمان بن عباد ومن معه من رجال الأزد وغيرهم من

أهالي عُمَان حول الماء الذي دون البلقعة، ويعرف الآن عند أهل عُمَان بالبلقعين شرق بلدة فلج الشام من وادي بوشر، ويحسب الظاهر أن هذا الماء كان مشهورًا هناك يسير عليه الوارد، ولعلهم يتاسبقون عليه هناك، فإن البلدان التي حوله الآن حدثت قريبًا وبالأخص بلدة فلج الشام من عمران هذا القرن خاصة.

قال ابن رزيق :التقوا دون ذلك الماء المشار إليه بخمس مراحل، وقيل بثلاث مراحل، قال: وهو الماء الذي يقال له اليوم البلقعين.

قلت: لا أدري من أين كان دخولهم الذي قِيس بأربعة أيام أو ثلاثة أيام دون البلقعة.

قال: فاقتتلوا قتالاً شديدًا: وانهزم أصحاب الحجاج وكر سليمان بن عباد في طلبهم واستئصال شأفتهم. وهو لا يعلم عن جيش البحر شيئًا، وقد انتصر الآن والسيوف بعد لم تنجل دماؤها، والقلوب لم تهدأ حرارتها، وإذا بجيش البحر ينزل اليوتانة من جلفار [أي رأس الخيمة الآن] ونقل الأخبار بألسن السفار لا بالبرق والطيار كالآن، فلقى الجيش هناك رجلاً من أهل توّام [البريمي الآن] فأخبرهم عن جيشهم البري وما صار عليه، وأن سليمان بن عباد في أثرهم هو وجنوده، وأن الأقلية الآن معه، وقد تفرق قومه عنه ظنًا منهم أن الحرب قد وضعت أوزارها وانتهى أمرها، وإلى أن تأتي مرة أخرى تحتاج إلى مدة، وأن الرجل الآن يلتقط فل الهزيمة، وقد سر بالنصر الحاسم الذي ألحق هذا الجيش بجيش القاسم بن شعوة، وعند ذلك وصل مجاعة بن شعوة بركاء، إذ كان الجيش مر على ساحل عُمَان كما يفهم من نزوله أولاً جلفار، ثم بركا وهي كانت من بلاد عُمَان المهمة في الساحل، فخرج للقاء هذا الجيش شقيق سليمان وهو سعيد بن عباد بن عبد الجُلَندى، فأداروا رحى الحرب بينهم طيلة النهار حتى حجزهم الليل، وهم في أزمة شديدة، فكان القتال شديدًا، وبعد ما حجز الليل بينهم تأمل سعيد بن عباد جيشه فإذا به بالنسبة إلى جيش عدوه كالشعرة البيضاء في الثور

الأسود، والمعنى رآهم في غاية من القلة في العدد والعدة لاسيما أنهم لم يبرحوا من مكان الحرب، وإذا هم بحرب تزحف عليهم حول بيوتهم، ولعل خلف هذا الجيش جيوشًا أخرى، فإلى متى نكون نحن والحال هذا، واستشعر العجز وفضّل الفرار من البلاد، وليته لم يفعل، فإن النصر من عند الله وهو الذي نصرهم أولاً، وهم بالنسبة إلى كثرة عدوهم قليلون، ولو فضَّل الموت في الوطن على الحياة من غيره، لكان أولى، فإن الموت لابد منه؛ ولكن إذا أراد الله أمرًا ظهرت له أسباب من نفسه، وإذا خارت عزيمة الأمير انهار صرح المأمور وتدهور البناء، وتزلزل عرشه وسقط والشاهد على هذا كثير:

أقول لها إذا جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

وبالجملة لما رأى سعيد بن عباد تقهقر أمره، وتحقق العجز عن الدفاع عن الوطن، إذ رأى كثرة القتلى في قومه وكثرة الجرحى، ورجع القهقرى مخلفًا وراءه في ساحة أبطاله ورجاله، هذا قتيل وذاك جريح لف ذراريه وذرارى أخيه سليمان، وصعد بهم الجبل الأخضر ويقول ابن رزيق: الجبل الأكبر، وهو جبل بني ريام، ويقال له رُضوى لضم الراء المهملة، ولما انكشف الحال بانهزام سعيد بن عباد وفراره عن رجاله قوَّى ذلك عدوه ونشط للقتال، وهون أمر قومه فهانوا في وجه العدو فأهانهم العدو إذ كر لاحقًا بسعيد وأخيه، وإذا بهما ارتفعا في الجبل المنيع، وإذا بالعرش العُمَاني لا دافع عنه، ولا شك أن الإمامة تخضع للغالب وتنقاد له راغمة، ومع ذلك فإن القوم حصروا الأميرين سعيدًا وسليمان في جبلهما، فكان جيشهما تحت يد الفاتح، وقد جعلوا كتيبة الحصار في وادي مستل، وتوجه باقي الجيش إلى الداخلية فدخل نزوى واحتلها، وبهلى وإزكي ولم يجد مدافعًا، فكان له الحول والطول، وبقي الزعيمان يحاولان الهرب من عُمَان، حيث تغلغل الجيش الغازي فيها، وقد وُتِر مراتٍ فلا بد أن يتشفى من أهل عُمَان هو غالب عليهم، ووصل إلى مسامع الزعيمين أن مجاعة أرسى سفنه

دون مسقط، ولعل أكثرها في مسقط إذ هي المرسى الوحيد، وكان عدد السفن ثلاثمائة سفينة بين صغيرة وكبيرة، إذ كانت سفن ذلك العهد بخلافها الآن، فغزاها سليمان بن عباد في مرساها، فأضرم فيها النار؛ لكن لم يُذكر بأي شيء أضرم النار فيها، وبأي وسيلة إذ ذاك كان عمله، إلا أن التاريخ يصرح بأنه احترق منها نيف وخمسون سفينة، وانهزم باقي السفن هربًا على البحر، بحيث لا ينالها الغازي، ومكث بها أهلها هناك، وفي هذه الأثناء تصور لمجاعة أنه لا طاقة له على حرب سليمان وهم في قلب عُمَان، وأنه لا بد أن ينقض عليهم انقضاض الصاعقة يومًا ما، وكذلك تحقيق القضية عند الإمام السالمي، إلا أن فيه مزيد إيضاح لجيش الأزد الذي صادم به سليمان بن عباد مجاعة في بركاء أنه كان ثلاثة آلاف فارس أهل الخيل، أن بعضه أهل بجانب ثلاثة آلاف وخمسمائة، فيكون مجموع جيش الأزد ستة آلاف وخمسمائة، وقد قاتلوا عشرين ألفًا فهزموهم بإذن الله، ولا ريب فإنهم يدافعون عن وطن وذرية وأهل وفيه فَوَاصَلَ مجاعةُ سير الليل بسير النهار حتى وصل بركاء، وذكر قتال سليمان لهم وقتال سعيد في بركاء، وبعد انتهاء ذلك اليوم تأمل سعيد جيشه وقد قتل منهم من قتل فرآه ضئيلا جدا، فكاعت نفسه فاعتزل من ليلته وعمد إلى ذراري أخيه وذراريه فخرج بهم إلى الجبل الأخضر، قال: فلحقه القوم فما زالوا محصورين، وذكر قضية حريق سفن مجاعة مرسى مسقط، وذكر أنه لما فرغ من حرق سفن مجاعة وهرب الباقي منها، قال: فخرج مجاعة من الداخلية يريد سفنه بمسقط، وإذا بسليمان راجعًا من مسقط، فالتقيا بسمائل، ودارت رحى الحرب بينهما، وقتل في هذه الوقعة من الفريقين أعيان الرجال، فكانت مقتلة رهيبة انهزم فيها مجاعة هربًا إلى سفنه، فلما وصل مسقط تصور له أن سليمان خلفه، فكان غاية ما عنده الهرب العاجل قبل حلول الأمر المخوف، فركب سفنه وجد بالهرب إلى جلفار.

ولما استقر بها كاتب الحجاج عما صار عليه وما وقع فيه من المآزق فاهتم الحجاج بالأمر غاية الاهتمام، وانزعج له مندهشًا مما تكرر على مسامعه من عُمَان، فأخرج له جيشًا آخر على طريق البر بقيادة عبدالرحمن بن سليمان، أحد أعوانه الأشقياء مؤلفًا من خمسة آلاف رجل أهل خيل كلهم من بادية الشام الأجلاف، الذين لا يعرفون دينًا ولا يراعون إسلامًا، أحرق الجهل ضمائرهم وتولى عليها الشيطان مسيطرًا عليها، تقاتل قومًا مسلمين في أوطانهم على غير جرم ولا سبب، بل طاعة؛ لأشقى الخلق الحجاج بن يوسف الخبيث.

وكان في القوم رجل من الأزد ولا يعلمون به، وكان الأزدي متقد الأنفاس على ما يسمع من الحدة على قومه، فأكنها في ضميره ولم يبدها لهم، حتى إذا رأى الفرصة هرب من الجيش ليلاً ولعله لم يفقد، حتى أتى سليمان وسعيد بعُمَان؛ ولكن لم أجد في أي موضع وجدها؛ ولكنه أدركهما فألقى إليهما مهمته وما علم من الجيش الغازي، فأثر عليهما وانزعجا لخبره وهالهما الأمر، ولعله هوّل عليهما حتى أقلقهما وليته لم يفعل وليتهما ثبتا ثبات الأحرار، إما موت في كرم، وإما حياة في عز، وإنه لشبيه بقضية الذي أرجف بالمسلمين على عهد رسول الله ﷺ، وفيه نزل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟﴾ [آل عمران: ١٧٣] الآية، وليتهما زادا إيمانهما وقالا له نرحب بالزائر، وإن السيوف التي قاتلنا بها لفي أيدينا، وأن القلوب التي لقينا بها الأولين لفي صدورنا، وتحمسا على العدوّ القاصد البيضة؛ ولكن بعض الرجال يتحرك فيها الدم البارد فيؤثر على الدم الحار، ولو قال لهم ما هؤلاء إلا شرذمة قليلة وما هم إلا لقمة آكل، وترك السيف يقري الضيف والموت يُعلن الصوت، والشجاع يتقلد الروعة على هامته، حتى يحكم الله بينهم وخير الحاكمين، لنجح القوم؛ ولكن النّاس يقيمهم المقيم ويقعدهم الفرد بلسانه، كم جرى مثل هذا في العالم الإنساني، وكم حدث التاريخ عن أناس من هذا النوع.

قال الإمام: فاستشعرا العجز فحملا ذراريهما وسوادهما ومن خرج معهما من قومهما، ولحقا ببلد من بلدان الزنج أي حيث لا يسمعان بعُمَان ولا تسمع عُمَان بهم، فكان مقرهما في زنجبار منذ ذلك العهد حتى ماتا هناك، أي وكوّنا لهم حكومة أهلية ونشر الإسلام في تلك النواحي النائية، حتى أصبحت مُنْتَدَحًا لأهل عُمَان، وأصبح أهل عُمَان يتحملون إلى زنجبار زرافات وجماعات في كل موسم في ذلك العهد، لعل الله أراد أن يهدي بهما قومًا وينشر بهما الدين في تلك النواحي فتدخل في الإسلام.

قال: ودخل مجاعة عُمَان مع زميله عبدالرحمن ففعلا فيها غير الجميل، ونهباها هما وعسكرهما المحتل، ولا ريب فإن الجهل بلية من البلايا وغطرسة الحجاج ما عليها من مزيد، والدين عندهم اسم بلا مسمى وإلا فأين حقوق الإسلام التي يقتضيها الدين.

* * *

أول عامل للحجاج على عُمَان

لما تمكّن مجاعة من عُمَان، وكان زميله عبدالرحمن بن سليمان معه، يؤيّده ويسدده، وكانت عُمَان قد قضت على أخيه القاسم مع جيشه الغاشم، ودقت مجاعة المذكور مع جيشه الأول والثاني، وانتصر الجيش الثالث وصفا له الجو في عُمَان، وظهرت سيادة الحجاج على عُمَان بخروج سعيد وسليمان إلى أرض الزنج من أفريقيا، وداست أقدام الجيش الفاتح لعُمَان كرامة أهل عُمَان، ولى الحجاج على عُمَان الخيار بن سربة المجاشعي من أعوانه العتاة، وبقى المجاشعي المذكور واليًا على عُمَان مدة حياة عبدالملك بن مروان، حتى مات في شوال سنة ٨٦هـ ست وثمانين، وخلف سبعة عشر ولدًا، وبعد موته تولى الأمر ابنه الوليد ثم مات الحجاج واستعمل الوليد على العراق يزيد بن أبي مسلم، وكانت عُمَان إذ ذاك من أعمال العراق، فولى عليها يزيد سيف بن الهاني الهمذاني، فقام بالأمر

فيها حتى مات الوليد في يوم خامس عشر من جمادى الآخرة، سنة ٩٦هـ ست وتسعين، فكانت خلافته عشر سنين، وكان ابن الهاني الهمذاني هو ولي عُمَان من قبل أمير العراق يزيد بن أبي مسلم.

ولما تولى الخلافة بعد الوليد أخوه سليمان بن عبدالملك بالوراثة عزل سيف بن الهاني عن عُمَان وولى عليها صالح بن عبدالرحمن بن قيس الليثي، ومشى في عُمَان الوالي الليثي بين الزعازع الطائفة، فرأى سليمان بن عبدالملك عزله عنها، ولعله رآه لا يحسن إدارة شؤون البلاد، ورأى رد الوالي الأول عليها الممارس لها، ولكل وقت سياسة كل يصلح لأمر، ومدارك الرجال مختلفة الأحوال، وقد جعل سليمان صالح بن عبدالرحمن مشرفًا على الوالي، ومراقبًا حركاته وسكناته، ومضى لهؤلاء الولاة على عُمَان عهد من الزمان يتداولونها حتى تولى يزيد بن المهلب بن أبي صفرة العراق وخرسان، وكان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة من عُمَان وله فيها حنين وأنين، إذ هي وطنه ووطن قومه من الأزد؛ ولذلك ولى عليها أخاه زيادًا فلم يزل عاملاً على عُمَان محسنًا إلى أهلها محبوبًا لديهم مطاعا فيهم، بقي فيها، إلى أن مات سليمان بن عبدالملك، وتولى الخلافة العبد الصالح عمر بن عبدالعزيز رحمه الله في اليوم الذي مات فيه سليمان بن عبدالملك بولاية العهد منه، وعد ذلك من حسناته الخالدة، فكان ذلك في عاشر صفر سنة ٩٨هـ ثمان وتسعين، وقيل سنة ٩٩هـ تسع وتسعين، ثم بدأ ضياء العدل هنا يبدو وظلام الجور يخفي، ومن حسنات الزمان خلافة عمر بن عبدالعزيز، وللخير آثار كما للشر كذلك، وفي هذه الأثناء قام دور التمذهب الديني، وكان الإباضية قد أخذوا حظهم من الحق، وقام لهم في العالم الإسلامي مقامات أشهر من نار على علم قبل أن يعرف لغيرهم شأن مهما كان، فقد دون الإباضية دواوين الشريعة وبرهنوا على الاعتقاد الصحيح، ونصبوا معالم الحق مباينين لأعمال طغاة بني أمية، وواضعين معالم الدين ومؤسسين القواعد للمسلمين، في ذلك العهد المظلم

بالحجاج وأمثاله من اللجاج الذين ضايقوا المسلمين وضيقوا مسالك الدين، فكانوا- أي الإباضية -المورد والمصدر للمؤمنين قبل أن يكون في الإسلام شافعي أو حنبلي أو مالكي أو حنفي، كما أوضحنا ذلك في العُرى الوثيقة، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

❊ ❊ ❊

مذهب أهل عُمَان

اعلم لما كان تاريخنا هذا خاصًا بعُمَان وحوادثها مع ما تعلق بها من أحوالها، رأينا أن نذكر مذهب أهل عُمَان حتى يكون تاريخنا هذا أخذًا من كل شؤون عُمَان.

اعلم أن مذهب أهل عُمَان هو المذهب الإباضي الذي عرف في عُمَان. وحضرموت واليمن قديمًا، والعراق ومصر حتى تقلص، والمغرب على الأكثر حتى شاع في نفوسة وطرابلس والجزائر وميزاب في العهد السالف، وكان شيوع عقائده بين رجال الحق شاهرًا ظاهرًا لا ينكره مُنْكر ولا يقدح فيه قادح، وكان الخوارج من رجال الإباضية الأشداء على أهل الأهواء، حتى ابتدعوا مقالتهم الشوهاء، ودخلوا بها على مجلس المسلمين فأنكروها عليهم ورفضوهم بها، فأقصوهم وأبعدوهم عن مجالسهم، وتبرءوا من مقالتهم، وبذلك أطلق عليهم من جاءَ بعدهم اسم الخوارج، وبه ألصقوا السوء عليهم؛ لتنفير الأمة عنهم، ومصداق ما قلناه في مؤلفاتهم القيمة، وكتبهم الصحيحة الواضحة. وأقوالهم الشهيرة الراجحة فإن الخوارج ضلوا الطريق وسلكوا المضيق، وابتدعوا بالتأويل تشريك أهل التوحيد:

وأمة المختار فارقتهم وضللتهموا وفسقتهم

فما للإباضية وللخوارج، فالإباضية مذهبهم في الصدق والوفاء مذهب أبي بكر الصديق، ومذهبهم في الشدة والهدى مذهب عمر بن الخطاب، وعقيدتهم في دينهم عقيدة نبيهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لا يداهنون في الدين، ولا

يعادون المسلمين ولا يفارقون المؤمنين، يصفون ربهم بأوصافه الكاملة، وينعتونه بنعوته الفاضلة، وينزهونه عن النقائص كلها، ويعتمدون على الكتاب والسنة، اعتمادًا لا هوادة فيه ويقولون بالإجماع ويعملون بمقتضاه، ويأخذون بالرأي في المختلف فيه، ولا يرضون من أحد ما خالف منهج المسلمين مهما كان ومن كان.

فالمسلمون بايعوا أبا بكر ﷺ حتى قضى نحبه، ولقي ربه، ثم اجتمعوا على عمر بن الخطاب ﷺ، ووالوه ووازروه وناصروه، وكانوا معه لما كان مع الحق حتى انقضت أيامه، ثم بايعوا عثمان بن عفان بعد الاجتهاد للمسلمين والنظر في أمر الدين، وواجبات رعاية منهج المؤمنين، وأخذوا عليه العهود والمواثيق،وأكدوا القضية بكل تأكيد صحيح، اجتهادًا لدين الله ﷻ، وقيامًا بحقوق الإسلام ورعاية لمصالح الأمة، وكان عثمان من أفاضل رجال الإسلام مستور الأحوال السيئة منشور الفضائل العالية، محبوبًا في السواد الأعظم، مقبول الحديث متبعًا في الأقوال، لا يعدون عليه شيئًا ينكرونه في دينه، وقد اجتهدوا في توليته تمام الاجتهاد، إذ كان المقام مقام اجتهاد ونظر للصالح والأصلح، فبايعوه بعد ذلك كله، وما كان لهم علم بالغيب فيما يحدث، فإن أحسن فذلك ظنهم فيه وأملهم منه، وإن زاغ عن الحق وراغ عن الطريق فلا إمامة له، وقد ناطحوا كسرى وقيصر وأبانوهما عن عروشهما فكيف برجل منهم قوّموه لدينهم، وأمروه عليهم لا يكون عليهم ضربة لازب، إذا لم يستقم لله، ولم يقم بواجبات الأمة، وتعوج عن الحق، والحق أحق أن يتبع، وما بعد الحق إلا الضلال، فاستقام عثمان ست سنين من صدر خلافته ولم ينقم عليه شيء فكان على منهج صاحبيه، والمسلمون كلهم تحت رايته، ورهن إشارته، حتى غير بعد ذلك وبدل، فأنكروا عليه تغييره سيرة صاحبيه، فعاتبوه أولاً لعله غافل فينتبه، أو جاهل فيعلم، ومشوا معه حينًا من الدهر، فما تحققوا رجوعه ولا فهموا منه إلا بقاءه على ما أنكروا عليه وبلغ الحال بينهم وإياه أن باينوه إن لم يعتزل عن الأمر ولم يستقم فسيوف المسلمين

منه تنتقم، فضاق الخناق بينهم وإياه، ولم يسعهم تركه ولا مداهنة في الدين ولو وسع السكوت لسكتوا عن عثمان الذي قلدوه أمرهم بأنفسهم وبايعوه عن رغبة منهم؛ ولكن السكوت على الباطل حرام في الدين لا يرضى به الإسلام للمسلمين ولما عُذِروا فيه، وقامت حجتهم عليه، وما بقي في الإسلام من يرى له ما فَعَل، ولم يعتزل أمرهم، ولم يترك لهم حقهم، وأصرَّ على الأمر قاوموه مقاومة لم يستعجلوا فيها عليه لعله يرجع عن مسلكه الذي سلكه، أو يستصلح حاله عما هو عليه، فلم يكن منه رجوع، فما رأوا إلا إراجه من أمر المسلمين وعلى اجتماع أهلالحل والعقد الذين ولوه الأمر وقلدروه الخلافة واجتمعوا عليه ووالوه ووازروه على الحق، فلما تبيَّن منه ما خالف الشريعة لم يسعهم تركه، وإلا كانوا شركاء في أعماله تلك، إذ الرضى بالباطل كالفاعل والقائل للظالم والجور ظالم وجائر، فحينئذ يصدق قوله ﷻ: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٩٧] الآية، ولكنهم رضي الله عنهم لم يقبلوا في الدين غير الحق، ولما قتلوا عثمان اجتمعوا إلى علي بن أبي طالب أحد المرشحين لها، ومن له الأهلية فيها، فقدموه وبايعوه على القيام بأمر الله، فمضى علي ذلك ما شاء الله، ثم ابتلي فيها حسب رغبته فيها، وهي التي لاحظها فيه عمر بن الخطاب ﷺ، حيث قال له: وما يمنعني أو أوليكها إلا حرصك عليها، ولعل عليًا كان حريصًا عليها لما يرى من الأهلية له فيها، والنفس غرارة للإنسان أمّارة بالسوء إلا من رحم ربي.

فقام على ابن أبي طالب قيام الأئمة العدول، وعمل بأوامر القرآن الكريم، وهابه أهل الباطل من رجال الدنيا والدين، يتهالكون عليها وقاتل أهل الفتنة القائمين لقتاله المتسترين عند العوام بطلب دم عثمان حتى قَتَلَ منهم أُلوفًا، وهزم صفوفًا برجاله الأبرار، وأصحابه المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان حتى شوش عليه بعض أهل الأغراض الدنيوية حين رأوه حليف ذي الفقار، وأليف العدل على كل جبار، وعند ذلك تآمروا عليه، إن هذا الرجل لا يرى لنا من الحق

شيئًا، ولا ينقاد لرغباتنا فهلم أن ندس له المكائد، فنسجوا له نسجًا لا ينفلت منه إلا بدماره، كما شرحنا في العرى الوثيقة، وبيّنا حقيقة عليٍّ ومرام قومه.

ولقد خدعوه في قضية التحكيم من نواح عديدة أولاً قبولها إذ حملوه عليه فقبل راغمًا، ثم أرغموه على أبي موسى، وهو لا يراه، فَفَرَّجوا بذلك الأزمة عن عدوه، ثم أرغموه على قتلا من فرَّ من الباطل، وتنحّى بدينه جانبًا قصيًا، فحالوا الدسائس، وشاغلوا بها السائس، وتولوا عن الحق، ولا شك إن المرء في محنة عيٍّ، وبذلك رجعت دولة علي بن أبي طالب القهقرى، وتكسر ذلك العمود الذي احتملت عليه، وانهار صرحها المحاط بذي الفقار، فرجعوا يضربون رقاب بعضهم بعضاً، وأوغلوا في الشقاق ولجوا في الافتراق، وبقضية التحكيم وجد الشيطان مدخلاً بين المسلمين، فقام فيها القيل والقال، وطال بها الخطب وخُلقت الدسائس، وأَخْرَجَ طلبة الدينار رؤوسهم متطاولين على الإمام، منضمين إلى أضداده؛ ليبلغ كل واحد منهم غاية مراده، فكان فريق يرى له التحكيم واسعًا، وبعضهم يراه واجبًا، وفريق لا يراه واجبًا ولا جائزًا، وانشقت به عصا المسلمين، وأصل وضعه؛ ليتقوى أضداد الإمام، فخرج عنه أهل طاعته، وسيوف دولته، رهبان الليل أسود النهار، الذين لم يرضوا الواقع ولم يُعِرهم الإمام المسامع، ولا رأي لهم ما طلبوا ففروا عنه إلى جانب، فخافهم الجاعل وهابهم الظالم، ومال على قتلهم من يخاف سطوتهم، فحملوا على الإمام علي قتلهم بمكائد خلقوها، ودسائس نسجوها، وقد حكم الله ﷻ في القضيةِ المشار إليها في كتابه العزيز، ولم يجعل حكم أمثالها إلى أحد من المسلمين، فكانت مثار القيل والقال والشقاق والجدال، فرأى بعضهم أن حكم الله في القضية واضح وليس للإمام أن يحكم فيه برأيه، وهي في الحقيقة من أهم المسائل التي لعبت بها أيدي الهوى، وشوهت حقيقتها تبريرًا للطعن في المحكمة زورًا وجورًا، وذلك أن الذين أنكروا التحكيم بقولهم: لا حكم إلا لله، لا يعنون غير مسألة قتالِ الفئة الباغية؛ لأن الله لم يجعل حكمها لعباده بل بيَّنه عزَّ

وعلا نفسه، وقد ثبت أن الذين حملوا السلاح في وجه إمام المسلمين فئة باغية، وزال الريب عمَّن بقى فيه ريب أو تشك بعد مقتل عمار بن ياسر ﷺ؛ لقوله ﷺ له: «تقتلك الفئة الباغية». ولم يقابل أحد من المسلمين هذا الحديث بالرد أو بالطعن، بل أثبتوه وصدقوه ورواه علماء الصحابة، فزال به الريب بعد مقتل عمار عمَّن كان مرتابًا من الضعفاء، فإن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم صرح فيه، بأن قاتل عمار باغٍ بغير شك، فتبيّن بذلك أن المناصبين للإمام في صفين باغون عليه بحكم الكتاب والسنة، والتحكيم فيما كان كذلك لا يجوز، فقال المنكرون له لا حكم إلا لله أي فيما حكم الله فيه لا يصح أن يحكم فيه بخلاف ذلك الحكم، وإلا كان ردًّا لحكمه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ [الرعد: ٤١].

وقد أكدت السنة أيضًا لحكم الكتاب؛ ولكن المكابرين أبوا إلا أن يصرفوا الحقيقة عن وجهها، ويوردوها على غير موردها، فحملوا هذه الجملة على العموم، والواقع يناقضه، وزعموا أيضًا أن المحكمة أرادوا إبطال الخلافة بقولهم لا حكم إلا لله، مع أن الواقع أن المحكمة نصبوا الأئمة في كل قطر حلوا فيه، قال العلامة أبو إسحاق الإطفيشي، وجرى معهم في إنكار التحكيم الحسن البصري ومالك بن أنس عالم المدينة، كما ذكره المبرد في كامله، وحكاه في ضحى الإسلام عنه.

واعلم أن رد الحق ونسفيه من أكبر الكبائر في الدين، وقد عاتب بعض المسلمون على بن أبي طالب، فغلب عليه السواد المشؤم كالأشعث بن قيس ومن معه فتابعهم، والمحنة تحتار فيها العقلاء، قال الإمام فعاتبوه فلم يعتبهم أي لم يصغ لعتابهم، قال وخاصموه فخصموه – أي ظهر خصامهم عليه – فكانت لهم الحجة واضحة المحجة، مما ورد من النصوص قال الإمام فهم أن يرجع إليهم ويترك ما صالح عليه البغاة من التحكيم في حكم الله، فقامت عليه رؤساء قومه فأطاعهم، وعصى المسلمون فاعتزلوه بعد أن خلع نفسه من الإمامة؛ لأنه في تلك المدة لم يكن هو إمامًا لا أميرًا للمؤمنين، حيث الإمامة في يد الحكمين

ينظران لها الأصلح، مع أن الواقع لم يكن خصم الإمام إمامًا حتى ينظر في أي الإمامين أصلح للمسلمين، وإذا كان الأمر كذلك فليس المسلمون الذين ينظرون الأصلح للمسلمين أبو موسى الأشعري وعَمْرو بن العاص، وهل يلزم المسلمين ما رأياه وحكما به كان صالحًا أو غير صالح؟ وهل رضاهم بحكم الرجلين لازمًا بالمسلمين؟ وهل القضية مالية يهون أمرها على باذلها؟ وإنما هي الدين الذي كلف الله به الأمة وإذا كان علي راضيًا بالتحكيم فكيف يقال إنه في ذلك الحال إمام؟

فهذا من الأمور المتناقضة، وإذا كان هو إمامًا فكيف يسوغ له انتظار الحكمين وحكمهما؟ وبالجملة فقد وقع علي بن أبي طالب في خطورة هامة من قبل هذه القضية، فنعوذ بالله من بلائه.

قال الإمام: ولما حكم على الرجال في إمامته، اعتزله المسلمون وهو يظن أن الأمر باق في يده، وهيهات فقد أعطى العهود والمواثيق على قبول حكم الرجلين فصارت الإمامة يلعب بها الحكمان إن قدموه أو عزلوه، فاعتزله المسلمون عند ذلك وقدموا على أنفسهم عبد الله بن وهب الراسبي إمامًا لهم، فسار إليهم فقاتلهم بالنهروان حتى قتل جماعتهم الذين هنالك، وهم قدر أربعة آلاف رجل لم ينج منهم إلا اليسير، وهم يرون أن الموت هو النجاة عند الله، وهو الرواح إلى الجنة، فبقي من بقي منهم في الأمصار والنواحي، وهم خلق كثير، فبقوا متمسكين بدينهم، عاضين على وصية النبي ﷺ، في إتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، متمسكين بما وجدوا عليه أسلافهم، ثابتين على الحق غير متزعزعين عنه كيفما كان الدهر لهم أو عليهم، فنصبوا على ذلك الأئمة، وباينوا الغواة من الأمة، وأذهبوا في رضى لله الأنفس، وفارقوا على طاعته نساءهم وأبناءهم ومساكن يرضونها حتى أقاموا شعائر الدين وأناروا منار الإسلام، وأعادوا شريعة الله على مستقرها. حتى ظهر الدين بيّن الخاص والعام في أقطار الأرض. فأظهروا للناس معالم الإسلام، وذكروهم بسيرة النبي ﷺ.

ومذهب أهل عُمَان من قضية التحكيم مذهب الإباضيين على العموم، فالقول فيها واحد، والولاية والبراءة كذلك، وما صح فيه احتمال فهو على ما كان عليه، وقد ذكر بعض العلماء: أن على بن أبي طالب تاب مما وقع فيه، كما شهر بكاؤه وندمه على أهل النهروان، والندم والتوبة ولا يرى بعض أهل المذهب هذا حجة توبة؛ لأن توبته لا تحتاج إلى شهرة وشيوع، وقد حكى القطب ابن يوسف رَحِمَهُ اللَّهُ توبته في الهيميان، إلا أنها لم تثبت صحتها معه، ويميل على عدمها، ولنا في القضية كلام حافل في العُرى الوثيقة من أرادوه فليقصده يجده شافيًا إن شاء الله.

وأهل عُمَان يأخذون عن الصحابة مطلقًا ما لم يبن لهم باطل فيما أخذوا، كما هو مذهب عامة الإباضية، والقرآن هو إمام المسلمين يقتدون مما جاء فيه، فحلاله حلال عندهم، وحرامه حرام أبدًا لديهم، ويؤوّلون تأويل أصحاب سيد آل عدنان، إذ هم العرب الصراح، وبلغتهم نزل القرآن، فلا يجهلونه، والنّاس تبع لهم فيه لا يرون لأحد مزيد علم على علم أصحاب رسول الله ﷺ، خصوصًا فيما يتعلق بأحكام الشريعة من عقيدة وغيرها، مما يتطلبه الظاهر من الأحكام في الأمة، وإن ادعى قوم أنهم أدركوا ما لم يدركه الصحابة في القرآن، فمن الجائز ذلك؛ ولكن الصحابة هم ترجمان القرآن، وهم هداة الأمة، وهم صروح الشريعة، وإليهم مقاليد أحكام الله العملية الدينية، وإن أدرك قوم علوم الصنعة ونحوها من القرآن أو السنة، فلا يعترضون عليهم، بل يكلون ذلك إليهم.

ومن مذهب الإباضية على العموم عدم الرؤية لما تدل عليه من النقص، والله ﷻ منزه عنه، وأهل عُمَان يعتقدون كمال الله من جميع النواحي ولا يرون مذهب معتقدها إلا منهارًا لا ثبات له بحال، ومن مذهبهم إثبات الحقوق التي جاء بها القرآن كلها، لا إنكار لشيء منها أبدًا، وهي حق ذي القربى وحق الجار، حق الصاحب بالجنب، وحق اليتامى، وحق المساكين، وحق أبناء السبيل، وحق

الوالدين، وحق ما ملكت اليمين أبرارًا كانوا أو فجارًا، وحق الأمانة، وحق الوفاء بالعهد لقومنا ولأهل ذمتنا، وحق من استجار بنا من قومنا وغيرهم، وحق الأمن للكاف عن قتالنا المعتزل بنفسه عنا من غير أن نشك في ضلالة من حاد عن مذهبنا وحق الدعاية إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وحق موالاة المحقين في الدين أيا كانوا من النّاس وفي أي موضع كانوا من أرض الله ﷻ، وحق مفارقة أهل الباطل ومعاداة أهل الضلال وموالاة المحقين رغم أعداء الدين، ومن عادى المسلمين أو مَالأ على قتالهم أو أعان عليهم أو دل عليهم أو على عوراتهم أو كاتب أعداءهم مباينة لهم، أو كاد إمام المسلمين أو غشه أو خانه أو خادعه أو خذله عند القدرة على نصرته؛ لكنا في كل الأحوال لا نحكم فيهم بحكمنا على عبدة الأوثان، ولا يحكنا على أهل الكتاب، فلا نقبل منهم جزية، ولا نعد أموالهم غنيمة، ولا نعاملهم معاملة المشركين، كما يفعل الأزارقة الذين يحكمون على من خالفهم بحكمهم على المشركين؛ لأن رسول الله ﷺ لم يحكم فيهم بذلك، ولا حكم فيهم بذلك أئمة المسلمين، وهم عُلماء الشريعة وهداة الأمة إلى الحق والى طريق مستقيم.

وكفى قدوة لنا علي بن أبي طالب في هذا المقام، فإنه لم يحكم فيهم يوم الجمل بحكم المشركين ولا في صفين ولا في النهروان، بل قال إخواننا بغوا علينا وذلك واضح شهير عند علماء الملة وأئمة الدين.

قال الإمام السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ : ومن أنكر الحق واستحب العمى على الهدى وفارق المسلمين وعاندهم فارقناه وقاتلناه حتى يفئ إلى أمر الله أو يهلك على ضلالته من غير أن نزلهم منازل عبدة الأوثان، فلا نستحل سبيهم ولا غنيمة أموالهم ولا قطع الميراث منهم، خلافًا للخوارج الصفرية والأزارقة والنجدية، المانعين لموارثة ومناكحة مخالفيهم؛ لأنهم مسلمون موحدون، يقرون بالقرآن ويقرءونه ويصلون ويصومون ويزكون ويحجون، فهم بذلك مسلمون في الجملة وإن ضلوا بالتأويل

الذي تشبه لهم، فلا يخرجون بذلك عن حكم المسلمين في الجملة.

ومن مذهب الإباضية بعُمَان عدم الرضى بالفتك بمن خالف المذهب ولا قتلهم في السر، وإن كانوا ضلالاً؛ لأن الله لم يأمر به في كتابه، ولم يفعله أحد من المسلمن ممن كان بمكة بأحد من المشركين، أي أن المشركين في مكة كانوا اضطهدوا المسلمين، وفي إمكانهم قتلهم غيلة لو أرادوا؛ لكنهم لم يفعلوا ذلك يفعلوا ذلك فكيف نفعله نحن الآن بأهل قبلتنا، وقد أمر الله ﷻ نبيه أن ينبذ إليهم على سواء، فقال: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨].

ومن مذهب أهل عُمَان جواز مناكحة قومنا، وكذلك موارثتهم، ويخالفون لمن أجاز الفتك بقومنا واغتيالهم، ومن أجاز قذفهم بالزنى، فما داموا يستقبلونه، قبلتنا فلهم ما لنا وعليهم ما علينا؛ لأنهم مسلمون في الجملة، وقد كان المسلمون يناكحون المنافقين، ويظهر من المنافقين من المعاصي أكثر مما يظهر اليوم من كثير من قومنا وكيف صح أن يقذف أحد بالزنى بما لم يفعل خلافًا للخوارج الذين يستحلون ذلك، والله يقول الحق ويأمر به، والقذف بالزنى بغير حق قول بغير عِلم، والخوارج يستحلون ذلك وهم مضلون، لأنه تقول على عباد الله بما لم يفعلوا.

ويحرم المذهب الإباضي على المسلم مهما كان القول بتحليل الزنى ويبرأ منه ويعاديه؛ لأنه مصادم للنص القرآني، هذا إذا كان متأولًا، أما إذا كان مصادمًا للنص فهو مشرك حلالٌ الدم والمال، ولا يرى المذهب الإباضي استعراض أحد بالسيف ما دام يستقبل القبلة ويتظاهر بامتثاله لأوامر الدين، ولو كان ضدها في الباطن.

ولا يرضى المذهب العُمَاني قَتلَ الأطفال مهما كانوا أعني أطفال الكفار؛ لأنهم لا تكليف عليهم ولا توجه إليهم خطاب التكليف، لا سيما فإن الرسول

عليه الصلاة والسلام سأل الله في اللاهين فأعطاه إياهم خدمًا لأهل الجنة؛ ذلك لأن الله عدل لا يجوز عليه أن يعاقب من لم يعصه، والأطفال لم يتبيّن منهم عصيان؛ ولأن الفطرة الدينية شاملة لهم. والمراد باللاهين أطفال المشركين، وسُموا لاهين أي غافلين أي لم يتوجه إليهم خطاب الشارع، فكيف يعاقبون على غير آثام اقترفوها، وليس من العدل عقوبة غير المستحق، والله العادل الحقيقي، وهذا هو الشائع في أطفال المشركين، وجاء فيهم غير ذلك مما أشار إليه قوله ﷻ: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] ونحوها، والله أعلم بما كانوا عاملينَ أن لو عاشوا، وعلى كل حال لا يصح قتلهم ما داموا أطفالاً ما لم يقاتلوا، ومن قاتل منهم يقتل.

ولا يستحل المذهب الإباضي فرج امرأة رجل تزوجها بكتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، حتى يطلقها وتعتد منه عدة الطلاق أو يموت عنها، فتعتد منه عدة الوفاة، ولا يقول المذهب الإباضي بالهجرة من دار قومنا لهجرة النبي ﷺ من دار قومه؛ لأنه أمر بذلك ولم نؤمر نحن بذلك، ومن خرج من دار قومه حاجًا أو زائرًا أو طالب علم أو مجاهدًا في سبيل الله، ثم عاد على دار قومه يبرأ منه إن سبقت له ولاية، إذ لا يلزم أحدًا أن ينتقل من داره التي كان فيها لما كان بها من الشرك فكأنه اختارها على دار الإسلام، ولا يتولى أهل المذهب إلا من عَلِمُوا منه الوفاءَ بدين الله، وأداء الواجب من حق الله ﷻ، ويبرءون من المصرين على المعاصي من أهل دعوتنا؛ لأن المقصود بالذات الحق وحدة، حتى إذا تاب العاصي ورجع عن عصيانه، وأناب إلى الله كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم على العموم، وليس للنفر القليلين المستضعفين أن يبايعوا إمامًا إلا على الجهاد لإعداء الله، وإقامة شعائر الدين والقيام بحقوق الإسلام، وإلا كانت بيعتهم ردا عليهم، فإذا بايعوا إمامهم على الطاعة لله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فليس له الرجوع عن ذلك أبدًا حتى يهلكوا في سبيل الله، أو يظهروا على عدوهم؛ لأن ما عقد على طاعة لا يجوز الرجوع فيه قبلى تحقق العجز، ومن باع نفسه لله فعليه الوفاء ببيعته لله: ﴿إِنَّ

اَللَّهَ اَشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١].

وولاية من عُلِمَ صلاحه في الدين واستقامته على منهج المسلمين تجب ولايته أيا كان ولو لم ندركه، ولو كان من الأمم الأولى لعموم الدليل الوارد في المقام بنصه العام إذا قامت الحُجة بعدالته، وكذالك من كان من أهل الظلم أيا كانوا، وفي أي زمان كانوا منا أو غيرنا في وقتنا أو قبلنا.

ومن مذهب أهل عُمَان البراءة من كل ظالم، والولاية لكل محق، ولا يسبون المذاهب الأخرى، ولا يقولون فيها إنها خارجة عن حدود الإيمان، ولا ينفرون عمَّن خالفهم، ولا يسمعون أهل الأهواء في أضدادهم، ويكلون أمرهم إلى خالقهم، ولا يطيعون الملوك الجورة إلا تقية لهم، ولا يجبرون أحدًا على مذهبهم مهما كانت الغلبة لهم، ولا يزيدون في الأمور الشرعية شيئًا لم يفعله الرسول ﷺ ولا الخلفاء الراشدون، سواء كان في الأذان أو في الإقامة، أو في سائر الصلاة.

ويرضى المذهب العُمَاني من المذاهب الأخرى أن يكفوا عن سب أي أحد من الصحابة، وألا يقدحوا في مذهب المسلمين، وأن لا ينكروا الحق ولا يعينوا الظالم في ظلمه، وأن لا يصرفوا تأويل القرآن إلى مقتضى أهويتهم، ولا مبرَّر لهم ولا دليل على ذلك لديهم، كما صرف بعض أهل المذاهب تأويل ثلث القرآن أو قريب منه في علي بن أبي طالب وأولاده بغير دليل، وألا يقدح الشيعة في أبي بكر وعمر وعائشة أم المؤمنين. وألا يقول الخوارج على الله إلا الحق، ولا يرغبوا عن سبيل المسلمين، وألا يطعنوا في أحكامهم، وأن يحسنوا الظن بالمسلمين، وألا يعارض المرجئة في عقيدة أهل الحق، ولا يتدخلوا في الضعفاء فيضلونهم بغير علم، فإن الدين قول وعمل واعتقاد، ولا يكفى واحد عن الاثنين إذا قامت الحجة على ذلك، وإلا كانوا أضرَّ على الإسلام من اليهود والنصارى، وأن يبرأ النّاس من دعاة الظلم وأعوانهم، وعلى الأقل أن لا يبرءوا ممّن تولاه الإباضية، ولا يتولوا من برءوا منه، وعلى أقل الأقل أن رأوا ذلك ألا يظهروه للمسلمين،

وإلا يفارقوا أهل الحق مهما كانوا أقوياء أو ضعفاء، وأن يوقنوا بحكم القرآن ولا يعترضوا على المسلمين في سبيل دعوتهم إلى الله، وألا يقدحوا في أئمة المسلمين وعلمائهم، وألا يسفهوا أحلامهم،وألا يعينوا بغاة الأمة على المحقين منهم، فإن إعانة الباغي تفضي إلى الكفر، وألا يؤووا يناصروا أحدًا قام المسلمون عليه، فإن مآواته مناصرة له.

ويكتفي العُمَانيون من سائر فرق الإسلام أن لا يعترضوا عليهم في أحكامهم ولا يكونوا حجر عثرة لهم في سبيل سيرهم إلى الله ﷻ، ويرضى الإباضية من أهل البدع الضالة أن يستروا بدعتهم، ولا يظهروها وسعنا بذلك السكوت عنهم وأمرهم إلى الله، ويرضى الإباضية العُمَانيون من بقايا النّاس أن يتقوا الله ربهم، ولا يجعلوا حكمه ﷻ تبعًا لحكمهم، بل الله يحكم لا معقب لحكمه، وألا يتمسكوا بطاعة قوم ضلوا أم اهتدوا وأن لا يتابعوا عاصي الله عز وعلا، وأن لا يركنوا إلى الظالم فإن الله نهى عن الركون إلى الظلمة وأن لا يعينوا باغيًا على محق، ولا عذر لهم في الجهل، بل أقل ما يلزمهم الوقوف عمَّا لا يعلمون، فإن الله لم يأذن لأحد أن يُعطي عهده من يعصى أمره.

والإباضية العُمَانيون يدعون أن يطاع الله ولا يعصى في قليل ولا جليل وأن يحلِّل حلاله ويحرَّم حرامه مهما كان، وألا يستهان بالحقوق الدينية أو الإنسانية وأن يقدم في الأحكام كتاب الله على غيره، وأن يعمل بسنة الله وسنة رسوله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين، ليس للإباضية الغلو في الدين أو الغشم على المسلمين، ولا التعدي على أهل القبلة في قتيل ولا نقير، فأموال البغاة لهم، ولا تحل غنيمتهم ولا سبي ذراريهم بما عندهم من الإسلام، فإن الرسول ﷺ ما أباح ذلك منهم، ولا فعله فيهم ولا خلفاءه الراشدين رحمهم الله ورضي عنهم، وأن حكم المرتد معنا عن دينه حكم رسول الله فيه لا زيادة ولا نقصان،إذ لم يسر عنا إلى جوار ربه إلا بعد كمال الدين: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] فتم

الدين بشهادة القرآن، وكمل في أحواله كلها بشهادة سيد المرسلين: «**تركتكم على المحجة الواضحة ليلها كنهارها**»، لا جهل ولا تجاهل، إنا نحرم حرام الله في كل أحوالنا إلا ما اضررنا إليه، ونحلّل ما حلل الله لنا في عسرنا ويسرنا في بلادنا أو بلاد قومنا، وطعام الذين كفروا حلٌّ لنا بنص القرآن، وطعامنا لهم كذلك أيضًا كما جاء في الكتاب العزيز، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق مهما كان المطاع، وفي كل زمان ندعو إلى الله وإلى رسوله وإلى سيرة خلفائه الراشدين، لا نرى أن نفارق شيئًا من ذلك، لا نتبدل القوانين بالشريعة، ولا نود أن يفارقنا قومنا من كانوا ومهما كانوا في أي بقعة من الأرض، ولا نقول في الدين بما لم يأذن به الله، ولا نعتقد الإستيواء القعود في حق الله ﷻ، بل والملك والقهر والاستيلاء لا غير، ولا نقول الشفاعة لأهل الكبائر، لا هذا القول يناقض القران، ولا نقول بخروج العصاة من النار كذلك، فأن هذا فيه النصوص الصريحة، ولا نقول أن الكفر كله معناه الشرك، ولا نشرّك أهل القبلة بمعاصيهم، ولا نرضى أن نتعدى ما حد الله لنا من الحدود، ولا نقصِّر في شي منها، فأن التقصير فيها من التعدي عليها، ولا نرضى بالتهاون فيها، ولا نقول في صفات الله ﷻ إلا بما يناسب جلاله الأعظم، ولا نرضى انتقاض أي صفة من صفاته ولا نقيس صفته على صفات مخلوقاته، ولا نقول بنزوله ولا صعوده ولا حركته ولا سكونه في أي شي مما لا يليق بجلاله الأقدس وكماله الأنفس، وأنه الواحد المالك الخالق القادر الرازق الأول الأخر الحي القيوم، ولا نقول بالشفاعة لأهل الكبائر من العصاة؛ لأنه دعاية باطله وخدعه شيطانيه لا يعول عليها إلا مغتر بالهوى، وأن للشيطان دسائس، وعلينا أن نحذرها في كل وقت لا نتزعزع على المنهج الحق لأجل الأهواء الضالة أو الجاهلة أو المخدوعة بالأهواء المضلة، نعوذ بالله منها.

قال إمامنا السالمي رحمه الله: الله ربنا، ومحمد نبيُّنا، والقران إمامنا، والسنة طريقنا، وبيت الله الحرام قبلتنا، والإسلام ديننا، وهو من الايمان، والايمان من

الإسلام، والتقوى من الايمان، والبر والوفاء من الايمان، بعض ذلك من بعض على استكمال الايمان بما فيه بمعنى، أن هذه الأشياء متلازمة لا ينفك بعضها من بعض، ولا يغني بعضها عن بعض، خلافًا للمرجئة، ومن الايمان إقامة حدوده والعمل بحقوقه، ولا يثبت الايمان بانتقاض فرائض الله؛ لأن الايمان العملي من الايمان الاعتقادي بمثابة الجسد من الروح، أو الروح من الجسد، لا يصح شيء منها إلا بكمال باقيها، ولا إيمان لمن أقام على محارم الله، وَعُروةُ الايمان هي شهادة أن لا اله إلا الله وحدة لا شريك له، وأن محمدًا رسول الله، أن ما جاء به حق والايمان بالله وملائكته واليوم الآخر وبالكتاب والنبيين، وبالجنة والنار، وبإتيان الساعة لا ريب فيها،وأن الله يبعث من في القبور، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإتيان الأول والتباعد من الثاني، وإقامة الصلاة بمواقيتها، والحضور لها في الجماعة، وإقامتها كما هي لا زيادة فيها ولا نقصان منها، وكل ذلك إيمان، فإن خصال الايمان إيمان، والايمان كما قدمنا اعتقادي وقولي وعملي كما هو مبسوط في المطولات، وخاصة التوحيد والايمان كلها تحت قوله ﷻ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١] الآية فهذه هي المحيطة بكل التوحيد كما كشفنا ذلك في (سلم الاستقامة) (ولامية التوحيد)، وقد أغنى ذلك عن إعادته هنا، وإنما ذكرنا هنا غالبًا الايمان العملي الذي عليه أهل عُمَان، وبالأخص للفرق التي تجهل ما عليه أهل عُمَان في العقيدة؛ لعدم اطلاع النّاس على ما عليه العُمَانيون؛ لأن المشوهين من أعداء الدين قد نفَّروا النّاس عن العُمَانيين بأنهم خوارج، ولا يعلم أهل عُمَان ما يبعث ورائهم من الأحاديث السيئة والأحدوثات الفاحشة، وللحق أعداء وهم أهل الباطل، وإذا لم يُحارب الباطل وتحكّم في أعناقه أسياف الحق، فسرعان ما ترى الحق يهوي تحت أقدام الباطل، والله لا يرضى لعباده الكفر، وإن يشكروه يرضه لهم، والله يعلم المفسد من المصلح.

ومن مذهب أهل عُمَان كما قال الإمام: وجوب الجماعة في الصلاة، ولا

يؤمِّن لها ولا يقنت فيها ولا يقصر على المسح على الخفين، قال أبو إسحاق: وذلك أن لم يثبت عند أصحابنا، والقنوت لم يصح أو منسوخ، وكذلك المسح على الخفين منسوخ بأية الوضوء، وأهل عُمَان يقولون من أصله لم يصح، قال الإمام: والقصر أي لصلاة في السفر دون الحضر، وكذا الجمعة في الأمصار الممصـرة مطلقًا إذا أقيمت في وقتها، وعلى شروطها الثابتة، وعند أئمة العدل في الأمصار الغير ممصـرة إلى أخر خصال الإيمان.

* * *

سِلْسِلةُ مَذْهَبِ أهْلِ عُمَان

اعلم أن مذهب أهل عُمَان متسلسل من عهد الرسول ﷺ بنقلةٍ وأئمةٍ هداة وعلماءِ إثباتٍ، شُهِرَ مقامهم بين رجالات الإسلام، وَعُرِفَ منهجهم بين قادة الأنام، وما كان من ابن إباض رحمة الله ورضي عنه وما يتعلق بذلك، فقد كشفنا ذلك كله كشفًا واضحًا في كتابنا «أصدق المناهج في تميز الإباضية من الخوارج» وذكرنا طبقات العلماء على الإجمال إلى عصرنا هذا، ونذكر هنا ما يكون جمالاً لتاريخ عُمَان كما ذكرنا قسمًا مهمًا منه أيضًا في كتابنا «العُرَى الوثيقة على كشف الحقيقة» والمد لله الذي أعنى عليهما.

وهنا نقول إن مذهب أهل عُمَان تناقله فطاحل الرجال الذي هم في الدين أشهر من نارٍ على علم، وأول ناقل له: الهمام مازن بن غضوبة السعدي، وهو معروف في التاريخ العُمَاني، فهو صحابيٌّ عُمَاني، ثم كعب بن برشة الطاحى الصاحبى ثم صُحار بن العباس العبدي العُمَاني الثالث، ثم أبو شداد العُمَاني الصحابي الرابع، ثم عمر بن العاص القرشي السهمي الصحابي الخامس.

هؤلاء الأشياخ الأجلاء والهداة الأدلاء، والزعماء الأولون حملوا إلى عُمَان الدين الإسلامي، وعلموا أهل عُمَان أصوله وفروعه وواجباته ولوازمه ومقتضاياته، وتفقه أهل عُمَان منهم قبل كل أحد، وبعد ذلك انتشر الإسلام في

عُمَان انتشار ضياء الشمس بعد الظلام، حتى عمَّ عُمَان أولها وآخرها ورسخ برجالها الأبطال وعلمائها الفطاحل كالإمام أبي الشعثاء، والإمام الربيع بن حبيب راوي المسند الصحيح، وضمام بن السائب الندبي العُمَاني، وجمله من أهل العلم العُمَانيين، منهم سبعون راكبًا الذين خرجوا مع عَمْرو بن العاص إلى المدينة بعد وفاة النبي ﷺ، وفيهم عبد بن الجُلَندى سيّدهم وزعيمهم.

ومن نقلة العلم من أهل عُمَان إلى عُمَان وإلى العراق كثيرون لا يحصون عددًا إلا أن طبقاتهم متفاوتة، أما عمَّن نقلوا فقد نقلوا عن النبي ﷺ ونقلوا عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلى بن أبي طالب، ونقلوا عن عائشة أم المؤمنين السيدة المصونة التي تحوي شطر الدين عن سيّد المرسلين ﷺ، ونقلوا أيضًا عن العبادلة الثلاثة، وهم عبدالله بن العباس حبر الأمة وبحرها الزخار، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعن عبدالله بن عَمْرو بن العاص، ونقلوا أيضًا عن أنس بن مالك وأبا هريرة راوية الدين، وعن أبي سعيد الخُدري، وعن عبد الرحمن بن عوف أيضًا كذلك، وعن عمار بن ياسر، وعن عبدالله بن مسعود حضيرة الفقه، وعن أبي ذر، وأبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وسلمان سيّد الفُرس، وصهيب إمام الشورى، وزيد بن صوحان المقتول شهيدًا يوم الجمل، ونقلوا أيضًا عن خزيمة بن ثابت ذي الشهادتين وعن محمد وعبدالله ابني بديل، وحرقوص بن زهير السعدي أحد المشهود لهم بالجنة، وعن زيد حصن الطائي الذي نعته عائشة المقتول في النهروان.

قال الإمام السالمي رحمه الله: هؤلاء اللذين ذكرهم أبو المؤثر.

قلت: وهم علماء الصحابة وسادة أمة الإجابة رحمهم الله ورضي عنهم، قال: ولأصحابنا نقل كثير عن غيرهم؛ لكن قال أبو المؤثر رحمه الله: إنهم أخذوا أيضًا عن كثير من رجال العلم وأعمدة الحق من أصحاب رسول الله ﷺ ممن أنكر المنكر على أهله، وممن شهد يوم الدار ويوم الجمل ويوم صفين وممن شهد

النهروان مع المسلمين وممن لم يشهد هذه المشاهد، وممن مات على دينهم ومن مات قبل اختلاف الأمة، فهم أئمتنا وأولياؤنا رحمهم الله، لا ينكر فضلهم ولا يجهل شرفهم.

ثم بعد الطبقة الثانية وهم: عبدالله بن وهب الراسبي وأصحابه الذين جاهدوا معه يوم النهروان حتى استشهدوا رحمهم الله على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ثم أهل الطبقة الثالثة وهم: فروة بن نوفل الأشجعي، ووداع بن حوثرة الأسدي ومن كان معهما يوم النخيلة رحمهم الله.

ثم أهل الطبقة الرابعة، وهم: قريب والزحاف وأصحابهما الذين جاهدوا في الله حق جهاده ذكرهم الإمام أبو إسحاق الحضرمي.

ثم أهل الطبقة الخامسة وهم، المرداس بن حديد، وأخوه عُروة ومن معهما وهم الأربعون الذين شاع ذكرهم في عالم الإسلام بكل فضل في الدين، ومن باعوا نفوسهم لله حتى سالت أنفسهم على الحق.

ثم الطبقة السادسة وهم: عبدالله بن إباض، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، وصُحار بن العباس العبدي، وجعفر بن السماك، وحتات بن كاتب، وأبو عبيدة الضرير وهو أبو عبيدة الكبير العالم النحرير، وأبو نوح صالح بن نوح الدهان.

ثم الطبقة السابعة وهم: عبد الله بن يحيى الكندي المعروف بطالب الحق إمام أهل اليمن ومن معه من الرجال كالمختار بن عوف المعروف بأبي حمزة أحد أبطال العلم، وأقيال السنان، وأبو الحر علي بن الحصين، ومن استشهد معهم في جهاد أهل البغي رحمهم الله.

ثم الطبقة الثامنة وهم: الربيع بن حبيب بن عَمْرو والفراهيدى البصري، وضمام بن السائب الندبي، وأبو منصور الخراساني ومن معهم في أيامهم.

ثم الطبقة التاسعة وهم: الجُلَندى بن مسعود الإمام، وأبو الخطاب إمام أهل المغرب، وعبد الرحمن بن رستم الفارسي، ومن كان في طبقتهم وهم أفاضل الأمة في زمانهم.

ثم الطبقة العاشرة وهم: محبوب بن الرحيل، وهاشم بن عبد الله الخراساني، وموسى بن أبي جابر، وبشير بن المنذر، ومنير بن النيّر الجعلاني، وهشام بن المهاجر،وعبد الله بن أبي قيس، وسعيد بن المبشر، وعلى بن عزرة، وهاشم بن غيلان وسليمان بن عثمان، وعبد المقتدر بن الحكم، ومحمد بن هاشم بن غيلان، وموسى بن علي وسعيد بن محرز، والوضاح بن عقبة وأضرابهم، فهؤلاء الأئمة الأجلاء والأساطين الفخام هم مقدمة رجال الإباضية الذين هم معروفون في السماء، وإن أنكرهم أهل الأرض يأخذ بعضهم عن بعض من معاصريهم وغيرهم، ذكرناهم لا على الترتيب الزمني كما ينبغي؛ لأن هذا يحتاج إلى فراغ واسع يأتي على ذكر منازلهم العلمية، وطبقاتهم الزمنية وأسمائهم القبائلية، وأعمالهم العلمية ومؤلفاتهم الثمينة التي يحق لها أن تكتب بماء الذهب على وجنات الحور، فقد قاموا – رحمهم الله ورضي عنهم – مقامًا يحق الإكبار، وجاهدوا واجتهدوا في حق دين الله ﷻ وأدوا واجبهم حتى انقضت أيامهم، وجاء من بعدهم من أقاموا منار الدين، وكشفوا عن منهج سيّد المرسلين، وابتلوا بالأمة حينًا من الدهر، والله يجزيهم رضاه ويهديهم إليه سبيلًا ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

أما ذكر أئمة كل قرن على حدة فهذا شاقٌ إذ ما من قرنٍ إلا ولأهل عُمَان فيه علماء عديدون، وفقهاء كثيرون، وعلماء عُمَان هم فقهاء الشريعة، لم يتخصص منهم أحد في غير الفقه، وإن نال بعضهم من غير الفقه حظًا فغالبًا يكون ذلك كالنادر.

وقد اشتهر بالطب منهم جماعة كمحمد بن هاشم الطبيب الرستاقي المشهور، وهو صاحب لأمية الطب، وإن كان لبعضهم في الطب أيادٍ إلا أنها بالمعنى المعروف عند العرب ولهم في الطب النبوي نصيب؛ لأنه شرعي فهو في علوم الشريعة الرعيل الأول.

ومَنْ يعدهم غيرُهم من علماء الأمة، فهم رواة الحديث ولهم فيه السبق على

غيرهم فإن الإمام الربيع بن حبيب أول من ألف فيه المسند الشهير بالجامع، إذ جمع فيه أمهات الأحكام من جوامع كلمه ﷺ، وعليه بنى المسلمون قواعد مذهبهم الصحيح، ولم يذكره المؤرخون؛ لعدم اطلاعهم عليه، فإنه لم ينشر وبالأخص لم يطبع، فانظر ما يقوله العلامة التنوخي فيه:

ولهم في علوم الأدب المقام الأكبر بالخليل بن أحمد الفراهيدي، وابن دريد وأضرابهم.

وفي التاريخ كذلك إلا أن غيرهم فيه لهم أكبر اعتناء وأعظم عمل كابن الأثير وابن خلدون والطبري وغيرهم.

وإذا أردنا أن نذكر علماء عُمَان في كل قرن أعنى مشاهيرهم الأجلاء فالإمام أبو الشعثاء جابر بن زيد، والربيع بن حبيب، وأبو عبيدة ومن معهم، فهم علماء القرن الأول للهجرة. ولا يرد علينا أن هؤلاء بصريون بل يقول: هم عُمَانيون بغير شك، وإن أقاموا بالبصرة فقد صارت البصرة عُمَانية بكل معنى الكلمة، إذ كان علماؤها هؤلاء، وهم عُمَانيون، وأميرها المهلب بن أبي صفرة وهو عُمَاني بغير شك، فهي عُمَانية به وبقومه الأزد من أهل عُمَان.

أما علماء القرن الثاني فهؤلاء وآخرون جاءوا من بعدهم، فإن الإمام الجُلَندى بن مسعود رَحِمَهُ اللهُ في أول القرن الثاني كما سوف تراه في محله إن شاء الله، قال الإمام رَحِمَهُ اللهُ وهو يذكر الإمام الجُلَندى قال: أبو الحسن البسياني، وكان في أيامه، أي الإمام الجُلَندى حاجب، والربيع بن حبيب بالعراق، وعبد الله بن القاسم، وهلال بن عطية الخراساني وخلف بن زياد البحراني، وشبيب بن عطية العُمَاني، وموس بن أبي جابر الازكاني، وبشير بن المنذر النزواني، ومنير بن النيّر الجعلاني، وهو من بني حضرمي بن ريام قتل رَحِمَهُ اللهُ في وقعة دما من الباطنة أيام بن بور، قال: وكان هؤلاء بعضهم أكبر من بعض، واقتدى بعضهم ببعض، ومنهم الحسن بن عقبة، والوليد بن خالد وموسى بن سعيد، وجعفر بن بشير، ومعين بن عمر،

ولوط بن سام، وحميم بن المغير والهمام بن المغلس، والنيّر بن عبد الملك، وعبد الله بن أُبي، وعمام بن همام، ومحمد بن عبد الله بن سوم، وعمر بن يحيى، وحميد بن عبد الله، ويحيى بن يزيد، وعمر بن عبد الله، ثم وصفهم بأوصاف عظيمة عند المسلمين ستأتي إن شاء الله في إمامة الإمام الجُلَندى بن مسعود رحمهم الله ورضي عنهم.

قال: ومنهم أبو صالح الوضاح بن عقبة، ويحيى بن نجيح، وكلهم عيالم فقه وأئمة هدى، بل كاد أن يكون أيام الإمام الجُلَندى كل أهل عُمَان علماء، أو قل على الأقل أهل ذلك القرن.

ومن علماء القرن الثاني أيضًا: شبيب بن عطية العُمَاني الذي قام بالأمر احتسابًا، وكان من مشاهير أصحاب الإمام الجُلَندى رحمهم الله، وعبد الوهاب بن جيفر ومحمد بن عبد الله بن جساس، وأبو جعفر سعيد بن محمد، وسعيد بن محرز، ومحمد بن محبوب الرحيلي القرشي، ومحمد بن هاشم، وسبق ذكر أبيه هاشم بن غيلان، والأشعث بن محمد، ومحمد بن المعلى الكندي، ومحمد بن عبدالله زميل الشيخ موسى بن علي، وعبد الله بن محمد بن روح، ووائل بن أيوب، والصلت بن خميس المعروف بأبي المؤثر البهلوى وهو خروصي النسب، وعلي بن عزره، وسليمان بن عثمان، ومسعدة بن تميم اللذان عقدا على الإمام غسان بن عبد الله؛ لأنه لما مات الإمام الوارث رَحِمَهُ اللهُ.

قال سليمان بن عثمان: نريد أن نكتب لأهل السر بالحضور – أي للعقد على الإمام الثاني الذي يلي الوارث – فقال مسعدة: يريد ابن عثمان أن نؤخر هذا الأمر إلى أن يجتمع إلينا النّاس، أو قال غوغاء النّاس فيختلفوا علينا، بل نقطع الأمر قبل الاختلاف، فإذا جاء النّاس وجدوا الأمر مقضيًا والأمور منتهية، والأحوال قارة على قرارها، ومنهم هارون بن اليماني الشعبي الشهير في أيام الإمام بالمهنا.

وأما علماء القرن الثالث فهم: هؤلاء المذكورون ومن التحق بهم، وهم زيادة بن الوضاح، ومبارك بن جعفر، والحكم بن بشير، والأزهر بن علي، وعلي بن عزره، وجعفر بن زيادة، وعبد الله بن أبي قيس، وعبد الله بن نافع، ورايس بن يزيد، وأبو مالك بن هزبر، والأشعث بن محمد، والأزهر بن عبد الملك، وعبد العزيز بن عبد الرحمن، وعمر بن الأخنس الذي صلى بالنّاس الجمعة [في] مرض الإمام الملك بن حميد اعتبارًا لبقاء الإمام، إذ كانوا مجتمعين، إذا مات الإمام أقاموا عنه آخر مقامه، فلم ير موسى بن علي رحمه الله النقض عليهم، وكان العلماء يومئذ يعتبرونه الرئيس لهم، وهو قدوتهم، ورآه ابن محبوب وهو الرئيس الثاني لأهل العلم، وكان رأيه في القضية؛ لأن كل واحد منهما يحمل على وجه من أقوال أهل العلم، وبسط ذلك في الفقه، ومن العلماء يومئذ صقر زائدة.

ومن العلماء: العباس بن زائدة، وزياد بن مثوبة، والمنذر بن بشير، ورباط بن المنذر، ومحمد بن أبي حذيفة، وهاشم بن الجهم، وعبيد الله بن الحكيم، وهؤلاء من جملة العاقدين الإمامة للإمام الصلت بن مالك رحمهم الله، ورئيسهم محمد بن محبوب، والشيخ أبو عبد الله بن محمد إبراهيم بن سليمان، وعمر بن محمد الضبي، وموسى بن محمد بن علي، وعزان بن الهزير، وزاهر بن محمد بن سليمان، وعزان بن تميم، وشاذان بن الصلت، ومحمد بن عمر بن الأخنس، وغدانة بن محمد، وهؤلاء هم الذين بقوا متمسكين بإقامة الصلت بن مالك رحمه الله.

وبالجملة إذا ذهبنا إلى ذكر علماء عُمَان في كل قرن يضيق بنا الوقت فهؤلاء العلماء المعدودون، وأولهم زياد بن الوضاح، ومبارك بن جعفر، والحكم بن بشير، إلى غدانة بن محمد، هم إلى عهد الإمام الصلت بن مالك، والإمام الصلت المذكور كان بويع بالإمامة لستة عشر خلت من ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين ومائتين، فهو في صدر القرن الثالث، وكان العلماء المشاهير الذين لهم في الأئمة الحل والعقد لا يحصون عددًا، ثم أطال عهد الصلت بن مالك، إذ عاش في

الإمامة إلى عهد سنة اثنتين وسبعين ومائتين، فكانت إمامته خمسًا وثلاثين سنة، نشط فيها العلم وقوى سوقه، وطالت أغصانه، وأثمرت أيام الصلت بن مالك الثمر الحلو في عُمَان، وانتشر العلماء في عُمَان، وغصّت العواصم العُمَانية بهم، وكان سلطان الإمامة بالغًا حده، وعُمَان في ذروة الشرف وأهلها يتسابقون على العلم، فحتى حماميرها وحطاطيبها علماء، إذ توالت أيام الإمام وازدَهر عهدها، وقامت لهم في أرجاء عُمَان كبكبة مشرقة، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فلما طال العهد بالأمة، وكانت من سنة الله تأديب عباده إذا أبطرتهم النعم، فقاموا على الصلت بن مالك يحاولون خروجه من الأمر بغير قصور ولا تقصير والأمور في أيديهم، والصلت كواحد منهم غير مختص بشيء دونهم إلا ما كان من خصائص الإمامة، تجاسروا عليه حتى صارت أيامهم حديث سمر النّاس، وحيّرة أهل الفضل، ولم يزالوا على ذلك حتى تخلى الإمام الصلت رحمه الله من الأمر تسكينًا لسورة الثائرين، وإلقاءً للأمر في نحورهم فعظمت محنتهم، وجلت رزيتهم، وأصبحوا في أزمة ضخمة، واضطراب في القصد، ولم يكن حلهم شافيًا، ولا عقدهم وافيًا، حتى عرفوا بلية ما وقعوا فيه، ورأوا رزية الدين تحيط بهم، فكان فيهم البصير مغلوبًا، وسنذكر ذلك إن شاء الله في محله.

ولقد اعتذرنا لك أيها القارئ الكريم بعذرنا عن ذكر عُمَان علماء في كل قرن، وعسى أن يمُنَّ الله علينا بالسعة فنذكرهم في سفر خاص بهم، تخليدًا لتذكارهم، واعتبارًا بآثارهم، ودعاية إلى أعمالهم، والعلماء زينة الدهر، وجمال الأيام، ومجد عُمَان على الأقل ولنا فيهم:

قد زانت الأيام بالعلماء وهم ... أقمار ظلمتها وشمس نهارها

وهم بهم ينجاب غيم الغي عن ... أفكارنا بالنور من أسرارها

نسأل الله الاقتداء بطريقتهم، والتوفيق لسلوك سبيلهم، والله ولى التوفيق والتسديد.

ولا يخفى عليك إنا كنا معنيين هنا بسلسلة مذهب أهل عُمَان، وعمن أخذوا بينهم، وقد ذكرنا ذلك محققًا المصدر الأول، وهو المصدر الصحيح الذي يرده الكل من رجال الإسلام وبيّنا سبق أهل عُمَان إلى خصال الخير قبل الغير، وذكرنا أول ناقل للدين إلى عُمَان، وأول معلم لأهل عُمَان، حتى مشى أهل عُمَان على المنهج الصحيح من أول أمرهم، وقد عملوا بما أوجب الله عليهم من إقامة الحق على سبيل الصدّيق والفاروق، وما زالوا على ذلك الحال إلا في أيام الانقلابات التي تنزل عليهم من أمراء الجور وملوك الظلم إلا أنهم لا يرضخون لهم رضوخ الجاثم، أو يسكنون معهم سكون النائم، وإنما هم على حكم التقية حتى تلوح لهم الفرصة المواتية، فإذا رأوها هبوا لأخذها وعملوا اللازم فيها ولم يضيعوها كما سوف يرى القارئ إن شاء الله لهذا التاريخ ذلك، ويرى أعماله فيه صحيحة المأخذ والحمد لله.

أما من عدا أهل عُمَان فمنذ تولى الأمر معاوية بن أبي سفيان، هم عبيد الملوك، جاروا أم عدلوا، ومتى يعدلون وهم عبيد الشهوات، وأسارى الأهواء، ومماليك الرغبات النفسية، وبذلك يضمحل الدين ويتمزق شمل الإسلام، وتنشأ الناشئة لا ترى إلا سلطانًا تقول له لبيك وسعديك والخير كله في يديك، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله العون والهداية للطريق المستقيم، إنه كريم رحيم.

هذا هو الفارق بين أهل عُمَان وغيرهم من أمم الإسلام، نعم يشارك أهل عُمَان في هذا الحال إخوانهم أهل المغرب الذين أقاموا منار الدين بأئمة عدول، وأبطال فحول في الصدر الأول، حتى ذهب ذلك منهم، وكذلك إباضية اليمن وحضرموت، أخذوا على ذلك الحال عهدًا، وبقيت دروسه يتناقلها الخلف عن السلف، وهكذا، وإحياء سير الرسول عليه الصلاة والسلام على الأسلوب الصحيح، وقانونها الرجيج، أمر مفروض على الأمة عند الاستطاعة، وتوفر الأسباب، وما زالوا أهل عُمَان في ذلك على وتيرة الصحابة رضوان الله عليهم:

تعاقبت خلفاء الله منصبها منذ الجُلَندى وختم الكل عزان

فأول إمام بعُمَان هو الجُلَندى بن مسعود الجلنداني، وآخرهم عزان بن قيس البوسعيدي، ثم تلاهما في هذه الآونة التي نحن بها الإمام سالم بن راشد، ومحمد بن عبد الله، ويعرف الأول بالخروصي، والثاني بالخليلي، وكلاهما خروصي، وتعقبهما الإمام غالب بن علي الهنائي.

وسترى الفرق أيها القارئ في عُمَان قيام علمائها على أئمة الجور من أهل عُمَان وغيرهم، وترى الأئمة الأتقياء الأبرار الذين لهم في عُمَان الحل والعقد على نهج عمر بن الخطاب وأبي بكر ﷺ، حتى تعلم أن الإباضية هم عمدة الدين، وبهم يعيش ما عاش، وهم الفرقة الناجية من الثلاث والسبعين فرقة؛ لثباتهم على ما كان عليه من أمر رسول الله ﷺ، وأمر الخلفاء الراشدين، أما من عدا الإباضية وبالأخص منهم الذين لا يجيزون الخروج على أئمة الجور، الذين يتولون الأمور ويمشون فيها بحسب هواهم، فليسوا من الدين في شيء، وقد قال رسول الله ﷺ: «النّاس على دين مُلوكهم».

وأنت تدرى أن الملوك غالبًا على دين شهواتهم فإذا يكون النّاس على دين الشهوات نعوذ بالله. أما الإباضية فيغتمون طبعًا ويهتمون شرعًا إذا صار الأمر بيد ملوك هذا شأنهم، أما أولئك فينامون تحت ظل الملوك نوم الوداع المطمئن ولا يبالون، وأما الإباضية فيتململون مع تململ السليم، ويتأوهون على ذلك تأوه المصدور حتى يروا استقامة الأمير واطمئنان المأمور، فانظر الفرق بين الحالين واحكم بالحق، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون.

* * *

كلمة إجمالية على أمراء بني أمية

لا يخفى المطلع الخبير أن الحجاج بن يوسف، تولى عُمَان في خلافة عبد الملك بن مروان، وأن عبد الملك تولى الأمر لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة

٦٥للهجرة، وبقيت عُمَان تحت أمر الحجاج يديرها عمَّاله وَتُصرِّفها أعماله، وأهل عُمَان تحت قهره ثم توفى عبد الملك بن مروان سنة ٨٦هـ في شهر شوال، وقام بالأمر بعده ولده الوليد بن عبد الملك بن مروان في هذه الأثناء، كان ابن الزبير في مكة بويع له بالخلافة فيها قبل عبد الملك بن مروان بسنتين، فتكون بيعته سنة ٦٤هـ في شهر رجب، وذلك في آخر أيام يزيد بن معاوية، ومضى الوليد في خلافته إلى سنة ٩٦هـ في النصف من شهر جمادى الآخرة، وأمر عُمَان في يد عمال الحجاج الذين يتخالفون عليها، ثم تولى سليمان بن عبد الملك بعد موت أخيه ومضى إلى سنة ٩٨هـ، وقيل إلى سنة ٩٩هـ.

وتولى بعده ابن عمه عمر بن عبد العزيز وهو سيِّد بني أمية كلهم رحمه الله، كان إمامًا صادق الإمامة، تقيًا رضيًا قام على سوآت بني أمية يمحقها الواحدة بعد الأخرى، وأعاد السيرة العُمرية في طريقها الصحيح، ومشى على ذلك إلى أن توفى رحمه الله بخمس بقين، بل لخمس مضين، وقيل لست مضين من رجب الفرد، وقيل لعشر منه سنة ١٠١هـ إحدى ومائة، وهو في أول شبابه ابن تسع وثلاثين، وقيل أربعين سنة، وهو الذي استعمل على العراق عدي بن أرطاة الفزاري. واستعمل عدي المذكور على عُمَان عمالاً أساءُوا السيرة في أهلها، فقام العُمَانيون وبلغوا الأمر إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله فأمر بعزلهم واستعمل بدلهم على عُمَان عمر بن عبد الله الأنصاري، فأحسن السيرة في أهل عُمَان.

قال الإمام: فلم يزل واليًا على عُمَان مكرمًا بين أهلها، نافذ الأمر فيهم وهم سامعون مطيعون، ولم لا يكون أهل عُمَان سامعين مطيعين، وخليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز، وهو العبد الصالح من بني أمية.

وأهل عُمَان لا زالوا خاضعين لأهل الصلاح منذ عهد النبي ﷺ، فعاش فيهم عَمْرو بن العاص، وَلَمِ ير منهم إلا ما سره وهكذا من بعده إلا أنهم ينفرون من الجَوَرَة ولا يرون لهم طاعة تبعًا للقرآن الكريم، كما جاء فيه النص في اجتناب

الظالمين وأعوانهم، والتباعد منهم.

قال الإمام: وما زال عمر بن عبد الله الأنصاري في عُمَان يستوفي الصدقات منهم بطيبة أنفسهم حتى مات عمر بن عبد العزيز، فقال عمر بن عبد الله لزياد بن المهلب: هذه البلاد بلاد قومك فشأنك بها، وخرج عمر بن عبد الله من عُمَان غير معزول ولا مرغوب في خروجه لحسن سيرته، وقام زياد بن المهلب في عُمَان حتى ظهر أبو العباس السفاح، وصار ملك بني أمية إليه.

لا يخفى أنه بعد موت عمر بن عبد العزيز، تولى الأمر يزيد بن عبد الملك، وهو الذي أراد أن يسير في النّاس سيرة عمر بن عبد العزيز، وقد أعلن للأمة بذلك، فقام له من دمشق أربعون رجلاً من أعيانهم، وقالوا له لا تفعل هكذا وامضِ على وجهك، فإن الخلفاء لا حساب عليهم ولا عقاب في الآخرة، حيث هم قائمون بأمر الأمة مجاهدون ومجتهدون، وحلف له أربعون رجلاً على ذلك فخدعوه بذلك؛ لأغراضهم الشخصية، وهذه أعمال القوم مع ملوكهم، وتلك أعمال الإباضية مع سلاطينهم، فانظروا أيها النّاس كيف يلعب الشيطان بأهل الأهواء حتى يرمي بهم في البحر العميق الذي لا يخرجون منه، فسرعان ما تبدّل الحال في المسلمين بموت عمر بن عبد العزيز، إلى يزيد المذكور، ولم يبق الحال إلا أربعين يومًا إلى أن رجعت الأمور القهقرى، وانهمك في حُبَّابة وأمثالها، وغدا مغرمًا باللهو واللعب والسفه المفرط، وهذا هو الذي أشار إليه أبو حمزة المختار بن عوف حين خطب في النّاس خطبته المشهورة، وصرح بأفعال المشار إليه ولهوه وطربه، ولعبه بالأمور فتلك أحوال الإباضية عند هؤلاء الملوك الجورة الفسقة: فأين الثريا وأين الثرى، إنه لبون بعيد وفرق كبير حفظه لنا التاريخ لمن يأتي فيعتبر.

ولما مات يزيد المذكور وولي بعده هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥هـ مائة وخمس لخمس بقين من شعبان، ومشى هشام في المسلمين على نهج من قبله من إخوانه حتى توفي في شهر ربيع الآخر بالرصافة سنة ١٢٥هـ خمس وعشرين

ومائة، ثم تولى الأمر بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان معروفًا بالفسق إذ كان فاسقًا خليعًا بالغًا في الفسق الغاية القصوى، إذ كان يجعل للخمر حياضًا وللخلاعة غياضًا، وللسفه موارد ومصادر وهو الذي قتله أهل دمشق، إذ كان مستهترًا إلى حد بعيد، وقد جمع مع الفسق الزندقة وتظاهر بالكفر الصريح، وهو الذي لما تمكن السكر منه حلف ألا يصلي بالنّاس إلا امرأته، فأخرجها لابسة ثيابه، وهي سكرى جنب فصلت بهم، وكان بني للخمر بركة عظيمة، ومشى على هذا الحال وهو أمير المؤمنين، فمن يا ترى هؤلاء المؤمنين وهذا أميرهم، فماذا يكون حالهم، إنا لله وإنا إليه راجعون.

كان إذا أجنب هذا الخبيث ينزل إلى بركة الخمر يغتسل من الجنابة ويشرب ويلعب فيها حتى يرى أن جانبًا منها نزل، وحينئذ يخرج من المغتسل ثم أرسل الله عليه ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك المعروف بالناقص، فأحاط به في تدمر فكان فيها دماره حتى قبضوا عليه وذبحوه كما يذبح الثور، واجتروا رأسه وأتوا به على رمح، ثم نصبوه في مدينة دمشق؛ ليراه النّاس، ثم بايعوا يزيد المذكور وهو ابن الوليد بن عبد الملك بن مروان سنة ١٢٦هـ ست وعشرين ومائة، وعرف بالناقص؛ لأنه نقص الأعطيات، وردها على ما كانت عليه أيام هشام، وقيل لنقصان في أصابع رجله، وكان يتنسك ويميل إلى الدين والأخلاق الصالحة؛ ولكنه لم تطل أيامه، إذ كان الداعي حثيثًا فمات في ثمانية من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، وتولى الأمر بعده إبراهيم بن الوليد أخو يزيد، وكان الأمر مضطربًا والأمور في تقهقر وانحطاط، وانهيار صروح الإمارة الأموية من كل جانب، فكان في جمعه يسلم عليه بالخلافة، وفي جمعة بالإمارة، وفي جمعة لا يسلم عليه بشيء، وهكذا كانت أموره متناثرة على وشك الاضمحلال، ولله أمر هو بالغه، وحكم هو نافذة.

فكانت خلافته شهرين وعشرة أيام، ثم قام عليه مروان بن محمد المنبوذ

بالحمار، أي كان يلقب بالحمار، وهذا آخر خلفاء بني أمية، فأقام الله له أبا العباس السفاح عبد الله بن محمد علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي، وظهر أبو مسلم الخراساني، وقام الشر العباسي؛ ليأخذ الثأر من العنصر الأموي للذي طالما لعب دوره الخاسر، ومشى شوطه الفاجر، ولا شك أن لكل شيء غاية إليها الانتهاء، فكان انتهاء أمر بني أمية بهذا، وكل هذا الحال الذي ذكرناه، وعُمَان في يد أهلها من آل المهلب، وإدارة شؤونها إلى رجال الأزد دون غيرهم، إذ هم سادتها وبيدهم زمامها، وقد اشغل الله عنها هؤلاء الأمراء الأمويين، فلم يكن لهم فيها حل ولا عقد، بعد عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال كمال الدين الدميري: ظهر أبو مسلم الخراساني وظهر أبو العباس السفاح بالكوفة، وبويع له بالخلافة وجهَّز عمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس لقتال مروان بن محمد المذكور المعروف بالجعدي، والمنبوذ بالحمار، فالتقى الجمعان بزاب الموصل واقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزم مروان، وقتل من عسكره خلق كثير، وغرق منهم في البحر كثيرون، قال: وتبعه عبد الله إلى أن وصل إلى نهر الأردن، فلقي جماعة من بني أمية وكانوا نيفًا وثمانين رجلاً، فقتلهم عن آخرهم، ثم أمر عبد الله بسحبهم على الأرض فسحبوا وبسط عليه بساطًا، وجلس هو وأصحابه فوقهم، ودعا بالطعام فأكلوا وهم يسمعون أنينهم من تحتهم، فقال عبد الله يوم كيوم الحسين ولا سوى، ثم جهز عمه صالح بن على طريق السماوة فلحق بأخيه عبد الله، وقد نزل دمشق ففتحها عنوة وأباحها ثلاثة أيام، قال ونقص عبد الله سورها حجرًا حجرًا، وهرب مروان إلى مصر فتبعه صالح، وإذا بالمنهزم لا يتحدث إلا بالهزيمة والنّاس تتخاذل عنه وأموره تهوى، وصروح بني أمية تنهار وبرك الخمر قد آن جفافها، وكان هذا الحال ينتظر من آل علي بن أبي طالب وهم الذين وترهم بنو أمية، فلم يكن ذلك منهم لحكمة بديعة، بل كان من آل الحبر، وكان قتل مروان في أبو صير، وهي من قرى الصعيد، قال: وكان قصده الحبشة

فبيتوه وعاجلوه، فقيل لما ضرب قال انقرضت دولتنا، أي لا تقوم منا قائمة، وكان بطلاً شديدًا شجاعًا مقدامًا وكان قتله سنة ١٣٣هـ، وكانت خلافته خمس سنين وشهرين وعشرة أيام، وبدأت الدولة الجديدة تضع أطنابها وتمد رواقها حتى تأخذ عهدها.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وفي التاريخ المعتبر للعاقل والله المستعان.

❊ ❊ ❊

عُمَان تتحضر لتستقل عن الزعامة العامة

لما رأي العُمَانيون تدهور صرح الأمويين، ورأوا أن الله أذن بزوال ملكهم وانحلال سلطانهم الغاشم، قاموا يديرون الرأي بينهم في الانفصال عن القوم، فرأوا أن نطاق الإسلام قد توسع، وأن رواقه قد أمتد، وأن سلطانه قد قوى ودخل في حضيرته ملوك، اصطلم ممالك واحتوى على أقاليم وقهر على أمراء ممالك عديدة، ورأوا أن سلطان المسلمين العام ظالمًا وقد نأي عن سائر بلاد الإسلام، واستقل الأمراء في إمارتهم كحكام وملوك في الأقطار النائية، حيث أصبح الإسلام يشمل أهل المشرق والمغرب، وتفرقت فيه المذاهب وتعدد إليها الذاهب، رأى العُمَانيون ضرورة إقامة إمام لهم، ونظروا فيمن هو الأصلح لهذا الأمر الجسيم والعبء الثقيل الذي لا يقدر على حمله إلا أفراد الرجال، حتى وقعت خيرتهم على الجُلَندى بن مسعود ابن جُلَندى الجلنداني، حيث اجتمعت فيه الخصال المطلوبة إذ كان من بقية ملوك بني الجُلَندى الذين تولوا عُمَان في الجاهلية، ثم جاء الإسلام وهم ملوك عُمَان، وإليهم كتب النبي ﷺ في إسلام أهل عُمان، كما عرفت ذلك مما سبق من أخبارهم، وقد جمع الجُلَندى شرف العلم والتقوى وخالص الايمان، وقل أن تجتمع هذه الخصال مع الشجاعة والصلابة في الدين، وكان الجُلَندى بن مسعود من تلامذة أبي عبيدة ﷺ، وحضر بيعة الإمام طالب الحق في اليمن، ثم رجع إلى عُمَان فوقعت خيرة المسلمين عليه، فبايعه أهل عُمَان بيعة عامة ورضوا به إمامًا للكل، ولم يعترض على البيعة له معترض فيما علمنا، وأهل عُمَان كإخوانهم من أهل البلاد الأخرى لا يرضون لدينهم إلا الصالح، إذ كانوا على منهج عمر بن الخطاب ﷺ، وعلى منهج عبد الله بن وهب الراسبي إمام أهل النهروان، وأصحابه الميامين الأصفياء المخلصين الذين لا يرون لهم حياة صالحة إلا تحت راية الحق، والحق أحق أن يتبع، وما بعد الحق إلا الضلال، وقد عَلمتَ أن الله جعل الحق في الأمة حجة عليها، فإن قاموا بواجب

الحق نجوا عند الإله الواحد الأحد، وإلا فقد تمت الحجة عليهم والله لا يضيع الحق بالباطل حاشاه.

* * *

تاريخ البيعة للإمام الجُلَندى بن مسعود رَحِمَهُ اللهُ

لما تحقق للعُمَانيين صحة صلاحية الجُلَندى للإمامة العليا، اجتمعوا عليه وطالبوه أن يكون إمامًا قائمًا بأمورهم الدنيوية والدينية، وكان أهل المذهب كلهم كتحركين لنصب الإمامة، وقد تحقق قيام طالب الحق عبد الله بن يحيى إمامًا لإباضية اليمن، وفي نفس الوقت بايع إباضية المغرب أبا الخطاب المعافري كما عَلمتَ.

وكانت البيعة للجُلَندى رَحِمَهُ اللهُ في سنة ١٣٢هـ اثنين وثلاثين ومائة، وكان السفاح تولى الأمر بعد هذه المدة بسنة واحدة وبعض المؤرخين يرى إمامة الإمام الجُلَندى كذالك وقعت سنة ١٣٣هـ ثلاث وثلاثين ومائة، وكان فتكون في نفس السنة المذكورة، والشهير هو الأول وهي سنة الإمامة، إذ كانت للإباضية قام ثلاثة أئمة في ثلاثة أقطار العالم يقومون بأوامر الإسلام، ويقيمون قواعده ويعملون بما فيه من الأحكام، ويمشون على ضوئه في الحلال والحرام، فكانت لهم رنة في العالم الإسلامي شرقًا ومغربًا، واهتز العالم لهم هيبة، وارتجت لعملهم هذا قلوب أعدائهم، ونشطت النفوس المحبة لدين الله، وأكبر النّاس عملهم هذا أيما إكبار، فخافهم الملوك المجاورون وحسدهم الأمم، فلم تزل تنظر إليهم شزرًا وتحاول هدم كيانهم هذا، وردهم عن التطاول في العالم، فتكون لهم سطوة عالية وسمعة دينية، ويعلو شأنهم بين الأمم، وكان اجتمع على إمامة الإمام الجُلَندى رَحِمَهُ اللهُ علماء أجلاء وفطاحل أشداء، إذ كان أمرهم هذا في ابتداء الإمامة بعُمَان، والأمور غير المألوفة تكون حَيْرة السامع وَدَهْشة الرائي، والإقدام عليها كبير لا سيّما وأن الافتراق المذهبي قد بلغ شأوه.

قال الإمام أبو الحسن البسياني: وقد أجمعوا على إمامة الإمام الجُلَندى بن مسعود وولايته والمجاهدة معه، قال: وكان في أيامه أي من علماء المسلمين: حاجب والربيع بن حبيب بالعراق، أي بالبصرة وعبد الله بن القاسم، وهلال بن عطية العُمَاني وخلف بن زياد البحراني، وشبيب بن عطية العُمَاني، وموسى بن أبي جابر الازكاني، وبشير بن المنذر النزواني، ومنير بن النيّر الجعلاني.

قال: وكان لهؤلاء بعضهم أكبر من بعض، واقتدى بعضهم ببعض، قال الإمام في تحفة الأعيان: الإمام الجُلَندى بن مسعود بن الجُلَندى ﷺ، وهو أحد بني الجُلَندى بن المستكبر بن مسعود بن الحران بن عبد عز بن معولة بن شمس ملوك عُمَان بعد أولاد مالك بن فهم، وغلط من نسبه لغير ذلك.

قلت: لعل بعضًا رآه من آل الجُلَندى بن كركر.

وهذا من بني سليمة بن مالك على الصحيح.

قال: ولقد تقدم أن سبب إمامته أن أبا العباس السفاح ولى أخاه أبا جعفر المنصور على العراق، وولى المنصور على عُمَان جناح بن عبادة بن قيس الهنائي، ثم عزله وولى ولده محمد بن جناح، فَلَانَ للمسلمين ووافقهم على ما يحبون حتى صارت ولاية عُمَان لهم، فعند ذلك عقدوا الإمامة للجُلَندى بن مسعود، فكانت سببًا لظهور الإسلام وقوة شوكته، وكان عادلاً مرضيًا.

قلت: سيأتي أن أهل عُمَان ما كانوا يفضِّلون عليه أحدًا من أئمة عُمَان مع فضْلهم الذي اشتهروا به إلا أن يكون سعيد بن عبد الله بن محمد محبوب، فبعضهم يفضل الأول وبعضهم الثاني، وبعضهم ساوى بينهما، وفضَّل الإمام السالمي الجُلَندى على الكل، إذ قال: ولا أعدل بالجُلَندى إمامًا بعُمَان، فإنه قد جمع الصفات الثلاث: العلم والعدل والشهادة، مع ما جمع الله من الصفات التي لا تكاد توجد في غيره.

وهذا الكلام جاء في إمامة سعيد بن عبد الله الرحيلي، على أثر كلام نقله عن

عبد الله بن محمد بن أبي المؤثر رحمهم الله، حيث قال: لا نعلم في أئمة المسلمين كلهم بعُمَان أفضل من سعيد بن عبد الله، إلا أن يكون الجُلَندى بن مسعود، قال أبو إبراهيم محمد بن سعيد بن أبي بكر، إن الإمام سعيد بن عبد الله أفضل من الإمام الجُلَندى بن مسعود، قال أبو سعيد: وما أحقه بذلك، فإنه كان إمامًا عادلاً صحيح الإمامة من أهل الاستقامة عالمًا في زمانه، لعله يفوق في أهل زمانه أو كثيرًا منهم، ومع ذلك قُتِلَ شهيدًا رحمه الله وغفر له. أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي المؤثر: إلا أنه وقف في تفضيله على الجُلَندى.

هذه أقوال هؤلاء القادة الأجلاء والسادة الأعزاء وتفضيل الإمام السالمي رحمه الله أوجه، فإن الجُلَندى جمع الصفات التي اجتمعت في الإمام سعيد بن عبد الله الرحيلي، وهي العلم والعدل والشهادة، وفاق الجُلَندى رحمه على غيره بالسبق، وللسابق فضله كما أشار إلى ذلك القرآن؛ ولأن الجُلَندى تسلسل من ملوك أجلاء ولم تأخذ به سورة الملك عن خطة إخوانه، ولم يعتز بغير الحق، ولم ير إعطاء الدنية في دينه مع إمكانه، إذ خُوطِبَ أن يُعلن الانقياد لسلطان العراق ولو بلسانه فقط، فلم ير ذلك، وضحى بنفسه في سبيل إرضاء ربه ﷻ، وإكرامًا لدينه ومذهبه لا يرى الخصم منه هوادة في شيء ما رحمه الله ورضي عنه، وعن أهل الوفاء لدين الله، وفيه جاء عند ذكر آل الجُلَندى:

كالجُلَندى ومن كمثل الجُلَندى ... في عُمَان تجله الفضلاء

فتلك السنتان اللتان عاشهما الجُلَندى كانتا الأساس الذي مشى عليه أهل عُمَان في تقرير مصير حياتهم الدينية، أما الدنيا فثمتها عند أهل الفضل غير كبير؛ لأنها الظل الزائل والخيال الخائل، وكل منقض فغير مهم عند أهل الحق إذ خلق الخلق لغيرها.

* * *

التاريخ يحدث عن الإمام الجُلَندى وأصحابه رحمهم الله وعن أعمالهم بعُمَان

قال الشيخ العلامة الجليل أبو الحسن البسياني: فسار الجُلَندى بن مسعود رَحِمَهُ اللَّهُ في عُمَان، فأظهر الحق وعمل به، وأخذ الدولة من يد الجبابرة، وبرئ من الجبابرة وأشياعهم، ودان بقتال أهل البغي، ولم يستحل مع ذلك غنيمة ولا سبي ذرية، ولا استعراضًا بالقتل من غير دعوة، قال: وقد قال الإمام منير بن النيّر الجعلاني: لم يأخذوا أي الإمام وأعوانه الصدقة بغير حقها، ولم يضعوها في غير أهلها، والمعنى كل أعمالهم في الأخذ والرد على الجهة المشروعة، قال: ولم يستحلوها أي الصدقة من النّاس على غير الوجه المشروع، وهو الإثخان في الأرض والحماية والكفاية والمكافحة عن حريم المسلمين، بل أخذوها بحقها بعد إحكام الأمور التي تعينهم في دين الله، وحفظ الرعية، ثم وضعوها في مواضعها وقسموها على أهلها بحكم القرآن: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

قال: ثم بلغنا عنهم فيما استقام عليه رأيهم أن يرفضوا صدقة البحر إلا ما طابت به أنفس النّاس أن يبذلوه لهم، وذلك لما يتخوفون من الدخل عليهم في سبيل الله، إذ لم يحموه أي ولا جباية بغير حماية، وحماية البحر لم تتسنَ لهم بعد.

قلت: لأن العهد لم يطل بالإمامة، فلعل هذا الحال في أول سنة أو في ثاني سنة؛ لأن إمامة الإمام الجُلَندى لم تستكمل للسنة الثالثة على الشهير.

وكانوا يأملون حماية المملكة العُمَانية كما يلزم، قال: ولا يولون أمرهم ولا يبعثون في حوائجهم، ولا يستعملون على صدقائهم وأهل رعيتهم، ولا يستقضون على أهل ولايتهم إلا أهل الثقة وأهل العلم والفهم والورع والتحرج المعروفون بالفضل الموصوفون بالخير من أهل البيوتات من قومهم، غير سقاط ولا أدعياء، ولا متهمين ولا مقترفين - أي لا يفعلون شيئًا مما ذكر إلا بأهل العدل والضبط والنزاهة والورع الذي لا شائبه فيه - والمراد وصفهم بالنعوت الكاملة

والأوصاف الفاضلة، وهم كذلك فوق ما قال: وكيف لا وهم كرسي الإمامة العُمَانية التي هي السائلة والمسؤولة في الأمة، وعلى منهاجها سيكون سير ركب الإمامة رحمهم الله ورضي عنهم.

قال: لا يتعلق بهم التسباب، ولا يلجأ إليهم اللعاب ولا يلم بهم القبيح، ولا يتهمون في دينهم، مرضيون في إخوانهم، متبعٌ رأيهم، معروفٌ فضلهم، معروفون به، قد أحكمت آراؤهم في قوة الحق، وإحكام آرائهم في أمور الدين ليست الدنيا من ذكرهم، ولا جمع المال من شأنهم، ولا الشهوات من حاجاتهم، أي المشتهيات الدنيوية، قال: وكيف لا يكون كذلك من باع نفسه لله؛ ليجود بها على ترك الدنيا ويزهد بما فيها، وكان المرء منهم يرزق في الشهر سبعة دراهم، أي من بيت المال في غلاءٍ من السعر فيصبر على القوت اليسير رغبة في الآخرة والثواب من عند الله.

قال: وبلغنا أنه ربما بقي مع الرجل منهم الدرهم والدرهمان فيتطوع بذلك الفضل فيرده في فئ المسلمين، رحمهم الله ورضي عنهم وجزاهم خيرًا مع ما أظهروا من السنة في الأمر الخلقي والأخلاقي، فشمروا اللباس ولا حظوة حتى في النساء، فأصدروا أوامرهم فيهن بإدناء الجلابيب – أي لأجل ستر العورات وصيانة الهيئات – قال: وأمروهن برفع الخمر فوق الأذقان وستر النواصي وسائر الزينة إلا الوجه والبنان، أما ما وراء ذلك فهو حرام على من أبداه من النساء، أو من نظر إليه من الرجال شهوة – أي عملاً بأوامر القرآن، فإن الله ذكر النساء وأمر فيهن كما في الرجال، ولم يغفلهن. كما لم يغفل أحدًا من أهل التكليف، قال: وجعل النطاق من تحت الدرع إلا فقيرة لا تقدر على درع سابغة، فلها أن تبرز فوق درعها، ونهى النساء عن الجلوس في السكك، والخروج في يوم المطر والريح العاصفة، وأمر الرجال برفع ذيولهم وقصير أشعارهم، إذا سبغت إلى العوائق، قال: وأنكر على أهل القبلة أن يتشبهوا بزي أهل الذمة، أي للنهى عن ذلك في

السنة، ومن تشبه بقوم فهو منهم، كما أنكر على أهل الذمة أن يتشبهوا بزي أهل الإسلام، ونهى الرجال أن يبدوا ما فوق الركب، أي لأن ذلك عورة للحديث: «عورة المسلم مع المسلم من سره لركبة»، أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

قال: وكانوا أهل فقه وأهل علم وحلم، وتؤدة وتراحم وتودد، ووقار وسكينة، ولب وعقل وبر ومرحمة، وصدق ووفاء وتخشع وعبادة، وورع وتحرج وصلة ونصيحة ظاهرة مقبولة، لا يطمعون بمطامع السوء، ولا يتعاطون من النّاس الحقوق ولا يدخلون في خصومات النّاس، ولا يجتعلون على استخراج الحقوق، أي لا يأخذون على إخراجها جعلاً، أي أجرًا أو نحوه، ولا يسترشون – أي لا يأخذون الرشا على طلب الحوائج التي تعينهم من أمر النّاس، ولا يستفضلون في الرزق على الشبعة – أي لا يأخذون فضلاً فوق ما يشبعهم، ولا يغتاب بعضهم بعضًا ليس من شأنهم الغيبة ولا البغي ولا الحسد ولا التقاطع ولا التدابر ولا البغضة ولا شيء من أخلاق أهل الريبة يحرصون على آدابهم في الدين، ومع أهل الدين، ويكرهون العيوب ويهجرون أخلاق أهل الفجور والمعاصي، هم أنوار في الأرض وغرباء في النّاس، يعرفون بسيماهم أي كأنما عناهم القائل:

سيما التعفف تكسوهم جلال غنى فالقلب في شبع والبطن خمصان

قال: وكيف لا يكون كذلك من باع نفسه لله ينتظر حتفها ليلاً ونهارًا وصباحًا ومساءً، ليس له في شيء من الأمور ولا لأحد من النّاس، دنت رحمة أو بعدت أو عظم خطره أو صغر أو ارتفع شأنه أو تواضع إلا فيما وافق الحق مع ما لا يحصى من أخلاقهم الحسنة الجميلة، التي زينهم الله بها في الدنيا، وترك عليهم الثناء الحسن الجميل فيمن خلف بأعقابهم.

قال الإمام: انتهى كلام منير في الجُلَندى وأصحابه، وحسبك بمن أثنى عليه منير هذا الثناء الحسن الجميل، وأطبقت الأمة على الثناء عليهم، وألسنة الأمة أقلام الإلوهية، والنّاس شهود الله في أرضه جزاهم الله عن الإسلام وأهله خيرًا.

قلت: لقد حفظت أن شراة الجُلَندى رحمهم الله كانوا يضرب بهم المثل، فيقال أزهد من شراة الجُلَندى.

واعلم أن تلك الصفات لم تكن حتى للصحابة لولا فضيلة الصحبة، فإنما هي من معاجز الرجال، ولا جرم لقد جعلهم الله الأصل الذي يمشي عليه من بعدهم من الأمة، وجعل إمامهم كذلك، ولا ريب أن طالب الآخرة لا يرى شيئًا سواها فإنها المقر وهذه التي نحن فيها الممر، ويا فوز من جعلها ممرًا ولم يجعلها مقرًا.

* * *

الجُلَندى ينظم شراته

لا ريب أن الإمام بمنزلة مربي الأمة، والأمير يضع مسالك الخير لمأموريه في جميع أمورهم في جميع أمورهم الدينية والدنيوية، والقائد يرتب الجند ويدربهم على موارد حياتهم ومصادرها، ولا يكفي جعل الأمة جاثمة على هذه البسيطة، فإن السلطان معلم الشعب، ولقد عَلَّمَ الله ﷻ الأمم في كل وجه من وجوه أموره؛ وعلمت الأنبياء أممها جميع ما يلزم في هذه الحياة، وكذلك الملوك والأمراء والزعماء من الخلفاء، لهم تعاليم معروفة وأنظمة مألوفة.

وكذلك كان الإمام الجُلَندى رحمه الله رتب الشراة مراتب إعدادية، فجعل الشراة كتائب، وجعل لهم مراتب.

قال الإمام فجعل: على كل مائتين من الشراة إلى ثلاثمائة أربعمائة قائد من أهل الفضل والحجا والبصيرة والثقة، والعلم والمعرفة، والفقه والحزم والقوة.

قلت: وهذا من نوع نظام عصرهم كما هو عمل ملوك بني أمية.

قال: وعلى كل عشرة من أصحابه مؤدب من أهل الفقه يعلمهم الدين، ويؤدبهم بالمعروف، ويسددهم عن الزيغ، ويقيمهم على الطريقة، ويهديهم سبيل الرشاد.

قلت: هذا واجبٌ عقلاً ونقلاً، وكما قدمنا إنه مؤدب ومرب لأمته وشعبه، وأمور الدين مقدمة على أمور الدنيا، ولا ريب فإن الدنيا والدين كلاهما لا بد

منه، وعلى كل حال فإن الاستقامة في الدنيا طريق الخير إلى الآخرة، والإمام الجُلَندى رَحِمَهُ اللهُ إنما تقدم لطلب الآخرة، ورفض ضدها، ولما تحركت الطبيعة النفسية في بعض رجال الإمام، والتفتوا إلى الدنيا استنكرهم إخوانهم، وارتابوا من قبلهم، وكانوا سبب القيل والقال.

قال الإمام: إن رجالاً منهم تاقت أنفسهم إلى النساء، أي للعامل الطبيعي الذي تتحرك به الشهوات. قال: فلما ذكروا ذلك استوحش منهم أئمتهم وقادتهم، أي لأن المشغول بالآخرة دائمًا يكون منكسر القلب محترق الأحشاء، خوفًا ورهبًا، ومن كان كذلك أنى تتسنى له المظاهر الشهوانية، فإذا تحرك لها فكأنه أعرض عمّا هو فيه وتشاغل به عمّا هو بصدده.

قال: فلم يكن من القوم إذ ذكروا النكاح نظر إليه دون أن يعرضوا أمرهم على أهل الفضل من أهل العراق، أي لم يكن لهم إقدام عليه، حتى أبلغوا الأئمة في هل هذا الحال ينبغي لهم أم لا؟ قال: فلما وَصَل ذلك إليهم فزعوا منه أي رأوه تغيرًا عمّا هم عليه من التخلي من أمر الدنيا والإقبال على الآخرة فإن المار لا يليق به في طريقه إلا أخذ ما يبلغه المحل الذي هو سائر إليه.

قال الإمام: فزعوا منه وساءهم ذكر الشراة الذين باعوا أنفسهم للنساء، وطلب الشهوات، ورأوهم قد زاغوا عن طريقهم الأولى، وخافوا أن يكون دخل عليهم ما غيّر نفوسهم وحركها إلى ما يسبب ملاهيها عن الآخرة، قال: فكتبوا إليهم أي أهل العراق كتبوا إلى قادة الشراة ما نصبه: إنكم كتبتم إلينا تخبرونا عن الشراة أن أنفسهم تنازعهم إلى النساء، وهذا أمرٌ عظيمٌ غير أنهم إن لم يقدروا على الصبر فليعرض الفقير منهم نفسه على النساء المسلمات الصالحات، فإن قبلته المسلمة على عشرة دراهم يُنجزها إياها ولا يبقى لها عليه دين بعد العشرة فليتزوج، وإن صبر عن النساء فهو خير له، والمعنى أن هذا الأمر غير شاغل للشاري عن شرائه، وقد فروا من أن يكون عليهم ديون يمنعهم عن قصدهم، وفي هذا كَسْرٌ لتلك

الشهوة المتحركة فيهم، ولا يمنع الشراة عن قصدهم ولو يرغبوهم في النساء الجميلات اللواتي يتكلفون لأجلهن المغارم، فعشرة دراهم أمرها يسير، وصاحبها فقير، وقد دفع بها صاحبها الأمر الخطير، وكل عسير في الدين الإسلامي يسير، والمنة لله الوالي الكبير.

فترى من هذا أن الإمام الجُلَندى جعل الجيش كتائب ورايات، بعضها مائتا رجل فتكون كتيبة، وبعضها ثلاثمائة، وبعضها أربعمائة وهكذا، وجعل على كل كتيبة قائدًا كامل الشروط دينًا وفقهًا وأدبًا وأمانةً إلى آخر ما ذكر، وهذا أمر لا بد منه في الحياة الإسلامية الصحيحة، كما أنه جعل لكل عشرة رجال مؤدبًا دينيًا وأخلاقيًا تمشي الشراة على ضوء تعاليمه الصحيحة الصالحة، فيكون الإمام قد أدّى واجبه نحو هؤلاء الشراة، كما أدّى واجبه نحو أمته المسلمة وشعبه المؤمن، ويكون بذلك عند الله من الرجال الصالحين، وهكذا كان الإمام الجُلَندى الذي هو أول إمام بعُمَان، وأول من أقام صروح الإسلام، في هذا الوطن الخالد بملوكه وأئمته وشعوبه إلى الآن، وكان الجُلَندى الإمام دستورًا للإمامة في عُمَان، وأن أعماله هذه أتعبت من جاء بعده من الأئمة، فلذلك فلم يفضل العلماء عليه أحدا من الأئمة إلا أن يكون سعيد بن عبد الله، بقية الأئمة دونها والله يؤتي فضله من يشاء والله ذو الفضل العظيم:

كذا كان الخليفة من قديم مثالا للملوك الصالحينا

وأول من اتخذ الشراة الإمام الجُلَندى رَحِمَهُ اللهُ، فكانوا سهامًا على العدو مسمومة، ورماحًا مهيأة؛ لطعن العدو عندما يتحرك بسوء على المسلمين، وليت كل الأئمة فعلوا كذلك، بل أراد الإمام عزان بن قيس من أئمتنا المتأخرين رحمهم الله أن يفعل ذلك، وكان رأيًا صائبًا؛ لكن كان الداعي حثيثًا، فإنه لما بويع لم يزل في حرب حتى قضى الله عليه مستعجلاً، فبعد ما أقام منار الدين في تلك البرهة العاجلة، وأراد أن ينظم الشراة بعد انتخابهم، فاجأته المنية فقتل شهيدًا رَحِمَهُ اللهُ في مدينة مطرح في مدة

أشبه بمدة الجُلَندى رَحِمَهُ اللهُ ورضي عنه، ولكل عامل نيته والحمد لله، فكان الإمام مهابًا لو أراد الله بقاءه في عُمَان لكان لها أعظم شأن بين دول الإسلام، إذ كان الشراة رجالاً متجردين لله، يقمعون كل ثورة أو حركة في الوطن، وقد اعتدوا لذلك قلبًا وقالبًا، وحملوا سيوفهم لنصرة الحق غير مبالين بما يلاقون.

* * *

الإمام الجُلَندى يقتل أبناء عمه في الله

لا يخفى أن أحفاد الملوك والزعماء الذين لم ينزل منهم الإيمان منزلاً صالحًا يعتقدون الأحقية بالأمور دون غيرهم، وكل واحد يرى أنه الأقدم به عن سواه، وهذا شيء معروف في طبيعة العرب وغيرهم، فإذا كان هناك وازع ديني ردهم عن التخبط، وأرشدهم عن التهور ودلهم على الطريق الواضح طريق الخير والسبيل الصالح، ومن ذلك النوع الذي أشرنا إليه جعفر بن سعيد الجُلَنداني وابناه النضر وزائدة ومن معهم من جماعتهم، كاتبوا أعداء الإمام رَحِمَهُ اللهُ، ولعلهم يريدون أن يبايعوا غيره – أي الذي يأملون معه الرغبة والمنزلة، وأهل الدنيا ضد أهل الآخرة في كل أمة وكل جيل.

قال الإمام: قال أبو الحواري: بلغنا أن الجُلَندى بن مسعود رَحِمَهُ اللهُ قَتَلَ جعفر الجلنداني وابنيه النضر وزائدة على كتاب بيعة كانت منهم على المسلمين، فلما صح ذلك عند الجُلَندى رَحِمَهُ اللهُ أرسل إليهم، قال: ولم تكن منهم محاربة فيما بلغنا إلا ما ظهر من كتابهم، فقدمهم الجُلَندى فضرب رقابهم على ذلك الكتاب فيما بلغنا، قال: ولما ضرب رقابهم فاضت عيناه بالدموع، أي لأنهم أقاربه وبنو جلدته، والمراد أنه رَحِمَهُ اللهُ استحل قتلهم بنفس تلك البيعة وبنفس الكتاب عملاً بما ورد في آثار المسلمين من أن من كاتب عدو المسلمين فقد صار محاربًا لهم ساعيًا في هدم كيانهم بممالأته لعدوهم، وهو شهير آثار المسلمين، وعليه أهل الحق، وقد فعله الأئمة بعد الجُلَندى وآخرهم هم به الإمام سالم بن راشد بن سليمان الخروصي

في حميد بن مسلم بن سليمان الندابي صاحب سرور لولا أن أصحابه تداركوا الأمر، ومن دس على المسلمين أو واطأ عدوهم أو سعى في تفريق كلمتهم أو شاقهم في شيء ولو بلسانه فهو محارب لهم باغ عليهم.

* * *

المسلمون يشتدون على الإمام الجُلَندى

لَـمَّا قَتَلَ الإمامُ الجُلَندى بن مسعود رَحِمَهُ اللهُ جعفر بن سعيد الجلنداني وابنيه النضر وزائدة ومن معهم من جماعتهم؛ بسبب المؤامرة التي تآمروا بها، ورآهم تحمل جنائزهم دمعت عيناه، ورآه أصحابه على ذلك، وعيناه تذرفان الدموع، فاستنكروا ذلك منه وساءت ظنونهم فيه، وكانوا أشداء على الباطل، كما وصف الله ﷻ أصحاب محمد ﷺ بقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال ﷻ: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] أي على الباطل، أما الحق فهم فيه رحماء بينهم.

فقال الشراة لإمامهم أعصبية يا جُلَندى أي تبكي عليهم عصبية لهم، والحق أوجب قتلهم فقال رَحِمَهُ اللهُ في لهف وهدوء: لا؛ لكن الرحمة كما قال الصحابة رضوان الله عليهم لنبيهم: تنهانا عن البكاء وتبكي يا رسول الله، وذلك لما مات ولده إبراهيم فقال ﷺ: «**إنها الرحم، وإنما نهيتكم عن شق الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية**»، أو كما قال عليه الصلاة والسلام. فاعتذر الإمام الجُلَندى رَحِمَهُ اللهُ لهم بذلك، وقال غيره: كان الجُلَندى رَحِمَهُ اللهُ، قتل جعفر بن سعيد وغيره من بني الجُلَندى، فدمعت عينه جزعًا عليهم، فوقع في نفوس المسلمين عليه من ذلك، فقالوا له اعتزل أمرنا فأعتزل أمرهم وعد الاعتزال راحة له ولم يتبرم؛ لأنه ما كان قيامه رغبة في الإمارة أو حبًا لها، وسلَّم إليهم السيف والقلنسوة، إذا كان شعار الإمام الخاص، فلبث فيهم يغدو ويروح كواحد منهم، ثم رجعوا إليه فطلبوا أن يرجع إلى ما كان فيه من أمرهم، فكره ذلك فلم يزالوا به حتى رجع إلى مكانه

بعد اعتزاله. قال: وفي مواضع أنه اعتزل فلم يكد يرجع ولم نعلم أنهم بايعوه مرة أخرى بعد اعتزاله. قال الإمام: يعني أنه رجع إلى الأمر بالعقد الأول والله أعلم. ومحل الكلام هل ذلك العقد انحل فيحتاج إلى عقد آخر أم هو باق؟ ولعل نفس القبول منه ومنهم كاف لبقاء الإمامة؛ لأنه لم يعزل عن حدث ولا وُجِد أنه احتج عليهم عند طلبهم اعتزاله، هل لهم ذلك أم لا؟ وهل يصح له الاعتزال بنفس الطلب منهم أو منه مثلاً؟ وقيل إنما عزلوه اختيارًا هل هو معهم باطنًا وظاهرًا أم هو في الباطن على غير ما هو في الظاهر؟ فلما رأوه معهم باطنًا وظاهرًا طلبوا رجوعه للأمر؛ لأنه أحق به من غيره ولا جرم له فيه فتلكأ عليهم خوف أن يقع بينهم سوء ظن كالأول.

فلله در هؤلاء الرجال الصالحين الصادقين، فهؤلاء الرجال وأمثالهم هم الذين أمر الله بالكون معهم، إذ قال ﷻ: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

* * *

مَقتلُ أبِي الدُّلَفِ شيبانِ بن عَبْد العَزِيز اليَشكُرِي بعُمَان

كان أبو الدلف المذكور صفري المذهب بل كان أحد أئمة الصفرية، وكان الخوارج بايعوه بعد قتل الخيبري، أقام يقاتل مروان بن محمد الأموي السابق الذكر، ثم تفرق عنه جنوده وتراخى عنه قومه، وَهَرَبَ عنه كثير من أصحاب الطمع، حتى بقي في قلة من قومه التي لا تجاوز أربعين ألف رجل، وماذا عسى أن يبلغوا وهُمْ بالنظر إلى عدوهم شيء غير كبير فأشار عليهم سليمان بن هشام أن ينصرفوا إلى الموصل فيجعلوها ظهرهم، فارتحلوا فتبعهم مروان حتى انتهوا إلى الموصل فعسكروا شرقي دجلة، وعقدوا جسورًا عليها من عسكرهم إلى المدينة، فكانت ميرتهم ومرافقهم منها، وخندق مروان بإزائهم، وكان الخوارج قد نزلوا بالكاز ومروان بخصة، وكان أهل الموصل يقاتلون مع الخوارج، فأقام مروان ستة أشهر يقاتلهم، وقيل تسعة أشهر، وأتي مروان بابن أخٍ لسليمان بن هشام يقال

له: أمية بن معاوية بن هشام، وكان مع عمه سليمان بن هشام في عسكر شيبان أسيرًا، فقطع يديه وضرب عنقه وعمه ينظر إليه، وكتب مروان إلى يزيد بن عمر بن هبيرة يأمره بالمسير من قرقيسيا بجميع من معه إلى العراق، وعلى الكوفة المثنى بن عمران العائذي عائذة قريش، وهو خليفة للخوارج بالعراق، فلقي ابن هبيرة بعين النمر فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وانصرفت الخوارج ثم اجتمعوا بالنخيلة من الكوفة، فهزمهم ابن هبيرة ثم اجتمعوا بالبصرة، فأرسل شيبان إليهم عبيدة بن سوار في خيل عظيمة فالتقوا بالبصرة فانهزمت الخوارج وقُتِلَ عبيدة بن سوار، واستباح ابن هبيرة عسكرهم، فلم تكن لهم همة بالعراق، واستولى ابن هبيرة على العراق وكان منصور بن جهور مع الخوارج، فانهزم وغلب على الماهين وعلى الجبل أجمع، وسار ابن هبيرة إلى واسط، فأخذ ابن عمر فحبسه، ووجه نباته بن حنظلة إلى سليمان بن حبيب وهو على كور الأهواز، فسمع سليمان الخبر، فأرسل إلى نباته داود بن حاتم، فالتقوا بالمرتان على شاطئ دجيل، فانهزم النّاس وقُتِلَ داود ابن حاتم، وَكَتَبَ مروان إلى ابن هبيرة لما استولى على العراق يأمره بإرسال عامر ابن ضبارة المري إليه فسيره في سبعة آلف أو ثمانية آلاف، فبلغ شيبان خبره، فأرسل الجون بن كلاب الخارجي في جمع فلقوا عامرًا بالسن فهزموه ومن معه، فدخل السن وتحصن فيه، وجعل مروان يمده بالجنود على طريق البر حتى ينتهوا إلى السن، فكثر جمع عامر، وكان منصور بن جهور يمد شيبان من الجبل بالأموال فلما كثر من مع عامر نهض إلى الجون والخوارج فقاتلهم فهزمهم، وقتل الجون وسار ابن ضبارة مصعدًا إلى الموصل، فلما انتهى خبر قتل الجون إلى شيبان، ومسير عامر نحوه كره أن يقيم بين العسكرين فارتحل بمن معه من الخوارج، وقدم عامر على مروان بالموصل فسيره في جمع كثير في أثر شيبان، فإن أقام أقام، وإن سار سار، وأن لا يبدأه بقتال، فإن قاتله شيبان قاتله، وإن أمسك أمسك عنه، وإن ارتحل اتبعه، فكان على ذلك حتى مر على الجبل، وخرج على بيضاء فارس وبها عبدالله

بن معاوية بن حبيب بن جعفر في جموع كثيرة، فلم يتهيأ الأمر بينهما فسار حتى نزل جيرفت من كرمان، وأقبل عامر بن ضبارة حتى نزل بإزاء ابن معاوية أيامًا، ثم ناهضه وقاتله، فانهزم ابن معاوية بهراه، وسار ابن ضبارة بمن معه فلقي شيبان بجيرفت فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزمت الخوارج، واستبيح عسكرهم، ومضى شيبان إلى سجستان فهلك بها وذلك في سنة ١٣٠هـ ثلاثين ومائة.

قال: وقيل بل كان قتال مروان وشيبان على الموصل مقدار شهر ثم انهزم شيبان حتى لحق بفارس وعامر بن ضبارة يتبعه وصار شيبان إلى جزيرة بركاوان، ثم خرج منها إلى عُمَان فقتله جُلَندى بن مسعود بن جيفر بن جُلَندى الأزدي سنة أربع وثلاثين ومائة، هذا كلام ابن الأثير في قضية شيبان الحروري.

ويقول الإمام السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على اثره: وقد تقدم ذكر سبب ارتحال شيبان من جزيرة بركاوان، وإن تلك كان سبب حروب خازم بن خزيمة في أيام السفاح، فيكون أول أمر شيبان في أيام مروان بن محمد ومقتله في أيام السفاح في عُمَان على يد شراة الجُلَندى إمام المسلمين، وذكر في (تحفة الأعيان) أنه كان قد جاء إلى عُمَان بجيش هاربًا من السفاح، فلما قدم إلى عُمَان، قلت: لا يعرف مجيئه عُمَان على أي وجه والظاهر أنه لم يجيء لاجئًا بدليل الحرب التي وقعت بينه والإمام فإنهم لابد أن يعرفوا ما عنده في مجيئه، فلما رأوه جاء على حرب قابلوه بما يلزم، قال فأخرج له الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هلال بن عطية الخراساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأكرم بهلال ومعه يحيى بن نجيح، وكان يحيى مشهورًا في النّاس فضله في جماعة من المسلمين، فلما التقوا وصاروا صفين – أي توافقوا للقتال – قام يحيى بن نجيح فدعا بدعوة أنصف فيها الفريقين فقال: اللهم إن كنت تعلم أنا على الدين الذي ترضاه، والحق الذي تحب أن تؤتى به، فاجعلني أول قتيل من أصحابي، ثم اجعل شيبان أول قتيل من أصحابه، واجعل الدائرة عليهم. وإن كنت تعلم أن شيبان وأصحابه على الدين الذي ترضاه والحق الذي تحب أن نؤتى به، فاجعل شيبان أول قتيل

من أصحابه، فأمَّن الفريقان، ثم زحف القوم بعضهم إلى بعض فكان أول قتيل من المسلمين يحيى بن نجيح، وأول قتيل من أصحاب شيبان شيبان، ومكَّنَ الله المسلمين منهم، واستولوا عليهم، فلم يبق لهم بقية فيما علمنا.

وكان ذكر شيبان هذا في التاريخ العُمَاني لدواعٍ. أولاً: أنه جاء عُمَان فقتله العُمَانيون، وثانيًا: أن قتله كان بلاءً عظيمًا على أهل عُمَان، إذ جاء خازم بن خزيمة التميمي طالبًا لشيبان هذا، ولما وجده مقتولاً وأراحهم الله منه لم يكتف خازم إلا بخضوع أهل عُمَان لسلطان بغداد وهو السفاح، ولا يبالي الجاهل بما يلاقي وإلا فما جُرمُ أهل عُمَان إذ جاءهم باغيًا عليهم، فقاتلوه فقتلوه، فكان ينبغي من خازم شكرهم وتأييدهم، وأن يودّعهم بسلام إذ كفوهم إياه؛ ولكن الله في خلقه إرادات لا بد من كونها، وإلى هذه الأحوال يشير شيخنا ابن جميّل عفا الله عنه في سلكه حيث يقول:

وفي عُمَان أول الأئمة	هو الجُلَندى كاشف للغمة
وكان عدلا ثقة مرضيًا	برًا رؤوفًا عالمًا تقيًا
وأجمع الكل على إمامته	واتفقوا كذا على ولايته

إلى أن قال:

قام الجُلَندى في عُمَان عادلًا	وكان بالحق القويم عاملًا

وعنه:

واستشهد الجُلَندى مع أصحابه	على هداه وعلى صوابِه
وذاك في جلفار من عُمَان	عليهم سحايب الرضوان

في حديث له طويل أعرضنا عن ذكره كله. ويقال جملة القتلى عشرة آلاف قتيل فهلكت تلك الدولة بقتل الأخيار، وتملكت يد الأشرار ابتلاءً من الله لعباده، فرحم الله الإمام الجُلَندى. وشراته الأشداء الذين باعوا نفوسهم في طاعة الله ﷻ.

مُنتهى أَمْر الإمَام الجُلَندى وأَصْحَابِه بَعْد قَتْلِ شَيْبان

لم يكن إلا عشية أو ضحاها منذ قتل شيبان بن عبد العزيز اليشكري المعروف بأبي الدلف في عُمَان، حتى قدم خازم بن خزيمة التميمي الطالب لقتل شيبان، فلما وصل عُمَان لم يجد من أهل عُمَان إلا الخير، وإن كانوا استنكروا مجيئه بجيش يخوض أرض قوم ويشق بلادهم بغير إذنهم.

قال الإمام: وصل خازم إلى عُمَان، واتصل بالإمام الجُلَندى، وقال: إنا كنا نطلب هؤلاء القوم، وقد كفانا الله قتالهم على أيديكم؛ ولكني أريد أن أخرج من عندك إلى الخليفة، وأخبره أنك له سامعٌ، مطيعٌ، فشاور الجُلَندى المسلمين أي قومه وأهل الرأي عنده في ذلك الأمر الذي يريده خازم بن خزيمة، فلم ير المسلمون له ذلك؛ لأنه خضوع للجبار الظالم، واعترف له بالطاعة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ما لم تتعين التقية، ولا تقية هنا، لكنها المنية؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

قال الإمام: وقيل سأله أن يعطيه سيف شيبان وخاتمه، أي الطابع الذي يختم به الكتب. قال: فأبى الجُلَندى رَحِمَهُ اللهُ من ذلك نظرًا إلى أنه حق للوارث، وهذا زعيم جاهل لا يسلمه إليهم ويبقى الإمام مسؤولًا عنه أمام الله عزَّ وعلا. وقال أبو محمد: طلب خازم من الجُلَندى تسليم خاتم شيبان وسيفه، وأن يخطب لسلطان العراق ويعترف له بالطاعة، قال: فاستشار الإمام الجُلَندى العلماء من أهل الدعوة ومعهم يومئذ هلال بن عطية الخراساني، وشبيب بن عطية العُمَاني، وخلف بن زياد البحراني، فأشار عليه أن يدفع سيف شيبان وخاتمه وما يرضيه من المال، ويضمن لورثة شيبان قيمة السيف والخاتم يدفع بذلك عن الدولة. قال: فأبى خازم إلا الخطبة والطاعة فرأوا أن ذلك لا يجوز في باب الدين أن يدفع عن الدولة بالدين. وإنما يدفع عنها بالرجال والمال انتهى كلام أبي محمد رَحِمَهُ اللهُ.

وقال أبو عبدالله محمد بن محبوب رحمهما الله: لا بأس أن يعطوهم السمع

والطاعة بألسنتهم إذا خافوهم على الدولة والرعية، قال: ولا يفعلون ذلك بغير الألسنة الشراة كانوا أو غير شراة، قال وأما المال فلا.

والمعنى أن المال يكون لهم تقوية ولا يصح أن يقوى الظالم بالمال وبالرجال؛ لأنه يتقوى به على الغير من النّاس، وكان الرأي الأول لو قبله خازم واسعًا؛ لأن التقية بالمال القليل عن المال الكثير أجازها العلماء، ووجهه ارتكاب أخف الضررين والمال، وضع لصيانة الحال وصيانة الدين أكبر من كل شيء، ومشهور المذهب جواز التقية.

قال الإمام: ثم إن الجُلَندى أبى من إعطاء خازم ما سأل فوقع القتال بين خازم بن خزيمة والجُلَندى.

قلت: أظن أن الإمام لم يكن مستعدًا للقتال، وإنما لاقى خازم بن خزيمة حين علم أن هذا جاء طالبًا لشيبان، ونحن قد قتلنا شيبان وقومه، وتكون لنا على هذا القادم يد في ذلك فيلاقيه الإمام بحالة سليمة، وللنّاس غوائل والجاهل لا يبالي، فلم يجد الإمام المخرج لتدارك الأمر، فكان الأمر مستعجلاً. والداعي حثيثًا، ولابد لما أراد الله ﷻ.

قال: فقتل جميع أصحاب الجُلَندى ولم يبق إلا هو وهلال بن عطية، وكان وزيره الأكبر، فقال الجُلَندى: أحمل يا هلال. فقال هلال للإمام: أنت إمامي فكن أمامي ولك علي ألا أبقى بعدك:

قال الإمام لهلال ما ترى ... قال تقدم وأنا فيمن جرى
تقدم الإمام حتى قتلا ... وقتل القاضي وراه مقبلا
كأنه لهم كأسد في الصولة ... وكعقاب الجو عند الجولة
أبدى ثقافة تحيّرُ الذهنا ... مع بسالة عليها يثنى
فاستشهدوا وقد حوت جلفار ... مشهدهم جاءت بذا الأخبار

وهذا الذي كان يلاحظه أهل الرأي في الموافقة لتسلم هم دولتهم وتبقى لهم

عزيمتهم وكرامتهم، ويسلم لهم دينهم؛ ولكن لله أمر هو بالغه، وحكم هو نافذه. وقضاؤه وقدره لابد من كونهما، وقد علم أن الإمام التقى خازمًا في جلفار التي تقع مكانها الآن رأس الخيمة، مما يدل أن الإمام التقاهم التقاء صديق لصديق، ولما وقعوا في الأمر لم يروا إلا إعلان الوفاء لله كما شرطوه على أنفسهم، فوفوا به وعلى الله توكلوا وإليه توجهوا رحمهم الله ورضي عنهم.

قال في معالم الجزيرة: بعد ذكر الإمام الجُلَندى فأرسل السفاح جيشًا لقتالهم – أي الإمام وأصحابه – قال: فانهزم العُمَانيون وهلك إمامهم؛ ولكن لم تكن عساكر الخليفة تصل إلى أوطانهم حتى صارت أمور عُمَان فوضى، واضطر الأهالي إلى عقد اجتماع وانتخاب إمام على حسب أصول المذهب، فوقه الاختيار على رجل يقال له محمد بن عفان إلخ.

ولما بَرَزَ هلال بن عطية، وهو يرى أنه الموت، ويرى إخوانَه وإمامَه صرعى، ولم يكن واهي العزيمة ولا خائر الأعصاب، ولا خافق القلب فتقدم البطل الكرار الذي يحق له أن يلحق بجعفر بن أبي طالب ﵁، وعليه لأمة حربه، فكان أصحاب خازم يتعجبون من ثقافته ولم يعرفوه حتى عرّفتهم به شجاعته وبسالته. وقالوا: هلال بن عطية، وتنادوا باسمه، وهكذا شأن الهلال، فجال معهم وجالوا معه حتى قضوا عليه، فَقُتِلَ رحمه الله، وكيف لا وقد عرفوه قبل أن يكون أباضيًا رحمه الله ورضي عنه، إذ كان من صناديد خراسان وأبطالها المشهورين، وكان نيّر البصرة صادق السريرة شجاعًا مقدامًا، وقيل إن الذي تولى قتل الجُلَندى الإمام رحمه الله هو خازم بن خزيمة إذ رأى الجيش قد فَنِي وبقي الرجلان الإمام والقاضي، فقام خازم لقتال الإمام، فكأن هو قاتله بالنفس فلم يزل بعد قتله مذعورًا خائفًا لا يهدأ الليل ولا ينام، ولا يزال له همهمة الذعر حتى إذا أدركته الوفاة قيل له: أبشر، فقد فتح الله على يديك فقال: غررتمونا في الحياة وتغرونا في الممات هيهات هيهات، فكيف لي بقتل الشيخ العُمَاني يعني الإمام الجُلَندى، والمعنى أن قتل الشيخ العُمَاني بغير حق نقمة ساحقة غررتمونا بها، وتغرونا حتى في مثل هذا الحال، فما الذي

ينجينا من قتل الشيخ المذكور.

ولا شك أن المرء يعلم من نفسه عقوبة جرائمه التي يقترفها بغير حق؛ لكنه في حال غطرسته لا يلتفت على شيء ولا يبالي بما يأتي وما يذر، حتى إذا ضاق الخناق ولم ير له مناصًا قام بعض أصابع الندم، وخرج رجل من أهل عُمَان للحج فاصطحبه رجل من أهل البصرة لا يهدأ الليل ولا ينام فسأله العُمَاني عن ذلك وهو لا يعلم أن صاحبه عُمَاني، فقال: خَرجتُ مع خازم بن خزيمة إلى عُمَان فقاتلنا فيها قومًا لم أر مثلهم، فأنا منذ ذلك الحال لا أنام، فكتم العُمَاني حاله عنده وبقى متعجبًا من الرجل وما ابتلى به، فقال في نفسه أنت حقيقٌ بذلك ولا يخفى أن قتل مؤمن واحد بغير حق لا تعادله الدنيا بأسرها.

ولما قتلوهم ووثبوا على معسكرهم لم يجدوا فيه إلا أثوابًا خلقة، ووجدوا حمائل سيوفهم من ليف، فانظر في الأحوال نظر اعتبار تجد الإباضية وأئمتهم قطعة من صحابة رسول الله ﷺ، أخفاها الدهر ليوم ما؛ وليكونوا حجة صادقة في الدين، ولما قضى عليهم خازم بن خزيمة في تلك المعارك التي أدارها عليهم بغير حق، وعلى غير استعداد، بل هذه عندي أشبه بقضية النهروان، إذ كان القوم ينتظرون الإمام للتفاهم بينهم، وزوال الوحشة الجاثمة إذا هم والسيوف تعمل فيهم حتى قُتِلوا عن آخرهم، وهؤلاء كذلك وإلى الله المصير.

ولما انتهى أمر الإمام الجُلَندى وأصحابه، نشط التكالب على أهل عُمَان وارتاع العُمَانيون من الواقع، وشاعت الإشاعة عن أمرٍ مهول أثر على الأمة وألبسها الدهش، وحل على السواد الأعظم الخوف، وترادفت الظنون، وبذلك لم يتحرك من العُمَانيين متحرك، فانسحب خازم بن خزيمة بجيشه الضخم المنتصر، ودوّخ عُمَان قاهراً عليها.

وفي ابن الأثير في حوادث سنة أربع وثلاثين ومائة، قال: كان قتل الجُلَندى في هذه السنة وهو الصحيح عند الإمام السالمي، وكذلك نقول: فإن الجُلَندى بويع

في سنة ١٣٢، وعاش سنتين كاملتين وشهرًا وقيل أشهراً. قال الإمام: وفي كامل الأثير أيضًا أن خازم بن خزيمة كان من السفاح، وكان أخوال السفاح من بني عبد المدان، وهم خمسة وثلاثون رجلاً، ومن غيرهم ثمانية عشر رجلاً، ومن مواليهم سبعة عشر رجلاً، قصدوا السفاح فلقيهم خازم بن خزيمة بذات المطامير، وكان قد وجد عليهم فلم يسلم عليهم، فلم جازهم شتموه، ثم رجع إليهم وعاتبهم على أمر كان قد وجد به عليهم، فأغلظوا له في الجواب، فأمر لهم فضربت أعناقهم جميعًا، وهدمت دورهم ونهبت أموالهم، ثم انصرف عنهم قال: فبلغ ذلك اليمانية، فاجتمعوا ودخل زياد بن عبدالله الحارثي معهم على السفاح، فقالوا له: إن خازمًا اجترأ عليك واستخف بحقك وقتل أخوالك الذين قطعوا البلاد وأتوك معتزين بك طالبين معروفك، حتى إذا صاروا في جوارك قتلهم خازم وهدم دورهم ونهب أموالهم بلا حدث أحدثوه، فهم بقتل خازم فبلغ ذلك موسى بن كعب وأبا الجهم بن عطية، فدخلا على السفاح وقالا: يا أمير المؤمنين بلغنا ما كان من هؤلاء، وأنك هممت بقتل خازم، إنا نستعيذك بالله من ذلك، فإن له طاعة وسابقة، وهو يحتمل له ما صنع، فإن شيعتكم من أهل خراسان قد آثروكم على الأقارب والأولاد، وقتلوا من خالفكم وأنت أحق من يغمد إساءة مسيئهم فإن كنت لابد فاعلاً ومجمعًا على قتله فلا تتولى ذلك بنفسك وابعثه لأمر إن قتل فيه كنت قد بلغت الذي تريد، وإن ظفر لك، قال: وأشاروا إليه بتوجيهه إلى من بعُمَان من الخوارج يعني المسلمين، وإلى الخوارج الذين بجزيرة بركاوان مع شيبان بن عبدالعزيز اليشكري، قال: وأمر السفاح بتوجيهه مع سبعمائة رجل، وكتب إلى سليمان بن علي يحملهم إلى جزيرة بركاوان وعُمَان.

وكان شيبان يقود جيشًا يبلغ أربعين ألف رجل، فليس يكون مناله هنيًا، فساقته الأقدار إلى عُمَان، فكان عليه من أهل عُمَان ما كان وإذا بخازم يلتحق بعُمَان طالبًا للمذكور ولقتال أهل عُمَان، إذ كان مندوبًا لقتال الكل، وكان

أهل عُمَان قتلوا شيبان ولم تغسل سيوفهم من الدماء بعد حتى جاء خازم مختدعًا لأهل عُمَان، بأنه جاء لقتال شيبان وقد كفيتمونا إياه، فسر ذلك أهل عُمَان، وما كانوا يظنون أنهم مقصودون أيضًا بالذات كقصدهم لشيبان، فخرج الإمام الجُلَندى لملاقاتهم في شرذمة من أصحابه؛ ليتفاهم مع القوم، فأظهر لهم خازم تلك التعللات المرموز إليها بالخاتم والسيف، حتى إذا رأى انقيادهم رمز لهم بالخطبة بالطاعة لسلطان العراق، وهو السفاح، وما كانوا مستعدين لحرب حتى إذا وقعوا فيها أحاطت بهم الجنود من كل جهة ووضعت السيوف على رقابهم والقوم غافلون، وأعداؤهم غادرون، وللنّاس طوايا تظهر عند إمكان الفرص، ولهم غوائل ضد كل غافل وفي الغيب عجائب.

وكان قتلِ الإمام الجُلَندى سنة١٣٤هـ، ومكث خازم بعُمَان أشهرًا وكان خازم أرسل برؤوس أعيان القتلى إلى بغداد متبجحًا بهم ومفتخرًا بقتلهم، وعلى أثر ذلك سلط الله على السفاح الجدري وهو بالأنبار وتوفى منه في سنة١٣٦هـ ست وثلاثين ومائة في١٣ من ذي الحجة، ودفن في قصره بالأنبار، ولم يمكث بعد قتل الجُلَندى إلا أقل من السنتين والله أعلم. فرحم الله الجُلَندى وأصحابه ورضي عنهم.

قال صاحب معالم الجزيرة :فانتخبوا محمد بن عفان فباشر الإمامة سنتين، فلم يحسن العمل فخلعوه، وأقاموا مكانه الوارث بن كعب، قلت: هو محمد بن أبي عفان، وما كان في الحقيقة إمامًا، وإنما كان رجلاً تظن فيه البطولة التامة، ولعله يكون كفوًا لحمل أعباء الأمر، وإذا به بخلاف ذلك وبقى كضابط للجيش إلى أن يرى المسلمون رأيهم، ولما ظهر لهم عدم كفاءته للأمر أخرجوه منه كما سوف ترى ذلك إن شاء الله.

❊ ❊ ❊

بُروز آل الجُلَندى مُعلِنينَ الطاعة لخازم

لما قُتِلَ الإمام الجُلَندى بن مسعود وأصحابه، زحف خازم على عُمَان فاتحًا،

كان آل الجُلَندى الذين اضطغنوا الإمام في قتل جعفر بن سعيد وابنيه ومن معهم من آل الجُلَندى، الذين كاتبوا بالبيعة على الإمام، وأقصى الإمام بقية آل الجُلَندى الذين يميلون ميلهم ومن يظن فيهم السوء، وأدنى منه أهل التقوى ورجال العدل وأبطال الحق، ساءهم ذلك، ولعلهم كما يقول القائل:

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ نصيبٌ ولا حظٌّ تمنى زوالها
وما ذاك من بغضٍ لها غير أنه يرجي سواها فهو يهوى انتقالها

ولاشك أن الغالب يكون مرهوب الجانب، ولهذا تقدم آل الجُلَندى إلى خازم بن خزيمة سامعين له مطيعين، لاسيّما بعد تلك الحرب الطاحنة التي أفنت أبطالاً، وما كان أهل عُمَان ليسلموا بلدهم إلى الغازي لقمَة سائغَة، بل اشتد الأمر بين خازم بن خزيمة والجُلَندى، واسمع ما يقول ابن الأثير المؤرخ الشهير، قال: سار خازم إلى البصرة في الجند الذين معه، وكان قد انتخب من أهله وعشيرته ومواليه، ومن أهل مرو الروذ من يثق به، فلما وصل البصرة حملهم سليمان في السفن وانضم إليه بالبصرة أيضًا عدة من بني تميم، فساروا في البحر حتى أرسلوا بجزيرة بركاوان، فوجه خازم فضلة بن نعيم النهشلي في خمسمائة إلى شيبان، فالتقوا فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فركب شيبان وأصحابه السفن، فساروا إلى عُمَان وهم صفرية، فلما وصلوا إلى عُمَان قاتلهم الجُلَندى وأصحابه، قال: وهم إباضية، واشتد القتال بينهم وقتل شيبان وأصحابه، قال: ثم سار خازم في البحر من معه حتى أرسوا إلى سواحل عُمَان، فخرجوا إلى الصحراء فلقيهم الجُلَندى وأصحابه، واقتتلوا قتالاً شديدًا، وكثر القتل يومئذ في أصحاب خازم، وقتل منهم أخ له من أمه في تسعين رجلاً، ثم اقتتلوا من الغد قتالاً شديدًا، فقتل يومئذ من الخَوارج، يعني المسلمين، تسعمائة، وأحرق منهم نحوًا من تسعين رجلاً، ولم يفر أحد من الفريقين عن صاحبه، أي فقد ثبت الإمام ومن معه على قلتهم.

ثم دارت رحى الحرب بينهم في اليوم الثالث والرابع إلى السابع، فلم تزل

المعارك دائرة بين الإمام وعدوه الغازي حتى أشار على خازم بعض أهل مشورته أن يهجم على بيوت أصحاب الإمام، وكانت بيوتًا مبنية من خشب وذلك أن يجعلوا على أطراف أسنتهم المشاقة ويوروها بالنفط ويشعلوا فيها النيران، ثم يمشوا بها فيضرموا بها في بيوت أصحاب الجُلَندى، وكانت من خشب.

قلت: لعلها من سعف النخل، وهو الواضح وضعوها لتقيهم الشمس والبرد فقط.

قال فلما فعل ذلك وضرمت بيوتهم بالنيران اشتغلوا بها وبمن فيها من أولادهم وأهاليهم، فحمل عليهم خازم وأصحابه فوضعوا فيهم السيف فقتلوهم، وقتلوا الجُلَندى فيمن قتل، قال: وبلغ عدد القتلى عشرة آلاف قتيل.

ولعل الأكثرية من الغزاة وهو الظاهر؛ لأن الجُلَندى لم يكن مستعدًا لحرب خازم، وإنما فاجأه خازم على أثر مقتل شيبان، أو لعلهم بقية الجيش المقاتل لشيبان، فقبل رجوعهم إلى أوطانهم فاجأهم جيش خازم، فكانت إحدى الحسنين لهم، وقد خرجوا لذلك رحمهم الله ورضي عنهم.

باعوا بباقية الرضوان فانيهم كأن لذة هذا العيش ثُعبَان

وإن مقتلة تنكشف عن عشرة آلاف قتيل لعظيمة في المسلمين، وهنا برز الباقون من آل الجُلَندى، لملاقاة خازم بن خزيمة؛ لينالوا معه رغبتهم المرجوة بموت الإمام الذي لم يروا معه مصالحهم. قال الإمام ﷺ في أمر عُمَان بعد الجُلَندى كلامًا واسعًا بعضه نقل عن ابن الأثير، وبعضه عن التاريخ العُمَاني خلاصته: أن محمد بن زائدة وراشد بن النظر، وهما أبناء من قتلهما الإمام كما سبق الحديث عنهم، وعدوها ضغينة على الإمام، وأن خازمًا بقى في عُمَان أشهرًا يرتب أمر عُمَان ومعه آل الجُلَندى المذكورون، وقد أرسل برؤوس القتلى إلى السفاح في بغداد، فقط قلد خازم أمر عُمَان محمد بن زائدة وراشد بن النضر، ومعهم الأشعث بن حكيم، وكان هؤلاء الجلندانيون جبابرة ظلمة، تسيطروا على النّاس بسيطرة خازم، إذ هم له أعوان، فكانوا عماله على قومهم، وكان هو سيّدهم والجامع

بين الطرفين الظلم والعسف والجبروت، وهذه هي الخصال الماحقة، والأعمال الساحقة؛ ولكن أهل الظلم لا يبالون، بل كانوا يقتلون النبيين فكيف بغيرهم، وقد اشتهر آل الجُلَندى بالجبروت في هذه الآونة.

قال الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذكرت السير - أي سير أهل عُمَان - إن الجبابرة استولت على عُمَان بعد الجُلَندى، فأفسدوا فيها وكانوا أهل ظلم وجور، قال: فمن هؤلاء الجبابرة محمد بن زائدة وراشد بن النضر الجلندانيان.

قلت: قد سبق أن خازم بن خزيمة لما احتل عُمَان وقتل الإمام الجُلَندى وأصحابه، وانكسرت عصا المسلمين، ودخل خازم عُمَان متغلبًا عليها، وكان جبارًا ظالمًا كما وصفه ابن الأثير، إذ مر على بني عبد المدان فقتلهم، فهنا لباه بنو الجُلَندى ومهدوا له طريقًا يبسًا لا يخاف فيها دركًا ولا يخشى، وكانوا أعوانه وهم أعيان أهل عُمَان إذ ذاك، إذ هم ذراري أولئك الملوك المتقدمين، وأبناء عم إمام المسلمين، فتقلدوا الأمر في عُمَان بخازم بن خزيمة، وشايعهم أهل الأهواء من أهل عُمَان، وأهل الباطل أكثر من الحق في كل أمة، وبقوا على فسادهم، وخازم بن خزيمة ترف أعلامه على عُمَان، وبقى في عُمَان مدة حتى استقدمه السفاح إليه، فلباه وعُمَان طوع يده، ورهن إشارته، يخطب فيها للسفاح على منابرها، وكان الإمام قَتَلَ أقاربه المذكورين على كتاب البيعة الذي وجده عليهم؛ وكان الكل إقطاعيًا كما يقول العصريون، وعاثوا في عُمَان، وسرى الضعف في المسلمين سريان النار في الهشيم؛ لأن صوت العدل خافت، وصوت الباطل مرفوع، ومن ذلك ما كان من الأحداث طيلة تلك المدة.

ومنها قتل عبد العزيز الجلنداني، وعلى ما يظهر أن قتله كان لكونه من أتباع الحق، قال الإمام: وذلك في حال ضعف المسلمين، قال: عن الوضاح بن عقبة عن مسبح بن عبدالله أن عبدالرحمن بن المغيرة أخبرهم، وقد كان الأشعث بن حكيم والجلندانيون على حال من الخروج، والمعنى متظاهرون بالخروج على

الدولة، وذلك في حال ضعف المسلمين في أيام خازم بن خزيمة، وأن جعفر بن بشير كان هو وآخر غيره بالعراق مع أبي عبيدة وحاجب ﵄، حتى قدم الجلندانيون إلى العراق، أي كانوا يراجعون سلطان العراق، وهو السفاح المقدم الذكر، فأخبر القادمون الإمام أبا عبيدة وحاجبًا أن الجلندانيين نزلوا على عبد العزيز الجلنداني فقراهم ثم قتلوه، فقال لهم موسى وحاجب :لا تقبل مقالتكم على المسلمين، فلم يقبلا قولهم، قالوا: فإنا نذهب إلى السلطان. قال: اذهبوا، وكانوا أرادوا بذلك الشكاية إلى الإمام أبي عبيدة؛ ليدخلوا السبيل من طريقة. قال: فلما حضر خروج جعفر وصاحبه إلى عُمَان، قالوا لأبي عبيدة: ما نقول لأهل عُمَان منكما في القوم، وقد كان أهل عُمَان افترقوا في قتلة عبد العزيز فمنهم من برئ منهم أي من القاتلين، ومنهم من تولاهم أي القاتلين، لما كان من أقوال تنبني عليها الأحوال، قال: ومنهم من وقف عنهم للإشكال الذي عرض لهم، هل كان عبد العزيز من البغاء أم من الثقات؟ فقالا، أي أبو عبيدة وزميله حاجب: قولا لأهل عُمَان إن كل له ولاية يتولاه المسلمون، وكل من كان على أمر من أمرهم أولى بما ضيع، حتى يطلب الأمر إليه الذي ضيعه، فيكون فيه عليه الحق أي يمتنع عن إعطائه ومن امتنع عن إعطاء الحق تسقط ولايته. قال: فهذا حديث عبد الرحمن بن المغيرة عن المسبح بن عبدالله.

قال الإمام: وحاصله أن الطائفة الخارجة نزلوا على عبد العزيز فأضافهم فقتلوه، فلم يستحسن المسلمون ذلك منهم؛ فلهذا اختلفوا في ولايتهم، حتى قال أبو عبيدة، قال هو وحاجب في فصل القضية، قال: وكان المسلمون يرجعون إلى قولهما، أن بني الجُلَندى قد طلبوا إلى أبي عبيدة وحاجب ما طلبوا من قتلة عبد العزيز، فلما يسمعا، لذا قال الجلندانيون: نذهب إلى السلطان يعنون عامل بني عباس. فقال: اذهبوا على طريق التهديد، ولم يبلغنا أنهم ذهبوا إلى السلطان والله أعلم بما كان.

شَبِيب بن عَطِيَّة العُمَاني المحتَسِبْ

من حوادث أيام بني الجُلَندى، ظهور شبيب بن عطية العُمَاني، ولا يشتبه عليك بشبيب الخارجي إمام الصفرية، فإن بعض النّاس التبس عليهم شبيب العُمَاني بشبيب الخارجي، وكان شبيب هذا من أصحاب الإمام الجُلَندى، ذكر ذلك الشيخان: أبو محمد وأبو الحسن، ولم ينسباه ولم أعرف نسبه حتى أحرره، وهذا من قصور أهل العلم.

قال الإمام، في (تحفة الأعيان)، بعد أن ذكره عن أبي محمد وأبي الحسن قال: وذكر غيرهما أنه كان يجبى القرى، ولم يكن إمامًا منصوبًا، وإنما كان محتسبًا. قال: والظاهر أن أمره هذا كان بعد الجُلَندى، وكان رجلاً صلبًا في دينه شديدًا على الجبابرة، داعيًا إلى مخالفتهم، قال: وله سيرة تنبئ عن تصلبه في دينه وشدته على البغاة، يعني مقالة حررها ونشرها إلى النّاس؛ ليعلموا الأحوال في مهاج الأعمال، وهذا معنى السيرة عند أهل عُمَان، إذا قالوا في سيرة فلان، ولفلان سيرة إلى بني فلان، وهكذا وكانت سيرة شبيب معربة عن قصده، مبرهنة عن صدده، وفي الأثر لأهل العلم كلام على شبيب المذكور وأعماله، وفي ولايته والبراءة منه، وذلك لتصلبه، فمن رأى من شبيب التصلب في أعماله قال: ليس له هذا إذ هو ليس إمامًا حتى يفعل هذه الأشياء، والذي يهمه أمر المسلمين ويود إرغام المفسدين يقول: ما فعله شبيب حق وصواب، وإذا بالنّاس فريقان أو ثلاثة، وهكذا العلماء حين يريد الله خذلانهم بعد ما قال لهم: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦].

قال الإمام: صار يجبي القرى احتسابًا، فمنهم من لم ير له ذلك؛ لأنه ليس بإمام منصوب، ومنهم من عذره ورآه محتسبًا، وللإمام حقوق يراها بعضهم للمحتسب. قال المعتمر بن عمارة بن سالم بن ذكوان الهلالي: إن البراءة منه وحد السيف معًا، أو قال سواء إني لا أبرأ منه حتى يحل دمه، قال هاشم بن غيلان، عن موسى بن أبي جابر قال: قلت للربيع ما تقول في أهل عُمَان؟ فإنهم اختلفوا في أمر شبيب، قال: قال الربيع: من تولاه فتولوه، ومن برأ منه فابرءوا منه. قال قلت:

ما القول في الكف فإني أرجو أن يكون فيه ألفة وصلاح؟ قال: فما يقول بشير؟ قال قلت: صاحبي ولا يخالف علي، فقال أنتم أعلم بأهل بلادكم، وأما أنا فليس ذلك رأي. قال فلما قدم موسى أشهر ذلك ولقي هادية فتابعه.

قال عبد الوهاب بن جيفر: من تولاه برئينا منه، قال هاشم: وكره بشير الكف، وقال معقل: يتولاه بشير وأهل الحق، قال: وَسُئِلَ الفضل بن الحواري عن الذي اختلفوا فيه من أمر شبيب، قال: كان محابًا، وكان يجبي القرى فإذا قدم السلطان تركها واعتزل. قلت: ولم يذكروا من هذا السلطان الذي إذا قدم ترك شبيب الجباية من أجله وهذه الأيام هي أيام السفاح في بغداد، ولم يقل التاريخ إن السفاح جاء عُمَان، ولعله عامل السلطان أو رسول يرسله سلطان العراق؛ لأخذ الجباية من عُمَان، فإن جاء ترك شبيب الجباية خوفًا، فإذا ذهب إلى العراق برز شبيب وأعلن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودعا إلى الجباية، والظاهر أن الذي يبرز لشبيب الأمير الذي ولَّاه خازم وأقره سلطان العراق من آل الجُلَندى.

قال الإمام السالمي: قلت ولعل اعتزاله كان في عام لا يجبي فيه، أي إنما يترك في عام لا حماية له على البلاد، ويفهم من ذلك أن السلطان المشار إليه يأتي في بعض السنوات فإذا جاء تخاذل عن شبيب أعوانه خوفًا من السلطان. قال الإمام: إنما جبايته كانت وقت حمايته فمتى حصلت له الحماية جبى ما قدر عليه، ومتى زالت عنه بالعجز عنها رفع يده. قال: وهذا هو الظن بشبيب إن صح ما قاله فيه الفضل بن الحواري. قال: والظاهر منه التصلب في الأمور، فتخلية البلاد للجائر منافيه للظاهر من حاله والله أعلم بما كان هناك.

قال أبو الحواري: من برئ من شبيب برئنا منه، ومن برئ ممن تولاه برئنا منه، ومن تولى من تولاه فهو على ولايته إن كانت له ولاية.

هذا ما ذكروه من أمر شبيب هذا، ولقد قام شبيب على الأقل آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر على قدر استطاعته، فاعلاً للخير عاملاً لله بما استطاع كيف يبرأ

منه، وما بال هؤلاء الذين يقولون بالبراءة لا يغفلون شيئًا يحسن السكوت عليه، أو ما بالهم لا يشدون عضده ولما لم يفعلوا شيئًا من ذلك، ما بالهم ينتقدون شبيبًا ويعلنون البراءة منه أيحسن الإنسان المسلم ويجازى على إحسانه بالتأنيب ورفضه من ولايته، إن هذا لا يليق في الدين، ولا يحسن بالمسلمين، ولا هوادة في الدين، فإن الحق مطلوب من أي النّاس الذين يستطيعون إقامة حق في لأمة، وإن قيل: إن شبيبًا لم تقع له بيعة من المسلمين. فالجواب: كذلك بيعة أبي بكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنما بعضهم فقط، ورضي الباقون فثبت إمامته، ولا يشترط بيعه عموم المسلمين. وإليكم سيرة شبيب التي ذكرها الإمام السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي تدل على أن شبيبًا كان أميرًا صالحًا مطاعًا في الأمة، ماضيًا فيها على الحق، والحق يجب قبوله ممن جاء به وممن قام به في الأمة، ولو كان عبدًا حبشيًا مجدعًا.

قال شبيب: أما بعد فإنه قد بلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول: يد المسلمين واحدة على من سواهم، والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، وقد أمسيتم وأمسينا إخوانًا على الحال التي قد ترون. اختلف في إعلاق الأمة وتشتت أمرها، ووثب بعضهم على بعض كالسباع ينهش بعضهم بعضًا بالظلم والعدوان، والغشم وانتهاك المحارم، ولا يعرفون حق الله ولا الإسلام، ولا يحتجرون به وأمسينا وأمسيتم بحمد الله ونعم الله علينا وعليكم سابغة، وفضله علينا و عليكم عظيم، يؤمن بعضنا بعضًا، ويعرف بعضنا لبعض حرمة الإسلام، وحق أهله، وكتاب الله أَمامنا وأَمامكم، إن كنا وكنتم صادقين. يا أيها النّاس: اعلموا من أمرنا أن نقاتل ونقتل من عصى الله حتى يفيئوا إلى أمر الله، أو تفنى أروحنا إن شاء الله؛ ليرد منار الإسلام إلى معالمها الأولى التي كانت على عهد نبي الله، والذين من بعده أبي بكر وعمر حلال الله حلال إلى يوم القيامة، ورضاء الله إلى يوم القيامة، وسخط الله سخط إلى يوم القيامة، لا تنقض الطاعة بالمعصية، ولا تثبت الطاعة بالمعصية بل بالطاعة؛ ولكن حتى يستكمل النّاس جميعًا الطاعة بحدودها

وأعلامها ومنارها، وأحكامها وأنسابها الرضى بها، ومن كره هذا فالطريق له مخلى يذهب حيث يشاء من البر والبحر، وليكن امرؤ على حذر أن يتتبع عورات المسلمين ويكاتب عدوهم، ويشغب عليهم بسعيه بين المسلمين بطانة.

إلى آخر ما جاء فيها من بيان الحق الواضح، والتحريض على القيام بالأمر، والرد على المخالفين في شكهم وحيرتهم. [هذا] ما أورده الإمام السالمي من كلام الأمير شبيب بن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذه الكلمات الجوهرية من هذا البطل المسلم التي تعرب عن نزاهة نفسه وحسن سيرته ووثوقه بربه، وغيرته على الأوامر الدينية، وتصلبه في إثبات الحق وقيامه بأوامر الله ﷻ، لها قيمتها عبد أهل العدل الذين ينزلون الرجال منازلهم، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولو قام رجال الدين كشبيب هذا كل من جانب لما راجت أسواق الباطل، ولا تجرأ على أهل الحق جاهل، وبماذا تعرف الرجال إلا بالأفعال، فلقد أحسن شبيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وشكر الله له عمله إن شاء الله.

ومن الأحداث التي وقعت في أيام آل الجُلَندى بعد إمامهم المرضي الجُلَندى بن مسعود خروج غسان بن سعيد المحاربي الهنائي في سنة ١٤٥هـ في عهد المنصور العباسي في بغداد، خرج على المسلمين بعُمَان غسان بن سعيد المحاربي الهنائي على نزوى ونهبها، وعاب فيها بما لا يرضاه الله ولا رسوله، وقاتله بنو نافع وبنو هميم في نزوى، فغلب عليهم وقتل منهم خلق كثير، وكان بنو نافع من أشراف أهل العقر، إذ هم رهط الشيخ أبي المنذر بشير بن المنذر، وكان بنو هميم بطنًا من بني معن بن مالك بن فهم، وكان آل الحارث إبراء أنصار لهم، وبين الفئتين روابط صداقة فتآمروا على قتل غسان، واجتمع رأيهم أن يمضوا إلى العتيك، واتفق الرأي العام بينهم على ذلك، وخرجوا وكمنوا لغسان بين داره ودار جناح صُحار بموضع يقال له الخور، وقد رجع غسان عائدًا رجلاً مريضًا من بني ربخة بن هناءة بن مالك، فمرَّ بهم وهو لا يشعر بمكانهم، ولا شك أن

الطالب غالب فلما مرَّ عليهم تمكنوا منه فقتلوه، فغضب لذلك منازل بن خنبش، وكان منزله في نبأ بموضع يقال له العقير، وكان منازل المذكور عاملاً هناك لمحمد بن زائدة بن جعفر بن سعيد الجلنداني، وراشد بن النضر، فثار هؤلاء غازين أهل إبراء من شرقية عُمَان، حتى أتوا على حين غفلة من أهلها، فلما عَلِمَ أهل إبراء بهذا الغزو، برزوا وأداروا رحى الحرب بين الفريقين، فكانت الدائرة على أهل إبراء، وانكشفت الوقعة عن أربعين قتيلاً من أهل إبراء خاصة؛ لأن الغزاة كانوا كامنين لهم على مرصد يمكنهم من قتل القوم، وفي هذا التاريخ كان للعهد في بغداد للمنصور العباسي، وهو أبو جعفر عبدالله بن محمد بن علي، وفي الأندلس عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان، وفي هذه الأثناء بدأ دور بني الجُلَندى للانحلال؛ ليحل محلهم من يصلح أمر الأمة بعد الضلال، وينير الطريق للمسلمين؛ لإنقاذهم من ورطة الوبال، ولكل شيء غاية ينتهي إليها فقد أراد الله زوال الأمر لبغيهم بعد عدلهم.

قال الإمام: في الأثر والمراد به دواوين الفقه التي دوّنها العلماء فوضعوا فيها حقائق تاريخية تتعلق بالأحكام الشرعية، وكذلك قولهم قال المسلمون فتراهم يطلقون ذلك ويريدون به أهل الوفاء بدين الله منهم لا مطلق من ينتحل مذهب الإباضية من السواد الساذج، ويطلقون ذلك أيضًا ويريدون به الكل ويريدون به أحيانًا أهل الولاية خاصة، ولكل مقام مقال. قال أبو إسحاق: اعلم أن أصحابنا رحمهم الله يذكرون لفظ المسلمين ويريدون به أهل الوفاء بالدين. أي أهل الإسلام الكامل، فيدلك على هذا أنهم يذكرون لفظ المسلمين مقابل الجبابرة، وكلاهما يصدق على أهل المذهب، كما يذكرون المسلمين مقابل المخالفين، ويذكرونه ويراد به أهل الولاية، ويراد بقسميه أهل البراءة، وكل ذلك يستدل عليه بمعونة القرائن، وليس المراد أن قَسِيم المسلمين المشركون كما هو اصطلاح الخوارج والوهابيين. [هذا] تعليقًا على الطبعة الثانية لتحفة الأعيان.

ولا يخفى أن راشد بن النضر، ومحمد بن زائدة الجلندانيان ومن معهما من أهل عُمَان، لا زالوا يرتادون المساعدة والمعونة على أهل عُمَان؛ لتعزيز رئاستهما، والتغلب على الأمة بالقهر، كما كان آباؤهما، وقد قضى الإمام عليهم كما تقدم، وبقي هؤلاء يتعززون بالغزاة لعُمَان، ويرمون السيطرة على الأمة بدعوى أنهم أحفاد الملوك، وأولياء الأمور دون غيرهم، وكانت شوكة المسلمين أعني أهل الحق قد ضعفت بتلاشي الأمور.

قال الإمام: وهم يومئذ أهل ضعف، أي في ذلك الحال، وكان راشد بن النضر قد نزل بالـمْهَرَة يطلب منهم النجدة على أهل عُمَان؛ لأن المهرة أقرب إلى عُمَان من غيرهم، وكان سلطان بغداد إذ ذاك مشغولاً بشؤونه في بلاده، وإذا جاء عُمَان وانتصر على أهلها ربما اجتاح الغث والسمين، وأما الـمْهَرَة فليس لهم ذلك، وإنما هم أجلاف تُقْضى بهم لأغراض ويكثر بهم السواد، ثم أقبل راشد بن النضر بجيشه يشق عُمَان من طريقها الغربي حتى بلغ أهل عُمَان أنه نزل المجازة من الظاهرة.

كما أشار إلى ذلك ابن رزيق وأخذه عنه الإمام السالمي رحمه الله، ولعل أكثر أهل السير من أهل عُمَان يذكرون ذلك، وكانت من الظاهرة وهنا تحرك العُمَانيون؛ لمقاومة هذا الباغي، فتكاتبوا من جميع النواحي وتعاهدوا على حرب هذا البغي الذي أقبل به راشد بن النضر؛ ليقضي به غرضه في قومه أهل عُمَان، وكان عبد الملك بن حميد يومئذ شابًا أي جديد عهد وكان يدعو المسلمين على المبايعة على راشد بن النضر، ومعه محمد بن المعلى والأخنس الفحشي من كندة، وخرجوا في طلب راشد المذكور متجردين لحربيه خائفين من فساده في عُمَان، فالتقوا في المجازة من أرض الظاهرة شرقي وادي المجازة، فدارت رحى الحرب بين الفريقين فانتصر المسلمون على راشد وهزمه الله، وقُتِلَ من قومه كثيرون، وأكثر القَتل وقع في بني ناجية إذ هم الأكثر وهم شرارة الجيش، فقُتِلَ منهم خلق كثير يحصون وإذ

ذاك هرب راشد بن النضر، واستولى المسلمون على داره فنسفوها؛ لئلا تكون له قوة يأوي إليها ويتحصن فيها هو وأحزابه؛ وبسبب نفسها وقع بين أهل العلم والقيل والقال في نسفها، فقد جاء في الأثر أن المشايخ من أهل سلّوت ومن معهم غضبوا لنسفها، فقيل من حديث الفضل بن الحواري عن أبي جعفر سعيد بن محمد، وعن سعيد بن محرز ومحمد بن محبوب، وعن محمد بن هاشم عن هاشم بن غيلان: أن المسلمين لما نسفوا دار راشد قدم عليهم الأشعث بن محمد وهم مع بشير في بهلى، فتكلم في ذلك الأشعث بن محمد، وقال: ليست هذه الحال من سير المسلمين، والمعنى أن هذا لم يكن من عمل المسلمين في حروبهم، فقلت له: قد نسف المسلمون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حصن بني النضير فرد على ذلك أي الأشعث، قالوا بيان ذلك في كتاب الله ﷻ، قال الله عز وعلا: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر: ٢] وذلك أن المؤمنين كانوا ينسفون من قبلهم، وكانت اليهود تنسف من قبلها؛ ذلك لأن المسلمين كانوا يتوقعون الهزيمة، وأرادوا أن يفوّتوا اليهود ما استطاعوا تفويته، واليهود يرون أن المسلمين منصورون عليهم؛ ولهذا قاموا ينسفون ما استطاعوا أن ينسفوه حتى لا يستغنمه المسلمون، فنزلت الآية في ذلك بعينه، وقيل إن اليهود يسدون بما ينسفون الخلل الذي ينسفه المسلمون، والمعنى واحد. وقال غيرنا: إن المسلمين أيضًا قام بعضهم ينسف وبعضهم يعارض كما صرح بذلك أهل التفسير، فرد الأشعث على ذلك معارضًا له، فقال بشير: بل هكذا كان كما يقول المسلمون، قلت: أي قال الشيخ المعارض للأشعث: وبلغنا أن أهل دار رموا المسلمين بسهم فأمر رسول الله ﷺ بنسفها فنسفت، فقال الأشعث لعلهم نسفوا شرفاتها، فقال الشيخ بشير: بل نسفوها من أصلها.

قال الإمام، وكان ابن راشد في نزوى، ولعله راشد بن النضر، وهو الواضح قال أبو جعفر: خرج المسلمون بعُمَان، فلم يأخذوا الزكاة حتى كانت وقعة

المجازة في شهر رمضان، أي الوقعة التي كانت بينهم وراشد بن النضر التي انهزم فيها راشد بن النضر وأعوانه من آل الجُلَندى، ورأوا بذلك استحلال الجباية، إذ لا جباية إلا بحماية، ورأوا أن حمايتهم الآن اتضحت على عُمَان، أما قبل ذلك فلا؛ لأن راشد بن النضر ومحمد بن زائدة ومن معهما يسيطرون على عُمَان، وبانكسارهم في وقعة المجازة رأوا أنهم لا يرجعون إلى ظهر، ولا يؤيدهم أحد لاسيّما أن المسلمين كلهم مجتمعون، وقد هرب راشد بن النضر شاردًا من عُمَان، وإن أهل عُمَان قد نسفوا دار راشد، وبعجزه قد زالت قوته وانكسرت شوكته، وخرج من عُمَان خائفًا يترقب، ورجع المسلمون إلى منح، وخرج منهم من خرج إلى موسى بن أبي جابر في إزكي، وكان مرجع المسلمين، وكان به علة فحملوه إلى معسكرهم بمنح، فلما وصلوا بموسى وكان معه زميله الشيخ الكبير بشير بن المنذر رحمهما الله وجماعة من أخيار المسلمين وأعيانهم في العلم والدين، واجتمعوا للمشورة فيمن هو الذي يليق تقديمه في المسلمين، وتطمئن به النفوس، ويكون كفوًا للأمر الذي هم بصدده، وكيف يأتون هذا الأمر، وكانت الآراء تتضارب في الموضوع، والخلاف والشقاق مرهوب الجانب والدخول في الأمر الجلل يحتاج إلى نظر طويل، وإلقاء الآراء على بساط المجتمع أمر يفكك الحزمة التي عليها أولئك المجتمعون؛ ولكن من أنضجته التجارب ودارت عليه الأيام متعددة يفهم من أين تؤكل الكتف.

هنا قال الشيخ موسى بن أبي جابر رَحِمَهُ اللهُ لمحمد بن المعلى الكندي: قد ولّيناك صُحار وما يليها، فاكفنا أمرها وولّينا فلانًا كذا، وولّينا محمد بن عبدالله بن أبي عفان اليحمدي وادي قريات وبقية الجوف، فرضي كل موضعه، ويسر كلٌّ واحد بولايته المشار إليها، وبذلك فرق الشيخ موسى بن أبي جابر لهؤلاء المتطاولين للأمر، المادّين له أعناقهم.

وقال موسى لمحمد بن عبدالله: اقطع للنّاس الشرى، وكان بشير بن المنذر

معهم وهو ساكت، وقد سمع ما قال موسى وما فعل فقال عند ذلك كنا رجوناك يا أبا علي أن تسير بهذه الدولة، فرددتها إلى هؤلاء الذين يُخافون على الدولة، والمعنى سلّطهم على الأمر وهم غير مخفي جانبهم. فقال الشيخ المجرّب موسى بن أبي جابر: إنما كان نظري يا أبا الحكم للدولة، أي ناظر في صلاحها لا في غيره؛ لأنهم قد اجتمعوا وكل يطلب هذا الأمر لنفسه، والأمر بعده ضعيف ففرقناهم عن وجوهنا حتى يقوى الأمر ويشتد ساعده، ونتمكن من نفوذ ما نريد أن ننفّذه.

قال: فأمر محمد بن عبدالله بن أبي عفان أن يقطع للنّاس الشرى كقطع، والمعنى أقام الجند الذي يعتمد عليه للقائم بالأمر، وكان ذلك هو ما يجري في عرفهم مقاطعة العسكر على أجرة معلومة يقبلها الجندي ويلتزم بها المسؤول على حسب الاتفاق، ألا تسمعه يقول: فقطعه حتى قوى أمره، فلما قوى الأمر أمر موسى بن أبي جابر محمد عبد الله بن أبي عفان، فأرسل إلى القرى الولاة وعزل كل من كان ولاه، وقامت دولتهم وأنه لنظر سديد ورأي رشيد، بلغ به موسى بن أبي جابر رَحِمَهُ اللهُ الفضل وظهر به على الذروة، وتمكن من ترتيب ما أراد والحمد لله الذي يهدي من شاء للحق بإذنه.

ولولا ذلك الذي صنعه موسى لما تم لهم أمر ولا قامت لهم قناة، فإنهم على ظهر شقاق وكل يحاول أن يكون هو وموسى كان يفهم مقاصد القوم ويعلم ما انطووا عليه، ولما تفرقوا وجمع هو الجيش الذي يعزز الحركة، ويقيم الأود، ويرفع العلم رد على الولاة وأخرجهم من ولاياتهم، وإنه يعلم أنهم ليس لهم أن يخالفوا، ولعلهم يعتقدون إن عزلوا من هنا يولون من هناك، فتسكن نفوسهم إلى ذلك، وقد بلغ ما أراد واستقر الأمر واجتمع المسلمون بعد فرقتهم، وتشتت شملهم وكان السلطان العام إذ ذاك في بغداد الخامس من بني العباس، وهو الرشيد فإنه تولى الأمر بعد وفاة أخيه الهادي، وذلك في سنة ١٧٠هـ سبعين ومائة

في ١٤ ربيع الأول من السنة المذكورة، وكانت تلك الأحوال المارة كلها في أيام أبيه المهدي، وأخيه الهادي، وعاش الرشيد إلى سنة ١٩٣هـ ثلاث و تسعين ومائة، وكان الرشيد وأيامه زهرة الدولة العباسية بكل معنى الكلمة، ولكل شيء غاية ينتهي إليها، والدنيا لا تستقر على حال، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وفي ذلك من الحكمة الإلهية ما لا يبلغه عقل عاقل مهما بلغ من سعة التفكير وحسن الدراية والله ولي الكل.

* * *

انتقال الدولة من آل الجُلَندى إلى آل اليحمد بن حمي

دولــة اليــحـمـد الميـامـين ظلت   بـرهـة كـلـهـا رضًــى وأرتـضــاء

اعلم لما انتهت دولة الإمام الجُلَندى بن مسعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتولى أمر عُمَان خازم بن خزيمة، وكان بغاة آل الجُلَندى يتمنون ذلك، إذ رأوا الإمام الجُلَندى يضع السيف على أعناق أقاربه، ولا يبالي في الحق تأخروا عن أمانتهم، وأحجموا عن مقاصدهم، وقد وضع الضعف كاهله على عُمَان بظلم هؤلاء البغاة وأعوانهم، وبقيت عُمَان بين عدو قاهر، وضعيف مقهور، وأعوان يراوغون الأمور مراوغة الثعالب، فمرَّ على هذا ردح من الزمن، وعُمَان ترزخ ثقل الظلم على كاهلها.

ولما رأى شبيب بن عطية العُمَاني الحال التي عليها أهل عُمَان، حركته خصِّيصة الإيمان، على أن يقوم بالواجب حد الطاقة، ويقف ضد الظلم مهما استطاع، وبقي هو والجبابرة في صراع، وإذا رأى غلبتهم عليه ترك الأمر وجلس في بيته، فإذا رأى فرصة قام بواجبه وأعلن زعامته، واستمر على ذلك الحال، وفي هذه الأثناء أيضًا قام غسان المحاربي من بني هناءة ببغيه، حيث رأى عصا المسلمين لا تصلح للقيام عليها، وأن الأمور فوضى وكل يفعل ما يستطيع، وكان المذكور من صناديد الرجال الذين هم البغاة في عُمَان، دخل نزوى وانتهبها في غير ما مبالاة، إلا اعتمادًا على الرئاسة، وشمت بأناس فيها ما كانوا من الأمر في العير

والنفير. بغيًا وعدوانًا عليهم، حتى قتله آل الحارث بن كعب من أهالي إبراء من شرقية عُمَان، ثم غضب له منازل بن حنبش، وقام لثأره.

وهكذا بقيت الأحوال فوضى، وقام راشد بن النضر يدعى الزعامة؛ لأنه من آل الجُلَندى ملوك عُمَان إذ ذاك، وخرج إلى الـمْهَرَة من أطراف عُمَان الغربية، واستنجد بطغام النّاس وغوغائهم الذين لا يدرون قبيلاً من دبير، وأجلاف جهلاء أتباع كل ناعق أغبياء لا يهتدون للحق سبيلاً، ولا يعرفون للرشد دلياً، إلا أن راشد بن النضر من ملوك عُمَان، حتى تغلغل بالظاهرة فجاء بجحفله يجره على عُمَان من الغربية على غير هدى من الله، إلا أنه يروم ملكًا ولا يبالي، ولما رأى المسلمون الحال على هذا الوجه، ورأوا تلاشي الأمور وتلاعب هؤلاء العتاة الأشرار، خرجوا من مخادعهم ورفعوا عقيرتهم إلى إخوانهم أهل الإيمان بالله، والغيرة على حرم الله.

وتكاتبوا من بعيد وقريب وتعاهدوا على القيام بالحق رغم ما يلاقون من نصب، وقد أيقنوا أن الخروج يتحتم عليهم، فتجمعوا وتواثقوا على نصرة الحق، وخرجوا؛ لأداء ما يلزمهم في حق الله، فالتقوا براشد بن النضر وأعوانه بالمجازة من الظاهرة، ودارت الحرب بينهم، ولم تضع أوزارها إلا بعد سحق جيش ابن النضر وأصحابه، حتى انهزم المذكور، ولما تحقق الهزيمة لم ير له قررًا بعُمَان، فتستأصل شأفته، ويُقضي عليه، هَرَب شاردًا على وجهه إلى من يلجئه، وملأ الله روعه رعبًا، ورأى أنوار الحق قد أشرقت، ولوامع العدل قد أبرقت، ولما تحقق المسلمون ذلك رجعوا إلى قلب عُمَان؛ ليجتمعوا إلى إخوانهم أعمدة الإيمان، ويتناظرون هم وإياهم في ذلك الشأن، فإنهم قاتلوا راشدًا بلا إمام ولا سلطان، وإنما كانوا جمهوريين يتبعون علماءهم، فنزلوا منح حين رأوا الخطب قد هان، وأن الصعوبات قد سهلت. والفرصة قد حانت. فرجعوا؛ ليدبّروا الأمر على تعارفٍ عامٍ بينهم ولوائح النصر مشرقة على وجوههم.

وهنا حضرهم المشايخ الهداةُ الأدلاءُ على طريق الآخرة، وهم موسى بن أبي جابر الأزكاني، وبشير بن المنذر النزواني، ودبّروا آراءهم حتى توجهت أنظارهم الحالية إلى تقديم محمد بن عبدالله بن أبي عفان اليحمدي وكان المذكور من أهل العراق، ولعله من أهل البصرة؛ لأن العُمَانيين قطنوا البصرة كما علمت ذلك، وهي من العراق، ورأوه في الحال أسكن للأمر فإن لكل وقت سياسة، ولكل عمل سياسة.

قال الإمام رَحِمَهُ اللهُ: انتقال الدولة من يد الجبابرة إلى المسلمين، وتقديم محمد بن أبي عفان، وأراد بالجبابرة المشار إليهم آل الجُلَندى، قال: وذلك أنه لما كان من أمر راشد بن النضر، ومحمد بن زائدة ما كان، رأى المسلمون الخروج عليهما، فتكاتبوا وهم يومئذ أهل ضعف، فاجتمعوا وتآلفوا على إقامة الحق. قلت: الاجتماع والتآلف أمر فعال في الأمة مهما كانت، وله أهميته الحقيقية التي لا تردها العوارض مهما كانت، قال الإمام: ويقال كان عبد الملك بن حميد يومئذ شابًا، وأنه كان يدعو المسلمين إلى المبايعة على راشد بن النضر، قال: فأول من حكم محمد بن المعلى الأخنس الفشحي من كندة، وخرجوا في طلب راشد، وذكر النص الذي قدمناه عن ابن رزيق. وقال في موضع آخر: محمد بن أبي عفان هو محمد بن عبدالله بن أبي عفان، كان رجلاً من اليحمد إلا أنه نشأ في العراق، وكان من أهل العراق، والمعنى هو غير عُمَاني. قال: فقدموا به إلى عُمَان، هذا يدل أنه كان وقع بينهم وابن أبي عفان فيهما، وكأنهم تخيّلوا فيه كفاءة، ولمحوا فيه نجابة، ورأوا منه صلابة؛ فلذلك جاءوا به إلى عُمَان ليبايعوه بالإمامة، وهذا رأى من كانت له معرفة بالرجل أما من لم تكن فيه معرفة بقي على ما هو عليه.

قال الإمام: واختلفوا في صفة إمامته، وكأنهم بايعوه بالإمامة قال: فقيل كان إمام دفاع حتى تضع الحرب أوزارها، وإذ ذاك ينظرون الأصلح للأمة. قال كان أمير جيش، أي لم يبايع بالإمامة؛ لكنهم ولوه السلطة، فاعتبر نفسه بذلك أنه إمام

القوم، قال: فأساء السيرة، وبدَّل وغير، ويا ويل من بدل وغيّر عند الإباضية، لا يغتفر له خطأه ولا زلله، فإن الجُلَندى بن مسعود لما دمعت عينه على أبناء عمه حين رأى جنائزهم تمر به، غضب عليه المسلمون وقالوا له: أعصبية يا جُلَندى، اعتزل أمرنا أو اعتزل أمر المسلمين.

والإمام عزان بن قيس رَحِمَهُ اللَّهُ، لما حمل الصفر من حصن المصنعة إلى حصن الرستاق تحرجوا عليه؛ حيث أن آل قيس بن عزان كان موطنهم الرستاق، فصارحوه في ذلك حتى أقنعهم بعذره الصحيح فكيف بإمام يغيّر خطة الدين، ويتعوج في سبيل المسلمين، وعلام قَتلَ الصحابة رضوان الله عليهم إمامهم عثمان بن عفان إلا على التبديل والتغير قال الإمام: وكان أي محمد بن أبي عفان، يستقبلهم بالكلام الغليظ، أي يستقل إخوانه المسلمين بالكلام الجافي بنحو كلام جبابرة الملوك، فاستنكروا أخلاقه، فإن المسلمين أهل توادد وتراحم وتعاطف، يتألمون على إخوانهم تألم الوالد الحنون على ولده الصغير، كما وصفهم الله في كتابه؛ ولكن كان ابن أبي عفان على خلاف ذلك، حتى قال وائل ابن أيوب، وهو من فضلاء المسلمين وعلمائهم في الدين: ليس ابن عفان بإمام، بل ذلك جبار، وإذا خرجت هذه الكلمة ونحوها من لسان مثل وائل بن أيوب رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو من سادات المسلمين، فمتى تقوم لذلك الإمام قائمة، وإذا سمعها الأنصار فمتى ذلك الإمام يجدهم أنصارًا، بل سرعان ما يرى نفسه في خلاء من الأرض.

قال الإمام: فعزله المسلمون حين لم يرضوا سيرته ولا مذهبه وكان ذلك في النصف من ذي القعدة سنة ١٧٩هـ تسع وسبعين ومائة وذلك في عهد هارون الرشيد الخليفة العام للمسلمين في بغداد، فإنه تولى في سنة ١٧٧هـ وتوفى في سنة١٩٣هـ. قال الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ: وكانت ولايته سنتين وشهرين إلا شيئًا من الأيام.

قال الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي بيان الشرع من سيرة أبي عبد الله محمد ابن روح قال: أخبرني أبو الحواري رَحِمَهُ اللَّهُ، أنه ذكر محمد ابن عفان فقال: هو عندنا خليع، فقال

أبو الحواري عن الصلت بن خميس رَحِمَهُ اللَّهُ، عن محمد بن محبوب رَحِمَهُ اللَّهُ أنه ذكر محمد بن أبي عفان فقال: هو عندنا خليع. قال أبو الحواري، وأما أبو المؤثر فقال يضيق عن خلعه أي لا يرى خلعه. قال فلو أن رجل من أهل زماننا برئ من محمد بن أبي عفان من أجل ما يجده في الكتب عن أبي أيوب وائل بن أيوب الحضرمي رَحِمَهُ اللَّهُ، أنه قال: إن ابن أبي عفان كان جبارًا، أو من أجل إذ سمع محمد بن محبوب رحمهم الله يبرأ منه، ومن أجل ذلك، من غير أن يصح معه من ابن أبي عفان مكفرة، فإن ذلك الرجل على هذه الصفة عندنا خليع؛ أي لأن ما في الأثر يحتمل أن ابن أبي عفان رجع عمَّا كان عليه، ويحتمل أنه تاب من كل ما يعد عليه، أو احتمل أن ذلك منه على جهة الاجتهاد، وإن أخطأ المنهج الصحيح، فلا يليق التبرؤ منه على هذا السبيل، حتى يعلم منه أنه فاعل لذلك المحجور على جهة الانتهاك أو الظلم المحض ونحو ذلك، فلما كان الحال محتملًا أشياء من هذا النوع، فالإعراض عن البراءة وغيرها من المفروض على المسلم.

❊ ❊ ❊

أعمال محمد بن أبي عفان في عُمَان

اعلم أن محمد بن أبي عفان، لما تولى أمر عُمَان بواسطة المشايخ الذين جاءوا به من العراق وبايعوه إمامًا للمسلمين، ورأى العُمَانيون منه خلاف منهجهم كان من طبعهم الإسراع إلى التبرئ وشق العصا وإثارة الشقاق، ولا احتمال عندهم ولا تقية، ولا تريّث ولا محاباة ولا هوادة في أقل قليل كما علمت من أحوالهم التي ذكرناها، وشدتهم في الدين، وكان محمد بن أبي عفان يرى أن له مطلق النفوذ في الأمة، فكان وائل رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إن ابن أبي عفان سبيله سبيل إمام حضرموت، وهو عبدالله بن سعيد، وقد عزله أهل حضرموت، وقدموا عليه خنبشًا وهذا من شدة الإباضية، إذ كان الرجل إباضيًا وأهل حضرموت كلهم إباضية، كان ابن عفان جعل سعيد بن زياد البكري وزيرًا في اعماله حال إمامته، وكان هذا جاهلًا

عسيفًا في الأمور ظالمًا لا يبالي، عد عليه المسلمون أشياء كانت عندهم من أعمال ابن أبي عفان.

كان سعيد البكري يتولى الأمور هامة عند المسلمين، وكان يفعل فيها بمقتضى نظره دون المسلمين، قال الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان ابن أبي عفان قد أرسل سعيد بن زياد البكري إلى أهل الأحداث من أهل المشرق أي مشرق عُمَان خاصة، قال: فلما وصل إليهم وكان بينه وبينهم ما كان، وظهر عليهم سعيد واستولى على بلادهم، وأراد دمارها، بعث رسولاً إلى موسى بن أبي جابر وقال سعيد للرسول: أن يقول لموسى أن سعيدًا يقطع نخل بني نجو، فلما وصل الرسول إلى موسى قال له إن سعيد يقطع نخل بني نجو، فقال له موسى ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [الحشر: ٥] فلما رجع الرسول إلى سعيد وأخبره بما قال موسى، أقبل سعيد على قطع النخل، وكان القطع قبل ذلك لم يكن، وكأنه استفتى الشيخ موسى ابن أبي جابر في قصده هذا، وفهم منه الجواز وعدم الحرج، فلذلك قام يقطع النخل ويهدم المنازل.

ذكر ذلك أبو الحواري. قلت: إن هذا الحال إن صح فقد رضيه الإمام العلامة موسى بن أبي جابر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذ أقره ولم يمنعه، وكأنه يرى له ذلك، ولعله رأى أن بني نجو هم أنصار راشد بن النضر ومحمد بن زائدة، ولذلك كان القتل فيهم في وقعة المجازة أكثر من غيرهم، حيث هم أنصار البغاة من آل الجُلَندى، فرأى الإمام موسى ابن أبي جابر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قطع نخلهم كسرًا لقوتهم، وهو واضح جلي، وقال أبو الحواري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قد حفظنا ذلك عمّن حفظنا من أهل العلم المأمونين على ذلك، وقال وائل بن أيوب :فأما ما أحرق سعيد بن زياد مما أحرق مع راشد بن النضر، فلو ألقي في النار لكان أهلاً، أي لو عوقب سعيد بن زياد بذلك لكان أهلاً لذلك العقاب وحقيقًا به. قال: وأما من أحرق سعيد ممن لم يحرق فإن كان بعثه إمام كان ذلك في بيت المال، أي إذا أخطأ عامل الإمام، وكان مأمورًا بذلك من

قبل الإمام كان خطأه في بيت المال، حتى لا تنكسر نفسه فيجبن عن القيام بأوامر المسلمين وبيت المال أصله مشروع لمصالح المسلمين.

قال عبد الله بن نافع: فإن الإمام يومئذٍ كان ابن أبي عفان وهو الذي بعثه. قال وائل: إن ابن أبي عفان ليس بإمام بل ذلك جبار، قال: وحفظ الحواري عن محمد بن أبي صفرة عن وائل ابن أيوب، أنه قال: لو كان ابن أبي عفان إمامًا لكان ما أحدث سعيد ابن زياد في بيت المال. وقال محمد محبوب: ما سمعنا من أحد من قواد هذه الدولة أولاها ولا أخراها صنع ولا سار في أهل حربهم بشر مما صنع سعيد بن زياد البكري، من سفك الدماء، وحرق المنازل والأمتعة، وأخذ البرئ بالسقيم، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنكار على محمد بن أبي عفان وأعماله، فإنه جعل سعيد بن زياد وزيره، وسيف دولته وقائد جيشه، وقد أرسله إلى أهل الأحداث من بني نجو، وأعوانهم الذين كانوا أنصار راشد بن النضر ومحمد بن زائدة، وأن بشير بن المنذر رَحِمَهُ اللهُ لما استشاره سعيد في ذلك لم يقل فيه شيئًا، فكان دليل رضائه به فلم اللوم والتأنيب وقد قام بواجب من قبل إمامه القائم بالأمر، وبعد انحلال دولة ابن أبي عفان، وتولى الأمر الإمام الوارث بن كعب، كان سعيد بن زياد هاربًا من عُمَان إلى البحرين، متخوفًا من أهل الأحداث السابقة في عُمَان منه، وما رجع أيام الوارث إذ كان الإمام رَحِمَهُ اللهُ قد جفاه وأقصاه، ولم يقبل منه صرفًا ولا عدلاً، فخرج إلى البحرين من أجل ذلك إلى أن توفى الإمام الوارث.

وبعد وفاته رجع فحمله الإمام غسان على فرس وأحسن إليه في وفادته عليه، ولعله رآه محقًا فيما صنع، وإن كان في تلك الأمور ملامًا فعلى الإمام، أو أنه جاءه تائبًا مما وقع منه متعذرًا بأعذار تُسوّغ له ما فعل، وقال: وائل بن أيوب، وهو أشدهم على سعيد بن زياد المذكور: الوارث ليس بوكيل للمسلمين، أو قال للنّاس كان يسعه مجامعة سعيد بن زياد، أي الاجتماع به ومراجعته معه حتى

يطلب إليه من يطلب من أهل الحقوق فينصفهم غسان منه، ويعطيهم الذي لهم منه، وحيث لا شاكي منه فيسع الإمام السكوت.

قلت: لما رأى النّاس أن الإمام التفت إليه وقربه وأدناه وأعطاه فرسًا كان دليل رضاه عنه وتقريبه إياه يؤثر على الغير، إلا أن الظاهر لا يرى الإمام على سعيد بن زياد شيئًا والله أعلم، وفي هذه الأثناء فُجِعَ المسلمون بوفاة شيخ الإسلام أحد حملة العلم بشير بن المنذر النزواني العقري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، جد بني زياد أهل العقر، وهو من سامة ابن لؤى بن غالب القرشي، فكان لوفاته أثر كبير في نفوس المسلمين كانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة ١٧٨هـ ثمان وسبعين ومائة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر له.

❊ ❊ ❊

العمل في عزل محمد بن أبي عفان عن الأمر

لما أجمع رأى المسلمين على عزل محمد بن أبي عفان عن الأمر، احتالوا عليه بالخروج من نزوى، فلما أخرج تولوا الأمور التي كانت في يده.

قال أبو قحطان رَحِمَهُ ٱللَّهُ. أخرج المسلمون ابن أبي عفان من نزوى حين ظهرت منه أحداث لم تعجبهم، ولم يرضوا سيرته فأخرجوه من نزوى باحتيال، فلما خرج من نزوى اجتمعوا واختاروا لأنفسهم إمامًا، فقدموا الوارث بن كعب، قال: ولو كان لابن عفان إمامة أو قال أصل إمامة ما قدموا عليه الوارث بن كعب حتى يظهروا للنّاس ما يحل به عز له، ويحتجوا عليه. قال الإمام: وفي بيان الشرع قال: أخبرنا أبو محمد الفضل بن الحواري، عن زيد بن مثوبة أنه أخبره بأنه لما أراد المسلمون أن يعزلوا محمد بن أبي عفان حضر موسى بن أبي جابر العسكر وهو شيخ كبير مشدود على حاجبيه بعمامة وهو نائم على سرير في العسكر، وشاعت الإشاعة بقصد القوم– وبلغ سائر المسلمين، وكان الوارث بن كعب ممن بلغه ذلك، وكأنه لا يراه.

قل: وقد خرج الوارث يريد العسكر مناظرًا ومحتجًا لابن أبي عفان، إذ

أرادوا عزله، فقال لموسى: من إمامنا؟ فقال موسى أنا إمامكم، فلما وصل الوارث نزوى أخذ موسى بيده فقدمه إمامًا للنّاس. قال: فما علمنا أن أحدًا من النّاس عاب ذلك على الوارث.

قلت: إن كان للعيب مساغ فعلى موسى لا على الوارث، إلا إن كان يعني خروج الوارث مناظرًا عن ابن أبي عفان، وانه لم يعب عليه ذلك أحد من أهل العلم. قلت: إن الوارث واحد من المسلمين، وإن كان يرى له ذلك الوارث، فغير الوارث لا يراه وهم الحجة في المسلمين على الوارث، وله رأيه ولا يعارض رأى غيره من المسلمين، ورأى أهل الحل والعقد والمبتلين بعناء الأمور هم الحجة فيها، وكان الوارث قبل هذا التاريخ غير مبتلى بأمور أهل عُمَان، وكأن الوارث كان مع القوم المجتمعين لعزل محمد بن أبي عفان، وإن كان لا يعلم ما في أنفس القوم، وهذا يخالف ما يروى في أصل إمامة الإمام الوارث رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الكرامة التي ظهرت له في هذا الأثناء كما سوف تراه أيها القارئ في إمامة الإمام المذكور، ولعل تلك الكرامة وقعت للإمام قبل هذا الوقت، وكان انفعالها في هذا الوقت المشار إليه، وكأن هذا الإمام من أفضل أئمة عُمَان وأقوامهم في الدين، ومن أزهد الرجال الذين عرفهم التاريخ في هذه الآونة، والذي يظهر أن تلك الأحدوثة التاريخية كانت للوارث قبل هذا الوقت الذي جاء فيه مع المشايخ لهذا الصدد.

❊ ❊ ❊

إمامة الإمام الوارث بن كعب الخروصي

بعد محمد بن أبي عفان بويع بالإمامة الوارث بن كعب الخروصي من أهل بلدة هجار من وادي بني خروص، ولا يخفى أن بني خروص في عُمَان حضيرة الإمامة، ومنبت الزهد والورع، وبيت القصيد في الفضل دينًا وإيمانًا وزهدًا وورعًا، ومعدن فضل في عُمَان لا ينكره إلا جاهل، وكيف يلحق عين الشمس نكران.

وكان الوارث أول إمام من هذه القبيلة النبيلة، ثم توالت الإمامة منهم وقد أشرنا إلى خصال هذه القبيلة في (الإسعاف)، وفي العنوان، بما لا يستدعي الإعادة، ومن حيث إن الوارث أول حجر الدولة اليحمدية، كما قلنا في العنوان وغيره: وأنه لخير أول:

وإلى اليحمد الكرام تناهت ... وبها منهم مشت أمراء
ومنهم الوراث الإمام بن كعب ... ليثها القرم بدرها الوضاء
وتوالت أئمة من خروص ... سادة قادة الهدى علماء
قام سلطانهم على العدل عهدًا ... وعلى العدل يستطاب الثناء

قال رسول الله ﷺ: **النّاس معادن**. الحديث، وبنو خروص معدن دين وإيمان وعلم وعمل، وهدى وتقوى طيلة العهد الإسلامي في عُمَان، فخرجت منهم أئمة أنجبها الدين والايمان إلى هذا العهد الذي نحن فيه وبنو خروص في مقدمة الأفاضل الأخيار علمًا وعملاً ودينًا وإيمانًا.

❋ ❋ ❋

مؤهلات الهمام الوارث بن كعب للإمامة

اعلم أن الوارث بن كعب أشتهر بالفضل والورع والزهد. وتحدث عنه النّاس بذلك في النوادي، وشاعت كراماته حتى تحدث الكون معه بإمامته وخوطب بها من حيث لا يعلم، بل يسمع صوتًا ولا يرى شخصًا، فكان في أيام بني الجُلَندى سرًا مخزونًا، وقد خبأه الله لوقته.

قال الإمام في سبب اختيار المسلمين للوارث رَحِمَهُ اللهُ: تحتمل صحته وإن صح فالظاهر أن ذلك كان وقت الجبابرة من بني الجُلَندى قبل ظهور المسلمين عليهم، فتكون تلك الحالة منقبة للوارث محفوظة له منذ مدة من الزمان، فظهرت ثمرتها في أوانها برغبة المسلمين في تقديمه. قال: وذلك ما قيل أن الوارث كان يسكن هجار من وادي بني خروص وكان يرى الرؤيا في نومه تدل على ظهور الحق على يده، وأنه كان ذات يوم يحرث في زرع فسمع صوتًا يقول له: اترك حرثك وسر إلى نزوى وأقم بها الحق. ثم ناداه ثانية وثالثة بذلك، فألهم الوارث أن يجيب القائل بقوله: ومن أنصاري وأنا رجل ضعيف؟ فقيل له: أنصارك جنود الله، فقال في نفسه إن يكن هذا حقًا فليكن مصاب مجزي، هذا ينبت ويحضر من الشجرة التي أصلها منها، فغرسه في الأرض فنبت شجرة ليمون، ويسميه أهل عُمَان لومي، فنبت شجرة لومي، ويقال إن هذه الشجرة موجودة إلى الآن، وهي مركز إمامته المحفوظة قلت: نعم هذا أمر متداول شائع شيوع شهرة عند الخاص والعام من أهل عُمَان، وقد وقفت على هذا الشجر بنفسي وهو لا يزال جديدًا كأن لم يمر عليه أكثر من نصف قرن، وإذا بالواقع قد مر عليه أكثر من ألف سنة تقريبًا، ولا يزال إلى هذا العهد الذي أحرر فيه أنا هذه الصحائف. قال: ثم سار إلى نزوى وهي في أيدي الجبابرة من آل الجُلَندى، وقد ملؤها جورًا وظلمًا، فلما وصل الوارث نزوى وجد خبازًا يخبز وجنديًا من جند السلطان يأكل خبزه، والخباز يستغيث بالله والمسلمين منه، فلما رآه أي الوارث على ذلك الحال زجره ثلاثًا فلم ينته،

فقتله فمضى مسرعًا إلى مسجد هناك على شاطئ الوادي تقريبًا، والآن يسمى مسجد النصر. قال: فأسرعت إليه أي جنود السلطان لتقتله، فلما وصلوا قريبًا منه رأوا المسجد قد غص من الرجال المقاتلة فلم يصلوه. قالوا فلذلك اختاره المسلون عليهم إمامًا، قلت: ولعل القضية قد دبرت كذلك، وقد وقع عليها التآمر بأنه إذا قدر هذا الرجل على التجرؤ على هذا الأمر فنحن معه نناصره وإلا فنعتذر بأعذار في المقام، وأنا أظن هذا الوجه أرجح؛ لأن المسلمين بعد وقعة المجازة رأوه لوائح النصر تؤيدهم، واجتماعهم كان فعالاً على الأعداء طبعًا، وسموا المسجد مسجد النصر بعد ذلك؛ لأجل هذا الحادث وذلك ظاهر، فإن بناء الجبابرة في هذه الآونة قد هم أن ينهار، ويمكن أن يكون هذا وغيره في القضية وعلى كل حال هو من كرامات الوارث الذي سيجعله الله الوارث الحقيقي للأمر عن الجبابرة المفسدين.

قال الإمام رحمه الله: وقيل أنه لما خرج الوارث لإظهار العدل تخلف عنه أخوه محمد بن كعب، ولا ريب فإن الجاهل على خلاف العاقل، وبينهما تباين لا يزال حتى بين الأنبياء والعلماء والصالحين، وهكذا فقالوا خزر عنه، ولعله كان على رأيه مواطئًا له، فلما حق الأمر تلاوذ عنه فسموه خزيرًا، وشاع ذلك عليه حتى عاد لم يعرف إلا به، وشاع على ذريته إلى الآن.

قال الإمام: فبنوه يقال لهم بنو خزير، ومر أي الوارث في حال توجهه إلى نزوى على بئر لبني صبح أهل القرية المعروفة بقرية بني صبح، يقال لتلك البئر زكت بني صبح، وكان عليه رجل من بني صبح، ومعه أربعون رجلاً من قومه. فصحبوا الإمام الوارث مناصرين له وموازين، وهذا يؤيد ما قلنا أن الرجل كان معه ناس وكان الأمر مبنيًا على تعارف صحيح سار عليه الوارث متجردًا لله مناصرًا لدينه، قال: فأوصى لهم الوارث بإيقاف مال ينفق منه على من حضر الإنفاق في موضع مخصوص من الهجار إلا لمانع كمطر ونحوه، فما زاد عن ذلك فإنه ينفق على أهل الهجار وستال خاصة قال: وأوصى لأهل

زكت منه بأربعين سهمًا، أي عدد رؤوس الرجال الذين خرجوا معه ينفق فيهم وفي ذراريهم، ولو بقي منهم رجل واحد فهم يعطون أربعين سهمًا، ومنع منه بني أخيه لخزره عنه، قال: موقفه يقسم إلى اليوم على ما أوصى به. قال: ولا يستطيع أحد من بني خزير أن يأخذ منه أي الوقف لتعجيل العقوبة، وهذه كرامة أخرى في هذا الواقف.

قال الإمام: ولهذا الوقف آثار شاهرة وكرامات ظاهرة ذكرها لنا من نثق به منها إذا أنفق في الموضع المخصوص رأوا فيه زيادة على القدر الذي عهدوه من كيل أو وزن، ومنها أنه إذا أكل من الوقف المذكور غير مستحق عوجل بالعقوبة ولو دابة أكلت منه مع علم صاحبها بذلك عوقبت وإن لم يعلم صاحبهالم يصبها شيء؛ أي؛ لأنها بهيمة لم تكلفت فهذه أحوال هذا الوقف على ما ذكره المؤرخون، وهذه الكرامات لا تزال خالدة باقية إلى هذا العهد، وهي من العجائب في اعتبار أهل العقول قال: وعند الثقة من هذه الأحوال أشياء مما لم يتجاسر الناقل أن نأخذه عنه، والمعنى أنها أشياء ربما لا تدخل في أذواق العقلاء؛ لأنها خوارق عادات.

ولا شك أن كرامات الأولياء معجزات لأنبيائهم، تدل على صدق الإتباع لهم والإخلاص لله ﷻ، ولا ريب فإنها ثمر الإخلاص والتقوى، وبرهان صدق الإيمان، وكم مثل هذا ذكره أهل العلم لأشياخ المسلمين وعلمائهم إلا أن المعجزة تأتي على سبيل التحدي لإعجاز الخصم؛ ولذلك سميت معجزات، حيث أعجزت المعارض، أما الكرامة فلكونها إكرامًا لصاحبها وعلو شأن له في الدين، فإن الله لا يضع الكرامة لغير كريم في الدين كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وزهد الوارث وورعه وتقواه أنزلته تلك المنزلة العالية في الدنيا، كما أنها عنوان منزلته في الآخرة إن شاء الله .قلت: وللوارث كرامات شهيرة حتى منها أن التبن الذي أُصلح به جدران المسجد الإمام فيه حب بُر باقٍ في جدرانه إلى هذا العهد، وما ذلك إلا كرامات ظاهرة

ظهور الشمس رابعة النهار، ومنها قال ابن رزيق العُمَاني في تاريخه: مر على ناس مصلوبين في الرستاق في الشمس ظلمًا فاطلقهم، ومنها لا تزال غمامة تقف أعلى بيت الإمام بالهجار تنفنف عليه قطرات من ماء دون باقي النّاس، وعدم مس الوادي لقبره إذا جاء جارفًا يدور به ولا يمسه، ويقال: لما أراد أن يبني مسجده جاءت غمامة فوقفت أعلى المكان، فبنى المسجد على دورة ظلها؛ ولذلك سمي بمسجد الغمامة وهو باقٍ إلى الآن فهل يعقل أن بناء طين يبقى هذه المدة إلا كرامة لصاحبه والحمد لله.

فهذه الأحوال هي التي أهلت الوارث لأن يكون أمير المؤمنين بعُمَان، وإمام المسلمين بغير نكران، والتفتت الأنظار إليه وإلى عشيرته التي لم تزل تخرج للنّاس فصوص خواتم ينفحن عطرًا أو قل بحور مكارم يقذفن درًا، لا بل شموس معارف يشرقن نورًا، فلم تزل الأئمة تخرج من هذه القبيلة في عُمَان؛ لصدق الإيمان وصحة التقوى، ولم تزل الإمامة ضاربة أطنابها فيهم طيلة تلك العهود المارة، وإن ظهرت في بعض الأحيان، فسرعان ما تعود إليهم وقل أن يكون بطن منهم إلا وفيه إمام أو أئمة؛ لأن الدين عند الإباضية مقدم على غيره، وسبق لنا في الهمزية، وإلى اليحمد الكرام تناهت، الأبيات.

* * *

تحقيق البيعة للإمام الوارث بن كعب الخروصي

بعد عزل محمد بن أبي عفان تناظر المسلمون فيمن يكون هو الإمام للمسلمين بعُمَان، ومخضوا ما لديهم من أنظار، وإذا بالوارث بن كعب في المقدمة، إذ شاعت كراماته لديهم، وفاضت إليهم، فكان بطل الحق وأمير العدالة الذي لا تأخذه لومة لائم، إذ بادر الجبار بقتل جنديه في نزوى، وبارز البغي الصريح بالحسام الأحمر الدامي، فاجتمع المسلمون عليه.

قال الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو أول إمامٍ من بني خروص وهم من اليحمد وذلك بعد

أن عزل محمد بن أبي عفان، وكان ذلك في ذي القعدة سنة ١٩٧هـ تسع وسبعين ومائة. قال: وفي بيان الشرع قال: أخبرنا أبو محمد الفضل بن الحواري عن زياد بن مثوبة أنه أخبره بأنه لما أراد المسلمون عزل محمد بن أبي عفان حضر موسى بن أبي جابر العسكر، وهو شيخ مشدود على حاجبيه بعمامة، وذكر ما قدمنا من الحديث كما ذكره أهل العلم. قال أبو الحسن: بايعوا الوارث بن كعب على ما بويع عليه أئمة العدل، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والشرى في سبيل الله وإظهار الحق وإخماد الباطل والجهاد في سبيل الله وقتال الفئة الباغية، وكل فرقة امتنعت عن الحق حتى تفئ إلى أمر الله لا يستحلون منهم غنيمة مال، ولا سبي عيال، ولا انتحال هجرة بعد النبي ﷺ ولا يُسموا بالشرك أهل القبلة ما بينوا الشهادتين، أي ما داموا يقولون بهما ويعترفون بمنطوقهما ومفهومها.

قال: فقام الوارث بالحق ما شاء الله والمسلمون عنه راضون، وله موازرون، وعليه مجتمعون، ولمن امتنع عن طاعته مفارقون، وآمنت عُمَان في أيامه، وزال عنها ظلم الطغاة وجور البغاة، وصارت به خير دار؛ لأن العدل يعمر الديار إجماعًا، كما عُلِمَ ذلك قديمًا وحديثًا، وكان الوارث من الرجال الأوفياء لله وأهل الخوف من الله وقد تفانى المسلمون في طاعته.

* * *

هارون الرشيد يروم استرداد عُمَان إلى خلافته

لما تسنت للرشيد الخلافة العامة، وقر كرسي سلطته في بغداد، التفت إلى الممالك؛ ليردها إلى أمرة المالك، وكانت عُمَان كما عَلِمتَ عنها أولاً وملوك بني أمية والعباسيين أيضًا وانفصالها بعد ذلك حاول الرشيد ردها إلى خلافته برغم رغبتها فجهز لها ابن عمه عيسى بن جعفر بن المنصور، وعقد له لواءً على ستة آلاف مقاتل فيهم ألف فارس وخمسة آلاف راجل، وجعل له ولايتها من غير أن يرسل للعُمَانيين، ويعلم ما عندهم، بل اعتمادًا على القوة وتحملاً للغطرسة، فجاء

يسحب جيشه المذكور، وبلغ العُمَانيين نبا خروجه عليهم ليحموهم من الوجود الإباضي إلى غيره؛ ولكن لم يرض العُمَانيون ذلك، فكتب داود بن يزيد المهلبي إلى والي صُحار، ووالي صُحار كتب إلى الإمام الوارث، فكتب الإمام إلى واليه مقارش بن محمد اليحمدي، وبعث إليه في ثلاثة آلاف مقاتل فتلقاه الوالي المذكور في (حتا) بشمال صُحار، فدارت رحى الحرب بينهم، فأمكن الله من جيش عيسى بن جعفر بعد تمزق قوته، وأسر الأكثر، وذهب الجيش شغر بغر هاربًا على وجهه إلى سفنه؛ ليتحصن بها، فقام له الليث الهصور أبو حميد بن فلج الحداني السلوتي ومعه عمرو بن عمر في البحر في ثلاث مراكب، فدخل عليهم أبو حميد بمركبه حتى تغلغل فيهم، فسقط على عيسى بن جعفر فاسره وخرج به إلى صُحار، فحبس في صُحار، وتجهز الإمام من نزوى للقاء عيسى بن جعفر؛ لأنه لا يدري ماذا يكون منه وهل ينتصر أو يغلب، فإن جيوش بغداد ما زالت تدق عُمَان دقًا عنيفًا، والحرب سجال، فلما وصل الإمام سيفم خارجًا على طريق الظاهرة؛ لأن الغزاة دائمًا يكونون من هذا الطريق، وها هنا وافاه الخبر بهزيمة عيسى بن جعفر إلى نزوى.

قال أبو الحواري: فلما بلغ نزوى بلغه أن عيسى بن جعفر في السجن، قال أبو الحواري: بلغنا أن الإمام الوارث قام في النّاس خطيبًا، فقال: يا أيها النّاس إني قاتل عيسى بن جعفر فمن كان معه قول فليقل، قال: فبلغنا أن علي بن عزرة وكان من فقهاء المسلمين، فقال إن قتلته فواسع لك، وإن تركته فواسع لك؛ أي لأنه باغ والباغي حلال الدم ويجوز العفو عنه إذا رأى الإمام الصلاح في العفو عنه، قال: فأمسك الإمام عن قتله وتركه في السجن، قال: فلما كان بعد ذلك بلغنا أن قومًا من المسلمين، وفيهم رجل يقال له يحيى بن عبد العزيز – رَحِمَهُ اللهُ – وكان من أفاضل المسلمين ولعله لم يكن يقدم عليه أحد في زمانه في الفضل بعُمَان، انطلقوا من حيث لا يعلم الإمام حتى أتوا صُحار، فتسوروا السجن فقتلوا عيسى بن

جعفر في السجن من حيث لا يعلم الإمام ولا الوالي، وانصرفوا من ليلتهم.

قال: وبلغنا عن بشير بن المنذر رَحِمَهُ اللهُ أنه كان يقول: قاتل عيسى بن جعفر لا تمسه النار، أو قال: لم يشم النار، أي بسبب قتله وليس حكمًا بالغيب، وإنما هو حكم بالظاهر يعني أنه إذا لم يفعل غير هذا لم يشم النار بسببه.

قلت: هو مبالغة في حلية قتله أي قتله لا شيء فيه من المحذور مطلقًا؛ لأنه باغٍ ظالمٍ معتدٍ على المسلمين في وطنهم، أراد أن يحتل بيضتهم ويقضي على عزتهم وكرامتهم ببغيه، قال أبو الحواري هذا الذي حفظنا من خبر عيسى بن جعفر عن أهل العلم المأمونين على ذلك، قال: ثم ذكر صورة الحكم في قتله، والذي حفظناه من قول المسلمين:

إن إمام المسلمين إذا قتل أو قتل والي المسلمين أن دماءهم للمسلمين دون أوليائهم، وكذلك إذا قتل قائد المسلمين في مسيره أو قتلت سرية المسلمين، قال: وللمسلمين أن يقتلوا من قتلهم كيفما قدروا عليه في غيلة أو غير غيلة، قال: وفي ذلك آثار المسلمين قائمة معروفة.

قلت: وإلى قضية عيسى بن جعفر يشير صاحب (معالم الجزيرة)، حيث يقول: وفي زمان هذا – يعني الوارث– أرسل هارون الرشيد تجريدة على عُمَان فلم تصنع شيئًا، وكذلك في تعليق أمير البيان. يقول: إلا أنهما لم يذكرا أسر العُمَانيين لعيسى بن جعفر، ولم يؤنبا الرشيد في أعماله. وإن قيل: إن الرشيد قد هلك منذ أعوام.

قلنا: إن تأنيب العرب في مهاجمة إخوانهم العرب يرد الضمائر الآتية عن عمل السوء في جانب إخوانهم، إن كانت ضمائرهم صحيحة.

وكان الإمام محمد بن محبوب رَحِمَهُ اللهُ في مكة خرج حاجًا، فجاء عيسى بن جعفر إلى عُمَان، قال ابن محبوب: فبلغني خبر هزيمته في مكة أي لكون القضية من مهمات الإسلام على العموم، ومن مهمات العرب على الخصوص، ومن مهام أهل عُمَان على الأخص؛ ولأن وراءها هارون، وقد عُلِمَ شأنه وقوة سلطانه

وكونه سلطانًا عاتيًا، وقد هَلَكَ جيشه وابن عمه.

قال ابن محبوب رحمه الله: فقال والدي يعني محبوبًا لما بلغه خبر هزيمته وأنهم أخذوه أسيرًا فقال محبوب للرجل الذي خبره عن أسر عيسى بن جعفر: سرني إذ أخذوه أسيرًا، قال قلت: وَلِمَ يسرك ذلك يا أبا سفيان؟ قال: ليمنوا عليه. قال الرجل: فقلت: لمحبوب يا أبا سفيان لو كان معه كذا وكذا من رأس لقطعوها أهل عُمَان أو نحو هذا من القول، قال: فقال هكذا؟ قال: نعم.

قلت: وفي نفسي أن الإمام الوارث ربما لاحظ هذا الحال الذي لاحظه ابن محبوب رحمه الله، فإن إطلاق عيسى بن جعفر منه كبيرة على هارون وآله، وما قتل الأحرار كالعفو عنهم؛ ولكن قدر الله على عيسى بن جعفر قاض بالقتل له ولا مناص منه، وأنَّ رأي الإمام الرحيلي رحمه الله سديد رشيد.

قال: وفي المصنف قال: وبلغنا أن المسلمين باعوا شيئًا من الخيل التي كانت مع عيسى بن جعفر، كما ثبت أنها كانت ألف فرس، قال وتصدقوا بثمنها على الفقراء والدار قاصية بعيدة.

قلت: ذلك لأنهم يرونها بيت مال، فإن ما في يد السلطان هو بيت مال المسلمين وأما أموال أهل القبلة فلا تحل مطلقًا عند الإباضية مهما كانت أفعال البغاة عملاً بسنة الله وسنة رسوله عليه السلام.

قال ولما بلغ هارون الرشيد خبر هزيمة جيشه الغازي عُمَان، وبلغه أسر ابن عمه عيسى، وأنه الآن في يد عدوه هزه ذلك على حرب عُمَان، فهم بإنفاذ جيش كثيف لعُمَان؛ ليمحو الآثار، وينشر في أهل عُمَان الدمار، حتى بلغ خبره عُمَان، ولا شك أن أهل عُمَان يتوقعون منه ذلك، فارتاع أهل عُمَان لذلك واهتموا من قبله أي اهتمام ثم في هذا الأثناء قضى الله على هارون بالموت، فمات في طوس ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٣هـ ثلاث وتسعين ومائة، وأراح الله منه الأمة وتلك الدنيا وهذا فعلها بأهلها والله المستعان.

لم تر عُمَان أيام الإمام الوارث سوءًا ولم يغزها غاز بعد عيسى بن جعفر، واطمأنت البلاد واستراحت العباد، وظهرت معالم الرشاد، وكبح الله جماح أهل العناد، وانقطعت شأفة الفساد، وصارت عُمَان خير دار، وذلك كله كرامة لإمامها البطل المغوار، الممدود من السماء بالكرامات الكبار، التي هي من أفضل المنن من الله لعباده الأبرار.

* * *

وفاة الإمام الوارث بن كعب رَحِمَهُ اللَّهُ

بعد ما قضى بن كعب رَحِمَهُ اللَّهُ اثنتي عشرة سنة وأشهرًا في إمامته، قائمًا لواجبات الله عَجَّلَ، عاملاً بمقتضى الكتاب والسنة، حافظًا لحقوق الأمة، حاميًا للبيضة، جاءه ما لابد لينتقل من دار الفناء إلى دار البقاء التي هي المرجع للكل، وذلك أن حبس المسلمين كان عند سويقم مايل من نزوى في وادي كلبوه تحت الشجر، ولعل هناك كانت ظهرة مرتفعة عن مجرى السيل إلا إذا جاء جارفًا يفيض إليها فيغمرها سيله، وأنه وقع مطر غزير وسالت الأودية وبالأخص وادي كلبوه، وكأن الإمام لما رأى الوادي يتزايد ويرتفع أمر بإطلاق المساجين خوفًا عليهم من اجتياح الوادي لهم، فلم يجسر أحد أن يصل إليهم، ولما رأى الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك عزَّ عليه أن يصبح مساجينه ضحية الوادي وهو حي يغدو ويروح، فقال قولته المشهورة: أمانتي وأنا مسؤول عنهم غدًا، وارتمى إليهم؛ لينجيهم مهما استطاع، فطغى عليه السيل فحمله مع مساجينه وهم على ما يقال كانوا عددًا، ثم تبع الإمام ناس من أصحابه ممن عاهد الله مع إمامه في حله وترحاله، فكانوا على ما قيل سبعين رجلاً حملهم السيل فأغرقهم.

قال الإمام: لم يزل الوارث إمامًا حسن السيرة قائمًا بالعدل حتى اختار الله له ما لديه، فكان سبب موته أنه غرق في سيل وادي كلبوه من نزوى، وغرق ومعه سبعون رجلاً من أصحابه وذكر الحادثة بعينها، وكذا قال ابن رزيق في تاريخه،

ولا يقال إن هذا إلقاء للنفس في التهلكة التي نهى الله عنها، فإنما هذا قيام بالواجب واجتهاد في الله، والمسلمون إخوان وأعوان، ومن الجائز أن يصل الإمام وأصحابه إلى غرضهم، ومن الممكن أن يخف الماء في ذلك الحين حتى يبلغ المسلمون أربهم، ولما كان القضاء والقدر حاكمين على أولئك بالهلاك، فلا لوم عليهم.

قلت: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] الآية حملهم السيل جميعًا الإمام وأصحابه، والمسجونون معًا، وبعد تنازل الجارف خرجوا يتفقدونهم في المجرى، وإذا بالإمام المرضي على شفير الوادي عند الطريق السافل من سعال بالجانب الشرقي منه، فصاح صائحهم وتلاقوا عليه وأراده كل فريق أن يتولوه ويدفنوه معهم، وهموا أن يقتتلوا على ذلك خصوصًا أهل العقر وأهل سعال، وبلغ الأمر الاعتماد على القوة، وأخيرًا اتفقوا أن يدفنوه في المكان الذي وجدوه فيه صلحًا بين الطرفين، فتراضوا بذلك ودفن مكانه، وإذا طغى السيل ووصل إلى ذلك المكان افترق عن القبر ولم يمسه، وهذه إحدى كراماته، وقبره معروف عند الكل، وكان الأئمة يزورونه باستمرار؛ لكونه كان فقيد الأمة الإباضية بعُمَان، المنقذ لها من ظلم الجبابرة من آل الجُلَندى وأعوانهم، كان محبوبًا في الأمة إلى حد بعيد، كان مخلصًا لقومه رؤوفًا بهم محسنًا إليهم شفيقًا عليهم، يبذل النفس والنفيس في صلاحهم، لا يبالي بما يلاقي في طاعة الله ﷻ، كثير الكرامات التي لا تزال باقية الأثر إلى الآن، انظر إلى الوقف الذي منع منه آل أخيه محمد بن كعب الذي لقب بعده خزيرًا لما كان منه إذا أكل منه الخزيري عوقب حالاً أو أصيب، وإذا كانت له زوجة خروصية تأكل من وقف الوارث ولا يقدر زوجها أن يأكل منه، وإذا كانت خزيرية وزوجها خروصي فهو يأكل من الوقف وهي لا تقدر، وهذا أمر وشاهد معهود طيلة هذه الأزمنة المارة، وهي فوق اثني عشر قرنًا، وانظر إلى أئمة بني خروص وعلمائهم وأدبائهم، ولا يوجد خزيري عالمًا أو حتى شاعرًا على

كثرة علماء بني خروص وأهل الفضل فيهم فسبحان من له في خلقه أسرار وفي عباده عظيم الاعتبار.

كانت وفاة الإمام الوارث رَحِمَهُ اللَّهُ في اليوم الثالث من جمادى الأولى سنة ١٩٢هـ اثنتين وتسعين ومائة، ومات الرشيد بعده بسنة واحدة فقط إذ مات سنة ١٩٣هـ، وأراح الله الأمة من شره وشر ذويه، وانقطع أمرهم عن عُمَان إلا ما سيأتي من حروب ابن بور عامل المعتضد، وابتلت بهم عُمَان أشد ابتلاء حتى فرج أزمتهم بأهل الحق، وأزال بغيهم ونعرتهم كما سيأتي ذلك في محله إن شاء الله.

* * *

إمامة الإمام غسان بن عبدالله اليحمدي من الفجح على الصحيح عند الكل

لما مات الوارث بن كعب رَحِمَهُ اللَّهُ ورضي عنه بايعوا بعده غسان بن عبدالله يوم الاثنين لست خلون من جمادى الأولى سنة ١٩٢هـ اثنين وتسعين ومائة في عهد هارون الرشيد، قال أبو زياد: لما غرق الوارث بن كعب رَحِمَهُ اللَّهُ، قال سليمان: لمسعدة بن تميم عند فلج ضوت في البطحاء، أي من نزوى: نكتب إلى أهل السر يأتون، قال ابن تميم: إنما يريد عثمان أن نؤخر هذا الأمر حتى يجتمع إلينا النّاس، أو قال: غوغاء النّاس. فيختلفون علينا؛ ولكنا نقطع الأمر.

قال أبو الحسن بايعه المسلمون على ما بويع عليه الإمام الوارث رحمهما الله، فقام بالحق وعمل به، وعز الحق في أيامه، وظهرت دعوة المسلمين بعُمَان، وكان في أيامه جملة من العلماء الذين هم مصابيح ظُلمات الجهل، والهداة إلى الله علماء أساطين، وفقهاء ميامين، وأخيار مخلصين، سوف يمر عليك ذكرهم، وبعد ما قرت الإمامة على كاهل غسان بن عبدالله، ورضي المسلمون إمامته، ولم ينكر ذلك أحد من أهل الحق. وقد قام غسان الإمام بحقوق الإسلام ومراشد الأنام للصالح العام.

الإمام غسان يخرج إلى صُحار لتوطيد الأمور هناك

لا يخفى أن الطرف الصحاري في الباطنة لا يزال منظورًا إليه بأعين الاحترام من ناحية، ومن ناحية أخرى بأعين المطامع لاسيّما في ذلك الأوان، فإن الجانب الشمالي كان كرسي عُمَان، ومصب خيراتها، ومحط ثمراتها، ومدخل غزاتها، كما عَلِمتَ ذلك مـمَّا حدث عنه التاريخ جاهلية وإسلامًا، وأن بوارج الهند وفارس بدا منها على بحر عُمَان فساد، فكانوا يخرجون غزاة للمارين في البحر، وللذين يظفرون بهم في ساحل عُمَان، وكان هارون الرشيد قد هلك بعد ما تولى غسان أمر عُمَان، فرأى من الضروري تأمين البحر؛ لأن طريق المسلمين في البحر كطريقهم في البر، يجب أن يكون آمنًا مطمئنًا من معرة المفسدين في الأرض، فخرج غسان من نزوى قاصدًا صُحار، وكان الخروج إذ ذاك على الرواحل وعلى الأقدام؛ ولذلك يستدعي أيامًا في الطريق، وأن السفر من نزوى إلى صُحار في ذلك العهد كالسفر الآن إلى الحج، إذ يبقى في الطريق أيامًا، فإذا وصل صُحار كأنه وقع في بئر بالنسبة إلى داخلية عُمَان، فمتى تصل الأخبار عنه إلى عُمَان الداخلية إلا بعد مدة لاسيما إذا كان المسير على الأقدام، أو الرواحل العادية، فإذا كان الأمر مُهِمًا فعلى الإبل المعدودة لهذا الشأن أو الخيل المهيَّأة لهذا، المسومة عند أهل عُمَان، قدم الإمام غسان صُحار لخمس بقين من جمادي الآخرة سنة ٢٠١هـ إحدى ومائتين.

قال أهل التاريخ: وكان البوارج وهم كفار الهند يقعدون بأطراف عُمَان يسلبون المارة، وينهبون القارة، ويهربون إلى ناحية فارس والعراق فكانوا فيما بلغنا يهاجمون النواحي الشمالية من عُمَان، كدبا وجلفار وما حولها من تلك الأطراف، لعلهم ببعدها عن مركز الشراة العُمَانيين، فرأى غسان رَحِمَهُ اللهُ أن ينظم لهم جندًا يصادفهم في البحر قطعًا لفسادهم، فاتخذ الزوارق، وهو أول من اتخذها لتأمين البحر بعُمَان، وهي ضرب من السفن، فاتخذ منهما أسطولاً

لحماية شطوط عُمَان من القرصان الهنود وهو أول من اتخذها من أئمة عُمَان، وأما الغرف فهو نوع من السفن يقرب من الشذاءات كما يسميها أهل البحر أيضًا، أي الشذاءات هي السفن الصغير المهيأة لغزو القرصان في البحر، فغزا الجيش العُمَاني قراصنة البحر أينما حلوا وأينما ظعنوا، كلما جاءوا إلى جانب وجدوا شراة البحر على استعداد تام، فألقى الله الرعب في قلوبهم، فهربوا وانقطع فسادهم وزال بغيهم وعنادهم.

قال الإمام: وأمن الله النّاس من البوارج بهذه الشذاءات والغرف، أي السفن الصغيرة؛ لأنها أخف سيرًا وأسرع جريًا في البحر، وأيسر مؤونة إذ ذلك العهد، ثم لما تم ما أراد رجع الإمام إلى نزوى يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من رجب سنة ٢٠٦هـ ست ومائتين، فكانت مدة سفرته إلى صُحار ستة عشر يومًا فقط[1]، كان الصلاح فيها عظيمًا والانفعال سريعًا والحمد لله. وبعد رجوعه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قتل أبو راشد بن محمد بالأفلاج يوم الخميس لست من ربيع الأول من سنة ٢٠٧ سبع ومائتين، وقتل صقر بن محمد بن زائدة بن جعفر الجلنداني، وكان لقتلهما أسباب غيرةً على الحق، ذلك أن صقرًا كان مستورًا الأحوال عند المسلمين، وهو من ذرية آل الجُلَندى المتقدم ذكرهم، ذلك أن صقرًا كان قد بايع المسلمين على ابن عمه راشد بن النضر بن سعيد الجلنداني، وأعان صقر المسلمين بالمال والسلاح، إذ كان من أعيان أهل عُمَان، وكان زعيمًا من زعماء آل الجُلَندى، فلما أزال الله ملك راشد بن النضر وانتهى بوقعة المجازة من الظاهرة وهرب المذكور راغمًا، وتولى المسلمون الأمر كما قدمنا.

قال الإمام: أذل الله الفاسق راشد بن النضر وغيّر نعمته، واظهر الله دعوة المسلمين وكلمتهم، خرج على المسلمين رجل من أهل الشرق من بني هناءة، وخرج معه بنو هناءة بغاة على الحق، وكان هذا الخارج هو راشد بن شادان بن

(١) يبدو لي أن الإمام غسان مكث في صُحار خمس سنين وستة عشر يومًا.

غسان بن سعيد بن شجاع المحاربي الهنائي، فألقى بعض النّاس إلى المسلمين أن أخا صقر بن زائدة عند البغاة، فاستنكروا ذلك واسترابوه ورأوه كبيرًا من صقر، حيث إنه معهم بالحال والمال والسلاح، وأن أخاه في جيش الباغي على المسلمين. ولما ذكر لصقر ذلك قال: من يقول ذلك وإن أخي مريض عندي في الدار، وكان صقر يومئذٍ في سمائل، قال: فلما هزم الله البغاة أي المحاربي ومن معه، وَظَفَرَ المسلمون بهم تحقق أن أخا صقر كان مع البغاة، فعند ذلك اتهموا صقرًا بالمداهنة لما ستر عنهم أمر أخيه، وكان الإمام يومئذٍ بنزوى، وكان الوالي على سمائل يومئذ أبو الوضاح. قال فرفع أبو الوضاح صقرًا إلى الإمام مع سرية بعثها الإمام لحمله، أي صح ذلك الحال مع المسلمين، وأرسل الإمام إلى صقر من يحمله إليه بنزوى؛ ليعاقبه أو ليستطلع حقيقة الرجل، وخرج أبو الوضاح أي والي سمائل في صحبة صقر المذكور إلى الإمام، ولا يدري خروجه هل كان لقصد الدفاع عن صقر إذ كان يبرئه من السوء المنسوب إليه فيعتذر عنه مع الإمام، أو لأمر آخر كان يكتمه في نفسه، وفي أثناء الطريق وافتهم سرية أخرى من الإمام إلى صقر بن زائدة، وبعث معهم العلامة الكبير موسى بن على رَحِمَهُ اللهُ؛ لئلا يقع بطش في غير المستحق، أو لأن صقرًا كان من الزعماء الذين لهم أهمية، فيخشى امتناعه فيقع بينه وبين شراة الإمام أمر، وكان موسى بن علي الرجل الوحيد في زمانه شرفًا وفضلاً وعلمًا وعملاً، فالتقت هذه السرية بصقر ومن معه في نجد السحاماة، وهو المرتفع أعلى وادي سمائل ووادي حلفين، فبينما هم في مسيرتهم إذا اعترض الشراة صقرًا فقتلوه، فلم يكن للوالي أبي الوضاح ولا لموسى بن علي منعهم من قتله.

قال أبو الحواري: وبلغنا أن موسى بن علي رَحِمَهُ اللهُ خاف على نفسه، فلو قال شيئًا؛ لقتلوه، ولم يكن من الإمام انكار، أي على القاتلين وكانت تلك الأيام الدولة في أول شبابها، وفي صدر قوتها ونشاطها، وجملة من العلماء يديرون شؤونها

ويقومون بمهماتها. قال: فيحتمل سكوت الإمام رحمه الله تعالى أحد وجهين، إما أن يكون قد صح إن صقرًا بايع عليه واستوجب بذلك القتل فأسر إلى بعض الشراة أن يقتله، ولم يشتهر هو بقتله كي لا تكون عصبية، وإما أن يكون قد احتمل القاتل معه أن يكون قتله بحق علمه كما احتملوا ذلك في قتل عيسى بن جعفر.

قلت: هذا الاحتمال الأخير لا وجه له وإلا كان كل واحد يقول: أنا قتلت فلانًا بحق لي وليس هذا بشيء؛ لكن الاحتمال الأول أقرب إلى الصواب ألا ترى الإمام أرسل إلى صقر سرية تحمله ثم أتبعها بأخرى تعززها، فهذا يدل على شيء قد صح عند الإمام، وقد سَبق أن أصل طلبهم له أنه قد تحقق أن أخا صقر مع البغاة، وأن المسلمين لما سألوا صقرًا ناضل عن أخيه بقوله: أنه مريض معه في الدار، وهم قد تحققوا أنه مع البغاة، فبهذا رأوا منه ذلك خيانة للمسلمين استوجب بها القتل، وكانوا أشداء على أهل النفاق، ونقول: ليت القوم لم يفعلوا في صقر هذا، وقد أعانهم بالمال والسلاح، وأيَّدهم وقوَّى دولتهم، ولم تقم عليه بعدُ حجة إلا قوله عن أخيه ذلك المقال، ولعل هناك أشياءَ لا ندري حقيقتها وهم المبتلون بها، وحاشاهم أن يقدموا على أمر كهذا إلا على صحة، فإن أمر القتل كبير لاسيما أن الإمام لم يقل شيئًا، فهذا دليل على أنه منه وإلا ليس للشراة مثل هذا مع وجود الإمام، بخلاف قضية عيسى بن جعفر، فإن عيسى كان قائد الجيش، وكل من قتل من المسلمين فقتله معدود عليه باتفاق أهل العلم في قواد الجيوش، كما يشير إليه قوله ﷺ لهرقل: «**وإلا فعليك إثم الأريسيين**».

قال: وأما خوف موسى بن علي على نفسه لو أنكر فلم يتحقق ذلك، وإنما هو مجرد ظن من موسى في الشراة، ولعله لو عارضهم وهم مأمورون بقتله من الإمام لرأوه معارضًا للمسلمين، ورادًا لأمر إمامهم، ويكون بذلك مؤيدًا للباغي الممالئ على المسلمين، فلا يعد أن يكون منهم شر كما ظنه وهو الفطن اللبيب، وأما هو بحسب الظاهر مجرد ظنٍ وخوفٍ إذ قام الشراة بشدة على صقر، ولما

رأى المحاربي المذكور قوة المسلمين ضاقت عليه الأرض بما رحبت، فألقى نفسه إلى اليحمد رهط الإمام وهم الفجح من أهالي الرستاق، فقاموا به عند الإمام وأخذوا له عهدًا من الإمام غسان رحمه الله أن لا يعود لفساد الأرض، وكان رحمه الله قد قبل منهم ذلك، فلعل السياسة اقتضت تفويض الفجح فيه بالعفو عمَّا صدرت منه تلك القضايا المعدودة في التاريخ، فإنه قام على نزوى فانتهبها وهاجم دما من شرقية الباطنة، وكان منه ما كان مما ذكره المؤرخون من قتل واليها وانتهابه لها، وكان رأس بغي وعمود ضلال.

وذكر ابن رزيق قضية صقر بن زائدة وأن الإمام أرسل سرايا وكتب لواليه الذي بحصن سمائل وهو الوضاح بن عقبة أن يسلمه للشراة، ولما وصلوا هاجمته الشراة فقبضوا عليه، ومضى الوالي معهم وذكر ما قدمنا من وصول السرية التي فيها موسى بن علي شيخ المسلمين وعمدتهم في الدين، والأحوال أولى بها من كان مبتلى بها، وأما المحاربي المذكور فهو اشتهر بالبغي، وفعل أشياء ينكرها العقل والنقل، وتردد ذكره في التاريخ والله يبتلي المسلمين بالبغاة المجرمين، فبعد ما هاجم نزوى وانتهبها باغيًا وهاجم دما باغيًا، وعاث في أرض الله بغيًا وعدوانًا، فهو أعظم جرمًا من صقر الذي لم يعد عليه إلا كون أخيه مع البغاة، وأنه كتم على المسلمين أمره، فبهذا سيقت إليه السرايا الواحدة تلو الأخرى حتى قتله الشراة في شيخ الإسلام موسى بن علي، والوالي أبي الوضاح قبل أن يصل إلى الإمام ولو كان من الإمام أمرًا صادرًا شاهرًا ظاهرًا لكان من حق موسى بن علي أن لا يقاتل في وجهه فكيف وهو يقتل في أيديهم بالطريق، فلماذا جاء موسى بن علي رحمه الله، وهو علامة المسلمين، ويترك المحاربي ويسكت عمَّا فعله وهو أمر عظيم، وصقر لم يفعل بعد شيئًا، بل فعل فقد أعان المسلمين بالمال والسلاح، فانظروا الفرق بين القضيتين، نعم الذي يجب أن نعول عليه أن الإمام رأى قتل صقر، ورأى العفو عن المحاربي فعفا عنه وله أن يعفو عن الباغي في

أحوال عديدة لاسيّما إذا رأى المصلحة في العفو عنه ولا يزيده العفو عنه إلا وبالاً مع الله إن لم يتدارك أمره بالتوب إلى الله والرجوع إليه ﷻ، وحسن الظن بأئمة المسلمين وأهل الصلاح في الدين واجب، وكلامنا على الفرض والتقدير والاحتمال الواجب على المسلم نحو أخيه.

* * *

الإشادة بنزوى أيام غسان

لا يخفى أنه لما توالت الغزوات على مركز الزعامة العُمَانية في صُحار، وتولي الغزاة الأشرار من العرب والفُرس وغيرهم على الإمارة العُمَانية، ولم تزل الجيوش تساق من جهات شتى وكان مركز الإمامة لا يزال في قلق منذ قتل الجُلَندى وهلم جرا إلى عهد غسان الإمام ومهاجمته قراصنة الهند البوارج وغيرهم، وما كان قبل ذلك أيضًا رأى المسلمون تحويل عاصمة الإمامة من صُحار إلى داخلية عُمَان في مكان يكون صالحًا لاستقرار كرسي الإمامة، وأن كون في صُحار لا يزال مهددًا مَرْمِيًا من أعداء عُمَان وأعداء مذهبهم بأسوء العدوان، رأوا نزوى أمنع لهم وأصون لزعامتهم وأقر لسلطانهم فإنها في قلب الداخلية وإلى الشرق منها أقرب من الغرب، وأكثر الغزاة من الجانب الشمالي الغربي دائمًا فاتفق نظرهم إلى هذا ورأوها أصلح بلا جدال، فأمروا أن يكون الإمام بها ولا يخرج منها إلا لمهم يبدو أو لداعٍ يستدعي الخروج، وأن الغازي إذا جاء وبلغ خبره الإمام أمكن أن يجهّز له من يصده ويردوه ويسد الثغور في وجهه، ويلتقيه بمن شاء من رجال عُمَان البواسل قبل أن ينال غرضًا من الإمام، فإن الإمام فئة قومه وإليه يلجأ الخائف وإنه لنظر سديد ورأي حميد، اعتمدوا له واتبعوا مقتضاه، وإذ ذاك نظروا في الجمعة فرأوها باقية لا تزال ثابتة الدعائم في صُحار، يقوم بها نائب الإمام فيها من قاضٍ ووالٍ ونحوهما، وأن تقام في نزوى مع وجود الإمام بها؛ لأنها شرعت في بيضة المسلمين، وأن الإمام هو بيضتهم ومطمح نظر العدو، إليه دون غيره.

وخرجت فتاويهم فيها على هذا فلم تزل الجمعة باقية في صُحار منذ ذلك العهد، كان بها إمام أو لم يكن، أما نزوى ففي أيام الأئمة ذلك المعنى الذي أشرنا إليه، وها نحن الآن نطالب السلطان بنقلها إلى مسقط؛ لكونهما الآن عاصمة عُمَان، ومنتدح أهل القطر، وبها عرش السلطان حين إخترتبت صُحار، وزالت عنها الصفات الحميدة وتغير الوضع في هذه العصور الأخيرة، فإن المذهب منها هم أن يتقلص ظله، وانتقل الأمر السلطاني إلى مسقط، وانحل عز صُحار وانهار صرحها العالي، وأصبحت اسمًا بلا مسمى، ولله في خلقه أحوال ولكل شيء غاية ينتهي إليها، وحق على الله ألا يرفع شيئًا من أمر هذه الدنيا إلا وضعه، وتلك الأيام نداولها بين النّاس، ولقد قال الحكيم العربي:

إذا نظرت إلى البقاع رأيتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعدُ

ونزوى صارت كرسي الإمامة في عُمَان منذ العهد، قال الإمام رحمه الله: وكان مقام الإمام بنزوى في بيت الإمامة في العقر. قلت: هو الذي نسميه الآن حصنًا، وهذا يدل أنهم إتخذوا للإمامة في نزوى مركزًا خاصًا للزعامة، وقد لازم نزوى الإمام الوارث بن كعب رحمه الله، ولم تكن قبله لذلك، بل استمر بها الحال بعده، وفي عهد الإمام غسان سميت تخت ملك العرب، أي في عُمَان خاصة، فإن تخت ملك العرب مطلقًا كان مكة ثم انتقل بمحمد عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، ثم إلى الشام أيام معاوية، ثم العراق أيام بني العباس، وهكذا لكل جيل خصائص، قال الإمام: وفي زمانه أي زمان الإمام غسان رحمه الله سميت نزوى بيضة الإسلام:

فافرق بها البيد حتى يستبين لها فرق على بيضة الإسلام عنوان

أنزل فديتك عنها إن وجهتها تحت الأئمة مذ كانت ومذ كانوا

قال الإمام: قال في بعض السير ولها مدائح في كتاب سير العرب، وفي كتاب سير العجم تركت خوف الإطالة، قلت. ليتها لم تترك حتى نعلم عنها شيئًا يحسن

السكوت عليه، وليتنا نعلم الكتابين المشار إليهما حتى نطلبهما، وحكاية الإمام بذلك لا تكفينا ولا تشفينا، والخلاصة معنا أن نزوى عرش الإمامة في عُمَان، ولن يتبدل عنها العُمَانيون عاصمة لإمامتهم مهما كانت الحال في عُمَان، فقد استوطنها الأئمة والعلماء والقضاء، وكم حوت تربتها من إمام وفقيه وزاهد وعابد:

فإن تيامنت الحوراءُ شاخصَة لها مع السحب أكناف وأحضان
فحط رحلك عنها إنها بلغت نزوى وطافت بها للمجد أركان
هناك أنزل وقبل تربة نبتت بها الخلافة والإيمان إيمان
أنزل على عرصات كلها قدس للحق فيهن أزهار وأفنان
أنزل على عذبات النور حيث حوت ائمة الدين قيعان وظهران
حيث الملائكة احتلت مشاهدهم لها على الحل والتعريج إدمان
أرض مقدسة قد بركت وزكت تنصب فيها من الأنوار معنان
ميمونة بركات الله تنفحها واليمن يثمره علم وإيمان
رست بها هضبة الإسلام من حقب وإن قضت باستتار العدل أحيان
قديمة الذكر عاذ الدين عائذها من يوم أصبح توحيد وقرآن
قامت بها قبة الإسلام شامخة حتى تواضع بهرام وكيوان
ولم تزل عرصة للعدل عاصمة للاستقامة فيها الدهر سلطان
كما أشهر الله فيها من حسام هدى كأنها لسيوف الله أجفان
كنانة لسهام الله ما فرغت مذ كان للجور شيطان وسلطان
بحجة الله قامت في الشقاق لها بدين ذي الثفنات الحبر أيقان
لسرها واختصاص الله قائمها بالنصر والفتح برهان فبرهان
تعاقبت خلفاء الله منصبها منذ الجُلَندى وختم الكل عزان

وللإمام الحضرمي رحمه الله:

وكم من إمام حل نزوى وأعوان في الصين أو في خراسان

يــالــنـزوى وهــل لـنـا بـعـد نـزوى وعــلــيــهـا تـعـاقــب الخـلـفـاء

والحقيقة ما زال الأئمة بعُمَان يستوطنون نزوى إلى هذا العهد الذي نحن فيه وقد لازمها الإمام الخليلي رَحِمَهُ اللهُ تعالى آخر عمره، وفضل الموت فيها؛ ليجاورَ إخوانه الكرام حتى وفقه الله لذلك المرام، فمات بها ودفن بجوار الإمامين ناصر بن مرشد وسلطان بن سيف رضي الله عنهم.

❊ ❊ ❊

الإمام غسان يهتم بأحوال الأمة باطنًا وظاهرًا

عظمت النعمة على أهل عُمَان، واطمأن النّاس برًا وبحرًا وكثرت الخيرات، وعظمت البركات وبورك لهم في الأثمار، وربحت التجار وانبسطت الفضائل من الله ﷻ، فكان الغيث مدرارًا، والعدل يورث الأمة عزًا وشرفًا، ويعلي منار الدين لأهل الوفاء، فلم الأمطار فياضة على عُمَان، بحيث ترى الأودية جارية والصحاري خضراء والجبال كذلك، وليس على الأمة مهم يزعجهم أو كارث يهمهم.

قال الإمام: وفي زمانه أخصبت عُمَان خصبًا كثيرًا وصارت خير دار وبقى الخصب من بعده عهدًا طويلاً، حتى قيل إن فلج ضوت بنزوى بقى زمانًا تسقى أمواله من جبلة خراسين، أي إن نبع الماء من خراسين بقى زمانًا كافيًا لسقي أموال ضوت من كثرة رش الماء، حتى إن الفلج ذهب ولم يعرف له أثر بأموال دارس، أي أن الفلج هو في الأصل منبعه من أموال دارس، ولما استمر الخصب أربعين سنة لم يعد يعرف أصله أين هو فضاع ضوت القديم بذلك، وهكذا بقية أفلاج عُمَان وكان الإمام غسان رَحِمَهُ اللهُ يخرج يزور قبر الوارث رَحِمَهُ اللهُ، ويمشي على الغيل في الوادي يفعل ذلك كل جمعة، فيبقى هناك فيغتسل في ذلك الغيل، ثم يعود إلى الجامع لأداء فريضة الجمعة، ثم يرجع إلى الحصن واتخذ ذلك عادة، وكان يتفقد الأحوال ويراعي بأحاسيسه نعم الله تعالى، فيرى الماء صافيًا كأنما سال ذلك اليوم،

حتى رأى في بعض الأيام بالماء طحلبًا فاقشعر جلده وتأوّه، وقال في نفسه: لعل حدثًا وقع فتأثر منه هذا الماء، فراجع نفسه فلم يجد لها شيئًا،ونظر إلى الأمة وإذا بها في أوفر النعم وأكمل الأحوال، ولم يزل يقول في نفسه إن هذا اثر عن تغيير، مع أن الطحلب عادة في المياه إذا طال بها العهد، فأحضر أهل الأموال، وروي لهم بحرب الهند؛ لأن البوارج الذين قاومهم الإمام في البحر من أهل الهند وقال لهم: أريد أحرب الهند وبيت المال لا يكفي، أي للمصاريف التي تستدعيها الحرب، وأريد أن أجعل على التجار قرضًا يكون أداؤه من بيت المال، قال أبو إسحاق: وهذا القرض يعبرون عنه الآن أي في الممالك الإسلامية بقرض الدفاع، القرض الذي تقرضه الأمة لدولتها لأجل الحرب، وهذا أفتى به شيخ الإسلام سعيد بن خلفان للأمام عزان بن قيس رحمهما الله.

قال: فقال الإمام للمستشارين في ذلك وهم أصحاب الأموال: أشاوركم في ذلك فماذا ترون؟ فقال أصحاب الأموال: أيها الأمام التجار يسعون بالفائدة أو هم يطلبون الفائدة أي الأرباح، وإن قلّت دراهمهم ضاعت المعاملة بيننا وبينهم، ونحن أرباب الأموال والقرضة علينا بما تريد، فقال: طيب! وأسرها في نفسه وقال لا غير ها هنا، ثم أحضر التجار وقال لهم: أريد أحرب الهند، وخزانة بيت المال لا تكفي لمقاومة الحرب، وأناظركم أريد أن أجعل قرضة على بيت المال؛ لتقويم هذه الحرب من أرباب الأموال، فما ترون: فقال التجار: أيها الإمام أصحاب الأموال أهل حرث، وأكثر الحروث غالبًا لا تكفي مغرم ما عليها، والمراد هنا بالأموال النخل والزراعات على اختلاف أنواعها، في عُرف أهل عُمَان، قال: وليس في أيديهم شيء مما يكفي لذلك؛ ولكن نحن عندنا ما يريد الإمام. فقال الإمام في نفسه: هؤلاء كالأولين لا غير عندهم، ثم أحضر الوزراء وأرباب الدولة المسؤولين فيها، فقال لهم: أريد أن أجعل قرضه على أرباب الأموال والتجار في بيت مال المسلمين لحرب الهند، فما ترون وهم قد عملوا حركته السابقة على

بوارج الهند، وما كان مراده من ذلك كله إلا استكشاف أحوال الأمة، وهل فيها من الأحداث شيء تكون عاقبته سيئة على المجتمع، فقال له هذا الفريق الثالث: أيها الإمام هذا شيء وقع في نفوسنا من قبل، فقال في نفسه رَحِمَهُ اللهُ العلة ها هنا، وهي تكون غالبًا في أولياء الأمور؛ ولذلك تكون أيضًا سريعة التأثير في الأمة؛ لأن بيدهم نفوذًا في الهيئة الاجتماعية.

قال: فلما استقر عند الإمام محل الغير قام فاستبدل بهم غيرهم، إي عزل أولئك العمال الذين في الدولة أعمال، وجاء بآخرين غيرهم، ثم خرج في الجمعة الآتية وهو يريد زيارة الوارث، وفي النفس التفات إلى ما وقع له فنظر في الغيل فلم ير شيئًا مما رآه سابقًا، فشكر الله على ما وفق له من النظر في مصالح الأمة التي هو مسؤول عنها، فأكرم بغسان وأكرم بأعماله في عُمَان.

ولا شك أن معاصي بني آدم لها أثر أثير في جلب كل شر ورفع كل خير ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦] الآية وفي الحديث: «إن معاصي بني آدم لتدرك الضب في حجره والطير في وكره»، وكم لهذا من أدلة عقلية ونقليه عرفها المسلمون، وعوائد الله في خلقه معروفة، ورحمته واسعة.

وهكذا ينبغي الذي يتولى أمر الأمة فلا يغفل عن مصالحها الحسية والمعنوية، ولو سكت غسان عن الحال التي رآها وبقي يحوقل في نفسه.

وقال: أن بدلت هؤلاء لا أجد غيرهم أو ربما كانوا مثلهم، وحدث نفسه بمثل هذه الأحاديث لجف الماء، وجف المرعى ومَنَعت السماء قطرها والأرض نباتها وهلكت الأمة:

أيغفل عن سوائمه المليك يسمي نفسه الراعي الأمينا

وعلى هذا الأسلوب ينبغي أن يكون أولياء الأمور، وإلا كان موقفهم عند الله مخطرًا يوم يسألهم الله عمَّن استرعاهم إياهم.

نسأل الله الهداية والتوفيق والعون على تقواه إنه كريم رحيم، فكر أيها العاقل في أعمال غسان تجدها مثالاً للنزاهة وقانونًا للرعاية حتى رأى الماء زائدًا عن عادته من غير مطر، فضلاً عن الطحلب الذي كان رآه الإمام في ذلك الحال، فلما انغسلت تلك السيئة التي انطوى عليها أولئك المشبوهين في الأمة، انغسل الماء في الوادي وزاد عن عادته، ولم نعرف مثل هذه الأحوال لغير غسان رَحِمَهُ اللَّهُ. ما أيقظه في أمته وما أكرمه على الله الذي كشف هذه الأحوال له بحسن نيته، وأرشده للجهة التي يلتمس منها العلة التي خافها على المجتمع العام، وكما تكونون يولى عليكم، والأمة على دين ملوكها، فأعزز بأمة هؤلاء ملوكها وأهل الحل والعقد فيها رحمهم الله.

* * *

أعمال الإمام غسان في عُمَان

اعلم أن للإمام غسان أعمالاً اختص بها وجعلها من بعده حجة يستند عليها، وقانونًا يعتمد عليه، ولا ريب فإن أعمال الأئمة عمدة الأمة.

وغسان رَحِمَهُ اللَّهُ كان الحجر الثالث الذي قام عليه بناء المسلمين لإمامتهم بعُمَان، بعد افتراق الأمم بجور الملوك والسلاطين والأمراء المجرمين الذين لا يبالون بما يأتون وما يذرون.

كان الإمام غسان أول إمام قطع يد سارق بعُمَان تنفيذًا لحدود الله وقيامًا بواجباته عز وعلا، فإنه لما وصل صُحار في سفرته تلك جيء إليه بسارق سرق من حرز، فقطع الإمام يده فكانت لذلك هيبة عارمة في قلوب أهل السفه المفسدين في الأرض، وكان بقية من آل الجُلَندى في نزوى لهم بها محلة كانت عقودًا مبينة عليها الغرف وتمر الطرق تحت تلك العقود المشار إليها، وهي مظلمة بعدم النوافذ فيها، وكان بعض السفهاء يختفون في تلك العقود المظلمة للنساء، فإذا مرت النساء خرجوا لهن ولعلهن المسترابات بحسب الظاهر، فشاع هذا الحال

حتى بلغ الإمام فأمر بهدم تلك العقود، أو يُسرج فيها أهلها سُرُجًا طيلة الليل، أو يُخرِجُوا طريقًا في أموالهم للمارة بالليل قطعًا لشأفة الفساد، وألزم بني الجُلَندى ذلك دفعًا لبغيهم وفسادهم، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، فأخرج أهل الأموال طريقًا في أموالهم بدل تلك الطريق المشار إليها، وزال المحذور. هكذا قال أبو الحواري، وقد أخذنا ذلك عنه بالمعنى.

وقد ذكرها السالمي في (تحفة الأعيان) قال: كانت لبني الجُلَندى بسمد نزوى محلة ولعل موضعها المسمى الآن العقودية، قال أبو الحواري: وكانت هذه الدار عقودًا على الطريق، والمعنى كانت الطريق مسقفة عليها غُرَفٌ ويسمونها عقودًا في عرف أهل البناء عرفًا شائعًا إلى الآن، وربما سموا تلك الطريق على هذه الصفة صباحًا والصباح هو دهليز الدار يكون عليه البناء، ويجمعونه على صبحات أي دهاليز قال على الطريق الجائز، أي الشارع العام للمحلة المؤدي إليها والموصل منها إلى غيرها، وغالبًا يكون لصيانة المحلات أيام المحافات. قال: وأحسب أنه كان فوق العقود الغرف وكانت العقود يعقد فيها أهل الريبة.

قلت: لم تكن مخصوصة بذلك بل تكون سببًا للاختفاء فيها، ويجد المفسد فيها سبيلاً لغرضه، إذا لابد للنساء من الخروج لحوائجهن لاسيّما أيام الخوف، فإن النساء تخرج بالليل؛ لتنظر المفسد من المصلح، والأعداء الذين يترصدون في هذا الأمكنة، وتكون غالبًا مغلقة بأبواب مانعة، وربما كان على الأبواب بوابون.

قال: فبلغنا أن امرأة خرجت بالليل في تلك العقود وهي مظلمة، فاعترض لها رجل من الفساق فبلغ ذلك الإمام فأرسل إلى أصحاب الدار وأمرهم أن يهدموا العقود، وحكم عليهم بذلك أو يُسرجوا بالليل حتى يرى من يعقد فيها من أهل الريبة، فأخرج أهل الدار طريقًا للنّاس في أموالهم، وكان النّاس يمرون في تلك الطريق إلى أن خرجت تلك الدار فرجع أصحاب الدار إلى طريقهم فأدخلوها في أموالهم وعمروها، ورجع النّاس إلى طريقهم الأول فعدَّ النّاس هذه من الإمام

غسان خلاف المعتاد، حيث كلفهم أمرًا شاقًا، وكان الواجب تأديب المعتدي وعقوبة المقترف للإثم إلا أن الإمام رأى أن هذه المفسدة لا تزول إلا بذلك.

قال الإمام: ولهذه الطريق رسوم وآثار سهيلي المسجد الجامع من سمد نزوى. قال أبو الحواري: ولو أهل الدار لم يفعلوا ذلك ولم يُسرجوا في العقود على ما أمرهم الإمام، فلعله كان يهدم الدار. قال: وهو وجه من الحق والعدل إن شاء الله تعالى. قال: فهذا غسان قد أمر بهدم الدار- لهذه المفسدة فكيف ولو كان فيها أحد من البغاة لكان أعظم ذنبًا وأشد عقوبة.

ومنها ما صار في فلج الخطم من منح، وذلك أن السيل الذي غرق فيه الإمام المرضي الوارث بن كعب رَحِمَهُ اللهُ، أتى على هذا الفلج فاجتاحه من أصله ولم يعرف له أثر بعد انقطاع السيل، إذا كان جائحًا عظيمًا غير تخوم الأرض، وسحب المباني والنخل والشجر إذ كان تيارًا عظيمًا ولم يجد أهل الفلج سبيلًا لإخراج فلجهم إلا في أموال أهل نزوى، أي أن أهل نزوى كانت لهم هناك أموال أي حدائق وبساتين بالقرب من مجرى الفلج، فأمر الإمام القاسم بن الأشعث، وهو أحد زعماء فلج الخطم أن يستر نفسه، أي يختفي في مكان قرب مجلس الإمام رَحِمَهُ اللهُ، ثم أرسل الإمام رَحِمَهُ اللهُ إلى القاضي الوحيد في نزوى وهو العلامة المدعو سليمان بن عثمان، فلما أتى إليه قال له يا أبا عثمان ما تقول في فلج القوم مثل فلج نزوى في أرض سمد، وهي لبني أبي المعمر، فأتى عليه السيل فاجتاحه فلم يقدروا إخراجه إلا في أموال النّاس، فهل لهم ذلك؟ فقال سليمان: نعم لهم ذلك، فقال له الإمام: لهم ذلك الثمن أم بغير الثمن؟ فقال سليمان لهم بذلك بالثمن. فقال الإمام الثمن يكون بما قال أرباب الأموال أم بقيمة العدول؟ فقال له سليمان: بل بقيمة العدول. قال فلما عرف الإمام غسان رأي سليمان بن عثمان في ذلك تمسك به فلما انصرف سليمان أرسل الإمام إلى القاسم بن الأشعث فلما أتى قال الإمام: اذهب فادع خصماءك فانطلق القاسم بن الأشعث، فأتى بهم إلى الإمام

وهم بنو زياد، فلما حضروا معه طلب القاسم بن الأشعث مجرى لفلجهم بالثمن، فقال أهل نزوى ليس علينا ذلك، فقال لهم الإمام غسان هذا رأي سليمان بن عثمان القاضي، فانطلق أهل نزوى إلى القاضي سليمان المذكور وأخبروه بما قال لهم الإمام، وقالوا له: إنه قال هذا رأي سليمان بن عثمان، وكان القاضي من أهل نزوى وله فيهم مقام محترم. فقال لهم سليمان غرني الإمام أو غرني غسان فانطلق سليمان فأتى الإمام فقال: لقد رجعت عن رأيي ذلك. فقال الإمام: فإني لا أقيلك وتمسك بذلك الرأي.

وقال الإمام لأهل نزوى اذهبوا فأخرجوا لهم مجرى لفلجهم بالثمن، فأبوا عن ذلك وامتنعوا فقال الإمام لأهل منح: اذهبوا فأخرجوا فلجكم فإن طلبوا الحق كان لهم ذلك ورأى المسلمين أو كما قال. فانطلق أهل منح فأخرجوا فلجًا أي ساقية لفلجهم في أرض أهل نزوى برأي الإمام غسان، ولم تكن ذلك برأي أهل نزوى، وهم كارهون لذلك، وهو فلج الخطم. قال الإمام: ذكر ذلك أبو الحواري. قال: والفلج قائم بعينه في أرض أهل نزوى في يومه هذا، قال ولعله لا يزال إلى يوم القيامة. قال ولم يجبر أهل نزوى حتى يأخذوا حقوقهم من أهل منح أو يبرءوا منها.

هذا نص القضية ولم يبحثوا فيها؛ ليفيدوا المطلع، وذلك أن الفلج لما كان في الأصل مستقرًا في تلك الأرض مجراه، واختفى بذلك الحادث الذي هاجمه ولم يعرف أصل المجرى كان لهم ذلك، وعليهم قيمة الأرض التي يجري فيها على رأي القاضي سليمان، ووجه رأيه هذا؛ لأن الأصل معروف في تلك الأرض وبسبب الأحوال التي طرأت عليه حكم بالتضمين؛ نظرًا لأنه يقع الآن في أرض مملوكة لأناس معروفين، وأما رجوع القاضي فلأنه رأى وفي الرأي مجال للرجوع؛ لأنه لم يكن نصًا لم يجز الرجوع عنه، فإن للرجوع عن المنصوص عليه رجوع عن الحق، والرجوع عن الحق لا يصلح بالإجماع.

ووجه عدم قبول الإمام لرجوع القاضي عن رأيه المشار إليه ذلك فإن الإمام يرى ذلك الرأي في القضية، وأحب أن يكون من غيره وأنه وجه من الوجوه الجائزة التي لا بد القول بها والقبول لها، وإلا ضاعت مصلحة عامة لمصلحة خاصة، وذلك خلاف المشروع، وقول القاضي غرني غسان معناه، أراد ذلك مني أنا الإلزام أهل نزوى رأيي أنا دون رأيه، فالإمام تستر بفتوى سليمان بن عثمان، وقول الإمام لأهل منح: اذهبوا فأخرجوا فلجكم في أرض أهل نزوى أي لا مناص من ذلك، وقوله لم يجبر أهل نزوى على أخذ حقهم فإنه صح في الأثر من عرض له حقه، فلم يقبله فلا حق له وهو وجه، فإنه من رفض حقه اليوم فكيف يعود يطلبه غدًا بعد ما أضاعه بنفسه فمن يلوم فيه والحال هذا والله أعلم.

ثم ذكر الإمام القضية أيضًا في شرح شمس الأصول في خصوص باب الاجتهاد في الجزء الثاني من طلعة الشمس صحيفة ٢٩٠ مائتين وتسعين، وجعل ذلك من باب الاجتهاد أن المجتهد إذا اجتهد في حادثة وحكم فيها باجتهاده فحكمه فيها ماضٍ لا يمكن نقضه ويثبت حكمًا شرعيًا والعلم عند الله ﷻ.

وكذلك حبس الإمام غسان بن عبدالله صقر بن محمد بن زائدة بتهمة اتهمه بها هاشم بن الجُلَندى، وذلك أن هاشم بن الجُلَندى أصيب برمية جرحته ليلاً فلم يعرف الرامي؛ ولكنه اتهم ابن عمه صقر بن زائدة، وكان صقر المذكور إذ ذاك في سمائل وكان منزله بها وكان هاشم بن الجُلَندى مع الإمام غسان بدما، فاتهم هاشم بذلك صقر بن محمد أنه أمر به من رماه، فأمر غسان بحبس صقر في سمائل، فأنكر عليه القاضي سليمان بن عثمان ذلك؛ لأنه لم يدع أنه رماه، بل ادعى أنه أمر من رماه فرأى الإمام حبسه بهذه الدعوى، ووجهها تتبع عروق الفساد، أنه لا يكرم صقرًا من أن يأمر بذلك، وإذا كان كذلك فالأمر بالفساد في الأرض مفسد تحل عقوبته، وأما سائر العلماء يقولون لا تسمع هذه الدعوى على المدعى عليه؛ لأنها لم تنص على نفس الأمر منه، فجعلوها من جملة أحكام

الإمام غسان في عُمَان، واجتهاده ظاهر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأنه لغواص على الحقائق، ولقد وقعت مثلها في زماننا هذا وهم الإمام الخليلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يقوم مقام غسان؛ لكن لم يظهر الادعاء من أهل الحق، وإنما ظهر من بعض النّاس الذين جعلهم الإمام شركاءه في الرأي، ولكل أيام سياسة والحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به كثيرًا من خلقه، وصقر بن محمد بن زائدة ظاهر حاله مستور، فحبسه الإمام أولاً بتهمة جراح هاشم بن الجُلَندى، وقتله بتهمة أخيه أنه مع البغاة من بني هناة، وانه كتم على المسلمين أمر أخيه والله أعلم.

قال الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنكر عليه سليمان بن عثمان وقال: ليس له حسبه؛ لأنه لم يتهمه أنه جرحه، وإنما اتهمه أنه أمر من جرحه. قال: فإنها عليه يمين ولا حبس عليه. قلت: حيث تسوغ عليه اليمين يسوغ الحبس؛ لأن موجب اليمين هنا التهمة، وإذا أوجبت اليمين أوجبت الحبس، قال فلم يقبل غسان ذلك حتى رأى غضب سليمان وهجر الإمام.

قال بعضهم: لا أدري كيف غضب على الإمام، وقد فعل، قلت: لا أدري أنا أيضًا قوله، وقد فعل من هو الذي فَعَل وماذا فَعَل إن كان يعني الإمام فعل الحبس فذلك هو الذي أغضب القاضي، حيث أنه لا يرى الحبس على صقر، وإن كان يعني القاضي قد فعل فلم يبيّن ما فعل هذا القاضي، ولعله يعني لما قال باليمين فتح للإمام باب الحبس، فلِم يغضب على الإمام بذلك، قال: ولعله شاهد ما لم يشاهده، وهذا أيضًا كلام مجمل كان ينبغي توضيحه؛ ليكون مفهومًا، فإن ما ليس مفهومًا لا يكون حجة عند المسلمين، قال: والإمام أحق بتحسين الظن، أي في أمور المسلمين، قال الإمام السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ :قلت ظهر وجه غضبه أو قال: بسبب غضبه وهجره من قوله أنه ليس له حبس، وإنما عليه يمين. قال: فهذا سليمان لا يرى على صقر حبسًا بذلك الدعوى وحبسه الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وسليمان لا يرى له ذلك في نظره واجتهاده، وكان قد أحب له السلامة منه والتعفف عنه

والمؤمن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، ولم يبحث الإمام السالمي القضية بشيء إلا بهذا وعندي تحقيقها هو ذلك الذي قدمته.

ومن أعمال الإمام غسان أنه كان في أيامه بصُحار قوم من الشيعة ولعلهم بقية ممن خلّفتهم الحرب بصُحار، وكان فيهم ناس معروفون، ومنهم رجل اسمه بقية، كان داعية الشيعة وداعيًا إلى التشيع، وكان الإباضية يحترمون أهل لا إله إلا الله، مهما كانوا ما لهم يفارقوا أمرًا ظاهرًا مما ينكره الشرع، طلب الإمام بقية المذكور. وأظن كان الطلب إذ كان الإمام بصُحار، فجيء به إليه فامره بالخروج من صُحار أصلاً؛ لأنه يفسد النّاس بلسانه، وربما أضاف شرًا إلى شر، فالأولى خروجه من بلاد المسلمين، وأعطاه أجلاً أربعة أشهر؛ ليقضي ما عليه ويأخذ ماله.

قال أبو الوضاح: إنه مات بصُحار قبل تمام المدة التي قررها له الإمام. قال أبو محمد: كان بقية يقال أنه كاد يكون فتنة.

قلت: بل أشد لو بقي.

قال: وكان يظهر الاعتزال ويرضى الزندقة.

قلت: حينئذٍ ليس هو على مذهب خاص فحينًا هو شيعي، وآنًا هو معتزلي ووقتًا هو زنديق، بل هو دائمًا زنديق، نعوذ بالله من سوابق الشقا.

قال زياد بن مثوبة: كان بصُحار شيعة كان بقية أصغرهم. قال: وكانوا يشددون عليهم.

قلت: لعل التشديد حين يطلقون ألسنتهم بسب الشيخين، فإن ذلك لا يوافق عليه أحد من أهل المذاهب إلا الشيعة يسبون أبا بكر وعمر سبًا شنيعًا ويخرجونهما من الإسلام بغير برهان من الله ولا دليل لهم على ذلك إلا هوى أنفسهم، وإن كان لهم دليل فليأتوا به إلينا فنريهم الحق فيه من الباطل أن كانوا يفقهون، وهذه كتب علمائهم تعلن سبهم جهارًا سبًا لا يقولونه في اليهود والنصارى: والله سائلهم عنه.

ومن أعمال الإمام غسان رحمه الله استقضاؤه الأعمى، وكان أكثر المسلمين لا يرون قضاء الأعمى؛ لأن غالب أحوال القضاء تتعلق بالنظر، ولا يشذ عن النظر إلا القليل؛ ولذلك لا يرون القضاء للأعمى، وناهيك إذا كان لا يصلح؛ لتصريف أملاكه أو لقضاء ديونه واقتضاء حقوقه، فكيف يصلح أن يكون قاضيًا واستقضى غسان الإمام مسبح بن عبدالله، وكان أعمى فكان يقضي في نزوى بين النّاس أيام الإمام غسان، والقاضي يسمع الشهود ويقضي على الخصمين، وهو لا يرى أحدًا منهم، فجعل المسبح قاضيًا على هذا الحال من جملة أعمال هذا السيد الهمام إمام المسلمين.

قال الإمام: وبعض المسلمين لا يرى القضاء للأعمى. قلت: لقد أشرت لك إلى بعض العلل التي تتعلق بالقضاء ويتأخر بها الأعمى عن مباشرة القضاء وهو الأولى والأسلم ما لم تدع إليه الضرورة، ولعل الإمام يرى المسبح هو البصير وغيره الأعمى .قال الإمام السالمي رحمه الله:

وأنا البصير وإن رأيتم أنني أعمى أدب

وقد استعمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابن أم مكتوم على المدينة عاصمة المسلمين وهو أعمى، واستقضى الإمام الخليلي رحمه الله شيخنا ابن عبيد في سمائل وهو أعمى، واستقضى الشيخ العالم عبدالله بن عامر العزري في نزوى، والشيخ سالم بن حمد البراشدي في سناو والله أعلم.

ومن أعمال الإمام غسان في عُمَان أن عبدًا أُخِذَ من عُمَان وخَرَجَ به أخذوه إلى نواحي فارس، فبذل الإمام على ارتجاعه من بيت مال المسلمين أموالاً ولم يروا عليه نقدًا في ذلك، مع أن العبد مال وهو ينجي المال بالمال، وعلى القول به هل ينجي بقيمته أو أكثر؛ ولكن الإمام رحمه الله يرى أن تنجيه نفس مسلمة واجب بما عزَّ وهان ذلك أن بيت المال جعل لمصالح المسلمين، وهذا من أكبر المصالح، فإن فيه تنجية نفس مسلمة من إهانتها على الباطل مع أهل البغي والفساد، وفيه صيانة

الحوزة من أيدي العابثين، وفيه تسكين النفوس الضعيفة من روعها وما تزهق به وعليه فلا عيب على الإمام إذا بَذَلَ المال الوافر على ردِّ عبد أخذهُ اللصوص أو البغاة ونحوهم من المتمردين، وأن لا ينبغي إهمال الأمة للعادي عليها وإلا كان في ذلك قصود وتقصير من الإمام.

ومن أعمال الإمام غسان في عُمَان أن الباطنة كما هي معروفة تقوم بالزجر على البقر والحمير والإبل؛ لكن يشق ذلك وقت النهار للحر والعوارض التي تعرض، فكانوا يزجرون وقت الليل، ولا مقال في الأحرار الذين يملكون أمرهم، بل في المماليك الذين يستخدمهم كثير من أهل عُمَان وقت الليل وساداتهم نائمون على فرشهم وقت راحتهم، فلما علم ذلك إمام المسلمين رَحِمَهُ اللهُ اشمأز منه واستنكره وناقش فيه حتى رأى أنهم إذا استخدموهم بالليل أراحوهم بالنهار فوق الوقت الذي استخدموهم فيه، واقتنع بذلك إذ رأى أن الأمر لا يمكن فيه إلا ذلك، ولم يزل يردد رَحِمَهُ اللهُ في تأوّه وتأفف قائلاً: اللهم إنا عدلنا إلا في عبيد الباطنة، فإنه يرى ذلك مخالفًا للعدل الواجب وهو إعطاء الحقوق لأهلها، إلا أن حقوق العبيد في الباطنة لم يعطيهم إياها كما ينبغي؛ لأنه ليس للسيد أن يستخدم عبيده وقت الليل ما لم تدع لذلك ضرورة، على هذا تخرج فتاوى المسلمين والله أعلم.

فتراهم جعلوا هذا الوجه في عبيد الباطنة من أعمال غسان رَحِمَهُ اللهُ وكان الإمام رَحِمَهُ اللهُ على جانب عظيم من السياسة في الأمة، فلو قيل إنه لم يَبْلَغْه أحد في سياسته لكان غير بعيد ونعني بذلك الشرعية التي يقتضيها الدين والعدالة، بحيث لم يبق الإمام منهجًا من مناهج الشريعة إلا وقد أخذ حظه منه، انظر عمله مع سليمان بن عثمان في فلج الخطم، وانظر عمله في قضايا صقر بن محمد بن زائدة في حبسه وقتله، وفي عمل الشذاءات؛ لطرد بوارج الهند، وفي عمله إذ جيء إليه بقوم أجرموا في المسلمين، وكانوا استحقوا القتل في نظر بعض المسلمين، مناظر الإمام فيهم القاضي مسبح بن عبدالله فلم ير قتلهم وبقوا في السجن، ثم ناظر المسلمون

القاضي في ذلك، فرجع القاضي إلى رأي المسلمين الذين يرون قتل هؤلاء، ثم جاء القاضي إلى الإمام وأخبره بأنه رجع إلى القول بقتلهم، فقال له الإمام: لا أقبل منك هذا بيني وإياك حتى تقوم في المسلمين خطيبًا وتعلن ذلك إليهم؛ أي لأن المسلمين قد عَلِمُوا سابقًا منك عدم القول بالقتل فما بالك اليوم تقول ذلك بيني وبينك، فقام القاضي وخطب في النّاس عن القول بعدم جواز قتلهم، وأنه أجاز ذلك للإمام، وأنه رجع عن قوله الأول، وفي هذا سياسة من الإمام في تبرئة ساحته عن الخلاف والشقاق وتوجيه الارتياب في عمل الإمام، فلله دره ما أعلى نظره وأنفذ رأيه، وهو العليم في الفقه في زمانه؛ ولكنه لا يفعل حتى يعطي كل مقام حقه، ولله في خلقه رجال يختصهم بهداه ويرشدهم لرضاه، فبعد ما أعلن القاضي قضية القوم ما هي، وصرح بجواز قتلهم الإمام، أمر الإمام بهم فَضُرِبتْ أعناقهم وأنفذ الأمر فيهم، فطهّر الأرض من بغيهم وفسادهم، ولله در القاضي، حيث تصلب وجاهر بإعلان ما رأى من صحة الحكم بقتلهم، وأنه أمر الإمام بقتلهم؛ رحمه الله ورضي عنهم إذ قاموا بحقوق الإسلام، وقاموا أهل الجرائم في الأنام، ولكل درجات ممَّا عَمِلُوا فكان الإمام غسان بطلاً من أبطال الإسلام بعُمَان وليثًا من ليوثها العظام الذين تخر بين أيديهم جبابرة الأنام وتخضع لهم عتاة الأقوام.



نصائح العلماء للإمام غسان رحمه الله

لا يخفى على المسلم مهما كان أن الدين النصيحة، وأنها واجبة بنص الكتاب والسنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام، وعلى مقتضاها مشت خيار هذه الأمة ينصح العالم الجاهل، والمأمور الأمير، والكبير الصغير، وأهم شيء نصائح العلماء للأمراء فإن الأمراء هم المسؤولون من قبل الأمة، والعلماء هم المسؤولون من قبل الله ﷻ، وإن كان عموم النصح مفروضًا على الكل، وإلى ذلك يشير الحديث الصحيح، بل والنص القرآني كذلك. اللهم إلا إذا لم يكن مجال للنصح أو تبيّن أن لا قبول، فحينئذٍ يسقط وجوب النصح ويبقى الجواز، وكلمة حق عند سلطان جائر لا تبعد عن المقام، ولذلك علماء عُمَان ينصحون أئمتهم وأمراءهم ويناصحون بعضهم بعضًا، وقد لا تجد ذلك منهم للملوك؛ ذلك لأن الملوك يرون الإصابة، ولا يرون للعلماء معرفة بالطريق التي يسلكها الملوك، ولا يهتدون إليها سبيلًا، وربما أنكر الملوك على العلماء واستغشوهم ورأوا أنهم حجرة عثرة في سبيل أعمالهم التي يرومون، فانظر التاريخ فلا تجد نصيحة من عَالِم لملك؛ لأن العَالِم يدعو إلى مخالفة ما عليه الملوك، وأن السلاطين غالباً أهل بطش، فإذا نصحهم ناصح رأوه جارمًا عليهم منتقدًا لأعمالهم فياويله من ذلك الذي تكلم به.

ولما كان الأئمة أهل دين وإيمان وتقوى وخوف من الله، ويرون لإخوانهم عليهم مننًا فيما قاموا به وعلموا عليه يقبلون نصحهم ويلومون على عدمه خصوصًا إذا وقع منهم ما يخالف الحق، فإن كل أنشودتهم الحق لا غير، فلذلك ترى لهم نصائح تحمل إلى الأئمة الإخلاص والصفا، وأحيانًا التنديد على الأفعال المخالفة لسيرة السلف الصالح، وفي بعض الأحوال تراها ممزوج بالتهديد والزجر والعنيف وهكذا.

وذلك؛ لأن الأئمة يعدون العلماء شركاءهم في الأمر وأعوانهم عليه، والواقع هو لذلك وإذا كان القوم على هذه الوتيرة فأكرم بهم وأعزز بمنهجهم، فهم القوم

الذين لا يشقى جليسهم ولا يندم رئيسهم، ولا يظلم أميرهم ولا يتهور زعيمهم، أشداء على الكفار رحماء بينهم لا يهمهم إلا أمر دينهم، ولا ينظرون إلى الدنيا إلا نظر المار في الطريق فإذا ضلها سأل عنها، فإذا عرفها لازمها، وقد نصح علماء المسلمين إمامهم غسان، منهم العلامة أبو مودود، وحاجب بن مودود، ومنهم مبارك بن جعفر، ومنهم سليمان بن عثمان الذي تحدثنا عنه سابقًا، ومسبح بن عبدالله الأعمى قاضي الإمام بنزوى، ومنهم الحكم بن بشير، ومنهم مسعدة بن تميم، والأزهر بن علي، وعلي بن عزرة، وجعفر بن زيادة، وعبدالله بن أبي قيس، وعبد الله بن نافع، ورايس بن يزيد، وأبو مالك بن الهزبر، والأشعث بن محمد، والأزهر بن عبد الملك، وعبد العزيز بن عبد الرحمن، قال: وضرباؤهم، والمعنى هؤلاء مشاهير العلماء أيام غسان بن عبد الله، وبعضهم اشترك في دولة الإمام الوارث، والإمام غسان وبعضهم بقى إلى عهد عبد الملك بن حميد، وبعضهم لحق على إمامة الإمام المهنا بن جيفر رحمهم الله، هؤلاء الذين حرروا النصائح والمراشد إلى الإمام غسان، وأكرم بأمة هؤلاء أولياء أعمالها ورؤساء رجالها وزعماء أمورها، إذا انتقدوا أمرًا بادروه بسرعة شافية، فلا جرم إذا بقى الغيل لا يتكدر كأنه ذلك الحين نزل من السحاب فإن أمّة يقوم بأمورها خيارها ولا يجد إلى الفساد شرارها سبيلاً لا يزال الخير لديهم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦] الآية.

نسأل الله الإقتداء بهم والاقتفاء لآثارهم، إننا لا نستطيع سرد ما حرره العلماء من النصائح إلى الأئمة في تاريخنا هذا، فإنه يطول بنا؛ ولكنا نشير إلى ذلك، وإن كان هناك أمر خاص أتينا به لذلك الاختصاص، وإن كانت نصائحهم مشحونة بالسياسات الشرعية، والقواعد المرعية، فإنا نترك أكثرها إسراعًا إلى الأهم، لعلمنا أن كل إمام له سياسة، ولكل أمة رئاسة، والخطب هنا يطول ولا ينبغي أن تطلق فيه القول، فإنه لا مجال له عندنا إذ نحن معنيون بتحقيق التاريخ، وما يحتوي عليه

من الأمور الناضجة والحقائق الصادقة التي لا بد من العمل بها، ولا ريب فإن إيراد نصائح العلماء يفيد المطلع اهتمام أهل العلم بأمور الدين وأن التناصح يرشد إلى الموالاة .قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة». قالها ثلاثًا؛ ليعرب للناس بهذه الوجهة السامية.

❊ ❊ ❊

وفاة الإمام غسان رحمه الله تعالى

عاش الإمام غسان بن عبد الله الفجحي اليحمدي الأزدي في إمامته بعُمَان خمس عشرة سنة وسبعة أشهر، وقيل وتسعة أشهر بتقديم التاء المثناة من فوق إلا ثمانية أيام، وقيل ولي الأمر فعاش فيه خمس عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يومًا، وقيل وسبعة أشهر وسبعة أيام، ومرض رحمة الله يوم الأربعاء لثمان بقين من ذي القعدة سنة ٢٠٧هـ سبع ومائتين، ومات يوم الأحد بعد صلاة الفجر لأربع بقين من ذي القعدة من السنة المذكورة أي سنة سبع ومائتين، فكان مرضه رَحِمَهُ اللَّهُ خمسة أيام فقضى الله عليه، وبوفاته أصيب المسلمون أعظم مصاب، إذا أنهد طود عظيم من أطواد الإسلام الذي ملأ عُمَان هيبة تغمر الساحل والداخل، ويخضع للحق بها كل جاهل وعاقل؛ ولكن الدهر لا يسالم أحدًا ولله من يقدم على الله مقدم هؤلاء القادة القوام في عباد الله بأمره تعالى، والله في خلقه ضنائن يختصهم برحمته فيجعلهم هداة أمته وساسة بريته،وبموته أقيم الخلف الصالح الذي يسد تلك الثلمة ويملأ ذلك الفراغ الهام السيد المهام عبد الملك الذي سيأتي ذكره، وكان ذلك من توفيق الله لأهل عُمَان الذي اختصوا بهذه المنقبة التي لم تكن لأحد غيرهم من أهل عُمَان طيلة الأزمان، ولهذا حسدتهم الأمم في سائر الأقطار والحمد لله.

❊ ❊ ❊

إمامة الإمام عبد الملك بن حميد العلوي

لا يخفى أن عبد الملك كان من الرجال الذين لهم الحل والعقدة في عُمَان، كان عبد الملك هذا من أبطال رجال المسلمين وما انتخبه للإمامة ولا اختاروه لها بعد غسان إلا لما رأوه من صلابته في الدين وشدته على العتاة المتمردين، وكان عبد الملك من رجال دولة محمد بن أبي عفان، ومن الدعاة لحرب راشد بن النضر.

قال الإمام السالمي رَحِمَهُ الله في مقدمة دولة محمد بن أبي عفان: ويقال إن عبد الملك أو قال كان عبد الملك بن حميد يومئذٍ شابًا، أي عندما اتفق المسلمون على الخروج لحرب راشد بن النضر، قال: وكان يدعو المسلمين على المبايعة على راشد بن النضر، أي يدعو للخروج عليه وعلى حربه، وفي ذلك الوقت هو في قوة شبابه، ثم وقعت الخيرة على محمد بن أبي عفان أي في ذلك الوقت لاسيّما وقد جيء به لذلك من العراق، ولما رأوا من محمد بن أبي عفان خلاف المأمول ورأوا عزله عن الأمر كان عبد الملك معهم: فاختاروا الوارث بن كعب لتلك الأحوال الكريمة المؤهلة للوارث الشهم الهمام المقدام الذي تجرأ على قتل جندي السلطان الغشوم الجائر على عباد الله، حتى مضت أيام الوارث المجيد ورأوا غسان الكفؤ الكافي لحمل هذه المهمة العظيمة، وهي الإمامة فبويع غسان وكان وفق أمل المسلمين، فمشى بها غسان مشية الأمين المأمون، وقام بواجب الدين خير قيام، فحمده المسلمون ولم يروا فيه غير الحق، ولا انتقدوا شيئًا من أعماله حتى جاءه ما لا بد منه يرفع له يده عنها قائلاً له بلسان الحال: أديت ما عليك لها وقمت بواجبك فيها، وأخذت حظك منها فهلم إلى خير منها وأبقى، فاختاره الله إلى جواره وتوفاه إلى رحمته، فكان الخلف الصالح لها هو عبد الملك بن حميد العلوي المرضى من بني علي بن سودة بن علي بن عمرو بن عامر العلوي الأزدي، وبنو علي هؤلاء هم أهالي ينقل من الظاهرة، وينتقل هذه هي إحدى عواصم آل نبهان في أيامهم، وكان عبد الملك سيدًا من سادات المسلمين، بويع

بالإمامة يوم الاثنين لثمان ليال بقين من شوال من سنة [٢٠٧هـ سبع[1]] ومائتين في أيام المأمون بن هارون الرشيد، وقيل كانت بيعة عبد الملك بن حميد لثلاث بقين من ذي القعدة من السنة الذكورة، وهي سنة سبع ومائتين وذلك بعد ما ولي الخلافة المأمون.

قال أبو الحواري: وقيل النقل عن أبي الحسن البسياني، بايعوا لعبد الملك بن حميد على ما بويع عليه غسان بن عبد الله، وغسان إنما بويع على ما بويع عليه أئمة العدل من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى الشرى في سبيل الله ﷻ، وعلى إظهار الحق وإخماد الباطل وعلى الجهاد في سبيل الله، وقتال الفئة الباغية، والمراد بأئمة العدل الذين بويع الوارث بن كعب على ما بويعوا عليه، هم أبو بكر وعمر وأمثالها من أئمة المسلمين؛ لأنه لم يكن قبل الوارث بعُمَان إمام إلا الجُلَندى ابن مسعود رحمه الله.

وكانت هذه البيعة هي الأصل في الإمامة وعليها يدور محور إمامة المسلمين منذ الخلفاء الراشدين، قال الإمام السالمي: فسار عبد الملك الإمام سيرة الحق والعدل، واتبع أثر السلف الصالح من المسلمين، ومن حيث أنه تولى الخلافة وهو في مؤخر عمره، أي بعد ما ذهبت قوة الشباب وبقي يسانده وقار الشيب. قال: صارت عُمَان به خير دار.

قلت: وَلِمَ لا تصير به خير دار إذ كان أميرها ذلك العَلم النزيه والفيصل الفقيه، العابد الزاهد الهمام المهام، عمدة المسلمين في الحلال والحرام، وحجتهم في حقوق الملك العلام، إذ عاش آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، قائمًا بحقوق شريعة الله، عاملاً بسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وبذلك تفقد الدنيا كل مؤذ في الدين، وترى حولها كبكبة المؤمنين، وزعامة المخلصين هذا بالنظر إلى أهل الحق والدين، وإما أهل السوء والسفه فذلك مما يسأمون منه ولا يريدونه؛ ولكنهم لم

(١) في الأصل [٢٠٨ ثمان].

يكونوا حجة في شيء ما، إنما الحجة أهل الحق وهم الذين لهم فيها الأمر والنهي، وقد صارت عُمَان في عهدنا العصيب الذي كفرت فيه الدنيا أو كادت أن تكفر، أفضل قطر في بلاد الله، حيث لا قناصل ولا نصارى ولا يهود ولا نفوذ الأجنبي ما، وأعلنت الصحف بذلك على اختلاف أنواعها وشهد بذلك الأجانب وغيرهم، فهذه تواريخ عصرنا هذا، تعبر عن ذلك مع فقر في البلاد وقلة المواد وصوت عُمَان عالٍ في الأفق مسموع، تصغي إليه الآذان الواعية، وما ذلك إلا للحق الذي هم عليه، فمن جاء عُمَان أيام الأئمة رأى لوائح العدل ولوامع الشريعة ظاهرة، ورأى كريم الأعمال وحميد الخصال، وصادق الخلال ومن جاءها في غير ذلك رفع عنها ما رأى كابن بطوطة الرحالة في أيام بني نبهان، وترى العلماء يتمثلون بأيام بني نبهان؛ ليؤنبوا بها غيرهم، ممن لم يقوموا بواجب الدين من الأمراء والزعماء؛ لأجل الرجوع إلى الحق والانصراف عن الباطل مهما كانت دواعيه، وباتفاق العلماء أن الإمام عبد الملك سار بعُمَان سيرة الأئمة العدول، وقام بالحق قيام القادة الفحول، فلم يعب عليه شيء من أعماله، إذ تولى الأمر وهو مستحكم الأحوال كلها، فهو كامل العقل صحيح الرأي، عالي النظر في سن الرشد والكهولة.

قال أبو الحسن: بايعوا لعبد الملك بن حميد على ما بويع عليه غسان، فقام بالحق إلى أن كبر وخافوا على الدولة من الضياع، وعلى الأمر التعطيل، فقام موسى بن علي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأمر الإمام عبد الملك، وشد أزره، وكان إذ ذلك كما يقول أبو إسحاق: شيخ المسلمين يومئذٍ إمام العلماء، وعلم من الأعلام المجتهدين ولم يزل على ذلك إلى أن مات الإمام.

قال أبو المؤثر: وحدثني الثقة أن عبد الملك بن حميد الإمام قد ضَعُف وسقطت قوته، وثقل منه السمع والبصر، إلا أنه قد كان يسمع ويبصر، أي يسمع الشيء اليسير ويبصر كذلك، قال وقد كان في عسكره القتال أي ربما كان بين

العسكر اختلاف يؤدي إلى شق العصا، ثم يصطلح بوجود القائمين المسددين للأحوال. قال أبو المؤثر :وكانت ضعفته قيمًا بلغنا أشد من ضعفه الصلت بن مالك، قال: وسألوا موسى بن علي عنه وعن الواجب في حقه الذي أن يعامل به ما دام في ذلك الحال، فأجابه أن إمامته ثابتة عملاً منه بالواجب في حق الإمام من المساعدة ما لم يدع داع يتبين منه عجز الإمام، قال ولم يستحل موسى بن علي رحمه الله عزل الإمام بذلك الأمر الواقع عليه من الله، قال: وقال أبو الحسن: وكان بعض المسلمين أظن أنه المنذر بن البشير يصدر عن موسى بن علي إذا رآه لم يعزل عبد الملك، وكان يقول: هذا الشاب يصدعنا إذا لم يعزل الجبل، يعني الإمام عبد الملك، إذ كانوا يرون عزله لـمّا كان نازلاً منزلة العجز الجسمي، نظرًا إلى أن الإمام إذا فَقَد قوته وجب عزله إذ يكون بذلك الحال مقصّر أو العاجز عن القيام بالواجب يشهد عجزه عليه، فيجب عزله سواء كان حسيًا أو معنويًا، وعلى هذا أكثر أهل العلم، إلا أن موسى بن علي لا يرى عزل عبدالملك؛ لأن الأمور جارية مستقيمة والأحكام نافذة، وأمور المسلمين في أيدهم لا يعارضهم فيها معارض، فأحب أن لا ينكد على الإمام حالاً من الأحوال.

قال: وقال محمد بن الحسن: كَتَبَ موسى بن علي إلى الإمام عبد الملك في أمر رجل، ثم إن الرجل أتى موسى بن علي، فقال رد الإمام كتابك ولعله أراد أن يغريه على الإمام بذلك المقال، فقال أبو علي رحمه الله هو المأمون علينا وعليكم، قال: وكان الإمام عبد الملك يطرد المهرة ويطلبهم من عُمَان؛ لسفكهم دماء المسلمين في بلادهم، قال: وكانوا يلقون بأيديهم ولا يقبل منهم. قلت: هذا كلام لا يحسن السكوت عليه، فإنه إذا كان الإمام وهم يلقون بأيديهم إليه ولا يقبل منهم فماذا إذًا يقبل وأنت تقول ويلقون بأيديهم، ولا شك أنه إذا كان يطلبهم وهم يلقون بأيديهم إليه أن ينتصف منهم، قال حتى أشار عليه موسى بن علي رحمه الله أن يقبل منهم ويؤمنهم فأمنهم.

قلت: هذا هو الواجب في هذا الحال قال: وكانوا قد سفكوا دماء المسلمين ولم يصرحوا على أي شيء سفكوا دماء المسلمين، والظاهر أنهم قتلوا جباة المسلمين إذ خرجوا إليهم؛ لجباية الزكاة فتخالفوا وتقاتلوا وغلبوا على المسلمين هناك، إذ توحدوا بهم والتفوا حولهم، ولعل هناك جنايات من عهد المقتولين منهم مع راشد بن النضر في وقعة المجازة، إذ قتل فيها المهرة، حيث هم كانوا الجيش وأكثر القتلى في بني نجو من أهل عُمَان، إذ كانوا عُمدة جيش راشد بن النضر، فبقيت بينهم وبين أهل عُمَان حزازات في النفوس، أخذوا بها أهل عُمَان عندما أرسلوا لقبض زكاتهم، فكان المهرة يهددون أهل عُمَان بذلك كما سوف ترى ذلك في إمامة الإمام المهنا بن جيفر، وما عاملهم به الإمام المذكور عند حتى أراهم قوة المسلمين تطأ على كواهلهم.

ولم تقع أيام الإمام عبدالملك حوادث مهمة، بل كانت أيامه رَحِمَهُ اللهُ أيام سلم وراحة واستراحة، إذ كفَّ الله عن أهل عُمَان العوادي المخوفة فأمنوا واطمأنوا في بلادهم والحمد لله، قال ابن رزيق في سيرته: سار عبد الملك سيرة الحق والعدل والإنصاف، واتبع الأثر الصالح من السلف الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وصارت به عُمَان يومئذٍ في أمان واطمئنان، بويع يوم الاثنين لثمان بقيت من شوال سنة ٢٠٨ مائتين وثمان، ولم يزل قائمًا بالعدل آمرًا بالمعروف حتى كبر وزمن وضعف.

قال: وفي زمانه كانت تقع الأحداث في عسكره، قال: فشاور المسلمون الشيخ العالم موسى بن علي في عزله مع كبره، وضعف بدنه وذهاب قوته، فأشار عليهم أن يحضروا العسكر ويقيموا أود الدولة. قال: فحضر موسى العسكر، وأقام أودهم أي ردهم عن اعوجاجهم ومنع الباطل، وعبد الملك في بيته لم يعزلوه ولم يزيلوه حتى مات، وهو لهم إمام برئ من الطعن والريب، وكانت ولايته إلى أن ضعف عن القيام ثماني عشرة سنة على الاتفاق، إذ هو لما بويع له بالإمامة كان

كبير السن واتفق الكل من المؤرخين أن الإمام عبد الملك لم يختل شعوره ولا يتزعزع عقله، ولا وقع فيه أي خلل، بل كان ضعفه في السمع والبصر وأعضاء الحركات؛ ولكنه بقي في إمامته مقبولاً مطاعًا تولى العلماء مصالح الجيش وعلموا بما كان من حقوق الإمام، حيث كان موجودًا، فهم منفذون لأوامره لا يتبرمون منه ولا يرون في أعماله ما يرد، ألا ترى ذلك الذي قال لموسى بن علي: إن الإمام رد كتابك، قال له :هو المأمون علينا وعليك تسليمًا لأوامره واعتمادًا على نظره، وذلك مما ينبغي ما لم يدع إلى عزل الإمام داع ضروري لاسيّما مع وجود أهلية القائمين بالأمر جزاهم الله خيرًا عن اجتهادهم في أحوالهم، والله ولي التوفيق والتسديد.

وأما ما ذكره شكيب أرسلان فلم يصح عند المسلمين. وليتهم عاملوا الصلت بن مالك رَحِمَهُ اللهُ بما عاملوا به عبد الملك بن حميد، وكان حقيقًا بذلك؛ لكنهم اجتهدوا لله مع الأول، إذ كان الوزير موسى بن علي العالم الرضي الذي كان همته جمع شمل المسلمين والتفافهم حول راية الحق المبين، ولما قام الصلت بن مالك كان الوزير الأكبر موسى بن موسى، وأين في النّاس كموسى بن علي، فكان موسى بن موسى بخلاف ما كان عليه أبوه، ومن سوء الحظ أن مات موسى بن علي وهو شاب فخلفه موسى الثاني، فكان الفرق كما بين الثريا والثرى، فموسى الأول محله إمام عادل، ولو بايع بالإمامة كان أهلاً لها وأما موسى الثاني فكان زعيمًا غشومًا أقرب إلى الرئاسة منه إلى العدالة؛ ولكن مقام أبيه في المسلمين أحله ذلك المحل، ولكل درجات مما عملوا.

❋ ❋ ❋

قوام دولة الإمام عبد الملك بن حميد

اعلم أن الله جعل المسلمين إخوانًا وأعوانًا لبعضهم بعض، وجعل أعوان كل إنسان بحسب حاله وما هو فيه، ومن حسن حظ الإمام عبد الملك بن حميد أن جعل له أعضادًا من خيرة الرجال، وأنصارًا من القادة الأبطال، وفي مقدمتهم الشيخ الولي العلامة الرضي موسى بن علي السامي الأزكوي عمدة أهل العلم في زمانه، وقدوة أهل الفضل في أوانه، مرجع المسلمين في المهمات الدينية، وحجة القائمين بأوامر خير البرية، وإليه يشير الإمام النضر في لاميته، حيث يقول:

«وأين في النّاس كموسى بن علي»

ومن قوام دولة الإمام عبد الملك بن حميد الشيخ الفاضل الثقة الجليل هاشم بن غيلان الهميمي من أهالي بلدة سيجا من أعمال سمائل، كان هذا الشيخ رأسًا من رؤوس هذه الدولة الجليلة، وكان هاشم بن غيلان من المراقبين لكل ما يطرأ على الدولة من الأحوال الظاهرة، ومن الناظرين في سير الأعمال تدلك على ذلك رسائله الطويلة العريضة، فيها النصح ممزوجًا بالنقاش في الفتيل والنقير، بحيث لم يترك وجهًا يخشى عليه فيه من جانب الإمام، أو من جانب المأمومين عملاً بواجب الوارد في الكتاب والسنة، وأكرم بدولة رجالها أمثال هؤلاء الفطاحل، وما كان للمسلمين غرض فيما قاموا له وما قعدوا عنه إلا الحق، لا يراعون حظوظ الدنيا ولا منازلها، فإنها أمور لا أهمية لها عند المسلمين، ولم يقوموا لغرض دولة تجمع لهم أموالاً أو تبني لهم قصورًا، أو تغدق عليهم أرزاقًا، فإن ينفق كل شهر سبعة دراهم وربما فضلت عن قوته فيرد الفاضل إلى بيت المال رحمهم الله ورضي عنهم.

ومنهم عمر بن الأخنس الذي صلى بالمسلمين صلاة الجمعة في الأيام التي مرض فيها الإمام عبد الملك من غير أن يأمره الإمام، وكان الإمام في حال مرضه موجودًا بنزوى، وكان موسى بن علي حاضرًا معهم، وأجاز صلاتهم ولم ير

عليهم نقضًا، أما ابن محبوب فرأى نقض صلاة الجميع، وكل واحد من الشيخين حجة يتعلق بها، ليست من قبيل التاريخ في شيء، وإنما هو من قبيل التاريخ هو نقل صلاة عمر ابن الأخنس مع وجود الإمام بنزوى مريضًا، ولم يأمره الإمام، وبعد ذلك فليقل الفقهاء أقوالهم، ومن رجال دولة الإمام عبد الملك وقوام أمرها: عزان بن الصقر، وهاشم بن الجهم، ومحمد بن علي، ومحمد بن موسى، والأزهر بن علي والعباس بن الأزهر، وسعيد بن جعفر، وأضرابهم، وهم كثيرون متفرقون في النواحي، وفي مقدمتهم الشيخان العالمان موسى بن علي وهاشم بن غيلان: فهما اللذان لا يزالان مراقبين الأحوال تمام المراقبة، وموسى بن علي رئيس على هاشم فهو قطب الرحي وعمدة الدولة، وكان علامة جليلاً ملأ اسمه آثار المسلمين، والله يختص برحمته من يشاء.

فأكرم بدولة هؤلاء رجالها وزعماء أعمالها وساسة أمورها الذين يراقبون الله ﷻ في سرهم وجهرهم، ويراعون مصالح الأمة على ضوء القرآن والسنة:

إذا سخّر الإله ناسًا لسعيد فإنهم سعداءُ

❊ ❊ ❊

نصائح العلماء للإمام عبد الملك

ما زال علماء المسلمين وبالأخص المسؤولين عن شؤون الدولة يحررون النصائح للإمام؛ ليكون دائمًا على يقظة في الأحوال، وعلى اهتمام في الأعمال، وعلى مراقبة لحقوق ذي الجلال، وعلى دراية كاملة من حركات أهل الضلال، وعلى الاستقامة في الأمور الدينية والدنيوية، إذا لم يولوه الأمور ويمهلوه، ولا ليضعوا الثقل على واحد ويضيعوه، بل هم معه في جميع الأحوال، فانظر في نصائحهم تجدها تلاحظ الفتيل والنقير، معنية بأمر الدين قبل كل شيء مما يدلك على إخلاصهم لله ﷻ، وحسن معاملتهم لإمامهم، وحسن قيامهم بأمورهم، فهم الرجال الذين تحيا بهم الدنيا وتسعد بهم الأمة، وتقوم بهم معالم الإسلام،

جزاهم الله خيرًا وغفر لهم، ولا فراغ لنا نسرد فيه تلك النصائح التي قالوها، ومن أرادها فهي دانية القطوف ناضجة الثمر غالية المقاصد، وقد ذكر الإمام السالمي رحمه الله أنموذجًا منها مفرقًا في غصون التاريخ العُمَاني، وأن فيه كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد.

* * *

وفاة الإمام عبد الملك بن حميد رحمه الله

من المصائب في الدين، موت علماء المسلمين، وأئمة العلم والدين؛ ولكن سنة الله في عباده التي خضع لها كل جبار، ورضي بها الأخيار والأبرار، جارية على الإجبار لا على الاختيار؛ لتدل أهل العقول على عظم الملك الجبار، وعجز العبيد عن البقاء وأن كثر الدرهم والدينار، وعلت القصور والخول، فكل ذلك لا أثر له ولا اختيار، فهو البرهان الصحيح لذوي العقول، وأهل الاعتبار على حقيقة التخلية والتنصل من كل أمل وكل جند، وخول وانحصار الأمر الحقيقي للإله الواحد القهار، فالعجز عن رد حادث الموت يخبر عن العجز والذل والحيرة والدهش، وقطع النظر والعلائق كلها عند البعث والنشور، إلى المليك الفرد فلا شفيع ولا مجير، ولا مستجار يوم لا يكيف رعبه ولا يقاس خوفه، تنتفي فيه المعارف، وتنقطع فيه العلائق، وينتهي فيه التوجه إلى الله رغم الأحوال كلها، جاء عبد الملك رحمه الله ما جاء إخوانه والأنبياء والرسل قبله، فتوفى إلى رحمه الله ليلة الجمعة من شهر رجب لثلاث خلون منه سنة ست وعشرين ومائتين للهجرة: وكانت إمامته رحمه الله ثماني عشرة سنة وسبعة أيام، وذلك في خلافة الواثق بالله، فأصيب المسلمون بمصابة رزية فادحة؛ ولكن كون ذلك محتوم يتسلى المسلم عنه، وبوفاة رسول الله ﷺ، عزاء لكل مسلم، وإذ ذاك بايع المسلمون المهنا بن جيفر بدلاً من عبدالملك بن حميد:

والمهنا ومن كمثل المهنا قوة لم تجئ بها الأقوياء

إمامة الإمام المهنا بن جيفر اليحمدي

اعلم أن الإمام المهنا بن جيفر كان أعظم إمام في آل اليحمد بن حمى، وإن عظمته كانت دينية ودنيوية، وقد قام بواجبه في عُمَان حتى عظم قدرها في أيامه، وعلا شأنها في عهده، وطار لها صيت في البلاد العربية المجاورة لها.

وكانت بيعته رَحِمَهُ اللَّهُ في اليوم الذي أصبحوا فيه مصابين بإمامهم المجيد، عبد الملك بن حميد، فلما زال عنهم الجبل قام لهم جبل أضخم منه، وذلك اليوم هو يوم الجمعة من سنة ست وعشرين ومائتين لثلاث خلون من رجب، بايعه العلامة الجليل الذي طالما طالبوه أن يزيل عنهم الجبل، وهو موسى بن علي السامي الأزكوي، عمدة المسلمين في أيامه، وقطب دائرة الأعلام في عهده، وذلك بعد ما محض النصيحة وفرغ من مشورة المسلمين الذين هم أهل الحل والعقد، في ذلك العهد بايعه فرضى المسلمون بيعته، إذ كان عمدتهم في دينهم وحجتهم، في دنياهم، وهو قطب الوقت إذ ذاك والعلم هو الذي يسود الأمة، ويقيم أودها ويرفع أعلامها، والقيام بواجب الشريعة في الأمة أمر مفروض على الكل، خلافًا لأهل الأهواء الذين لا يرون ذلك، كما بسطنا ذلك في «العُرى الوثيقة» ردًا على المبطلين لواجب الإمامة في الدين، وكانت البيعة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويدخل في هذين الوجهين كل خير في الدنيا والآخرة، وكل شر، فإن الحق مهما كان داخلاً في المعروف، والباطل بأنواعه داخل في معنى المنكر، والأمر بالمعروف يتناول مصالح الأمة لها دينًا ودنيا، كما أن النهي عن المنكر كذلك، ولا أبلغ من زين الاسمين كتابًا وسنَّة وعقلًا ونقلًا، ولا يشذ عنهما أمر أبدًا مهما كان، فقام الإمام المهنا في عُمَان خير قيام عرفه أبطال الإسلام، فوطئ رَحِمَهُ اللَّهُ آثار المسلمين، ونهج منهج السلف الصالح في الحل والترحال، وسار سيرة المسلمين، وما زايلها قيد شعرة.

قال أبو الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: سار المهنا سيرة المسلمين الصالح، وقام بالحق ما شاء

الله إلى أن مات، والمسلمون له مجمعون، وبأمر يعملون، والولاة في أيامه هم الصادقون.

قلت: إن دين الأمة من دين ملوكها، فإذا كان ملك الأمة المهنا بن جيفر فكيف لا يكون الولاة صادقين في أعمالهم صالحين في أممهم مصلحين لشعوبهم، وكيف لا يكونون كذلك وأمرهم يرجع إلى الصالح وراءهم والمصلح لأعمالهم يا لتلك الأيام ما أحلاها، ولتلك الأعمال ما أعلاها حيث يكون العامل يقوم بأماله باسم الإمام العدل كالمهنا:

والمهنا ومن كمثل المهنا قوة لم تجئ بها الأقوياء

قال أبو الحسن لم نعلم أن أحداً أظهر عليه منكرًا من عظمة المهنا في عُمَان، كما قال الإمام: كان المهنا رجلًا مهيبًا، وكان له حزم في رأيه، وكان لا يتكلم أحد في مجلسه شرف الوقار وعز سلطان التقى. قال: ولا يعير خصمًا على خصم، ولا يقوم أحد من أعوانه ما دام هو قاعدًا حتى بنهض هي هيبة الإسلام تدهش كل من يرنو إليها والهدى روع العدا.

وإذا ألبس الإله أحدًا لباس عز وشرف، فلا غروى إذا اندهشت له القلوب وذهلت له العقول، فكم اندهشت لرسول الله عليه الصلاة والسلام، ولعمر بن الخطاب الإمام الرضي، وكذلك غيرهم من أئمة المسلمين وعمدتهم في الدين، وكم عند علي بن أبي طالب ذهلت عقول كثير من النّاس، وللحق هيبة عالية تذهل لها قلوب كثير من النّاس.

قال أبو الحسن: ولا يدخل أحد العسكر ممن يأخذ النفقة إلا بالسلاح، أي لا يدخل على الإمام المهنا عسكره إلا وهم مسلحون، حتى الهيبة لباس الشراة وتيجان رجال الدولة، وهو أيضًا عنوان الحماس، قال: وكان له ناب يفتر عنه إذا غضب فتظهر له هيبة عظيمة، أي إذا غضب إلى أن يظهر نابه فإن له هيبة تأخذ من القلوب مأخذها.

قوة الدولة أيام المهنا بن جيفر

اعلم أن المهنا بن جيفر رحمه الله، جد في تقوية الدولة في عُمَان، لإرغام الأعداء وكبح جماح أهل الباطل فيها، فجمع قوته إذ ذاك، فكانت مضرب المثل في ذلك العصر، كان رحمه الله كما يقول الإمام نقلاً عن الأعلام: اجتمعت إليه من القوة البرية والبحرية ما شاء الله.

قيل إنه اجتمع في البحر أسطول عظيم ضخم بلغ ثلاثمائة بارجة حربية مسلحة بالسلاح العصري، تحمل راية الإمام مهيأة لحرب العدو، وإنها لعظيمة في ذلك الوقت بالنسبة إلى عُمَان في الجزيرة العربية، قال: وكان عنده في نزوى سبعمائة ناقة وستمائة فَرس تركب عند أول صاروخ، قال: فما ظنك بباقي الخيل والركاب، في سائر ممالكة. قلت :إذا كانت هذه قوة نزوى فقط وهي في قلب عُمَان الداخلية، ففي الثغور أعلى من ذلك أكثر وأجل، قال العلامة الصبحي رحمه الله: بلغني أنه كان عند الإمام المهنا بن جيفر تسعة آلاف مطية. قال: ولعلها لبيت المال، قلت: لا شك أنها لبيت المال، فإن المهنا لا مال له إلا أموال المسلمين، وإذ ذاك فعُمَان لا جمارك فيها، وإنما المراد ببيت المال الزكاة فقط، وما يغنم المسلمون في الفتوح من الكفار، قال الصبحي المذكور: وكانت عساكره بنزوى عشرة آلاف مقاتل، قال: وهؤلاء بنزوى خاصة فكيف بعساكر غيرها؟ قلت: هذا يكفي مقاسًا على عساكر غيرها، والله يرفع من يشاء ويؤيد من يشاء من عباده فله السلطان القوي وحده. قال: وكثرت الرعايا في زمانه، قلت: كيف لا تكثر والمهنا إمام المسلمين، وكيف لا تكثر فيها ناصب أعلامه، فإنه هو الذي ينمي الأمة ويكثرها كما يقل: إن العدل يعمّر والجور يدمّر، وإذا كان الماء لا يكون له طحلب كما في أيام الإمام غسان، فكيف لا يكون له نبات وزهر طيب وثمر حلو تعيش فيه الأمة.

ومن قوة إمامة المهنا أن المهرة كما هي ألصق بعُمَان، لا تزال تابعة لعُمَان

ذلك العهد، وكانت أيام المهنا من أعماله، وكان اتصال المهرة بعُمَان شائعًا ولهم في عُمَان معاملات، ولا يزالون في العواصم العُمَانية، وكان للإمام جاب خصيص لزكاة الماشية في المهرة، هو عبد الله بن سليمان رجل من بني ضبة من خصوص أهل منح، وكان يسكن عز قريبًا من منح فخرج إلى مهرة؛ لجباية الزكاة كعادته، حتى وافى وسيم بن جعفر المهري، أحد زعمائهم، وكان قد وجبت عليه فريضتان، فامتنع الوسيم من دفعهما معًا، وإنما أذعن بدفع فريضة واحدة، وتغالظ هو وعبد الله بن سليمان، فقال وسيم لعبد الله: إن شئت أن تأخذ فريضة واحدة، وإلا فانظر إلى قبور أصحابكم.

قال الإمام: ولعله يريد قبور من قتل هناك من الشراة أيام الإمام عبد الملك بن حميد، كما أشرنا إلى القضية في تاريخ الإمام المذكور. قال الإمام: فقد وقع بين الإمام وبعض مهرة حرب، فأرسل الإمام إليهم السرايا حتى دوخهم، وأذعنوا بالطاعة للإمام، وصاروا كسائر أهل عُمَان، واختلطوا بهم اختلاطًا مباشرًا، فلما سمع الجابي عبد الله بن سليمان ذلك الكلام من الوسيم، وَعَلِمَ أنه إذا غالظه لابد هو مقتول، والدار نائية والشقة بعيدة، ورأى مجارات هؤلاء البغاة على ما يحبون، يخرب أعمال المسلمين ويحل بالأمور، تأخر الجابي عن الأخذ والمطاولة، وانسحب عن الجباية وكرَّ راجعًا إلى عُمَان؛ ليبلغ الأمر إلى إمامه بعُمَان، وكان قد خرج معه من عُمَان صاحب له جِمال كان سفرهما على جماله، فلما خرج عبد الله بن سليمان عز وطنه المعروف، وأرسل الجَمّال إلى الإمام؛ ليخبره عن الواقع، فقدم الجَمّال إلى نزوى فوجد الإمام في مجلسه في بيت الإمامة، فلما انفض النّاس وارتفع الإمام من مجلسه المشار إليه، دعا بالجمال في مكانه الخاص به، فسأله عن عبدالله بن سليمان، وكيف كان سفره، فأخبره عن وسيم بما كان منه فقال له الإمام: اكتم ولا تخبر أحدًا بما أخبرتني به، وأكد عليه تمام التأكيد في الكتمان، وكان الإمام إذ ذاك في غضب على وسيم، فلما

وصل عبدالله بن سليمان إلى الإمام سأله الإمام عن خبر وسيم، فأخبره بمثل ما أخبره به صاحبه المذكور، فكتب إلى والي أدم ووالي سناو، ووالي جعلان، أن إذا ظفرتم بوسيم بن جعفر المهري فاستوثقوا منه وأعلِمُني، وكأنه يأتي غالبًا من هذه النواحي، وأنه لا يزال يأتي عُمَان لذلك أمر الإمام هؤلاء الولاة أن يقبضوا عليه؛ لأنه كثيرًا ما يتردد على هذه النواحي، وأهل عُمَان كذلك لا يزالون يختلطون بالمهرة، ولعل وسيمًا لما رأى عبدالله بن سليمان انسحب خاف منه عند الإمام، فجاء مقتفيًا أثره؛ ليتسمع عن الإمام ماذا يقول؟ وأغلب الظن لديه أن أمر مهرة ناء عن عُمَان، وأن أمر الزكاة غير كبير في نظره، كما أن ارتداد العرب بعد النبي عليه الصلاة والسلام كان من قبيل الزكاة، وأن أبا بكر رضي الله عنه تجرد لإخضاعهم فسكنت نعرتهم ورسخ الإسلام فيهم وسرعان ما كتب إليه والي أدم أنه قبض على وسيم وانه استوثق منه، أي جعله في وثاقه، فأرسل إليه الإمام أبا المقارش يحيى اليحمدي المعروف مع جماعة من أصحاب الخيل، ثم أنفذ إليه كتيبة أخرى، فالتقوا بهم في الطريق بموضع المنائف بالصحراء ثم أنفذ إليه كتيبة أخرى فالتقوا بهم في قرية عز، ثم أنفذ إليه كتيبة أخرى فالتقوا بهم في قرية منح.

قال: فلم تزل الكتائب من الإمام تتراسل إلى وسيم بن جعفر المهري حتى وصلوا به إلى نزوى في أربع كتائب من جيش المسلمين، وقد بلغت الأهمية من الإمام بوسيم مبلغًا، فأمر الإمام بحبسه، ولعل ذلك كان حيث إن أخلاطًا بعُمَان من سائر بلاد العرب يريد الإمام أن يظهر لهم الشدّة والقوة، حتى لا تتأمل نفوسهم العتو على الحق والتمرد على العدل، وأن تذل نعرتهم وتنطفئ نخوتهم، وتسير السائرة من عُمَان باهتمام الإمام البالغ حده على المتمردين، قال: فمكث لا يقدر أحد يذكر فيه ولا يسأل عنه، ولا يتحدث عن خبره حتى وصل جماعة من المهرة، أي من أعيانهم فاستعانوا على المهنا بوجوه اليحمد، قال: فجابهم إلى إطلاقه وشرط عليهم ثلاث خصال، أي واحدًا منها فأجابهم إلى أحدهما

وهي إما أن يرتحلوا من عُمَان. قلت: وهذا يحدثنا عن وجودهم بعُمَان وجودًا محسوسًا، ولهم علاقات بالإمامة، ولعلهم يأتون لعطايا من الإمام، قال: وإما أن يأذنوا بالحرب، وإما أن يحضروا الماشية كل حول إلى عسكر نزوى، وتشهد على حضورهم العدول، أي من المسلمين أنه لم يتخلف منها شيء، وتعدِّل الشهود المعدلون بأدم: فقالوا: أما الارتحال فلا يمكننا، أي حيث لهم أعمال وروابط تربطهم بالمسلمين، قالوا: وأما الحرب فلسنا نحارب الإمام، وأما الإبل فنحن نحضرها، أي وهذا أهون الأمور الثلاثة. قال: فعند ذلك أمر الإمام بتعديل الشهود، فكانوا يحضرون إبلهم في كل سنة تدور في شهر خاص عين لإخراج الزكاة، فكانوا يراعون ذلك الشهر، فيأتون بماشيتهم إلى نزوى، وفي هذا من إظهار المسلمين ما لا مزيد عليه، وتلك ثمرة القوة التي أرشد إليها القرآن الكريم في قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ [هود: ٨٠]، ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥]، وإنها لهي كرسي الملك وعرش الزعامة، وعلى قدرها تبلغ الدعوة في النّاس ولها يخضع العتاة.

* * *

أعمال الإمام المهنا مع البغاة وأهل الفساد

اعلم أن أعمال الإمام المهنا مع أهل الفساد والبغي شديدة، وربما كانت قاسية لاقتلاع جذور البغي والفساد من أهلها، فانظر إلى معاملته وسيم بن جعفر، حيث أودعه الحبس حول سنة لم يقدر أحد يذكره عند الإمام، وبعد ذلك لما وافقهم على إطلاقه مع تعهدهم للإمام عنه بالإذعان والطاعة، شرط عليهم تلك الخصال مع أن الجاني واحد منهم، وإن كان زعيمًا فألزمهم قبول إحدى تلك الخلال، ما ذلك وأيم الله إلا لتأييده وتدعيمه بالدعائم القوية، فأذعنوا لأخفها وطأة، وهو سوقهم مواشيهم من مهرة إلى منح ونزوى؛ لأداء الزكاة، وكان أن يقصدهم الجابي إلى أماكنهم فسبّب ذلك تهديد وسيم لجابي الإمام، وهو عبدالله بن سليمان الضبي من أهالي عز.

ومنها أن رجلاً طعن رجلاً في جسده ولعله بحديدة حتى أدماه على ما يظهر من كلام الإمام رَحِمَهُ اللهُ، فأمر الإمام بالطاعن فجلد تسعين سوطًا، وقال: تسفك دماء المسلمين على بابي، وكان على الطاعن أرش طعنته وتأديبه بما يقتضيه نظر الإمام، فأدبه رَحِمَهُ اللهُ بسوطه تسعين جلدة.

قال الإمام السالمي رَحِمَهُ اللهُ: وذلك على قول من لم يجد للتغرير حدًا، وإن زاد عن قدر الحدود، وهو قول من أقوال المسلمين وعليه كثير من علماء المسلمين؛ لأن جعل التغرير والتنكيل والتأديب موكول إلى نظر القائم بالأمر من إمام ووالٍ وقاضٍ ونحوهم، وعليه إن رأى أن يزيد على الحدود المقررة فله؛ لأن الشارع حدد وأطلق، فما حدده فلا يمكن مجاوزة تحديده، وما أطلق علماء المسلمون أنه موكول إليهم، ألا تراه يقول للأزواج في ضربهم لزوجاتهم إذا خالفنهم ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ [النساء: ٣٤] فجعل غاية ضربهن الطاعة لأزواجهن، وإن كان أكثر العلماء يرون أن التعزير لا يتجاوز أقل الحدود وهو تسع وثلاثون جلدة؛ لأن أقل الحدود حد العبيد وهو نصف حد الحر أربعون جلدة، فاستعمل الإمام رَحِمَهُ اللهُ الشدة في التعزير؛ ليسود الأمن وتطمئن الأمة في أحلاس بيوتها، لا يعدو بعضها على بعض، وقد عمل بمثل الإمام المهنا رَحِمَهُ اللهُ الإمام الصلت بن مالك، في تعزيره لعبدالله بن نصر، إذ ضربه خمسين سوطًا، وإن قيل لعله اقتدى بالإمام المهنا، قلنا هذا أيضًا مما يؤيد عمل المهنا؛ لأنه لو لم يكن حقًا ما اقتدى به الإمام الصلت، والعلماء إذ ذاك متوافرون، وإليهم حل الإمامة وعقدها، وما الإمام إلا كواحد منهم إلا فيما كان خاصًا به، أي من خصوصيات الإمامة والغرض من هذا كما قلنا زجر الأمة وردعها.

فلله در الحق ما أعلاه وما أسده نظرًا وما أهداه

ومن شدته على أهل البغي والفساد أيضًا ما عامل به بني الجُلَندى، فإن بني الجُلَندى كما سبق في علمك أيها القارئ الكريم، إنهم كانوا يعدون أنفسهم ملوكًا في عُمَان، وأن لهم ما ليس لغيرهم، وكانوا كلما لاحظوا فرصة أو رأوا غفلة، هاجموا مركزًا من مراكز المسلمين بعُمَان، فتقوم الإمامة الحالية فتقمعهم كما فعل بهم الإمام الجُلَندى بن مسعود رَحِمَهُ اللهُ، إذ ضرب أعناقهم وقاموا في أيام زعيمهم راشد بن النضر وخرجوا على دولة المسلمين، فقام لهم رجال الحق فأرغموهم على الرجوع إليه، ووقعت وقعة المجازة من الظاهرة فدوختهم، وفرقت بهم في البلاد وهكذا، ثم قاموا في أيام الإمام المهنا بن جيفر فهاجموا توؤامًا أي البريمي؛ ذلك لأن الوالي كان غير آمل أن يهجم عليه عُمَانيون ليحتلوا البلاد، وعلم الإمام عليها، وصولة الإمام المهنا معروفة، وهي لا شك أنها مرهوبة، ولعلهم ظنوا أن الضعف بدأ يدب في جسم الإمامة؛ لأن المهنا أخذ في السن، وبدأ الضعف الجسمي يحتل منه قواه، فسولت لهم أنفسهم ذلك.

وقال الإمام: وفي أيامه أي المهنا تحرك بنو الجُلَندى، قال: ورأسهم يومئذٍ المغيرة بن روشن الجلنداني، قال وشايعهم ناس من أهل الفتنة، فدخلوا توأم، وكان أبو الوضاح والياً بها للإمام فقتلوه رَحِمَهُ اللهُ، فقام الإمام لقمعهم، وجهز لهم جيشًا ولى قيادته الصقر بن عزان، وأمر علي بن أبي مروان رَحِمَهُ اللهُ، وكان والياً على صُحار، بأن يخرج بمن عنده معهم، فسار أبو مروان بجيش من صُحار وفيهم المطار الهندي، وكان من أبطال الرجال، وكان أميرًا في جيش صُحار على الهنود، وكان للإمام جيش في صُحار من الهنود خاصة، كان المطار قائدهم، فكان الجيش اثنى عشر ألفًا، فهاجم الجيش البريمي ودارت رحى الحرب بينهم، فأنّى لآل الجُلَندى الوقوف في وجه ذلك التيار الجارف، فقتل من قتل منهم وانفضوا في الأرض هاربين، وانتصر الجيش عليهم انتصارًا كليًا. قال الإمام: فقتل من قتل من البغاة، وهزم الله جمعهم، وهرب من هرب منهم وفرق الله شملهم.

قال: وعمد المطار الهندي ومن معه من سفهاء الجيش إلى دور بني الجُلَندى، إذ كانوا متأهلين فيها آمنين مطمئنين، وبذلك اغتروا فأحرقوها بالنار، وفي الدور الدواب مربوطة من البقر وغيرها، وكان الرجل من السرية يلقي بنفسه في الفلج حتى يبتل بدنه وثيابه، ثم يمضي في النار ليقطع عن الدواب حبالها وتنجو بنفسها من النار، قال الإمام: فقيل أحرقوا خمسين غرفة أو سبعين غرفة لبني الجُلَندى ومن معهم، فهربت النساء من تلك البيوت لائذات بالصحراء على وجوههن، يختفين فيما روعة من الجيش، فلبثن بالصحراء ما شاء الله، وكان الجيش يشدد الوطأة إذا رأى امرأة حاملة طعامًا أو ماءً أراقه وأتلف الطعام لعله لرجل هناك، فاضطرت النساء من الجوع، وكان الجيش مخيمًا بالبريمي حتى إن أمة انطلقت إلى القرية بالليل تلتمس طعامًا وشرابًا لسيداتها في الصحراء، فحملت ما وجدت سويقًا وماء في سقاء من أسقية اللبن، فحملت فيه ماء وحملت السويق معها، ولعلها أيضا حملت بعض الأثواب للنساء، فرآها رجل من رجال الجيش متوجهة إلى النسوة بذلك السويق، وسقاء الماء فأدركها الرجل، فعمد إلى السويق فأخذه فصبه في الرمل وعمد إلى الماء فأراقه، ثم انصرف عنهن وخلى النسوة يضرهن.

قال أبو الحواري: فلم يقل لنا أحد إن أبا مروان أمر بذلك ولا نهى عنه، قال: ولعله قد نهى عنه ولم يسمع. قلت: يحتمل ذلك أشياء أخرى منها لعله علم عنهن ضررًا على المسلمين ككونهن عيونًا للبغاة أو محاربات أو جارمات على المسلمين، ولم يفعل فيهن شيئًا إلا أخذ السويق والماء، ولم يستحله أكلًا أو شربًا ولعل أبا مروان أيضًا لم يعلم بذلك، فكيف يقال ما نهى عنه، ولعله معرة الجيش وأنى بأبي مروان العِلم بجميع ما يفعله الجيش من أحوال، مع أن قيادة الجيش كانت إلى الصقر بن عزان، فما وجه لوم أبي مروان ووقت الحرب تقع من الجيوش أشياء قد لا يعلم بها القواد والمسؤولون إلا بعد مدة من وقوعها، وقد قضى عليها فيتدارك الأمر ما أمكنه، وربما سكت عن ذلك في الحال سياسة يقتضيها الحال.

والخلاصة أن الإمام دوخ آل الجُلَندى هنا بعدما رأوا أنهم قادرون على الخروج، إذا توفرت عليهم النعم وشايعهم على ذلك من غره هواه، وقاده الباطل لما يهواه، فكانت عاقبة أمرهم خسرًا، وبعد الفراغ من الأعمال تداول المسلمون القضية انتصارًا وانتقادًا، فأرسل الإمام رحمه الله من ينظر فيما أحرق على أهل توءام ممن لم يدخل في فتنة آل الجُلَندى، ويقوّم أموالهم بالأثمان. قال الإمام، نقلاً عن أبي الحواري: ثم بلغنا أن الإمام بعث بعد ذلك رجلين إلى توءام إلى القوم الذين احترقت منازلهم، فدعوهم إلى الإنصاف ويعطونهم ما وجب لهم من الحق.

وقد تداول العلماء هذه القضية فيما بينهم نقدًا وردًا، وذكرها الصائغي في نظمه وحررها الإمام السالمي في جوهره، فكانت برهانًا لمثل هذه الأحوال التي تقع من معرات الجيوش في كل جيل، والحجة أعمال أهل العدل لا أفعال أهل البغي والباطل، فيجوز كسر قوة أهل البغي والفساد بهدم البيوت وقطع الأشجار، وتخريب الديار، وكل ما يوهن الباغي: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الحشر: ٥] حتى لا تكون لهم قوة يرجعون إليها يومًا ما، فإذا تبين هدم بيوت غير المستحق أو قطع نخلهم وأشجارهم، فعلى المسلمين ضمانه في بيت المال؛ لأن الخطأ في الأموال مضمون على كل حال، إن لم يحل الشرع إتلافه، وقد قام الإمام رحمه الله على آل الجُلَندى فقمعهم، ثم قام لمن لم يدخل في بغيهم وقوم أموالهم ودوابهم وبيوتهم، وليس عليه في دين الله إلا ذلك.

ومنها أن الإمام المهنا لما كان شديدًا في أعماله مع أهل البغي والفساد، كان ولاته أيضًا كذلك؛ لأنهم كما في الحديث الناس على دين ملوكهم، ومن ذلك كان أبو مروان واليًا على صُحار، كما عَلِمتَ ذلك وكان شديدًا. قال الإمام: كان أبو مروان يشدد على النّاس المخالفين أن يظهروا بدعتهم كالقنوت ورفع الأيدي في الصلاة ونحو ذلك، ومنه تقديم تكبيرة الإحرام على التوجيه؛ لأن هذا كله مما خالفونا فيه، قال الإمام: قلت إلا تقديم تكبيرة الإحرام على التوجيه، فإن فيه قولاً

بجوازه في المذهب؛ لكن لم يعلموا به أي عملوا بما هو الأرجح عندهم، وهو أن التوجيه من سنن الصلاة ومن مقدماتها، وأما نفس الصلاة فقد حصرها الشارع صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: أولها التحريم وآخرها التسليم، فكانت الصلاة بهذا النص الصحيح محصورة بذلك، فتبين أن ما كان بينهما داخلاً في حكم الصلاة، وما عداه فلا. قال الإمام: وإنما عمل به المخالفون أي تقديم التحريم في الصلاة، فصار شعارًا لهم؛ فلهذا شدد عليهم الوالي المذكور.

قال أبو إسحاق في تعليقه: إن مخالفينا يمنعون متى اتخذوا مسائلهم دعاية إلى مذهبهم، وفتنوا أهل المذهب في دينهم، ويدلك على هذا ما سبق لك مما كتبه العلامة هاشم بن غيلان رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الإمام، لما ظهر القدرية والمرجئة وغيرهم بصُحار أيضًا وفتنوا النّاس في دينهم، فإنه كتب إلى الإمام بمنعهم أو إخراجهم من صُحار، بل من عُمَان، أما الذين كانوا على التزام السكينة ولا تخشى منهم بادرة، فإنهم في حرية مذهبهم دون أن يصدهم عنه أحد. قال: ولما كانت صُحار العاصمة البحرية، ومشهورة بسوقها يومئذٍ صار الأوفاض التي ترد إليها من كل أرباب المذاهب والدسائس كثيرًا ما لعبت هناك، وكلفت الإمامة شيئًا عظيماً من المال والرجال، وهددت الأمن؛ لهذا كان رجال الدولة بعد ذلك يتخذون الحيطة الضرورية للمفاجآت وكذلك الواجب:

ومن رعى غنمًا في أرضٍ مسبعةٍ ونام عنها تولى رعيها الأسدُ

واعلم أن عُمَان كلها ما كان فيها إلا إباضي صحيح العقيدة صالح العمل، حتى اختلط بهم من قومنا أخلاط أخذوا منهم كل غث، وكيف لا ونفس المجاورة دليل العدوى وسبب لها، والصبر يفسد العسل، وقرين السوء لابد أن ينال منه مقارنه.

واعلم أن هذا الدين لا تحفظه إلا بشدة كشدة عمر بن الخطاب رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولو كان لين القول يظهر دعوة لكان رسول الله حلو المناطق

ولكنهم لم يخضعوا له حتى رأوا السيف أحمر يلمع في الأفق، ويقطر دمًا، فحينئذ قالوا أخ كريم وابن أخ كريم ملكت فأسجح.

ولا ريب فإن الإمام المهنا صان الدين بتلك الشدة، وحفظ البيضة بتلك الصرامة، ولله يومه بين أيام الدهر بعُمَان. قال أبو إسحاق رحمه الله لو سلك الأئمة بالإمامة مسلك الإمام المهنا ﷺ، لكانت عظمة الإمامة بالغة أوجها، وكان من الدول العظمى إلى اليوم، فرحم الله أولئك الرجال العلماء الذين أبصروا منهم الحق فأيَّدوا الإمامة، ونصروا الإمام على عدوه إلى أن لقي الله وهو في عزِّ الإسلام راضيًا مرضيًا، ولكل درجات مما عملوا، والله يتولى من عباده الصالحين.

* * *

حزم الإمام المهنا ويقظته في الأمور

كان الإمام المهنا بن جيفر رحمه الله على جانب عظيم من الحزم، وعلى منتهى حدود الفطنة من اليقظة، وبذلك قامت له هيبة في عُمَان، حتى اهتزت لها الأرجاء والنواحي، وحتى التزمت المهرة لها سوق ماشيتها من المهرة إلى نزوى، وكيف لا وثلاثمائة سفينة تمخر عباب البحر حاملة للعلم العُمَاني، محافظة للبحر من القرصنة، وخمسة آلاف فرس مهيأة لأول صارخ، وتسعة آلاف ناقة لها أهميتها في ذلك الوقت، معدودة لرد كل باغ على المسلمين بغير حق، وإني أنقل لك عن الإمام السالمي رحمه الله أكثر من غيره؛ لأنه الموثوق به عند الخاصة والعامة المقبول عند الأمة قبل غيره، قال في تحفة الأعيان:

كان الإمام قد أسن وكبر حتى أقعد فاجتمع إلى موسى بن علي جماعة من النّاس، وهو أي موسى بن علي قاضٍ للإمام المذكور، وهو شيخ المسلمين ومرجع الفتوى، وهو يومئذٍ شيخ الإسلام ووزير الإمام، ورأس أهل الحل والعقد، يرجع إليه بالمشورة خصوصًا فيما يتعلق بشؤون الدولة والبيعة والخلع، هما أكبر شيء إذ ذاك في نظر المسلمين، فقالوا له: إن هذا الرجل يعنون الإمام قد أسن وكبر

وضعف عن القيام بذا الأمر، يعنون الإمامة، فلو اجتمع النّاس على الإمام يقيمونه مكانه كان أضبط وأقوى على ذلك، قال: فخرج موسى إلى الإمام، فلما دخل عليه جعل يسأله وينظر حاله، فعرف الإمام معناه وفهم مراده بذلك، فقال له: يا أبا علي إلي والله لئن أطعت أهل عُمَان على ما يريدون، لا أقام معهم إمام سنة واحدة، وليجعل لكل حين إمام ويولون غيره ارجع إلى موضعك فما أذنت لك في الوصول إلي، ولا استأذنتني ولا تقم بعد هذا القول، هذا ما فهم الإمام من الشيخ الولي موسى بن علي، وإنه لحق لا يجهله من مارس الأمور وتنبه للمحذور، والمعنى لو فتحنا هذا الباب لأهل عُمَان لوقع التلاشي في الأمر، فالأولى أن نسد الباب قبل أن يتسع الخرق على الراقع.

وكان من سياسته وحزمه ويقظته لعواقب الأمور ما ذكره الإمام في صحيفة تسع وخمسين ومائة، قال من خيف على الدولة منه أكل ماله السجن. ومعناه أن من خاف الإمام ضياع دولة المسلمين منه تناوله فأودعه في السجن، وبيع ماله لطعامه، وهذا من أعظم ما أذل به الإمام من خاف منه الضياع في الدولة، وأن هذا من الحزم بمكان لا يخفى على أهل السياسات الدولية، ونترك النقاش فيه لمحل آخر، بل واجبنا الآن من هذه الناحية توضيح حزم الإمام، وبديع سياسته في المقام، ولولا ذلك لما قامت عظمة الإسلام في عُمَان، وحسبك أنهم لقبوه صاحب الناب، وكانوا يهددون به البغاة، فيهتزون له رعبًا، وليت أمور المسلمين كذلك كلهم، ولو كانوا كذلك لما لعبت الخلاعة دورها. وأقول بحق لم تعرف عظمة ولا هيبة الإمام في آل اليحمد كعظمة المهنا وهيبته، وذلك يرجع إلى حزمه وعزمه وحسن يقظته في الأمور التي ابتلى بها، فكان لِنَابه مزيد وصف في شخصيته الموقرة؛ ولكن الدهر لا يرضى ببقاء أحد طيلة أيامه، وأن المهنا بن جيفر بمنزلة قيد الأرض في آل يعرب، فإنه جمع هيبة الدين والدنيا وعظمة البر والبحر، وناهيك بجيش في البحر تحمله ثلاثمائة سفينة، وفي البر تحمله النياق والخيل.

ولا شك أن ضبط الممالك تحتاج لمثل نحو هذه الأعمال، فأكرم بالمهنا وبأعماله في عُمَان، ولو دوّنت أخبارهم وأعمالهم لكانت منتهى العظمة الدولية، وما دون منها ضاع، وبقينا نلتمس ذلك من ابن رزيق الشاعر الذي يريد أن يكون من أهل العلم المؤلفين، ومن سرحان بن سعيد الأزكوي وتاريخه، لا نجده إلا في المكاتب الأجنبية، وقد بُدِّل وغيّر، ومن العوتبي الصحاري ومن منثور الفقهاء في آثارهم عند مدحهم لمن يرضون أو قدحهم لمن يتهورون، ومن المفهوم الذي تدل عليه إجماليات أقوالهم ولو دونت الأخبار لما احتجنا إلى ابن الأثير يقول فينا الغث والسمين ولا صاحب المروج.

* * *

وفاة الإمام المهنا بن جيفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ

كان من قدر الله ﷻ لما خرج العالم الوحيد موسى بن علي من عند الإمام المهنا في تلك الحال التي قام بها الطالبون لعزل المهنا بدعوى أنه قد شاخ وعجز عن القيام بأمور المسلمين، وأن شيخوخة المهنا أقوى من شباب غيره؛ ولكن طبع بني آدم الملل، ولو لم يطل العهد، فلما رجع العلامة الجليل موسى بن علي توفاه الله في اليوم التاسع من شهر ربيع الأول من سنة ٢٣٠هـ ثلاثين ومائتين، وكان ولد ليلة عاشر من جمادي الآخرة سنة ١٧٧هـ سبع وسبعين ومائة، فيكون قد عاش رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثلاثًا وخمسين سنة، وهو بهذا قد مات في أول نضوج معارفه، واستكمال شعوره واستفحال عقليته، وقيل كانت وفاته في سنة ٢٣١هـ إحدى وثلاثين ومائتين، فيكون قد عاش فقط أربعًا وخمسين سنة.

قال الإمام: والأول أثبت. قلت: فإن صح الثاني فيكون رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأول أصح الأدلة جلية وبقي الإمام بعده متأثرًا بوفاته تأثرًا لا مزيد عليه، وكذلك لأسباب عديدة لا يجهلها إلا القدم الغبي.

وتوفي الإمام المهنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوم الجمعة والنّاس في المسجد، قد حضروا لصلاة

الجمعة، فبعد الأذان الأول جاءهم خبر وفاة الإمام، ولم يقولوا في صلاتهم شيئًا، فصلوا جمعتهم ظهرًا، وقاموا لتجهيز إمامهم، وكان صلى بهم ذلك اليوم خالد بن محمد المعدي، قال الإمام: وفي الأثر كان الإمام مريضًا، وقم الخطيب على المنبر، فبينما هو في الخطب إذ جاء رجل فأخبرهم بموت الإمام، فقطع الخطيب الخطبة وصلى على النبي ﷺ، ودعا ونزل من المنبر وصلوا أربع ركعات، قال: وأحسب أنه كان في المسجد محمد بن محبوب، ومحمد بن علي ولم أبصرهما؛ ولكن توهمت ذلك؛ لأنهم اجتمعوا في بيت المشورة، يتشاورون فيمن يقدمونه إمامًا، وكأنهم أحسوا بموت الإمام في ذلك المرض، قال وأحسب أنه قد كان في المسجد هلال بن منير وذلك لست عشر خلت من ربيع الآخر سنة ٢٣٧هـ سبع وثلاثين ومائتين.

فصلى عليه ابنه جيفر أي كان إمام الصلاة على والده رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولا تسل عمَّا ألم بعُمَان من دهش وروعة لوفاة الإمام حفظ البحر والبر بهمته العلية، وعزيمته القوية، ورعايته الوفية، تحت ظل الديمقراطية الإسلامية والحمد لله الذي له الملك كله وله الأمر سبحانه من قادر كريم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد له الخلق وله الأمر.



إمامة الإمام الصلت بن مالك بن بلعرب الخروصي

لما رأوا حالة الإمام المهنا بَطَلَ الإسلامِ يحيط به الحمام، كما أنه على كل نفس لزام، ورأوا أمرًا لابد منه وهو إقامة إمام ثان يخلف الأول في المسلمين، ويقوم بحقوق الله والدين، اجتمعوا في بيت المشورة وقادتهم العلماء الأمجاد والسادة الأجواد، أقطاب الهدى وعمدة أهل الاهتداء، وهم محمد بن محبوب بن الرحيل القرشي المخزومي، والمعلى بن المنير الفشحي، وعبيد الله بن الحكيم، وبشير بن المنذر، ومحمد بن علي، ومعهم من خيار أهل العلم الذين نشأوا في ذلك الجيل الكريم الذي أحاطه ورباه المهنا بن جيفر رحمه الله، وهم زياد بن مثوبة والمنذر بن بشير، ورباط بن المنذر ومحمد بن أبي حذيفة، وهاشم بن الجهم وعلي بن صالح، وعلي بن خالد، والحسن بن هاشم، وأبو المؤثر الصلت بن خميس، وزياد بن الوضاح، وسليمان بن الحكم، ومن معهم من خيار المسمين، ولله عهد يجتمع عليه مثل هؤلاء الأماجد الأبطال أخيار الأمة وعلماؤها في ذلك العهد، نظر هؤلاء الرجال الفطاحل فيمنة هو الذي ينبغي أن تعقد عليه بيعة الإمامة، فوقعت خيرتهم على الصلت بن مالك، فبايعوه يوم الجمعة عند غروب الشمس، وذلك بعد الفراغ من دفن الإمام الراحل لست عشره خلت من ربيع الآخر سنة ٢٣٧هـ سبع وثلاثين ومائتين، وهو نفس اليوم الذي مات فيه الإمام المهنا رحمه الله، وقام بالبيعة له العلامة الجليل بشير بن المنذر و محمد بن محبوب رحمهما الله.

قال أبو المؤثر: كنا في المشورة لما مات المهنا فوقع في ثوبي دم فذهبت أغسله فرجعت وقد بايعوا للصلت بن مالك، أو قال انقطعت الأمور فسأله محمد بن محبوب قائلاً له: أين كنت أو ما أخرجك من النّاس؟ قال فقلت: وقع في ثوبي دم فذهبت أغسله، قال فاستتابني أي أتهمه في خروجه أنه وقع في نفسه أمر لم يذكره لهم:

إذا سخّر الإله أناسًا لسعيد فإنهم سعداءُ

قال ابن رزيق في سيرته: بايع المسلمون الصلت بن مالك رحمه الله وكان يومئذٍ رئيس المسلمين في العلم والدين الشيخ العالم العامل القطب الفهامة محمد بن محبوب رحمه الله ورضي عنه، بايعوا الصلت على ما بويع عليه أئمة العدل من قبله، قلت: كان قبله أربعة أئمة عدول، وكان الصلت الإمام الخامس: وكانت البيعة له على نسق البيعة لإخوانه المتقدمين.

قال الإمام: وكان المشهور فيهم أي الذين بايعوا الصلت محمد بن علي القاضي، ولعله أخ لموسى بن علي، وسليمان بن الحكم، ثم ذكر الذين سبق ذكرهم، قال: ومنهم أناس من أهل العلم والفضل، وإن لم يبلغوا مبلغهم في العلم منهم بشير بن المنذر، وكان سيدًا من سادات المسلمين بعزمه وقوته على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فبايعوا الصلت بن مالك رحمه الله مع من حضرهم من المسلمين، وقدموه عليهم، وسلم النّاس لهم وسمعوا وأطاعوا، ولم يخالفوا في ذلك، قال أبو قحطان: أجمعوا على إمامة الصلت بن مالك وولايته وولاية من قدمه من المسلمين. قال: وأجمعوا على نصرته وتحريم غيبته والامتناع عن طاعته، قال: وقيل في موضع آخر ثم ولي الصلت بن مالك وكان يومئذٍ بقايا من أشياخ المسلمين وفقهائهم رحمة الله عليهم، وإمامهم يومئذٍ محمد بن محبوب رحمه الله وغفر له، فبايعوه على ما بويع عليه أهل العدل قبله، فسار الصلت بن مالك بالحق في عُمَان ما شاء الله، حتى فني أشياخ المسلمين جملة الذين بايعوه، لا نعلم أن أحدًا منهم فارقه، وعمر الصلت بن مالك في إمامته ما لم يعمر إمام من أئمة المسلمين فيما علمنا، حتى كبر ونشأ في الدولة شباب وناس يتخشعون من غير ورع، يظهرون حب الدين ويبطنون حب الدنيا، ويأكلون الدنيا بالدين، فلما طال عمر الصلت بن مالك رحمة الله عليهم، ملوه لما كبر وضعف، وإنما كانت ضعفته من قبل الرجلين، وأما السمع والبصر والعقل واللسان فلم نعلم أنه ضاع منه شيء ولا نقص منه شيء هذا كلامه نقله عنه الإمام في تحفته.

قال: وسيأتي أنه كان يبرأ ممن عزل الصلت. قال: وكان أبو مروان رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى واليًا للمهنا على صُحار، كما سبق. قال: فعزله الصلت فخرج أبو مروان إلى نزوى، فأقام بها حتى توفي، وولي الصلت بن مالك صُحار محمد بن الأزهر العبدي، وقدم محمد بن محبوب صُحار في سنة تسع وأربعين ومائتين، فولي القضاء بها من قبل الصلت بن مالك فنعم الوالي ونعم المتولي، وأكرم بابن محبوب إذ ذاك السيّد العليم الموقر جرثومة الفضل والشرف، وبصُحار في عهده وهي المدينة الجليلة يرف عليها العلم الأبيض تحت ظل سادة المسلمين أهل الفضل والشرف، ومن ورائهم الصلت بن مالك الذي لا ينكر فضله ولا يجهل مقامه.

* * *

الإمام الصلت يجهز جيشاً لاسترداد سُقطرى

أصلت الصلت للمعادين إصليت انتقام فبادت الخصماء

كانت سُقطرى والمكلأ وحضرموت والمهرة كلها تحت راية إمام عُمَان، حتى جاء النصارى بأسطولهم فهاجموا سُقطرى على غير علم من إمام عُمَان، وهي في شقة بعيدة إذ ذاك، ولا طريق لها من البر والبحر لا يمكن عبوره إلا في الموسم الخاص، وبذلك أخذوا الفرصة لهذا العمل، ومن للإمام ومن لأهل عُمَان أن يعلموا بما في تلك الأجواء ولا برقيات ولا مخابرات ولا طيارات ولا بواخر إلا التي في المواسم المعروفة، وكان القاسم واليًا عليها من قبل الإمام بعُمَان، فاتصلت الأخبار بالإمام بعد مدة طويلة، وكان من جملتها قصيدة أنشأتها امرأة من أدبيات سُقطرى تستنهض بها الإمام وتستغيثه على هؤلاء العائثين في البلاد، وتخبره بالواقع بعبارات تذيب القلوب الجامدة، وتحرق الأذهان المتوقدة، وتحرك المشاعر الواهية، بأشبه بكلام الخنساء ولا ريب للأدب تأثير في القلوب أشدَّ من النار في جزل الغضا، تقول فيها:

قل للإمام الذي ترجى فضائلهُ   ابن الكرام وابن السادة النجبِ

ابـن الجحاجحة الـشـمّ الـذيـن هم كانوا سناها وكـانـوا سادة العربِ
أمست سُقطرى من الإسلام مقفرةً بعد الـشرائـع والـفـرقـان والكتبِ

وهكذا ذهبت تذكر الأحوال الحاضرة بعد الأعمال الغابرة، وتندد بالحوادث الجائرة والأفعال الخاسـرة، وتستثير حفائظ المسلمين على ما أصابهم من أولئك الطغاة المتمردين.

فإنهم لما هجموا على البلاد قاومهم الوالي فقضوا عليه وعلى من معه، وتولوا أمر البلاد كأنها لا زائد عنها ولا رادع ولا راد، فدمروا البلاد وهدموا المنازل، وخربوا المعاهد حتى عَمَّ البلد الكفر، فلا إسلام ولا داعي إليه، ولا أذان إلا نواقيس النصارى، وانتشرت فيها الفوضى وفضت الأبكار، ومزقوا كل ما قدروا عليه في بلاد المسلمين، وفعلوا الأفاعيل المنكرة والحال هم آمنون مطمئنون يفعلون ما يشاءون، وهكذا شأن العدو إذا رأى فرصة في عدوه فلما تحقق الإمام الصلت حقيقة الأمر هزته أريحية الدين، وأشعلت ضميره القوى، وهزته ولا هز العواصف لعالي الغصون، فأجابها بلسان الحال بمثل ما أجاب المعتصم المرأة المغربية، فكانت هذه أخت تلك، فقام لجمع الرجال الصناديد الذين يهشون للجهاد هش الإبل العطاش إلى الماء، فانتقى شرارة الرجال، وجهّزهم تحت قيادة محمد بن عشيرة، وسعيد بن شملال البطلين المنتخبين، وعهد إليهما عهدًا عظيمًا لا تسل عمّا حوى من فقه، وما انطوى عليه من واجب، وما حرّر فيه من آراء، وما بين فيه من سياسة، وأودع فيه من أوامر ونواهي وما جمع فيه من أفكاره المتقدة وحماسه المزدحم، غيرة على انتهاك الحرم، ولو كان القرآن من كلام الآدميين لقلنا إنه قرآنهم، وقد حوى ذلك الكتاب من الآثار ما يبهر الأفكار، كما اشتمل على خمس وثلاثين آية كل آية يحتمل شـرحها مجلدًا ضخماً، ومن الأحاديث النبوية احتوى على معاني أكثر من مائة حديث، لها قيمتها الفقهية، وفيه من التحريض شيء يقيم الجاثم على ركبتيه، ويرد الشارد إلى الحق، ويجعل

الجبان شجاعًا في دينه، بحيث لا يرى للموت قيمة ولا للحياة ثمنًا حتى يدوس على هامة الكفر برغم أنفه، وقد قدر لهم عقيدتهم حتى لا يتزعزع عنها أحد ولو أطبقت عليه السماء والأرض، فاسمع قوله رَحِمَهُ اللهُ: وقولوا كما قال إخوانكم لو ضربونا حتى نبلغ الغاف من عُمَان لعلمنا أنا على الحق وهم على الباطل، وأنهم حزب الشيطان وأنتم حزب الرحمن، وبين حكم ما يغنمون وكيف يفعلون فيه في كتاب يصدق عليه اسم مصنف لاحتوائه على تلك التقارير الدالة على غزارة علمه وسعة فقهه وحسن سياسته، فلله در إمام كالصلت الكريم ما أعلى نظره وما أوفى عمله وأصدق فعاله، وإنه ليحق أن يجعل درسًا فقهيًا يلقن الطلبة فحواه، فإنه لم يبقِ من أحكام الفقه شيئًا إلا ذكره خصوصًا فيما يتعلق بأحوال الحروب، وقد استهله بجواهر التوحيد، وتعظيم الملك المجيد، وبث فيه من المواعظ ما تنفطر له الأكباد، وترق له الأحجار القاسية، ووصى فيه بالتقوى، ودعا فيه إلى الصبر على البلوى، فهو حجة المسلم المخلص لربه، وعماد الشجاع المجاهد في دينه، وكان القائد لهذا الجيش محمد بن عشيرة، وينوب عنه سعيد بن شملال، وكل واحد منهما يقوم مقام صاحبه إن حدث بأحدهما حدث، وفي مقامها حازم بن همام، وعبد الوهاب بن يزيد، وعمر بن تميم، وعرضت تلك الأساطيل لحمل أبطال عُمَان، فكانت مائة بارجة وبارجة حربية مهيأة لغزو العدو، وهي التي أحاط بها الإمام المهنا ابن جيفر البحر العُمَاني، فلا تزال سابحة في البحر ليلها ونهارها، تمخر عباب اليم عليها راية عُمَان البيضاء رمز الإيمان والتقوى، وشعار الرشد والهدى، فساحت تلك الأساطيل الضخمة حتى أحطت أشرعها على الجزيرة، ولا تسأل إذ ذاك عن فرح المسلمين، وضيق المشركين لما رأوا ذئاب عُمَان وأسودها تنزل من تلك البواخر تنادي بالجهاد، وتقتحم حدود البلاد، بالأسياف الحداد، فكم عين باكية، وكم دمعة شاكية وكم طعنةٍ نجلاءٍ نافذةٍ، تزهق روح طعينها حتى تمزق المشركين، واجتمع شذاذ المسلمين وعسكروا بها

للاطمئنان، وكبح جماح العدوان، حتى جرت المياه في مجاريها، وثبتت قواعد الشريعة على مبانيها، وارتفع صوت عُمَان على ربوعها.

قال العلامة أبو إسحاق: المراد بهؤلاء النصارى الحبشة، والظاهر أن عهد الاستعمار البرتغالي للشرق لم يكن منذ ذلك العهد، والعبارة تفيد أن هؤلاء حاولوا الاستيلاء على الجزيرة من قبل؛ ولكن لا قبل لهم بقوة الإمامة، أو كانوا هم من سكان الجزيرة، فتعاهدوا مع الإمام ثم نقضوا عهدهم، قال: ولم يسبق لهذا هنا ذكر ولعله إغفال من المصنف، يعني الإمام السالمي رحمه الله، قال فقوله: خانت النصارى ونقضوا ما بينهم وبين المسلمين، مشعر بهذا. قال ذكر محمد علي الزرقاني في تاريخه المسمى عُمَان صحيفة ثمانين، أن الحبشة تغلبت على سُقطرى في عهد الإمام الصلت، فأرسل أسطولاً مؤلفًا من مائة سفينة استعادت سُقطرى، وطردت الحبشة من الجزيرة.

قال ياقوت الحموي: وفيها أي سُقطرى من جميع قبائل المهرة، وبها نحو عشرة آلاف مقاتل وهم نصارى، قال: ويذكرون أن قومًا من بلد الروم طرحهم بها كسرى، ثم نزلت بهم قبائل من مهرة وتنصر معهم بعضهم إلى أن قال: وسكنها قوم من المهرة وقوم من الشراة، قال: وظهرت بها دعوة المسلمين، ثم كثر بها الشراة فعدوا على من بها من المسلمين، وقتلوهم وأنت خبير أن اسم الشراة مخصوص بجيش عُمَان، وكأنه يشير إلى هذه القضايا، فإن الشراة قتلوا البغاة في سُقطرى وتولوا أمر البلاد، فإن دعوة المسلمين ظهرت فيها بأهل عُمَان، لما استولى العُمَانيون على مهرة وحضرموت ونواحيها، وسُقطرى وما يليها، وكأن النصارى المذكورين هم الأهالي الذين ذكرهم الحموي، وأنهم من الروم وأكثر الروم نصارى، فلعل القوم كانوا على عهد مع أئمة عُمَان، ثم سولت لهم أنفسهم على أن يستبدوا بالبلاد لبعد الشقة العُمَانية، وقيل كان بها قوم من اليونان، وهم أيضًا نصارى، ولما احتلها العُمَانيون بقي النصارى على نصرانيتهم بالعهد، فلذلك

قال الإمام: خانت النصارى ونقضوا ما بينهم وبين المسلمين، وهي جزيرة عظيمة وبها نخل كثير وفيها أمم، فرجعت سُقطرى تحت راية الشراة، ونصر الله الإمام وأيد الله أهل الحق على أهل الباطل، وذلك في عهد قيام دعوة أئمة عُمَان.

كان الصلت بن مالك رَحِمَهُ الله عاصر المتوكل على الله جعفر بن إبراهيم، ثم الواثق بالله هارون بن جعفر المتوكل على الله، ثم محمد المنتصر بالله، ثم أحمد المستعين بالله بن محمد، ثم أبي عبد الله محمد المعتز بالله، ثم جعفر بن هارون الواثق بالله، ثم جعفر المهتدي بالله ابن هارون، ثم أبي القاسم أحمد المعتمد على الله بن المتوكل على الله بن المعتصم بالله، وفي عهد هذا توفى الإمام الصلت بن مالك، فهؤلاء الملوك الذين ذكرناهم عاصرهم أئمة المسلمين بعُمَان، ولم يكن بينهم وبين أهل عُمَان بشيء منذ عهد هارون الرشيد الذي هم بحرب عُمَان، لما قتل العُمَانيون ابن عمه عيسى بن جعفر أيام جاء عُمَان مهددًا بغزو عُمَان، فكفى الله العُمَانيين شره، وشر من بعده، إلى أن قام المعتضد بالله، وقام محمد بن بور والي البحرين على عُمَان، كما سوف ترى ذلك إن شاء الله في محله.

وطول مدة الإمام الصلت في الإمامة م يتحرك عليه أحد من الملوك، وذلك توفيق من الله حتى تحرك عليه أقرب النّاس إليه، وهم قومه وأهل دينه ووطنه، وكان بينهم ما كان مما دوّنه العلماء وطال خطبه لديهم، والأمر لله ﷻ يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فتبين أن شراة الإمام الصلت بن مالك هم الذين احتلوا مدينة سُقطرى، ونشروا فيها الإسلام، وعلموا أهلها الحلال والحرام، وأقاموا فيها منار العدل، وحسبنا إشارة ياقوت الحموي عنهم برهانًا على ذلك، فإن التاريخ العُمَاني الموجود لم يفصل لنا شيئًا عن هذه البلاد، ولا عن النصارى المشار إليهم، وتواريخ الإفرنج لم تتحدث عن الشرق، إلا في حدود القرن السادس الهجري، وهو القرن الثاني عشر الميلادي، والتاريخ العُمَاني قد ضاع أكثره وبقي كلمات مبعثرة هنا وهناك.

الإمام الصلت بن مالك يتأثر بالسن وتبنى عليه الإدعاءات

لا ريب أنه مهما كان يؤثر في الإنسان كل آن، ما طال الزمان كان تأثيره على الإنسان بغير نكران كما قيل:

أليس ورائي أن تراخت منيتي   لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

وهذا أمر طبيعي معقول لا ينكره أحد من النّاس فيما علمناه:

إن الثمانين وبلغتها   قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وهذا من أدلة عجز الإنسان، وأن الكمال لله وحده، فهو الذي لا يعتريه النقص ولا تلم به الأحداث، بلغ الإمام الصلت من الكبر عتيًا، وإذ ذاك اتجهت الأذهان نحو الإمامة فرأى فريق القيام على الإمام ليعتزل، وإن لم يعتزل يعزل، وكان هذا الحال عند العُمَانيين من الصفات اللازمة لهم، وكان المحذور ضياع دولة المسلمين أن يقع فيها خلل أو يطمع فيها أهل الأهواء أو يرى البغي بضعف الإمام فرصة تخوله الأماني للزعامة، فيقع بذلك شق عصا المسلمين، وقد عُلِمَ مما سبق قيامهم على الإمام عبد الملك لما أسن رَحِمَهُ اللَّهُ، قاموا يحاولون عزله ولا زالوا يؤنبون العلامة الجليل موسى بن علي بقولهم هذا الشاب لم يعزل عنا الجبل، وهكذا حتى وقع بين الإمام عبدالملك وموسى بن علي ما وقع، مما فهمه الإمام من نقاش الشيخ العلامة مختبرًا حال الإمام، فرد عليه الإمام بقوله: إذا أطعت أهل عُمَان فإنهم يريدون كل يوم إمامًا، وما أذنت لك في مجيئك ولا استأذنتني ونحو ذلك الكلام؛ لكن الإمام بقى في إمامته؛ لأن الوزير الخطير لم يرض أن يزيل الجبل، ولما رأوا الإمام الصلت بدأ به الضعف اهتموا بأمر الدولة، وظلوا يدرسون الوضع الحالي، وهم بين راغب لعزل المذكور بنشاط، وبين معارض بنشاط، وبين متوسط في الأمر، وكان الصلت واعي الذهن متقد البصير، يهمه أمر الدين لا أقل من الثائرين عليه لعزله، وكان واجبهم شدُّ أزره والعون على مهماته، فإن أمر الدولة في أيدي رجالها، ما كان الصلت بن مالك إلا واحدًا منهم، وهيهات أن

يعارضهم في صلاح يقومون به في الأمة؛ لكن الآراء اختلفت والأنظار تباينت، وبذر الشقاق.

رأى الصلت له طلائع كأنها رؤوس الشياطين، فكان الرأي السديد ركوب أهون الأمرين، وكان الصلت وافر العقل يرى الحقيقة من خلف الستار، وَعَلِمَ أنهم غير تاركيه لما يدري من طبعهم، وكان موسى بن موسى بن علي الزعيم المقدم في أهل عُمَان احترامًا لمقام أبيه العلامة المطاع، في الخاصة والعامة، رأى موسى الثاني له في الأمة ما لأبيه المرضي، فقام محاولاً تلك المنزلة فسار إلى نزوى لهذه المهمة، وتابعه من النّاس الذين هم على رأيه عبيد الله بن سعيد بن مالك الفجحي، والحواري بن عبدالله الحداني السلوتي، وفهم بن وارث الكلبيي من كلب اليحمد، والوليد بن مخلد الكندي ومن شايعهم حتى نزلوا بفرق ثغر نزوى، واشتهر خبرهم، وبلغ الإمام اجتماعهم، هنا تحقق الإمام عزيمة القوم، ولعله رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما رأى القوم مهتمين بأمر دينهم، وبشؤون دولتهم سره ذلك، فقيل إنه خرج من بيت الإمامة قبل أن تصله دعوتهم، وذلك يوم الخميس لثلاث خلون من ذي الحجة سنة اثنتين وسبعين ومائتين، وكان قد مضى له في الإمامة خمس وثلاثون سنة وسبعة أشهر وثلاثة عشر يومًا.

قال الإمام: ولما خرج الصلت بن مالك من بيت الإمامة، بلغ ذلك موسى بن موسى والذين معه بفرق فبايعوا راشد بن النضر ذلك اليوم، وهو يوم الخميس. قال: وتفرق رأي المسلمين يومئذٍ، وفسدت أمورهم واختلفوا فيما بينهم في الرأي، ووقعت الفتنة، وذلك فإن قومًا كرهوا إمامة راشد بن النضر، ولعلهم لا يرونه أهلاً للإمامة، وبعضهم كرهوا نهوض موسى بن موسى ويرونه استبدادًا بالأمر، وامتنع من بيعة راشد عمر بن محمد الضبي، وموسى بن محمد بن علي، ولعله ابن أخي موسى بن علي، وعزان بن الهزبر، وزاهر بن سليمان، وعزان بن تميم، وشاذان بن الإمام الصلت بن مالك، ومحمد بن عمر

بن الأخنس، وغدانة بن محمد، وأبو المؤثر الصلت ابن خميس، هؤلاء العلماء الجهابذة الأجلاء قادة الأمة وهداتها. قال: لم يزالوا مستمسكين بإمامة الصلت بن مالك إلى أن مات رحمه الله .قلت: من المشاكل العويصة حيث إن الإمام تخلى من الإمامة واعتزل إلى بيته الخاص به مسلمًا للأمر، ويبقى هؤلاء الأشياخ متمسكين بإمامته ويعتبرونه إمامًا، وليس في يده من الأمر شيء حسبي الله أنا أجهل تحقيق المقام على هذا الأصل، قال: وبلغ الخبر بموت الإمام الصلت إذ مات رحمه الله ليلة الجمعة بالنصف من ذي القعدة سنة ٢٧٥هـ، ودفن يوم الجمعة، وكان صلى عليه عزان بن تميم، فلما علم القاضي عمر بن محمد خرج إلى نزوى فتكلم قائلاً: اليوم مات إمامكم فتمسكوا بدينكم، أي كأنه يراه باقيًا على إمامته، ولا يرى إمامة راشد بن النضر. قال: وحدث يعقوب بن غيلان عن الفضل بن الحواري أنه دخل نزوى أيام راشد بن النضر، فإذا هم على سبع فرق ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ولا شك أن بذر الشقاق قد وقع، ولابد أن يثمر الافتراق والنظر في العواقب، يجب قبل الدخول في الأمر، وإلا كان فيه الدمار، وكان ذلك رأي العين حتى آل أمر أهل عُمَان على التلاشي، إذ طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، فعوقبوا بشر ما اكتسبوا كما سترى أيها القارئ من ذلك العجب، فإن أهل العلم بعضهم يعذر موسى وراشدًا ويلتمس لهم المسوغ والمبرر، ويحملهم على أحسن الأحوال عنده، وبعضهم يباين المذكورين ويتأول فيهم التأويل الذي يطبق عليهم القضايا السيئة، وبعضهم أشكل عليه الأمر ويقول: كيف اعتزل الصلت قبل قيام الحجة، ويعلم ما عندهم ويجمع المسلمين له ويعتذر إليهم، ويتخلى من الأمر بين أيديهم، وكيف يقوم القوم لعزل إمام ثبتت إمامته بالإجماع، ولم يقترف حدثًا؟ وهكذا صار النقد والانتقاد والاعتراض بين هؤلاء الأطراد، والحقيقة من التمس عورات

أخيه وجدها، فإن كل إنسان له زلات وسيئات ومشكلات يعلمها فريق ويجهلها آخر، وهكذا من يحمل أخاه على أحسن الأحوال يسلم من معرة القيل والقال إن لم ير كفرًا بواحًا أو هوى متبعًا أو إعجابًا برأي ضال، وقد نهى الله ورسوله المؤمنين الافتراق والتنازع؛ ولكن إذا أراد الله أمرًا كان، ولا ينفع فيه نصح ناصح، ولا يؤثر فيه عقل عاقل، وإذا جاء القدر عمى السمع والبصر.

فالفريق الداعي إلى عزل الصلت بن مالك يقول: إن الصلت صار إلى حد الضعف والزمانة العجز عن القيام بالإمامة، وخاف المسلمون ذهاب دولتهم وزوال نعمتهم، وكان موسى بن موسى في وقته هو شيخ المسلمين وإمام أهل الدين، فلما صاروا بفرق مكثوا بها، وقد اجتمع بموسى أخلاؤه وساروا؛ لينظر المسلمون فيما فيه عز الدين، ولما قروا بفرق بقيت الرسل فيما بينهم والإمام، فقال الإمام: ما يطلبون؟ فقالوا قد صرت إلى حد الضعف، ويخافون ذهاب الدولة، ويسألونك أن تعتزل حتى يقوم رجل يُحيي به الله هذا الدين، أو نحو هذا الكلام، قال: انظر في ذلك، فبقوا أيامًا ينتظرون رأيه ثم عزم على الاعتزال وحول ما في منزله إلى المنزل الذي تحول فيه، وأرسل إليهم أني قد اعتزلت، فينظر المسلمون. قال: وممن أرسل إليهم الحسن بن سعيد وحضر قوله هذا الحسن من شاء الله من الشراة، وشهدوا أنه أرسل الحسن بحضرتنا غير مجبور ولا مقهور، ثم برز إلى النّاس وودعهم وداع تارك للأمر معتزل بنفسه عمّا كان فيه من الأمر، وأمرهم بحفظ العسكر إلى أن يصل القوم.

قال: من قال إلى أن يجيء موسى، وقال من قال: إلى أن يجيء إمامكم، وكان عنه في العسكر خلق كثير، قال فناظره من ناظره قائلين له تترك إمامتك فزعق بهم على ما بلغنا، ولم يلتفت إليهم، فعند ذلك انفلت من شاء الله من النّاس الذين كانوا معه إلى موسى بفرق، وجاء موسى رسوله، وكتاب عزان بخطه يستحثهم بالتعجيل إلى العسكر، وكان أمره وأمرهم إلى المسالمة، وعاش بجوارهم إلى أن

مات رَحِمَهُ اللَّهُ ورضي عنه، عاش خادمًا للمسلمين، ومات وهم عنه راضون، وشهد أيضًا ببراءته من الأمر الحسن بن سعيد المذكور ومحمد بن القاسم بن مسبح.

وقال في موضع آخر صحيفة ٢٠٠: فأما الصلت فإنه ضعيف وصار إلى حد العجز عن حمايته وعزل نفسه، وتبرأ إلى المسلمين من إمامته، وكان اعتزاله شاهرًا ظاهرًا ووضحت براءته من الإمامة بالبينة العادلة عندنا. قال: فلما اعتزل ولي المسلمون راشد بن النضر، وبعث الصلت بن مالك إليه بخاتم الإمامة، ومفاتيح الخزانة، ولم يعارضه في شيء قلت: وهذا يدل أنه كانت لهم في الإمامة أعمال خاصة كالخاتم والكُمّة والسيف، فكأنها خاصة بالإمامة، ولم ندر ما صفة هذا الخاتم وما وظيفته، وكذلك الكُمّة، ولم ندر مما هي. قال: وعاش الإمام الصلت في جوار الإمام الجديد قريبًا من سنة إلى أن مات .قال: وليس يذهب عليكم ما كان له من أعوان، ومن الإجابة والقدرة من أهل عُمَان، لو كان مقهورًا أو أراد القتال.

قلت: إذا كان بهذه المنزلة فكيف يقال أنه عاجز وضعيف، أما إذا كان لو أراد القتال استطاعه وأن له على ذلك أعوانًا يجيبون دعوته، فليس بعاجز، لأن الإمام من أصله لا يباشر الحروب بنفسه إلا شذوذًا، أما قتل الإمام الجُلَندى، فلأن الجيش كله فني حتى بقي هو والقاضي، وهو دليل أنه لا يباشر القتال، وإنما كان الجُلَندى باشر القتال، إذ بقي فريدًا مع القاضي، وفضل رَحِمَهُ اللَّهُ الموت مع إخوانه في رضى لله عَزَّ وَجَلَّ، قال الذي يتحدث الإمام السالمي عن الذي يتحدث عنه في تحفته، وعندنا أن موسى كان يريد عزَّ الدين أي وإن لم يوفق فالتوفيق شيء آخر، وصلاح المسلمين الذي أراده موسى ليته كان على غير هذا الوجه.

قال: والذي عرفناه من رأيه وعزمه في آخر عمره أنه كان يريد اجتماع المسلمين مع أهل العلم في الدين والرأي الموثوق بهم حتى ينظروا في أمر الصلت بن مالك، وراشد بن النضر، وعزان بن تميم، فحيث كان الحق تبعه وإنه راجع إلى الحق في ذلك وإلى رأي المسلمين. قال: وكان موسى قد كتب إلى من كتب

إليه من المسلمين من أهل سلّوت في آخر أيامه قلت: هذا يدل أن موسى بن موسى ندم على ما صار، وأراد الرجوع إلى المسلمين والتسليم إليهم، وعدم الاختصاص عنهم، وقال في موضع آخر، وكتب أي الصلت إلى عزان بن تميم بخطه يذكر اعتزاله ويستحثنا على التعجيل، فلما صح عندي أنه برئ واعتزل اتفق المسلمون هنالك على ما كانوا اتفقوا عليه، فهذا أمر الصلت بن مالك وليس عندي فيه شك أو ريب.

قال: وفي كتاب عن الفضل بن الحواري قال في الصلت بن مالك: إن النّاس فيه فِرق: ففريق قال اعتزل، وفريق قال عُزِل وفريق قال استحق العزل، وفريق قال لم يستحق العزل. قال: والظاهر الشاهد أنه قد اعتزل؛ لأنه ترك العسكر وتخلى عن المسلمين وعن بيت مالهم وسلاحهم، وترك سجنين مخوفين قال: وركب بعيرًا وخرج حتى نزل دار ابنه من غير ألا يلقى من القوم حجة ما يريدون أو نصيحة أو عزلاً أو دعاءً إلى توبة، وقال لمن بقى في العسكر: احفظوا عسكركم حتى يأتيكم إمامكم، وقال قوم: أتانا كتاب ممن تخلف على العسكر أن يعجلوا إلى العسكر، والمراد بهم جيش نزوى خاصة. قال الإمام: قد اعتزل فقدم القوم إمامًا وساروا حتى نزلوا العسكر، وقدم إمام مكانه، وبعث إليهم بالخاتم والكلمة وآلة الإمامة، وكأنها أشياء تختص بشعار الإمامة، قال: ولم يقل لهم بيني وبينكم الحق، فإني لم أعتزل. قال فأي اعتزال أبين من هذا من غير أن يرى حربًا ولا اختراط سيف ولا هدًا بعصا ولا رميًا بحجر، فإن قالوا اعتزل تقية خاف على نفسه، فأئمة العدل القاطعة للشرى لا تسعها التقية، وعليها الجهاد حتى تقتل أو تقتل، كما قال الله تعالى. فإن قالوا كما قلنا قد صار إلى حد ضعفه وعجز عن الإمامة وجاز له الاعتزال، ولو أنه خرج هاربًا فلحق بالرستاق أو بالجبل وترك دولة المسلمين، وقال لم أعتزل أو خرج إلى جلفار وأبعد وحده وتخلى عن الأمر، ثم قال: لم أتبرأ كان على المسلمين أن يدعوا دولتهم ويضيعوها

أو يقوموا بها، مع أنها حجة ضعيفة داحضة، واعتزاله كان شاهرًا ظاهرًا، فهو إذا تحول من موضع ولم يكن له إلا أن يعرج بعسكره وخيله ورجاله، وبيت ماله ويدعو القوم إلى الحق، ويكون اعتزاله إلى موضع يرجو فيه الأصلح للمحاربة والاعتذار إلى آخر ما أطال فيه.

فهذه دعوى موسى بن موسى، وراشد بن النضر، وهي محتملة للحق والباطل، وما تعودوا الكذب وما يستحلونه، وترك إنكار الصلت على موسى وراشد يسوغ لهم احتمال الصحة لما ادعوه عليه؛ لأن ترك النكير ممن له النكير حجة، فلو باع رجل مال رجل وهو في المجلس لا يغير ولا ينكر، وهو حر بالغ عاقل قادر على الإنكار غير خائف ولا متقٍ ثبت البيع عليه، ولا يقال للبائع أنه تعدى على غيره، أو أنه ظلمه أو غصبه، فظهر من ذلك احتمال صحة ما ادّعاه هؤلاء.

قال الإمام السالمي رحمه الله: وأما دعوى المتبرئين، أي موسى بن موسى وراشد بن النضر وأعمالهم.

قال أبو قحطان: نشأ في الدولة شباب وناس يتخشعون من غير ورع يظهرون حب الدين، ويبطنون حب الدنيا، ويأكلون الدنيا بالدين، فلما طال عمر الصلت بن مالك عليهم، ملوه لما كبر وضعف، وإنما كان ضعفه من قبل الرجلين، وأما السمع والبصر والعقل واللسان فلم نعلم أنه ضاع منه شيء، قال: فلما ذهب أعلام المسلمين وفقهاؤهم وأهل الورع ومن يطلب الآخرة، وبلغ الكتاب أجله، وأراد الله أن يختبر أهل عُمَان كما اختبر من قبلهم؛ ليعلم المطيع من العاصي، وقد علمهم من قبل أن يخلقهم، ابتلى الله أهل عُمَان برئيس وعلماء من علمائهم، كما ابتلى غيرهم، فلما اختبرهم قل ببصرهم وزالت عقولهم، وحادوا عن الحق، وخالفوا سيرة المسلمين إلا قليلاً، أنقذهم الله.

قال: فخرج موسى بن موسى من أهل بيت علم وورع أي والده موسى بن علي وجده علي بن عزرة، وكانوا أعيان قومهم وعيون أمتهم، وأراد أبو قحطان بالرئيس المشار إليه موسى بن موسى المذكور .قال: فقام موسى بن موسى في أهل

عُمَان يتكلم بلسان فصيح، ويهتف ويصيح في مجلسه، وفي المجامع أي يتكلم في الدولة وأعمالها، ولعله رأى أشياء، لا تنبغي، وما من دولة على عهد الدنيا إلا وهكذا حالها، كما فهمنا ذلك من سير المتقدمين وتواريخ الأقدمين، والمعول على الحق، وله أصول وفروع لا تزال معروفة، وكل شيء عليه أمرنا فهو رد.

قال أبو قحطان: ومرة يطعن في الإمام والقاضي، أي موسى بن موسى قال: ومرة يطعن في الولاة والقضاة والشراة، ومرة يطعن في غيرهم ممن يقوم بأمر الدولة ولا يوضح على الإمام حدثًا أحدثه، ولا على أحد من أصحابه، ولا يسم للإمام بمفكرة ولا يبيّن ما يدعو إليه إلا أنه يظهر أنه ناصحٌ للدولة وأهلها، ويصل إلى الإمام ويتكلم بما لو كان غير الصلت بن مالك لحبسه في السجن أو يوضح على ما يقول برهانًا، أو يمسك لسانه عن شتم أهل الدولة؛ ولكن الصلت كان رفيقًا بأمته، أي يرى لموسى بن موسى مقامًا محترمًا عند النّاس ولا يحب أن يكدِّر صفوه، ويحتمل في نفسه احتسابًا لله، ولا تخلو دولة من هنات، وليت موسى إذ يرى خللاً على الدولة يصلحه من حيث يعلم الإمام، ومن حيث لا يعلم، أو يقوم على الإمام بإخوانه المسلمين وينتقد على الإمام ويسمع هل للإمام جواب معقول أو مقال مقبول، أو عذر صحيح شرعًا يسوغ له ذلك.

قال أبو قحطان: وكان يجله لموضع والده موسى بن علي رحمه الله، قال ولم يكن يأمل فيه هدم الدولة.

قلت: ومن رأت لنفسه ما ليس لها هكذا تقول له نفسه، فإن المسلمين كانوا يجلون موسى بن علي لصلاحه، ويحترمونه لفضله لا لتعاظمه عليهم، وللقدح في أعمالهم ويرى أنه أحق بذلك منهم، وليقل في نفسه ابتلينا بعد ذهاب علمائنا وأخيارنا، وعلينا أن نسدد ونصلح ويشد بعضنا عضد بعض حتى يوفق الله الأمة لما فيه صلاح دينها، لا أن يتكلم مطلق اللسان بغير مبالات في المجالس، كما يذكرون عن هذا الشيخ الرئيس أصلح الله شؤون الرؤساء.

قال أبو قحطان: ولم يكن يأمل أي في موسى بن موسى هدم الدولة؛ لأنه كان يظهر أنه يسعى في عزِّها وعز أهلها، وإذا هو يسعى في هدمها وفسادها للذي سبق في علم الله ﷻ، قلت: لعل ذلك اجتهاده وما كل مجتهد موفق، قال: فلم تزل الأيام ترى به ومجالسه تغلظ وهو يوشب، أي يكبر على الدولة، ويسعى في هدمها وهدم عزها، ويظهر أنه يريد إعزازها حتى انتهت به الأيام أن جمع الأعراب والطغام من النّاس، ومن يسرع إلى الفتنة، قال: فتبعه النّاس على منازل مختلفة من رجل قد أغضبته أحكام المسلمين، وأوعز به فهو يطلب عزتهم، وآخر قد حسد من له في الدولة درجة رفيعة يطمع أن ينال مثلها، وآخر يتعبد بغير بصر فيظن أنه محق، وأنه يطلب حقًا ولا يدري أنه افتتن، قال: فجمع بن موسى النّاس وسار بهمم إلى فرق، فوقعت الفتنة في أهل عُمَان، قال وكان موسى أشدَّ فتنة على النّاس، فإنهم قالوا: إن وشل فرق قد تحول بدعائه عذبًا وذلك بعد ما وصل موسى فرق، ودعا الله أن يجعله عذبًا، قال وحتى قيل لو استنبئ بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم لاستنبئ موسى، قال ولا يمكننا أن نذكر كل ما قيل فيه، قال فلما وصل موسى فرق يطلب عزل الصلت لا يذكر غيره اعتزل الصلت من العسكر إلى بيت ولده شاذان، واستخلف في العسكر من استخلف، قال: والذي ذُكِرَ لنا عنه أنه قال: إنما اعتزل الصلت خوف أن يقع سفك دم بلا حجة، وأنه لم يحضر من يحتج به قال: وفي كتاب الصلت إلى الجمهور بن سنجة يخبره كيف كان اعتزاله.

قال: وذكرت الذي كان في قضاء الله وقدره من سير هذا الرجل موسى بن موسى، ومن كان معه، وقصدهم في ذلك لما أراد الله حتى اعتزلت من الموضع، وبلغك من نهب أموال بيت المال وجعلوه دولاً، وكل ما وضعت من ذلك فقد فهمته عنك إن شاء الله، واعلم يا أخي أن هذه الدولة كان لها رجال لهم حلوم راجحة عالمة، وقلوب سليمة كانوا على أمر واحد يطأ الأخر أثر الأول، وقد

كانت بينهم الأعتاب، فلم يبلغ بهم الأمر إلى مثل هذه الغاية، فلم يزالوا على ذلك حتى مضوا فانقرضوا رحمة الله عليهم، ثم خُلّفنا ونحن وأنتم من بعدهم، وبليت بهذا الأمر من غير محبة مني فيه، ولا طلب له إلا أن طلب ذلك من طلب إليّ من أفاضل المسلمين وأهل الفقه في الدين، ورغبت في طلب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحق ورجوت نُصرة المسلمين على ذلك، فكان يومئذٍ من قد عرفت من أشياخ المسلمين فقمت بهذا الأمر ما شاء الله والمسلمون لي أعوان، ونحن وهم على أمرٍ جامع إلى أن ذهب أهل الفضل، ومن يحب الحق وأهل العدل، ونشأ اليوم شباب وناس ظهرت رغبتهم في الدنيا، وطلبوا الرئاسة فيها، وكان موسى هذا يصل إلينا يقول: إنه يأتي ينصح ويكاتب النّاس، ويؤلب على الدولة، ومرة يظهر الشتم لأهل الدولة، ومرة يطلب خلاف ذلك، فلم تزل الأيام ترقى به وهو يدعو النّاس إنما يطلب لهم الصلاح وإظهار الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويطلب إلينا مطالب لا أراها ولا أعرفها من الحق، ولا مقاربة لذلك وأنا أدعوه إلى كتاب الله وسنة نبيه وآثار أئمة الهدى وخيار المسلمين، ولما يجتمع إليه رأى المسلمين فيقول ويرسل إلي أنا ألا أنظر إلى قول فلان ولا أرضى إلا أن تنزل إلى قولي، ورأي عدله فلم أر ذلك من الحق، ثم، حشد وسار إلينا بمن أجابه، وكتب إلى ما شاء الله من المسلمين، حضر من حضر، وزحف القوم إلينا وتقارب بعضهم من بعض، فأمرت الشراة ومن كان على هذا الفيء بالشخوص، وضع العسكر، وأن يجاهدوا على الدولة فكرهوا، فأمرتهم بالتقدم فتأخروا ولم يصلوا، فكتبت إلى عمر بن محمد القاضي بالخروج إلي ولم يخرج، وخرجت إليه ولم يخرج، وصرت أنا في حد من عرفت من الضعف، وخفت أن يصل القوم ويدخلوا العسكر وتلقاهم الرجال فيقع الحرب بينهم، وسفك الدم وأنا في البيت بلا حجة ولا أمر يكون في إظهار الأمر، فخفت سفك دماء النّاس، فرأيت أن تحولت إلى بيت ولدي بلا ترك للإمامة ولا بخلع لها، ولا طوقني الله من هذه

الأمانة، فأمرت بحفظ مال المسلمين وحفظ السجنين، وأمرت عزان بن تميم بالقيام في ذلك، فلما بلغ ذلك دخلوا وزعم موسى أنه عقد للإمام برأيه وكسروا بيت المال ونهبوه وأذهبوه، وأطمعوا في هذه الدولة عدوها وفعلوا ما لم يرضِ الله به وما اختلعت وما تبرأت.

قال: هذا ما أخذنا من كتاب الصلت بن مالك أكتب لكم الكتاب كله لطول الكلام. قال: ولما اعتزل الصلت بن مالك اغتنم الفرصة موسى بن موسى، وعقد لراشد إمامًا قبل أن يدخل نزوى، ويسأل الصلت عن اعتزاله ويحتج عليه فيه أعن خوف اعتزل أو ضعف عن القيام بحق ما طوقه الله أو امتناع يحدث لزمه منه الحق؟ إن كان موسى يدعي عليه ذلك ولا سأله حجةً، ولا عرض عليه التوبةً ولا سمى له مفكرةً؛ ولكنه عقد على راشد إمامًا على أهل عُمَان بالغلبة والجبرية، وقعد قاضيًا له طلبًا للملك والدنيا، فوطئ موسى وراشد ومن اتبعهما إثر الصلت بن مالك، وولوا ولاته وأنفذوا أحكامه، كأنه ميت ولا نعرف هذا من سير المسلمين، قال: فإن كان الصلت بن مالك محقًا فقد كفروا ببغيهم، قال فلما استقر الأمر لراشد وموسى لبثا في ملكهما ما شاء الله، وهما وليان لبعضهما بعض، راشد إمام وموسى قاضٍ له، يدعو له بالإمامة والنصرة على عدوه، وكان في قرب ولاية راشد خرج عليهما نصر بن منهال وفهم بن وارث أبو خالد ومصعب، وخالد ابن سعوة وناس كثير وكان فهم وأبو خالد ومصعب ممن خرج على الصلت بن مالك وحضرا بيعة راشد وبايعهم فخرجوا عليه بعد ذلك، وأرسل إليهم الجيوش، وكان موسى وليه وذلك يدعو له بالنصر، أي يطلب له من يناصره على الخارجين عليه، قال فلم يزل موسى مع راشد حتى بلغ الكتاب أجله، وأراد الله أن يبدي من عورته ويهتك من ستره فخرج راشد من بعد ما قدمه واختاره.

❊ ❊ ❊

إمامة راشد بن النضر اليحمدي

كان راشد بن النضر وموسى بن موسى ضدين للصلت بن مالك، وكانا يريانه في أعينهما قذًى يحاولان إزالته ليفتحا عينيهما في عُمَان، ويتوليا الأمر عنه نظرًا إلى أن الصلت عاد عاجزًا لا يقدر على دفعهما، ويرى موسى أنه الرجل الوحيد مالاً ورجالاً وشرفًا وأنه ابن العلامة المحبوب المؤيد، وان الصلت لا يصلح وأنهما أعرف بالأصلح وتخيلا في أنفسهما خيالات غرتهما، وكانا مغرمين بحب الرئاسة والترفع على المسلمين، وتآمرا على الصلت بن مالك، وهو على ما يظهر رجل حليم تقي رضي محق في أموره سائر في الأمة سيرة من تقدمه من الأئمة وقورًا لا يهزه النزق يخشى الله أن يسأله يوم القيامة فيعجز عن الجواب، فإنه لما تحقق ضعفه الجسمي ورأى الخلل في جنده، والملل في أنصاره، وخلو الزمان من أهل الحق المناصرين له والقائمين بأمره، ورأى تقحم موسى بن موسى على الأمر، ورأى السواد الأعظم معه وهم عادة يكونون كذلك، ودعا قومه للخروج إلى قتال القوم فلم يجد آذانًا صاغية، والتمس من الذين يأمل فيهم القيام والمناصرة فلم يفعلوا شيئًا، وأمر على الباقين من الشراة ورآهم يتعللون بمعاريض الكلام، تيقن ضياع الأمور من يديه، وموسى وراشد قد عسكرا في فرق، والأمة تنساق إليهما زرافات ووحدانا، رأى نفسه هنا مضاعًا متروكًا على غير جرم ولا سبب، ولا احتج عليه أحد ولا ناظره أحد، ولا خاطبه أحد إلا أن جانبه يسري فيه الضعف وجانب خصمه يسري إليه النشاط، ولا شك أن الحال قاضٍ بسقوط الأمر من يديه على خصمه، فقال: ما يريدون؟ فقيل خلعك عن الإمامة، فعند ذلك خرج من بيت الإمامة تاركًا للأمر عالمًا غير مراد، وحب الجديد وترك القديم أمر تقضى به العادة البشرية، ولعلهم يجدون عند الإمامة الجديدة خير لهم من الحال الذي هم عليه، ومن طبع النّاس الميل إلى الجديد ألا تراهم إذا جاءهم غازيًا انقلبوا إليه على من كانوا معه انقلاب الحية؛ لتتمكن من اللسع، فالصلت

ابن مالك تحقق الرغبة في غيره والترك له، فماذا يفعل؟ فكان خروجه وهو إمام باقٍ على إمامته؛ لكنه مخذول بغير موجب، فلما استقر عند خصومه خروجه عقدوا إمامتهم لراشد، ورأوها فرصة سانحة واغتنموا الأمر غير منافسين فيه، فكان عقد الإمامة لراشد على هذا الأساس وإنه لداع إلى التلاشي والاختلاف، وكأن موسى بن موسى غير بصير بسياسة الأمور، وإنما اعتمد على ما رأى له مقام في النّاس، ومنزله عند الرؤساء، فصال لذلك على الأمر من غير رؤية، وهذا الحال هو الذي سيكون وبالاً على موسى وراشد، قال الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في راشد: وهو من اليحمد من الفجح وهو إمام موسى بن موسى، وفي نفس هذه العبارة ما يفهمه الأذكياء فإنه لم يقبل إمام المسمين، وإنما سماه إمام موسى بن موسى، قال: بايعه هو ومن معه بفرق لما بلغهم أن الصلت بن مالك خرج من بيت الإمامة، فزادهم ذلك قوة ونشاطًا في صددهم وذلك يوم الخميس لثلاث خلون من ذي الحجة سنة ٢٧٢هـ اثنين وسبعين ومائتين.

قال: وكره قوم إمامته منهم عمر بن محمد القاضي، قلت: هذا القاضي هو الذي دعا به الإمام الصلت؛ ليناظره في الأمر فلم يجبه، ثم سار إليه الإمام بنفسه إلى منزله فلم يخرج له، قال: وموسى بن محمد بن علي ابن عم موسى المذكور، وعزان بن الهزبر، وأزهر بن محمد بن سليمان، وعزان بن تميم وشاذان بن الإمام الصلت، ومحمد بن عمر بن الأخنس وغدانة بن محمد وأبو المؤثر وغيرهم من لم يسم لنا، ولم يزالوا متمسكين بإمامة الصلت بن مالك إلى أن مات. قلت: ما معنى تمسكهم بإمامة الصلت، والصلت قد خرج من الأمور راغمًا، وأصبح في بيت ابنه وهم يدعون أنهم متمسكون بإمامة الصلت، وقد تخلى من الأمر فما بالهم لم يقوموا مع الصلت ويقولوا له أنت صحيح الإمامة، ولا يسعك الترك لها، ونحن معك فما معنى هذا التمسك هل تعين عجزهم؟ فيكون لهم عذرًا، هل قاموا بالصلت على عدوه هل آزروه؟ هل غلبوها على الأمر؟ هل تبقى إمامته مع العجز؟

إني أخالك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادا

لما قام موسى بن موسى وراشد بن النضر على الإمام ونزلوا في فرق فأين هؤلاء الذين كرهوا إمامة راشد، وتمسكوا بإمامة الصلت بن مالك، وهم أجلُّ من موسى شأنًا، وأوسع علمًا وأسبق عملاً، وأولى بالأمر، أيكفي يكرهون راشد وبيعة موسى بن موسى، وهم قعود في بيوتهم والحق يرغم ويداس.

قال أبو المؤثر: الصلت بن خميس أرسل موسى إلى راشد بن النضر، فبايعه على غير مشورة من المسلمين، وما حضره يومئذٍ أحد ممن يثق هو به لفتيا مسألة إلا ما شاء الله. قلت: إما أن تكون صحيحة فليس لهم أن يكرهوا الصحيح في دين الله، وإما أن تكون غير صحيحة، وليس لهم السكوت عن ذلك إلا أن تكون تقية، قال: وكان فيما بلغنا بعضهم كارهًا لفعله مشيرًا إليه بغير ما فعل؛ ولكن غلبتهم الكثرة أي هالهم أمر موسى فخافوا.

قلت: لهم أن يخافوا في بيوتهم ولا عبرة بالكثرة فإن مثل هذا الحال لا يكفي فيه الاختفاء في البيوت، إذ هو أمر جامع فعليهم أن يقوموا حتى يتعين عجزهم، فيكون لهم عذرًا عند المسلمين، قال: كان ساعد موسى فيما بلغنا فهم بن وارث وعبدالله بن سعيد، وهما غير أمينين ولا رشيدين. قلت: لما كانا كذلك كان الخروج عليهما من اللزوم بمكان إذ غير الأمين وغير الرشيد ليسا من الحق في شيء، قال: فلما استوليا على الأمر ودخل داخل على راشد، فقال راشد: انصحوني فإني أقبل النصيحة، فظن أنه عند قوله. فقال الناصح: أرسل إلى نفر من المسلمين فقل لهم إنكم لم تشهدوا هذا الأمر، وهما خيار أهل بلدهم معهم شيء من علم وفقه، فقال له: أرسل إليهم فإن اجتمعوا عندك فقل لهم إني قد دخلت في هذا الأمر، فإن كنت مصيبًا فأعينوني وآزروني، وإن كنت مخطئًا فتوبوني، فقال له: اكتب هذا الكلام، أي قال ذلك راشد للناصح الذي نصحه اكتب ما قلت لي فكتبه له كما أراد، فلما اطلع موسى على النصيحة المشار إليها ردها موسى ولم

يرض رأي المسلمين، أي لم يرض موسى ما قاله الناصح فيكون المسلمون شركاؤه في الرأي، فلما رد موسى النصيحة قال لهم قائل: إن الإمامة لا تقوم إلا بمشاورة المسلمين ولا تقوم بمشاورة أهل الإحن ولا بأهل المعصية، ولا سفك الدم ولا بأهل الأطماع. قال: فغضب موسى على أهل العلم واستخفهم، قال: ثم من أتى قبلهم إلى الذي أهدى إليه نصيحته جند من جنود الشيطان، فأخافوه وأرعبوه، أي أخافوا الذي أدلى بالنصح لراشد بن النضر، وكان بنفسه قال: انصحوني فإني أقبل النصح.

قال: ودخلوا منزله فكف الله شرهم وبأسهم، ثم أنه أتى إلى راشد فما استتاباه من ذنب ولا لزمته عندهم عقوبة إلا أن قالا له بايع. فقال لراشد: أبايعك على كذا وكذا بشروط لله على الأئمة، لم يكن موسى يبصرها ولا يعلمها، فأبى راشد أن يبايع على ذلك، وقبض كل واحد يده منهما على غير بيعة، فقال جلساء السوء: بايعه على الجملة. فقال الرجل :لا لكل زمان حكم ولا أبايعه إلا على التفسير، قال: وهم يعلمون لا تفسيرًا ولا جملة لو سألوا عن ذلك لم يهتدوا. قال: إن الرجل قال لموسى بعثتم إلينا من جنودكم من أخافنا وأرغبنا، فقال: إنا لم نبعث أولئك، قال ثم وقعة رمية في الدار التي سكنها راشد، فقالوا كسرت جرة من صبي كان يرمي سدرة أو يرمي طائرًا، قال: فاتهموا بتلك الرمية ابني محمد بن الصلت، والصلت بن مالك أيضًا على غير سبب فيما بلغنا، قال وقد قيل: إن غيرهما الذي رمى ولا نبرئهما ولا نحقق عليهما، قال: فعظم شأن تلك الرمية، فأمر النّاس فأحرقوا بعمهما شاذان بن الصلت، قال: وقد بلغنا عن الثقة وصح معنا أنه كان بعض من هو من حزب الصلت يقول لموسى: نحن نأتيك بالغلامين أي ابني محمد بن الصلت، فكفوا عنا هذه البعوث، ولم يلتفت موسى إلى ذلك.

قال: وقد بلغنا أن عزان بن تميم كان يقول: يا قوم نحن نأتيكم بهما فلم يلتقوا إلى ذلك حتى أحرقوا بهم، وما حارب المسلمون عدوهم من أهل القبلة

بالنار قط، قلت هذا من غرائب الأعمال أن صبيًا رمى بحصاة كسر بها جرة يحرق بالنار، وهو مُسلم أو ولد مُسلم أقل إن لم نقل، ولد الإمام الصلت، فقبل كل شيء أين المروءة؟ وإذا عُدمت فأين حكم الله ﷻ الذي أنزله على رسوله عليه الصلاة والسلام؟ ألا يسع ابني الصلت بن مالك الصبيين الذين لم تتجر عليهما الأحكام بعد، وإذا جرت فأين الحكم اللازم في القضية، أيعامل المسلم بهذا وليس من الحق في شيء ما بالنا نفعل ذلك ونحن نروم إمامة شرعية تخلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أمته فهذه الأعمال بحسب ظاهرها فرعونية نعوذ بالله منها. ليست الإمامة منها في شيء ولا سمعنا عن أحد من أهل الإسلام تكون أعماله كذلك.

❊ ❊ ❊

الأعمال المشتركة بين موسى وراشد في عُمَان

اعلم أن راشد بن النضر وموسى بن موسى كانت أعمالها في عُمَان في حال اشتراكهما في الأمر من حيث إن راشدًا له اسم الإمامة، ولموسى معناها، كان كل ما يفعلانه في عُمَان مشتركًا بينهما، ومن ذلك ما كان في ابني محمد بن الصلت المقدم ذكرهما، فإن راشدًا وموسى كلاهما يعدّ كل واحد يؤيد الثاني، وكذلك ما وقع على ناصح راشد بن النضر حتى ناله بسبب ذلك النصح ما ناله، ثم إن موسى جعل يستكتب كاتب الصلت، أي اتخذه كاتبًا كما كان في عهد الصلت، وهو كان يعيب الصلت ويعيب تلك الدولة، وهذا منها ولم يعلم أنه استتابهم فكيف نعيبهم أمس، وقد رام قلع تلك الشجرة من أصلها، واليوم يتعلق بأغصانها ويستظل بظلها، وكان يعيب نفس الكاتب، ثم أجاز شهادته بعد في ثلاثمائة نخلة جعلها أحد النّاس صداق امرأته، شهد لها بها ذلك الكاتب بعينه، وحكم بشهادته موسى في نفس الدعوى، فتراه يقبله شاهدًا في هذه الدعوى، وهو بالأمس لما مع الصلت بن مالك فإما أن يكون ذلك العيب حقًا فلا يحل له

قبول شهادته حتى تصح توبته، ولم يذكر أنه استتابه، وإن كان ذلك العيب باطلاً فيلزم أن يتوب منه موسى بن موسى ومن تابعه فيه، هذا سبيل الحق عند المسلمين، قالوا: واستعانوا بسعيد بن محمد على قصص جروح لا يؤمن عليها إلا أهل العلم والورع في الدين والبصر والأمانة وهو اليوم كاتب لراشد وموسى، كان يعيب الصلت بصحبته.

قال: ثم إن موسى قرب شاذان بن الصلت، وكان يعيبه ويعيب أباه فجعل يهاديه ، يهدي هذا إلى هذا، ويهدي هذا إلى هذا، قال: ثم إن فهم بن وارث ومصعب بن سليمان خرجا بمن خرج معها من أخلاط النّاس أهل الرستاق وغيرهم حتى نزلوا بالروضة، موضع نحو فرسخين من نزوى، أو يزيد بقليل، وراشد بن النضر بنزوى وكل فريق يدعو إلى قتال الآخر؛ لتكون السيادة والسلطة في يده، والأمر إلى غيره وحب الرئاسة هو الشهوة الخفية.

وذلك أمر لا يرضاه مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر؛ لأن المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، وهو هنا يقتله. وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار». وهكذا إذًا اقتتلا على الدنيا أما على الدين فلا وليس للدين هنا نصيب وإنما هو التكالب على الدنيا.



الروضة تتعرض لقتال عنيف بين أهل عُمَان

كان من قدر الله الجاري به قلم القضاء في الأزل أن يكون بين أهل عُمَان قتال عنيف بموضع الروضة من ناحية تنوف؛ وسبب ذلك الاختلاف وسوء السياسة بين إخوان مسلمين في عقر دارهم، يختلفون فيقتتلون لغرض غير صالح، ومقصد غير صحيح. قال الإمام: وذلك أن جماعة من اليحمد أرادوا عزل راشد بن النضر، وكان من وجوههم فهم بن وارث الكلبي من كلب اليحمد، ومصعب وأبو خالد ابنا سليمان الكلبيان، وخالد بن سعوة الخروصي، وسليمان ابن اليماني، وشاذان ابن الإمام الصلت، ومحمد بن مَرْجَعَة وغيرهم من وجوه اليحمد، فاجتمعوا بالرستاق وكاتبوا مسلمًا وأحمد بن عيسى بن سلمة العوتبيين الصُحاريين، وسألوهما أن يبايعا لهما في الباطنة من العتيك من بني عمران، ومن كان على رأيهم من آل مالك بن فهم، وهم كثيرون في الباطنة منتشرون فيها، فكاتبا نصر بن منهال العتيكي الهجاري من ولد عمران، وكان من الزعماء في أيامه واستجاشا سليمان بن عبد الملك بن بلال السليمي، ومن ولد سليمة بن مالك بن فهم فسألوه المعونة، وكان سليمان شيخًا مطاعًا في قومه بالباطنة، وكان يسكن مجز من صُحار، وله فيها أموال ومساكن، وكان نصر بن منهال رئيسًا تقدمه العتيك في الباطنة، وتطيعه فاستحضر إليهما وبايعهما على نصرة شاذان بن الصلت ومن معه من اليحمد على عزل راشد بن النضر، فأجابهما على ذلك.

قلت: هنا بدأ دور الفتنة يتحفز للنهوض، وقد أيقنت أنها كائنة؛ لأن عملهم الذي عاملوا به الإمام الصلت بن مالك لابد أن تكون له عاقبة، حتى ختموا ذلك بإحراق ابني محمد بن الصلت على غير جرم، ولا يحرق بالنار المسلم مهما كان ضلاله وفحشه، فأراد وجوه اليحمد إحضار الغلامين؛ ليعاقبا على ما اتهما به، وماذا الذي اتهما به رمي حصاة على طائر أو على سدرة، فوقعت على بيت راشـد بن النضر فكسرت جرة، فكان عقابهما أن يحرقا بالنار، وفي

وجه أبيهما الصلت بن مالك الذي تخلى عن الأمر لموسى وراشد من غير حرب، ونزل في بيت ولده شاذان، وأن شاذان هذا وأطأ القوم وسار معهم، وآخر الأمر رأوا الأحوال على هذا المنهج، فضاقت قلوبهم واشمأزت نفوسهم، وأصبحوا يلتمسون الغوائل للانتقام من هذا الإمام، وإن كان منهم ومن أبناء جلدتهم؛ لكن سوء المعاملة يجرح القلوب ويثير الضغائن:

وإن الضغن بعد الضغن عليك يظهر الداء الدفينا

فقام نصر بن منهال الزعيم الكبير في أيامه بالباطنة، وسليمان بن عبد الملك ابن بلال السليمي الزعيم الثاني، فقام المذكوران وتحمسا على الواقع وخرج نصر ابن منهال إلى قبائل الباطنة من العتيك وهم كثيرون أهل عدة وعدد وبأس، ولهم أموال طائلة، وخرج سليمان أيضًا معه؛ ليحرك أرهاط قومه ويستثير حفائظهم ويلهب إحساسهم، فطاف على آل مالك بن فهم من سليمة وفراهيد وغيرهم من سائر أولاد مالك بن فهم، ومن التفت عليهم من القبائل، ومن تأثر بأعمال راشد بن النضر، وصاروا جميعًا يدًا واحدة ولسانًا واحدًا، واتصل القوم بالشيخ شاذان ابن الصلت، وفهم بن وارث ووجوه اليحمد وأهل الرستاق، فأكدوا والبيعة لهم واجتمع جيش ضخم فيه أبطال الرجال وقائده الحقيقي شاذان بن الصلت؛ لأنه المصاب في أبيه وابني أخيه وفي نفسه، وكذلك فهم بن وارث الذي كان أولاً معهم حتى رأى ما رأى مما سئم منه حتى طاش عقله.

قال الإمام: وخرجوا إلى نزوى على طريق الجبل، وعرف جمعهم هذا بالحرب الرستاق فساروا وغرضهم الوحيد عزل راشد بن النضر، ولا شك أن الأخبار عنهم قد طارت إلى راشد ومن معه، وعلى كل حال فإنهم لابد أن يقوموا للقاء العدو الزاحف ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢، ٤٤]، ولتكون الروضة تاريخًا لهذا الحادث. قال الإمام: الخبر قد اتصل براشد بن النضر،

فلما صاروا بالروضة من تنوف من حدود الجوف، وجه إليهم راشد بن النضر السرايا والجيوش، فإنه لما بلغه الأمر الذي يحاوله هؤلاء، وكان يعلم ما سبق منه وأنه لابد من إثارة شر على ذلك، اهتم بجمع الرجال واستنهاض أعوانه وأنصاره وأهل طاعته، فساقهم خيلاً وركابًا ورجالاً، وكان من قواده يومئذٍ عبدالله بن سعيد بن مالك الفجحي، والحواري بن عبدالله الحداني السلوتي، والحواري بن محمد الداهني فكبسوهم في مكانهم ليلاً وهم نزول بالروضة، ولعله على غير دعوة والحرب خدعة، والغافل مأخوذ على غرة، فدارت رحى الحرب بينهم، واختلط الرجال بالرجال، والعدو بالصديق والجبان بالشجاع، والحابل بالنابل، حتى انكشفت الوقعة عن قتل ذريع وقتل في الوقعة أعيان اليحمد وأعيان آل مالك بن فهم.

قال أبو المؤثر: كان راشد بنزوى، فوجه إليهم قوادًا ليس فيهم فقيه ولا أمين على حجة، ولا بصير بسير المسلمين في الحروب، فلقوهم قبل وصولهم إلى الروضة، وسايروهم حتى نزلوا جميعًا الروضة، جند راشد وجند فهم بن وارث وشاذان، وقد أمن بعضهم بعضًا، فلما نزلوا الروضة بات الفريقان أمنا بعضهم من بعض، ثم إن راشد بعث من عنده جندًا أي غير الجند الأول. قال: وعندهم قواد لا فقه لهم ولا فهم، وفيهم عبدالله بن سعيد قائد الفتنة ورأسها، والخطيئة في عدد من النّاس أخلاطًا منهم متمسك يحسب أن الطاعة لزمته، فخرجوا بين مارق وفاسق ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]، فهجموا عليهم في بعض الليل، ففزع بعضهم من بعض، ووقع بينهم القتال، فقتل بالليل عند مهايجة القتال رجل من جند راشد ثم تحاجز الفريقان إلا أنه بقي بقية من الرماة بين العسكرين، قال: ودواور أصحاب راشد بفهم وأصحابه شرقًا وغربًا وأعلى وأسفل، أي أحاطوا بهم من جميع الجهات، فلما أصبحوا لقيهم رجل من صُحار يقال غيلان بن عمر، وقد كان غزا في

سرية من قبل والي صُحار، فلقي القوم فسار حتى نزل معهم الروضة، ولقي منهم فهم بن وارث وغيره من أصحابه، فجعل يكلمهم ويكلمونه، ويدعوهم ويدعونه إلى السلم وهم يجيبون إلى ذلك، والنّاس متفرقون إلى أن شبت الحرب فيما بينهم من ناحية العسكرين بعيدًا من موضع فهم وغيلان، فتواقع النّاس للقتال. قال: فحدثنا غيلان وكان صدوقاً فيما علمناه، أنه كان يكف النّاس عن القتال ويحجزهم حتى تعب بدنه وصوته من شدة ما كان ينهى عن القتال، فغلبه النّاس على أصحاب فهم وتفرقوا عنه، وقتل من قتل في المعركة وفرقهم فأدركوه فأسروه وناسًا من أصحابه، وقتل نصر بن منهال وهو شيخ ضعيف وكبير ضعيف عن القتال. قلت: معلوم أن الحرب كالنار تأكل ما لاقته من كبير وصغير، وإذا شبت الحرب كالنار إذا اتقدت يصعب إطفاؤها حتى تلتهم ما حولها، قيل إن نصرًا قتل وهو نائم.

قال العوتبي: وقعت بينهم وقعة شديدة، ومقتلة عظيمة، ورجال كثيرة من أهل الورع والعفاف، وكانت الهزيمة على اليحمد والعتيك وبني مالك بن فهم ومن معهم، فأما اليحمد فإنهم كانوا عارفين بالموضع فتعلقوا برؤوس الجبال بعد أن قتل منهم جماعة، وأسر من أعيانهم من أسر، وأما العتيك وبنو مالك بن فهم، فصبروا في المعركة حتى قتل نصر بن منهال، أي زعيمهم، وقتل ولداه أيضًا المنهال وغسان، وأخوه صالح بن المنهال العتكي، وقتل من ولد مالك بن فهم حاضر بن عبد الملك بن بلال السليمي، وابن أخيه المختار بن سليمان بن عبد الملك بن بلال السليمي، في نفر من قومهم، وقتل من آل فراهيد بن مالك بن فهم خداش بن محمد الفراهيدي، وأخوه جابر بن محمد في جماعة من قومه، وأسر سليمان بن عبد الملك بن بلال السليمي، وأسروا من اليحمد فهم بن وارث الكلبي، وخالد بن شعوة الخروصي وغيرهم، فحبسهم راشد بن النضر سنة أو أكثر، ثم سأل في شأنهم موسى بن موسى وجماعة من وجوه أهل عُمَان ونزوى فأطلقهم، وكانت

الدائرة على هؤلاء فدقتهم الحرب دق العصف، فقتل سادتهم وأعيان قومهم كل واحد أكبر من الثاني، وأسروا أيضًا أعيان منهم وانفض جمعهم، وتمزق جيشهم، وذهبوا على وجوههم، وكانت القضية والإمام الصلت بن مالك حي موجود في نزوى في بيت ولده شاذان، ثم مات بعد وقوع هذه الحادثة الرابعة التي كسرت أعمدة اليحمد، وسرت العصبية في أهل عُمَان؛ بسبب هذه الفتنة، وتعصبت القبائل كل تعلق بأناس؛ لينال ثأراً من خصمه، وطار خبرها في شرق عُمَان وغربها وإلى البصرة، وفيها قام ابن دريد يحرض قومه على القتال ويستنهضهم للقتال، وهيجت النّاس بعضها على بعض؛ لأمر أراد الله إنفاذه فيهم؛ بسبب اختلافهم على إمامهم، وهو القائم بأمرهم، المجتهد في إصلاحهم، ولا بد للباذر أن يحصد، وكل يخرج في وقته والنبات له مواقيت يخرج فيها حصاده، وهذه ثمرة الاختلاف فنعوذ بالله منه.

فكان لذلك أثر حار، فتجمع اليحمد وبنو مالك بن فهم والعتيك ومن معهم، وقلوبهم تغلي حقدًا على راشد بن النضر ومن معه، وقرروا المصير على الحلو والمر، وعلى الموت الساحق أو النصر، والتف إليهم من له عصبة فيهم، ومن كان بقلبه مثقال ذرة من الخير لهم، ولم يزالوا من كل حدب ينسلون على أن يمحوا العار الذي لحق بهم ويأخذوا الثأر ممن قضى على إخوانهم وعشيرتهم، ولو كان في ذلك هلاكهم.

❊ ❊ ❊

الهجوم على دار الإمارة بنزوى

لما تقرر رأي القوم على مهاجمة خصمهم، رأوا أن دار الإمارة أحق بالهجوم، وكما أن القوم باغتوهم في الروضة فهم يبيتون مباغتة راشد بن النضر في دار إمارته، وتكتموا بما أمكنهم فأتوا إلى نزوى بعدهم وعديدهم، ولعل راشدًا يظن أن القوم لا يعودون لمثلها؛ لأن أجنحتهم قد قطعت وزعامتهم قد سحقت، فلم يكن بخلده أنهم يقومون له مرة أخرى، قال المؤرخون العُمَانيون: إن اليحمد تجمعت وبنو مالك بن فهم والعتيك، وقد ألهب ضمائرهم ابن دريد وأمثاله، وهيجوهم على الأخذ بثأرهم، فساروا تواً إلى الإمارة بنزوى غير مبالين بما يلاقون، ولعلهم أكثر ما قرروا الموت.

قال: فأسروا راشد بن النضر بعدما هزموا أعوانه، وفضوا عساكره وعزلوه عن الإمامة، ووقع اختيارهم جميعًا لعزان بن تميم الخروصي، فبايعوا له وتولوا الأمر في عُمَان، وذكر الإمام السالمي رحمه الله في تحفته قصيدتين من قصائد ابن دريد التي يحرض بها قومه على أخذ ثأرهم أعرضنا عنهما؛ لأنهما لم يصلحا للرواية في التاريخ؛ لتحريفهما وتعقدهما وعدم المرجع الذي يمكن تصحيحهما عليه. وأول إحداهما:

نبأ نابه وخطب جليل ... بل رَزايا لهن عبء ثقيل

وأول الثانية:

إنما فازت أقداح المنايا ... يوم حازت خصلها بتنوفا

* * *

عزل راشد بن النضر عن الإمامة

قال الإمام السالمي: وذلك بعد ما مضى له في الإمامة أربع سنين وثمانية وخمسون يومًا، قال: وسبب ذلك تحرك قلوب أهل الضغائن وكثرة الحقد عليه بقتل من قتل بالروضة من وجوه الأزد، وتحريض ابن دريد عليه، ووافقته موسى بن موسى لهم في ذلك.

قال أبو قحطان: خرج موسى على راشد من بعد ما قدمه واختاره فخلعه وفسقه وبرئ منه، ودعا إلى حربه من غير مخالفة لراشد منه، ولم يحدث حدثًا حتى يستحقق به معه الخلع في دينه؛ لأنه كان يراه إمامًا ففعل به مثل ما فعل بالصلت بن مالك رحمه الله سواءً بسواءٍ، ودعا إلى عزله وألب عليه. قال: قد كنا سمعنا أن راشدًا خرج إلى إزكي يسترضيه فلم يدرك رضاه.

قلت: على هذا يتبين أن موسى بن موسى مشوّش الأفكار سريع التقلب؛ لأنه بالأمس حاقد على الصلت ويتكلم عليه وعلى أعماله، وينتقد على عماله ويطلق لسانه على أهل الدولة مطلقًا لا يبالي بأحد، حتى قام على الصلت وعسكر بفرق حتى اعتزل الصلت الأمر، وأقام مكانه راشد بن النضر، وخاصم معه وحارب، وقاتل وهدد ووعد وتوعد، ثم انقلب على إمامه يؤلبه ويثلبه ويقوم عليه بالخلع، ولم يحجه في شيء ولم يقم عليه دليلاً في شيء، بل يصول عليه ويهاجمه بغير مبالاة، وهذا من مستغربات الأحوال وإذا به عندي كما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «وإنه لعلى ما ترين أحمق مطاع»، فإن الدين لا يكون ألعوبة وأحكام المسلمين لا تحل ولا تعقد على غير أساس، والحق لا يكون باطلاً وإن تقلب عليه الدهر، وهكذا العكس فما لموسى بن موسى وهو الرجل الوحيد في زمانه، يبني ويهدم بغير روية ولا هدى من الله، لما سلم العُمَانيون من العدو الأجنبي جعلوا بأسهم بينهم بغير موجب وخبطوا في فتن تقضي عليهم وتدمر كيانهم، فإن سفك الدماء على غير وجه شرعي يفسد الدين

والدنيا، فانظر إلى قتلى الروضة متى ينطفي جمر حقدهم، ومتى يسكن روع القاتل لهم، ولهم أنصار وأتباع، ولم يكن على طريق صحيح يجيزه لهم الشرع.

قال: وأخذ موسى في عزل راشد من غير أن يظهر عليه حدثًا يعرفه النّاس، إلا أنه يدعو إلى عزله كما كان يدعو إلى عزل الصلت بن مالك، بل كان الصلت على ما يظهر معه خيرًا من راشد؛ لأنه خرج على الصلت بن مالك ولا نعلم أنه خلعه، وأما راشد فقد كان يفسقه على ما سمعنا، فسار موسى ومن اتبعه حتى نزلوا فرق، واجتمع شاذان ومن أجابه في موضع معاضدين لموسى، وكان الحواري بن عبدالله، والوليد بن مخلد ومن أجابه في موضع يقال له سندان، في أعلى من الموضع الذي كان فيه شاذان ومن معه، مناصرين لراشد، وكان راشد في موضع الإمامة وموسى في فرق ثائرًا على راشد بعد أن كان والاه، أي وولاه وأقام دولته وشد عضده وناصره وحمله على أعناق العباد.

قال: وافترق موسى وراشد والحواري بن عبدالله، والوليد بن مخلد من بعد الألفة والأخوة؛ لأنهم كانوا تآلفوا على عزل الإمام الصلت بن مالك، وبايعوا راشدًا وصاروا حربًا لأعدائه وعادوا أعداءه، فموسى الآن يطلب عزل راشد، والحواري والوليد يطلبان نصرته، قال: فلو كان أمرهم رشيدًا في الأصل لكان الوليد والحواري مصيبين في نصرهما لإمامهما، ولكان موسى مخطئًا إذ نكث على إمامه؛ ولكن أمرهم في الأصل كان لغير الله، فلم يجمع الله شملهم.

قلت: والله إنها لمصيبة من أعظم المصائب، إذا كان مثل هذا الأمر يصدر منهم لغير الله، وهم علماء المسلمين وعمدة الأمة في الدين، فيقومون لسفك دماء المسلمين بغير حق، قال: ورد بعضهم على بعض، قال: واجتمع موسى وشاذان بعد العداوة نعوذ بالله من الفتن، قال: فسار الحواري والوليد ومن معهما يريدان نصر راشد وقتال شاذان وأصحابه، والله يعلم ما أرادوا، فالتقوا من قبل أن يصلوا راشدًا، فهزم الحواري والوليد ومن معهما، بعد أن قتل من أصحابهما

وسار شاذان وأصحابه، فأخذوا راشدًا من موضعه بلا حرب وضربوه وحبسوه، ووصل موسى ومن معه إلى العسكر، وقد اجتمعوا من غير توبة، وقدموا عزان بن تميم كما أشرنا إلى ذلك سابقًا إمامًا، والله أعلم بأمورهم.

قلت: هذه أحوال أشبه بالتلاعب، فلما لم يعجبهم الصلت بن مالك ألقوه وراء ظهورهم غير مبالين به، ثم قدموا راشدًا وسفكوا الدماء، وقتلوا المسلمين الطالبين لخلعه، فصرعوا في الروضة أعيان أهل عُمَان وأخيارهم، ثم فعلوا الفعلة الشنعاء بابني محمد بن الصلت بسبب رمية حجر في بيت راشد بن النضر، حتى أحرقوهم بالنار، ولا إنكار ولا توبة ولا رجوع على أصل في الدين، على حسب قواعد مذهب المسلمين، واليوم يعاضدون موسى على راشد، وإنما كان رأس الأمر كله موسى، فما هذا الحال الذي يمشي عليه هؤلاء، أما حاذروا سخط الله عليهم إذ يمشون في عباد الله بمثل هذا الحال المؤسف الذي إذا أطلع عليه أعداء المسلمين لابد أن يسخروا منه، والله ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، فهذا ينافي شكر الله ﷻ الذي هو طاعته، والدين لا يحمل ألعوبة والحق لا يكون باطلاً، والباطل لا يكون حقًا، والأهواء هي المهلكة، والدين ينافي الدنيا إذا لم يمش أهلها على الصراط المستقيم، وكفران النعم يورث البوار، وهذا منها والعياذ بالله، وما كان الإباضية يرضون بمثل هذه الأحوال، فإن المجرم يلزم تتويبه وتوبته بحسب حاله، فأما الإمام ومن في معناه فتوبتهم أن تكون علنًا في مجامع النّاس؛ لأنها تنبني على أحكام دينية، فإن الله ما ترك المسلمين يروحون ويغدون كما يشاؤون غير مناقشين ولا مسؤولين تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فإن الله لا يهمل مثقال ذرة ولا أدنى منها مهما كان، وهذه الأفعال، وما سيأتي ذكره من الأحداث التي يقترفها راشد بن النضر وزميله الوزير، وما يأتي بها قومهم من الأعمال التي لم تعرف في دين الله ﷻ، ولا ارتضاها أحد ممن له أدنى مسكة من عقل، فإن الإمامة نزيهة من عبث النّاس، وبعيدة عن السفاسف؛ فإنها

لم تقم إلا لتكون ضدًا للظلم وضدًا للظلمة وضدًا للجور وأهله، ولم يعرف في مذهب المسلمين فضلاً عن أعمال صفوة الأمة إلا أن راشدًا كان سلطانًا لموسى ابن موسى، يقضي كل واحد منهما غرض الآخر، وكان موسى على ما يظهر رجلاً غشيمًا وزعيمًا متغطرسًا، كان يحاول الرئاسة التي هي الزعامة لا الإمارة الدينية، مع أنه كان على يقين من سيرة أبيه موسى بن علي في عُمَان، إذ كان القدوة الصالحة لهم، وكان راشد بن النضر توصل إلى الرئاسة بالزعيم موسى بن موسى؛ ليقضي غرضًا كان له في نفسه، وحب الرئاسة هو الشهوة الخفية، التي هلكت بها أمم وانهارت من أجلها عروش، وسوف ترى وتسمع عن راشد بن النضر ووزيره موسى بن موسى أحوالاً، وترى لهم أعمالاً في الأمة توجب عزل راشد وتخرجه من الولاية، إذ كانت له ولاية إن صحت تلك الأعمال، والدين لا يقوم على أساس الباطل، والجور والظلم لا يصح معهما دين مهما كان.

* * *

أعمال راشد بن النضر في حال إمامته بعُمَان

اعلم أن راشد بن النضر لما تولى الأمر بعُمَان، كانت أعماله كلها سيئة وهي التي تصدر منه أو من وزيره أو من قائده، أو أي عامل من عماله، ولا ريب فإن الرعية على دين ملوكها.

كان راشد المذكور إمامًا لأهل عُمَان على رغم أهل عُمَان، إلا على موسى وشرذمة معه مما شايعه من أهل عُمَان، من الذين طال عليهم عهد الصلت بن مالك، فتمنوا زواله؛ ليحل محله إمام جديد ينالون معه ما لم ينالوه مع الصلت، ولو كانت الدولة همتهم؛ لشدوا عضد الصلت وقوموا أموره، وقاموا معه وهم جميع؛ ولكن لاريب فإن الله ﷻ بسط لبني إسرائيل كل خير، وأطعمهم المن والسلوى، وهم في أطيب النعم وأوفر الفضل، وإذا بهم يقولون لنبيهم عليه الصلاة والسلام: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١] الآية.

وأهل عُمَان هكذا كان عملهم هنا؛ ليقضي الله أمرً كان مفعولاً، فكانت أعمال الإمام المزعوم راشد بن النضر من ثمره، وفي بعض كتب الله المنزلة قوله في آخر الآية: من ثمارهم تعرفونهم. فكانت المفاسد في عُمَان شاهرة ظاهرة، من نهب أموال، وقتل رجال، وإخافة الطرق، وانتشار الجهل، وخمود العدل، وتطاول الباغي على الآمن الوادع، وأي بغي أكبر من حرق ابني محمد بن الصلت بن مالك، وهما صبيان لم يبلغا حد التكليف، ويحرقان بالنار مع أن أهلهما يتقدمون بتقريبهما إلى الإمام المذكور؛ ليحكم فيهما الحاكم بما يرى من حق وغيره، ولم يقبل منهم وهما قد رميا رمية حجر لطير كان على شجرة سدر، أو رميا السدرة نفسها فوقعت الرمية في بيت الإمام فكسرت جرة فكانت عقوبتهما أن يحرقا بالنار، وهذا من عمل صاحب الأخدود فنعوذ بالله من شر البغي.

ومن ذلك عقر جمال القوم المقتولين في الروضة، وقيل إن جملة المعقور ستة عشر جملاً وفرسًا، ونهبت أموالهم ودوابهم وثيابهم، قال: وليس هذا من عمل المسلمين، ولا من سيرتهم في أموال أهل القبلة. قال: ورفع لنا الثقة أن الرجل من أصحاب فهم كان يتلجأ فيوضع عليه السيوف، وكان الرجل يأتي مستسلمًا منقادًا مذعنًا مسلمًا للأمر، فيدفع إليهم سيفه فيأخذونه فيقتلونه، ولم يظهر من موسى إنكار ولا تغيير، ولا من راشد بن النضر الإمام. قال: وقد بلغنا أن لحوم الإبل المعقورة بيعت في سوق نزوى قريبًا من موسى وراشد أو لم يستطيع المسلمون إنكار ذلك. قال: وقد كانوا يعيبون على الصلت بعض أحداث من سرايا كانت تطرأ في أطراف عُمَان، لا يدري كانت أو لم تكن، أي لم تثبت صحة وقوعها، ولم يعيبوا على أنفسهم الأحداث الشنيعة وهي قريبة منهم، يكادون يعاينوها بأعينهم.

قال: ثم استقام الأمر لراشد واشتد سلطانه بعُمَان، وقد تكون الأحداث بأطراف عُمَان من المهرة ونحوهم، فربما يضربون الرجل ويستاقون الإبل،

ويعيثون في الأرض فسادًا، وما قاومهم راشد ولا جرد لهم من يرد بغيهم عليهم، وكأنه لم يهتم من شأنهم فلم يبعث لهم سرية واحدة أبدًا، وإنما كان شدته وسطوته على أهل الرستاق ومن حولها، إذ رأى الثورة عليه من هنا، ولم يسأل عن رعيته. قال: ومن أعماله فيما صح خبره معنا: أن رجلاً وقف بباب السجن فتناول كتبًا إلى الفضل بن الحواري، والأشعث بن محمد بن النضر، وهما يومئذ من أصحاب راشد ومن حزبه، فاطلع بعض جنود راشد على ذلك فأخذوه بالكتب، وساروا به إلى راشد، فلما عرف الكتب إلى من هي أمر به فحبس في السجن. قال: فبلغنا أنه ضرب مع ذلك فلبث في السجن ما شاء الله، ثم أخرج فدخل من دخل على راشد ممن أنكر حبسه فقال لهم: حبستم الرجل وليس عليه حبس؛ لأنه إنما حمل الكتب إلى أصحابكم إلخ.

قال: وقد بلغنا أن قومًا من أهل سلّوت دخلوا على رجل في منزله فكسروا بابه وضربوه بالسيوف، فحمل الرجل مضروبًا منتصفًا، أي طالبًا الإنصاف ممن ضربه، وأن يبعث سرية إلى الذين ضربوه فلم ينصفه، وقال: من أجل واحد أبعث إلى قوم أنصار، فلم يفعل ولم ينصف الرجل من أعوانه. قال: ولم يجعل ضرب السيوف كرمية وقعت في داره.

ومنها: أنهم بعثوا قائدًا من قوادهم إلى الرستاق وهو لص مشهور معروف بذلك، فسار إلى الرستاق واسمه زائد بن خطاب معروف بالسرقات، ومعه ناس من أعوانهم إلى بني غافر أهل الرستاق، ولم يكن من بني غافر المذكورين الذين أرسل إليهم زائد بن الخطاب حدث يعرف، حتى يرسل السرايا، فلما دخل واديهم أي المعروف بوادي بني غافر، تلقاه بعض من سرعان النّاس وسفهائهم فيما بلغنا، فهايجوه وكان بينهم هناك بعض الشر حتى جرح بعض أصحابه، ولم يقتل أحد في تلك الحركة، وفر منهم هو وأصحابه، فأتى الخبر إلى راشد فجهز إليهم سرايا وقواد جفاة عماة، ولم يسيروا بقصد ولم يهتدوا برشد، فعاثوا في البلاد من أكل

أموال النّاس، ودخلوا بيوتهم وكسروا أقفالها، وأهانوهم، ولم ينكر راشد عليهم ذلك مع أن الإمامة لا ترضى بذلك، ودين المسلمين لا يأمر بهذا، ولا قريب منه، وأودع راشد ناسًا في السجون مدة طويلة ممن شهدوا الروضة وغيرهم.

وهذه الأعمال لم يعلمها أئمة المسلمين قال: وعمر في سجن راشد ناس من بني غافر وأناس ممن شهدوا وقعة الروضة في القيود والهوان، وكان أبو خالد سليمان جريحًا مريضًا فيما ذكر لنا نازلاً في بعض دور نزوى، فأمر به راشد فقيد في منزله كبعض العبيد، وما يعرف المسلمون لذلك وجهًا. قال: ولا نعلم أن أحدًا من سلاطين العدل أو الجور سبق راشدًا إلى هذا الفعل يقيد رجلاً في بيته وهو مريض. قال: وإن ناسًا من كلب اليحمد كتبوا إلى شاذان يسألونه الخروج على راشد، فكتب إليهم شاذان فيما ذكرنا العدل يقول لهم في كتابه: أما أنا فرجل من المسلمين لا أنفرد بالأمر دونهم، ولا أريد أن أكون في هذا الأمر رأسًا، فإن قام المسلمون فأنا معهم، ونحو هذا من القول فيما رفع إلينا الثقة من المسلمين.

فخرج إليه يمان بن مصعب بن راشد وأبو جليل، وأبو النضر بن أبي جليل، وأبو النضر بن راشد في ناس فهجموا عليه ليلاً ليأخذوه فظفروا به، فأخذوه وخرجوا به، فاجتمع من اجتمع من اليحمد معهم ولا ندري ما أرادوا في اجتماعهم ودعوتهم ما هي، فلما بلغ راشدًا اجتماعهم بعث إليهم من قبله قواداً جفاة لا عِلم لهم بحرب المسلمين، ولا بصر لهم بحجة على عدوهم، فساروا حتى نزلوا قرية يقال لها عيني من الرستاق، وأقبل شاذان بمن معه من وادي عمق متجردًا يريد فيما قيل قرية يقال لها سُوني، قلت: هي الآن تعرف بالعوابي، قال هي قريبًا من عيني، قلت: نعم هي من الرستاق والعوابي التي هي سُوني تبعد عن عيني مرحلة واحدة؛ ولكنها كانت من أعمال الرستاق حتى العهد الأخير الذي قام فيه الشيخ جاعد بن خميس وآله، وتأثلوا فيها أموالاً، وخدموا فلجها حتى قوي واعتد، وبنى الشيخ فيها البيت العالي، وكان حصنًا لهم من عدوهم،

ثم احتلته الحكومة من أيديهم وأصبح رهن يد الحاكم إمامًا كان أو سلطانًا، وأصبحت سُوني التي هي العوابي إمارة مستقلة؛ ولكنا لا تزال تخضع لحاكم الرستاق خضوع الوالد لوالده، وحق لها ذلك.

قال: فلما كان بين القريتين أي سُوني وعيني، وثب عليه أصحاب راشد بلا حجة ولا مناظرة، وتداعوا بدعوة الجفا، وقال شأنكم خذوهم ورأس شاذان فيما رفع لنا الثقة، وابتدرهم النّاس سرعانًا واقتتلوا فيما بينهم وقتل من قتل من أصحاب راشد، ومر عامتهم وسار شاذان حتى دخل الباطنة، ثم رجع إلى الرستاق ودخل وادي عمق وتراجع راشد واجتمعوا، وجاء عبيد الله بن سعيد بمن أجابه من أخلاط النّاس، ثم ساروا حتى وافوا شاذان وأصحابه في موضع يقال له الطباقة من أسفل وادي عمق، فاقتتلوا وقتل من قتل وانهزم شاذان بن الصلت وأصحابه؛ ولكن لم يظفر العدو بشاذان وجعلوا بعد الهزيمة يلقطون فتات الهزيمة ويقهرون البرئ والسقيم، والداخل معهم وغير الداخل عملاً بشنشة المنتصر الذي لا يحجزه دين ولا يقوده عِلم، فأسروا من قدروا على أسره منهم، ودفعوهم إلى سجن نزوى.

قال: ولقد حدثنا الحكم بن أبي سليمان وهو ثقة مأمون أنه قال لموسى: كم مظلوم في هذا الجيش؟ قال: وحدثنا بعض من يتولى راشدًا وموسى أن رجلاً من الأسارى ضعف عن المشي فسحبوه سحبًا حتى مات في سحبه، وقد حدثنا الرجل أنه أخبر موسى بهذا فما ظهر منه إنكار ولا تغير، قال: ولو أن مشركًا محاربًا سحب على وجه حتى مات في سحبه لكان منكرًا عظيمًا، أي لقوله ﷺ: «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة». قلت: وسيأتي في التاريخ أغرب من هذا فإن الشيخ القاضي عدي بن سليمان الذهلي، قتل في الرستاق فسحب على وجهه في سكك الرستاق، وأن رسول الله ﷺ نهى عن قتل المثلة، وهذا منه. وقال رسول الله ﷺ: «كل شيء ليس عليه أمرنا فهو رد».

قال: ثم إن شاذان بن الصلت هرب وبعثوا في طلبه قوادًا من قبلهم إلى الرستاق، منهم أبو الجُلَندى بن معران رجل معروف بالطلس والسفه، وإنما كان من جنود الشيطان ومنهم محمد بن أبي فضيل رجل معروف بسفك الدماء من الحرام، ومنهم محمد بن سعيد، وأخلاط الأعراب الجفاة، فساروا حتى دخلوا الرستاق فيما بلغنا، فقطعوا الزراعة، ولقد بلغنا أن أبا الجُلَندى كابر امرأة على شيء من حليها واستفاض هذا الخبر. قال: ثم بسطوا لعبيد الله بن سعيد اليد في عُمَان من غير صلاح ولا وقار ولا عفاف، وأنه لو شهد شهادة مع موسى ما قبل شهادته فيما عرف موسى منه، ثم سار عبيد الله بن سعيد إلى صُحار، فعمل فيها أعمالاً قبيحة، فيما ذكر من استرهاب النّاس وأخذ أموالاً فيما رفع إلينا، وأذعن له والي صُحار، وسلم له فيما بلغنا. قال: ولقد قيل لنا وذاع وشهر أنه أرسل إلى شيخ ضعيف يقال له عبد الرحمن بن الوليد، وهو أمين للوالي على بعض ضياعه فأرسل إليه عبيد الله جند من جنوده؛ ليجروه إليه بغير حق، فاستجار بالوالي فلم يقبلوا، وقال للوالي: أنا كفيل به فلم يقبلوا، وجروه إليه كرهًا؛ ليسأله تأخير حق له على بعض من استعان بعبيد الله عليه، ثم هدده عبيد الله وأوعده، حيث لم يشفعه.

قال: وقد بلغنا أن والي صُحار يرفع إليه الخصماء، وهو غير فقيه ولا بصير بحكم. قال: وما فعل والي صُحار إلا تعظيمًا لأمر الدنيا ومهابة للسلطان، قال: وبلغنا أن عبيد الله خطب إلى رجل كثير المال ضعيف الحال واهي القوى ابنته فأبى أن يزوجه، فأغرى سفهاء من النّاس بماله، فزوّجه الرجل تقية ومخافة مما يرى، فلما تزوج منه استولى على كثير من ماله، أو على جملته. قال: ولقد بلغنا أن الرجل احتاج إلى قفيزين من تمر من ماله، فلم يدركه وتولى عليه أملاكه على هذا الحال، حتى اشترى منه ما أراد من تمر من ماله.

قلت: هذا من الظلم بأعلى الذرى، وقال: لقد بلغنا أن والي نخل أراد أن يدخل

في شيء من إنصافه وكتب إلى راشد فيما ذكرنا لنا بعض أصحاب والي نخل أن هذا قصور منك إلى الدولة، أي حيث تقوم بالانتصاف من رجال الدولة، قال وقد ذكر لنا عن ابن موسى أنه يكتب إلى تجار صُحار يسألهم القرض، ويسألهم أن يتجروا له، ولم يكن يسألهم من قبل هذا؛ لكن تقوى عليهم بسبب السلطان.

قال: ثم خرج ابن موسى إلى صُحار، فحكى عنه أخذ أموال النّاس أمرًا أشنع من الذي كان عن شاذان أيام أبيه. قال: فإن كان شاذان من عيوب الصلت فابن موسى من عيوب راشد، فإن قالوا: إن هذا لم يصح لهم، قيل: كذلك الحكايات عن أصحاب الصلت لم تصح. قال: وقد صارت صُحار مأكلة لفاسق السلطان؛ لأن فيها تجار وأهل ذمة ضعفاء. قال: وسجن سليمان بن أبي حذيفة رجلاً ضعيفًا بغير حق حتى اطلع على ذلك راشد، فأخرجه ولم ينكر على سليمان فعله هذا، وليس يكفي إطلاق سليمان مع تركه للإنكار عليه أن لو أطلقه سليمان المذكور. ثم نصحهم من نصحهم في أمر شاذان. وقال: أوفدوا إليه وفدًا من صلحائكم يحتجون عليه قبل سفك الدماء، ويسألونه ما يطلب فردوا النصيحة وجعلوها غشاء وتعجبوا من الحق، وجهلوا سيرة المسلمين. قال: ثم سارت العصبية، وجعلوا يولون ولاة ما اختاروهم لله، وإنما ولوهم رضًى وتقية ومصانعة.

قال: ورأى موسى رجلاً ضعيفًا ليس هو بإمام من أئمة الدين ولا يخاف على دولة رآه جالسًا على باب المسجد خارجًا يوم الجمعة قبل الصلاة، ثم أبصره يصلي بعدما انقضت صلاتهم، فاتهمه أنه لا يرى الصلاة معهم ففسّقه ودعا عليه وشهر به، وأغرى به السفهاء فساروا إلى منزله قريبًا من فرسخ، فشدوا يديه وراء ظهره، وضربوه فيما بلغنا حتى أدموه، ثم جاءوا به كأنه سافك دم أو قاطع طريق حتى أدخلوه السجن، فحدثنا عدل ثقة من المسلمين أنه كان قاعدًا في المسجد، وقد جاءوا به. فقال: إنه كان يسمع شيئًا ليس يشبه الضرب؛ ولكنه يشبه الدوس أي الدق بالأرجل من شدة الضرب، فلما أدخلوه السجن قال: واقتلاه فيما بلغنا،

فلبث في السجن مريضًا مرضًا شديدًا، وقال لهم رجل ارفقوا به فأدخلوه السجن وشدوا يديه وراء ظهره، قال: ولم ينكروا على من ضربه ولا منعوه منه.

قال: وأمر راشد ولاة القرى ألا يدعو النّاس يشترون من طعام أهل القرى، وهو وولاته يشترونه لأنفسهم. قال :هذا تحليل لما حرم الله، وقد أحلَّ الله البيع وحرم الربا. قلت هذه الأعمال إن صحت ما هي من أعمال المسلمين في شيء أبدًا، إنما هي أعمال جبابرة الملوك في الرعايا المستضعفين، ولم نعلم أحدًا من أئمة الدين يرضى بها في عدوه فضلاً عن الضعفاء المأسورين تحت القهر، يكون فيهم هذا تحت راية من يتسمى بالإمامة وينشد العدالة، إنما هذه عرفت في عُمَان لبني نبهان كما سوف يأتي ذلك في محله.

قال: وبلغنا أن تاجرًا خرج إلى قرية يقال لها أبيل. قلت: يقولون لها الآن وبل بالواو المفتوحة أو المضمومة وهي من قرى الرستاق، فاشترى منها بُرًّا على حساب مكوك وربع، لا بل على حساب مكوك وثلث إلا ربع السدس بدرهم، قال: فأخذوه إلى ذلك البلد فقطَّره وقيّده حتى رد بضاعته إلى الذي اشتراها منه، ثم إن الوالي رجع فاشترى ذلك الحبَّ على حساب مكوك وثلث زيادة على مكان اشتراه التاجر. قال: فضرَّ بالبائع وأضرَّ بالمشتري، أي أضرَّ بالبائع، حيث أدخل عليه الزيادة في المبيع والنقص في الثمن، وأضرَّ الشاري، حيث رده عن شرائه. قال: ثم إن التاجر أتى راشدًا فشكا إليه فكان إنصافه له أن طرحه في السجن، ثم أخرج من السجن فأتى إلى موسى فشكا إليه من الوالي فطلب إليه الإنصاف. فقال: نعم ننصف فلم يرفع له رأسًا ولم يكن منه شيء إلا أن موسى تكلم، فقال: إن الإمام قد ترك ذلك الأمر الذي كان يأمر به فلم يكن منهم إنصاف ولا توبة إلا هذا.

قال ثم هم فيما بينهم يتهامزون ويتطاعنون يسمون إمامهم حمارًا جليًا، وتيسًا عشيقًا، ويسمون قاضيهم أبا السطور ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤] إخوانًا

علانية أعداءً سريرةً، إلا أنهم قد اجتمعوا على أنهم قد قهروا المسلمين وأخافوهم وأخافوا عزان بن تميم وأخرجوه من منزله وداره بكفالة لا تلزمه، وهم يعرفون فضله، وقد كان موسى احتاج إلى رأيه.

وقال أيضًا: إنهم حبسوا محمد بن عمر بن الأخنس بلا ذنب ولا حدث منه إلا سوء الظن فيه، وهو معروف فضله في المسلمين، ثم بعد ذلك أخافوه وبعثوا إليه الخيل فخاف في منزله بلا ذنب ولا حدث، حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وألقى بنفسه إليهم فلم يجدوا له ذنبًا، فحبسوه في عسكرهم، ولم يأذنوا له بالانصراف إلى منزله حتى أخذوا عليه كفيلاً وما ذلك منهم بعدل.

قال: وهذا من عجائبهم في تسعة عشر شهرًا منذ ملكوا ولديهم المزيد. قلت هذه هي بذور زوال نعمتهم لما كف الله عنهم العدو الكبير، وهو سلطان العراق لم تطل بهم الأيام حتى ظهرت هذه الأحوال منهم؛ لتكون قائد النقمة عليهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وتلك هي سنته تعالى في عباده، من يتتبعها يجدها في كل جيل منذ خلق الله الدنيا إلى يوم القيامة؛ لأن الله أجل وأكرم من أن يبسط لقوم نعمة، ثم ينزعها منهم بغير جرم، وقد وصف راشدًا بأنه لا يعقل ولا يبصر الأمور، وأنه يحسب الخطأ صوابًا لعماة ويظن للحق ما يفعله هو لا غير، ووصف موسى بأنه يطعن في المسلمين ويقول فيهم بحسب هواه، ويصف نفسه بما يهواه والله يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

ومن كلامه بحسب ما نقله عنه أبو قحطان يقول: فإن شربة النبيذ والأعراب لآمن عندي من علماء هذا الزمان، قال وهو في ذلك لا يستغني عنهم. قلت هذا الكلام في غاية من الجفاء، وفي النهاية من السخرية، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا﴾ [الحجرات: ١١]. قال: وجهلة وقلة عمله ظاهرٌ بيّنٌ، قال: ومن ذاك أنه لا يحسن إقامة الجمعة. قال: فإن المؤذن كان يفرغ من الأذان الآخر يوم الجمعة. وموسى في بيته أو حيث شاء الله حتى يخلو وقت طويل، ثم يأتي

فيخطب بالنّاس ويصلي ركعتين، قال ومن السنة في الجمعة أن الخطبة متصلة بالأذان، والأذان متصل بالإقامة، والإقامة متصلة بالصلاة، لا فرق بينهن هكذا وردت عن رسول الله ﷺ. قال: ومن قلة علمه: أنه خطب النّاس يوم الجمعة ثم نزل عن المنبر وإمامهم في بيته أو حيث شاء الله، فانتظروه وليسوا في صلاة ولا خطبة مقدار ما استمر الإمام بيته إلى المسجد مرتين، قال وبيت الإمام منفسح عن المسجد ما شاء الله، ثم صلى بالنّاس ركعتين بلا إعادة خطبة خلافًا للسنة، وقد قال الفقهاء لو أن الخطيب خطب يوم الجمعة ثم اشتغلوا عن الصلاة لأمر عناهم كان عليهم أن يعيدوا الخطبة للصلاة ولو خطبة موجزة أي أقل ما يطلق عليه اسم خطبة كالحمد لله والصلاة على رسول الله، وإثبات الشهادتين، وإقرار الوحدانية لله ﷻ. قال انتهى تلخيص ما أردنا ذكره من كلام أبي المؤثر.

قال: وهو كما ترى قدح في سيرة موسى وراشد، قال: والمبتون لإمامة راشد يجملون راشد هذه الأمور وأمثالها على أسباب تسوّغ لهم صنع راشد فيما صنع، يذكرون له أعذار واحتمالات يقبلها العقل في أئمة العدل، قلت: إن بعض ما مرَّ من الأحوال له احتمال يعقل؛ ولكن الأكثر إن صح صريح في الجور والظلم والعدوان والعسف على النّاس، وعلى أحكام الله ﷻ وتلك الاحتمالات لها معارضات من نفسها، وهذا الحال هو ما أوقعهم فيما بعد في الأمور التي انهار بها صرح الإمامة، واندك عرشها، وذهبت هيبتها، حتى اتصلت الدعوة بملوك العراق فسيقت الجيوش على عُمَان، ويملك أهل الباطل عرش الحق، وعاش في عُمَان محمد بن نور الذي يسميه أهل عُمَان محمد بن بور بالباء الموحدة، وأعوانه كبيْحَرَة الفاسق، وتلتهم بنو بويه الذين عاثوا في البلاد بغير حق، وداسوا كرامة المذهب الصحيح إلى أن انتهى الأمر بالقرامطة الذين كملوا القاصر، وأنهو الأمور إلى حدها، وصارت عُمَان بعد ضياء الحق ظلامًا دامسًا وليلاً مظلمًا، وأصبح دين المسلمين كالشمس في السحاب، وكالنور داخل الحجاب، ولم يبق

كرامة لأهل عُمَان إلا وأقدام البغي تطأ عليها، ثم تلتها بنو نبهان الجبابرة العتاة، والفسقة الطغاة، الذين لا يعرفون من الحق إلا اسمه، ولا من الدين إلا رسمه، وهكذا يسلط الله الفراعنة على المؤمنين، والجبابرة على المسلمين، والظلمة على المصلحين؛ لتتم إرادته عزَّ وعلا، وتكمل سنته سبحانه وتعالى، وسوف ترى تحقيق ما قلناه في محله ولله أمر هو بالغه، وحكم هو نافده.

قال أبو المؤثر، وأبو قحطان: إن راشد بن النضر نُصِبَ إمامًا مرةً ثانيةً أي بعد ما عزل عزان وخلع من الإمامة عادوا إليه ونصبوه مرة أخرى، ثم أيضًا عزلوه فظهر أنهم نصبوه مرتين وخلعوه مرتين، قال الإمام: وظاهر كلامهما أي كلام الإمامين أبي المؤثر وأبي قحطان، وظاهر الأحوال أيضًا تشهد أن هذا النصب أي الأخير كان بعد ما قتل الإمام عزان بن تميم، وبعد ما خرج ابن بور من عُمَان، واستعمل عليها عماله، وقال أبو المؤثر بعد أن ذكر ما ذكر: قدموا راشدًا إمامًا ثانية على غلطه وخطئه ثم ضللوه وعزلوه، ثم أقاموا الصلت بن القاسم إمامًا بدله.

وقال أبو قحطان: رجعوا إلى راشد من بعد أن كان في السجن خليعًا مقيدًا محبوسًا أسيرًا، فعقدوا الإمامة وقصروا الجمعة وجبوا الزكاة، قال: وباع راشد الصوافي جمع صافية، وهي الأراضي والدور التي جلا عنها أهلها، والأموال التي عادت إلى السلطان باستخلاصه إياها، وهذه حكمها أن تكون لبيت المال لفقدان المالك لها، أي تكون مجهولة الأرباب، فأمره في زمن الإمام إلى الإمام؛ لأن الإمام قائم بمصالح المسلمين، نازل منزلة الكل، قاسم بين الأمة الأرزاق المنوطة به خاصة.

واعلم أن أصل بيت المال: هو بيت أعده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ ليدخل فيه الخراج من الأراضي التي اغتنمها المسلمون من المشركين فحبسوها لمصالح الأمة، إلى أن توزع إلى مستحقيها، ويدخل في معنى بيت المال المغانم التي كانت تساق فتجمع في ذلك البيت المعد لها إلى أن توزع إلى مستحقيها، ثم قضى عمر بن الخطاب للناس على قدر الاستحقاق، فرفع من استحق الرفع

عن مستوى غيره، وخفض من استحق الخفض كذلك ورتب، النفقات وكانت مطلقة لا راتب لها، بل كان إذا جاءت غنيمة أو خراج من بلد قسمه رسول الله ﷺ على مستحقيه، كما حكم القرآن للراجل والفارس ونحوهما، وسهم ذي القربى خاص بهم، فأعطى عمر المجاهدين حقهم، وأعطى القاعدين مستحقهم، ويلتحق بذلك الزكاة والكفارات والنذور في بعض الأحوال، واتفق ذلك وشاع حتى صار عُرفًا عامًا جامعًا لكل خراج الدولة، قال أبو إسحاق: والأموال المجهولة الرب تعود إلى بيت المال.

وهنا الكلام على بيع راشد بن النضر للصوافي التي هي خاصة بيت مال المسلمين في معرض النقد على البائع وأعوانه، قال أبو المؤثر: فهذا من العجب العجيب من أفعال أهل عُمَان. قال: ثم خذوه وتركوه، ثم خلعوا معه الإمامة وفرضها، وما أجب الله تعال فيها على أهلها لعبًا ولهوًا كلما أرادوا صافقوا رجلاً ببيعة، ثم خذلوه انتهى المراد من كلامه.

قلت: هذا نوع من اللعب والبيعة عهد في أعناق الذين يبايعون لا يجوز لهم نقض عهد الله ورسوله بغير حجة، ولا يصح لهم ذلك بحال من الأحوال حتى يتحقق موجب العزل، فإن تحقق وجب أن يتوب الإمام، فإن تاب لم يصح عزله إلا إذا تاب في الظاهر، وخالف في الباطن، فإنه إن خالف في الباطن تبينت خيانته، وظهرت الحجة عليه بذلك فهو على هذا مصر لا تائب، بل تضاعفت الحجة عليه بدعوى التوبة وظهور الخيانة في الأعمال بعد التوبة، كقضية عثمان بن عفان إن هذا الحال يمجه حتى أقل النّاس، حيث يبايعون إمامًا ثم ينقضون بيعته بغير موجب، وسيأتي من هذا النوع ما نطلق عليه الإمامة المستضعفة، كما سوف تراه إن شاء الله مما تحتار في تصويره، ويسأم التاريخ من ذكر مثله، ولكل زمان أعمال، ولكل وقت خصوصيات، وللعدل أوقات كما للجور كذلك، والله يعلم المفسد من المصلح والله يتولى من عباده الصالحين.

❋ ❋ ❋

افتراق أهل عُمَان إلى رستاقية ونزوانية

اعلم لما كان من موسى بن موسى بن علي وراشد بن النضر اليحمدي ما كان وفعلا ما فعلا من خروجهما على الإمام العادل الصلت بن مالك، وتوليتهما الأمر عنه وتركه مضاعًا بغير موجب، اختلف العلماء في أمرهما وطال الجدال بينهم، وكثر القيل والقال فيهما، فرأى فريق خروجهما باطلاً إذ كان خروجًا على الإمام العادل الذي ثبتت إمامته باجماع، ولم يقترف موجبًا لخلعه، وزعيم هذا الفريق الشيخ أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن بركة السليمي البهلوي، ومن وافقه وتبعه وأخذ عنه كأبي الحسن علي بن محمد البسياني صاحب الجامع المعروف.

قال الإمام: وتبعهم على ذلك خلق وسميت فرقتهم الرستاقية، قال: وعارضهم من أهل عُمَان فريق كان زعيمه الشيخ أبو سعيد الكدمي، وأبو عبد الله محمد بن روح بن عربي، وتبعهم أيضًا ناس وسميت فرقتهم النزوانية.

قال: وفيهم ألف أبو سعيد رَحِمَهُ اللهُ كتاب الاستقامة، فإن الأولين أوجبوا البراءة من موسى بن موسى وراشد بن النضر، وألزموا النّاس ذلك بدعوى أنهما خرجا على الإمام العادل الذي ثبتت إمامته بالاجماع، فالخارج عليه باغٍ بالإجماع، والبراءة من الباغي واجبة بالاجماع. قال: ورأس هذه الفرقة وعميدها الذي اشتهر فيها أبو محمد إلخ، فعارضهم في ذلك الإمام الكدمي رَحِمَهُ اللهُ، قال: ونقض عليهم مقالتهم هذه أهل الحق، وردوا عليهم غلوهم، فتراه سماهم رَحِمَهُ اللهُ أهل الحق، وسمى ما عليه الأولون غلوًا إلخ.

قال: وألف أبو سعيد الكدمي كتاب الاستقامة في الرد عليهم، قال وتبعهم أي تبع أبا سعيد وحزبه على ذلك ناس ووفقوا إلى الهدى، قال: وبلي أهل عُمَان بهذا الافتراق بلاءً عظيمًا. قال: وبقيت الفرقة زمانًا طويلاً حتى ظهر الإمام الموَفق المؤيد ناصر بن مرشد، وأمات تلك البدعة وأحيا منار الحق، قلت: على هذا فقد عاشت فرقتهم واستمر خلافهم لمضي سبعة قرون تقريبًا، بغير موجب ولا داعي

له، ولم يتوقف الدين على ذلك، ولا كلف الله به عباده في حال من الأحوال، بل الشيطان ينزغ بين الإخوان كما نص عليه القرآن، ولقد أنّب الإمام السالمي أبا محمد وحزبه في هذه القضية، حتى في جوهره النظامي وغيره من مؤلفاته الفقهية، ثم بحث الإمام السالمي الموضوع بحثًا تحليليًا فقال: أما قولهم أن الصلت إمام بالإجماع فهو كان كذلك؛ لكن خصمهم يدعي أنهم لم يخرجوا عليه، وإنما خرجوا لمناظرة المسلمين ومشاورتهم في أمره، وطلبوا منه أن يعتزل من الأمر فاعتزل غير مجبور ولا مقهور، وأن للإمام أن يعتزل إذا طلب منه المسلمون ذلك، فهذه دعواهم تقل نحن لم نخرج عليه وإنما خرجنا للمناظرة، ولم نقدم عليه إمامًا، وإنما قدمناه بعد اعتزاله، فإن صحت هذه الدعوى فهي محتملة فلا تصح بذلك البراءة من موسى وراشد، فكيف يلزمونها النّاس ثم إن هذه القضية كانت في زمان قبل ظهور هؤلاء الغلاة، فالنّاس منها في سلامة، فكيف يلزمونها من ليس له فيها ناقة ولا جمل، وتلك أمة مضت بأعمالها والله لم يكلف أحدًا بفعل غيره.

قال الإمام: ولو قيل إن المسلمين في عصر الصحابة لم يقبلوا من الطلبة بدم عثمان إلا الرجوع عن تلك والبراءة من عثمان، وتصويب المسلمين على خلعه وعزله، أي لضيقوا الواسع. قلنا: إن الصحابة لم يدعوا النّاس على البراءة من عثمان إلا بعد اشتهار أحداثه بين الخاص والعام، فحكم فيها المسلمون بأنها مخالفة لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وطلبوا منه الرجوع إلى الحق مرارًا فكان يتوب ويرجع حتى طلبوا منه الاعتزال فأبى ثم أحاطوا به؛ ليعتزل، فكان من قدر الله عليه أن قُتِلَ ثم إن فريقًا من النّاس قاموا في الطلب بدم عثمان بعد ظهور ذلك منه وحكم المسلمين عليه، فهذه الأحوال التي ذكرها المتبرئون من موسى وراشد لخروجهما على الصلت، وهي دعاوى تحتمل الحق والباطل، وما تعودوا الكذب ولا يستحلونه، فمن ها هنا توقف من توقف من أفاضل المسلمين في أمر موسى وراشد؛ لالتباس أمرهما وكل مشكل موقوف

عنه، والواقفون منهم يتولون أولياءهم الذين يتولون موسى وراشدًا وأولياءهم الذين يتبرءون من موسى وراشدًا لا مكان صحة الدعوى عند كل واحد من الفريقين، ومضى على ذلك ما شاء الله من الزمان.

قال: ثم ظهرت أناس بعد ما مضى ما شاء الله من الزمان، وبعد انقراض ذلك العصر فغلوا في أمر موسى وراشد، وأوجبوا البراءة منهما على النّاس، وقالوا لا يسع جهل الحكم بحدثهما؛ لأنهما خرجا على الإمام العادل، وهو إمام بالإجماع، والخارج على إمام بالإجماع باغٍ بالإجماع والبراءة من الباغي بالإجماع واجبة بالإجماع، قال :والطالبون بدم عثمان إنما طلبوا الدولة والملك وجعلوا الطلب بدم عثمان ذريعة لهم، وتستروا بذلك عند العوام، فكانت بذلك فرقة عظيمة في الدين، فالطالبون بدم عثمان كلهم في ظاهر الأمر يتولونه على أحداثه، ويبرءون من المسلمين القائمين عليه وعلى حكمهم عليه بحكم الله، فمن هناك لم يعذروا أهل تلك الفتنة إلا بالبراءة من عثمان وأشياعه، وبعد انقراض تلك الفتن وذهاب تلك الأمم، لم يلزموا النّاس أن يحكموا في عثمان وأشياعه بحكم إلا من يلزمه العلم القاطع بحدثهم، وعرف الحكم في ذلك، فإن يلزمه أن يحكم فيهم بحكم الله لأداء الواجب من فرض البراءة. وأما الجاهل بحدثهم وحكم حدثهم فلا يلزمه منه شيء، وإنما يلزمه أن يتولى المسلمين على ولايتهم لمن تولوا، وبراءتهم ممن برءوا منه، وهؤلاء الغلاة ألزموا النّاس البراءة من موسى وراشد بعد مضي ثلاثة قرون، فحكمهم في ذلك مخالف قطعًا لحكم المسلمين في أشياع عثمان.

لأن المسلمين يعذرون الجاهل بعد انقراض المحدثين، ويوسعون لهم في الوقوف ما لم يتولوهم أو يعرفوا الحكم فيهم، وهؤلاء يلزمون النّاس الجاهلين البراءة من موسى وراشد بعد انقراض ثلاثة قرون، وإن جهلوا الحكم فيهم قالوا يلزمهم أن يسألوا عن دينهم والبراءة من المحدث واجبة، فعليهم أن يسألوا عن

واجبهم، قلنا: ذلك فيمن وجب عليه وهو أمر خاص لا يعم النّاس كلهم، وإنما يعم من بُلي به. ثم إن البراءة من الأشخاص ليست مثل الصلاة والصوم، فإنها وإن كانت لازمة فإنما تلزم من وصل إلى علم ذلك ببصر نفسه، أما من وصل إليه ببصر غيره، فلا تلزمه بإجماع، وإنما تلزمه على قول، ليس لهؤلاء الغلاة أن يخطئوا أحدًا تمسك بقول من أقوال المسلمين، ثم إن الدين يتم من غير أن نذكر في اعتقادنا البراءة من فلان وفلان، بل يكفي أن نعتقد البراءة من جملة أهل الضلال.

فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والنّاس في جاهلية عمياء فلم يكن يدعوا إلا إلى الشهادتين ثم يعلمهم شرائع الإسلام، وكانوا قبل ظهوره يقولون آباءهم وطواغيتهم، فلم يكن صلى الله عليه وآله وسلم يلزمهم أن يبرءوا منهم واحدًا واحدًا، وإنما يكتفي منهم قبول الإسلام والدخول في شرائطه، ويتضمن ذلك البراءة من أضداده، وقد اكتفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المشركين بقبول الإسلام، ولم تكتف الغلاة من المسلمين إلا بالبراءة من موسى وراشد.

قلت: وفي هذا الحال تضييق للواسع وإلزام لما يلزم قبل أن يلزم، قال رسول الله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل النّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويصوموا رمضان ويحجوا البيت، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»** وفي الحديث الآخر: **«بني الإسلام على خمس»**.

ومما وسّع شقة الافتراق كون الفضل بن الحواري، وكان قبل الفتنة لا يختلف في فضله وعلمه، وقد أخذ عن أبي عبد الله محمد بن محبوب رحمه الله، وكان فيما مضى أيضًا قرينًا لعزان بن الصقر حتى قال فيهما القائل: إنهما في عُمَان كالعينين في جبين، أي هما سواء لا يفضل أحدهما على الآخر، وهما زينة الجبين، والجبين

هو عُمَان، والعينان أولئك الشيخان، فمات عزان بن الصقر قبل الفتنة، أي فسلم من بليتها وابتلى بها الفضل بن الحواري، فكان يمشي فيها مشية البعير في قيده. قال الإمام: وأدركها الفضل فأصاب منها، بل قتل في وقعة القاع في إمامة عزان بن تميم. قال: وكان الفضل يرى أن لموسى ما صنعه من عقد الإمامة لراشد بن النضر، وكان يقول: إن موسى عالمهم وإنه الحجة عليهم، وعنه أي الفضل المذكور أن الفريق الذي رأى عزل الصلت بن مالك أو قال إنه اعتزل أثبت إمامة راشد وعقدته إلا شيخ نفسه ادعى أنه لا يجوز عزل الصلت، ولا تقديم راشد إلا بحضرته وعلمه، وحتى تعرض عليه الأمور.

قال الإمام، وكأنه يلوح بهذا الكلام إلى أبي المؤثر، قال: وقد بلغنا عن الشيخ نفسه أنه قال مرة: إن كان الصلت حلٍّ عزله فراشد إمام، قال: وبلغنا عنه حينًا أنه لا يقبل ذلك حتى يصح ذلك معه، وهو كان غائبًا عن ذلك، إلا إن فريقًا ممن ينتحل العلم والبصر في الدين كانوا معًا على الصلت مع من عزله يحثونه ويأمرونه، فلما عزلوه رجعوا والدنيا أمام العامة إلا ما شاء الله، وكان الفضل بن الحواري يحتج لراشد بن النضر، ويثبت إمامته، ومن كلامه في كتاب كتبه لراشد بن النضر يقول فيه: بلغنا أنهم يحتجون عليك أن الإمامة لم يجتمع عليها، وما لهم بذلك عليك حجة، ولا على من معك؛ لأن الإمامة ليست مشتركة لجميع المسلمين، إنما هي لمن حضر منهم. قلت: هذا الكلام ما فيه من المقال لأهل الجدال أن الإمامة من الأمور الجامعة المجتمع عليها التي لا تقوم بأفراد النّاس، ولو كانت الإمامة تقوم بأفراد لكان لكل أحد أن يقوم فينصب إمامًا ويلزم المسلمين إمامته ولا قائل بهذا نعم إنما يثبت إذا قام بها من أهل العلم الذين هم مرجع الأمة، فإذا عقدوا على إمام كانوا حجة في عقدهم إذ كانوا مرجع المسلمين من أول الأمر، فهم إنما أيّدوا هذا المرجع بالإمام الذي اختاروه؛ لأنهم اختاروا للأمة لا لأنفسهم، وليس للأمة أن تعارض الصلاح إذا تحقق.

قال: إنما هي لمن حضر منهم العقد، ولم يخرج عنها إلا غائب عنها من المسلمين، أو مضاد منا ولأهلها، وذلك حرام في الدين؛ لأنه أخطأ سبيل المسلمين، وباين منهجهم، وأما الغائب فلم يكن لهم أن ينتظروه.

قال: ولو كانت لا تعقد حتى يتوافى إليها جميع المسلمين، كان جميع الأئمة ومن قد مضى قد أخطأوا، قال: وهذه دعوى باطلة، لن التقديم والعقد إنما هو لمن حضر من أهل العلم والقدم في الإسلام وأعلام المسلمين. قلت: نعم إذا قام بها من هم حجة على غيرهم جازت عقدتهم أو جبت، إذ رآها المسلمون صحيحة وأيدوها، أما إذا انفرد واحد من أهل العلم قطع عقد الإمامة عليهم، فلهم فيما فعل، فإن رأوه حقًا تبعوه، وإن رأوه باطلاً تركوه، ومما كان من موسى وراشد بن النضر، مما يوجب العزل ويوسع نطاق الافتراق بين المسلمين المسلك الذي سلكه الإمام المذكور راشد بن النضر من الأفعال الشنيعة التي لم يرض المسلمون فعلها، فكيف أوجب ابن بركة البراءة من راشد وموسى إيجابًا يحتمونه على الكل، ويفرضونه على عباد الله تعالى، ويقولون بوجوبه على المجتهد والمقلد؛ لأن الإمام بالإجماع يكون الخروج عليه بغيًا بالإجماع، والخارج عليه باغ بالإجماع، فالبراءة من الباغي بالإجماع ثابتة بالإجماع،والله يقول: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة: ١٣٤] ويقول عز وعلا: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1] في أمثالها إلا من عَلِمَ علمًا قطعًا، وأين ذلك بعد ذهاب ذلك الجيل، وإنما كان الافتراق تشويشًا على الإخوان من أهل الدين والإيمان، وبالجملة فإن النفوس إذا أغراها الشيطان على فعل شيء تعمى عَمَّا وراءه وتتهافت إلى هواها، وإلا فما الافتراق وقد سلم منه المفترقون عليه، وما الداعي عليه، وكان الواجب أن يقال تلك أمة دانت.بما يلزمها

(١) سورة الأنعام، من الأية١٦٤، أو سورة الإسراء، من الأية ١٥، أو سورة فاطر، من الأية ١٨، أو سورة الزمر، من الأية ٧.

حسبما ظهر لها، ونحن الآن في عهد غير عهدهم، فلم نبعث داء دفنته تلك الأيام الخالية، وقضيت عليه تلك العهود الماضية، وأي جدوى في ذلك علينا أن نستقبل الحق في عهدنا ونتحامى لأنفسنا مهما استطعنا، ونعمل لمستقبل ديننا ودنيانا، فما لنا نرجع على الورى نبكي على الماضي بكاء الشيعة على الحسنين وفي أيامهما كما يقول الشاعر العربي:

إني أخــَـالــك بـعـد تـنـدبـنـي وفي حـيـاتـي مـا زودتــنــي زادا

إن هذا لا يسعى له عاقل، ويشتغل به الكامل، ولا يعمل بما هو من نوعه إلا جاهل، حتى قام هذه القضية الإمام العلامة أبو سعيد الكدمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وشدَّد الوطأة على أهل الباطل، ورد عليهم ردًا نقض به بناءهم من أساسه، حتى تلاشت تلك الدعايات واضمحلت تلك المخالفات، وجمع الله الشمل على الحق، وأعدم الله النصير لتلك البدعة، ومضى أهلها وانتهت بهم، وسلم النّاس بواعث الشر، وأذهب الله إغراءات الشيطان والحمد لله على كل حال. قال شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر له:

وافــترقــت مــن فـعـلـهـم عُـمَـان وعــمــهــا الـفـتـنـة والخــذلان

فـكـانـت الـفـرقـة فـيـهـم بـاقـيـة وعــن قـضــاء الله مــا عــن واقـيـة

❊ ❊ ❊

إعادة راشد بن النضر للإمامة بعُمَان مرة أخرى

اعلم أن أهل عُمَان أمرهم عجيب وغريب فإنهم لم يزالوا في تقلب بالأمور وفي تناقض على المنازل، وهذا من الداء الدفين في النفوس غير الصافية، فإنهم أقاموا راشد بن النضر إمامًا بدلاً من الصلت بن مالك الذي وسموه بالعجز والضعف، وأضافوا إليه ما شاءوا من الأحوال، وأنه ولده شاذان كان يتدخل في الأمور باسم الصلت بن مالك، وأنه ولد يستند على سلطان أبيه، وأن أباه يعلم منه أفعاله، وكان موسى بن موسى رأسًا كبيرًا في أيامه تخضع له رؤوس كثير من عُمَان، فدخلوا عليه من هذه النواحي، وتجمعوا بفرق؛ ليعلم الصلت بن مالك أنهم قاصدوه غير تاركيه، فاعتزل؛ لأن الحر تكفيه الإشارة، أما العبد فيقرع بالعصا فلما تخلى الصلت من الأمر قبلوا له ظهر المجن ونسبوا إليه التخلي من الأمور بغير حجة، وأنه أضاع أمر المسلمين فحلٍّ لهم نصب إمام يقوم بعده، فبايعوه راشدًا بن النضر، ودخلوا نزوى بإمامهم الجديد وتولوا الأمر بغير منازع، وكان له في الأمر فوق أربعة أعوام، ثم انقلبوا عليه حتى هاجموه في دار الإمارة، وقبضوا عليه وضربوه بالسياط ثم أودعوه السجن فبقى فيه سجينًا، ثم أخرجوه وبايعوه مرة أخرى من غير أن يحققوا عليه جرمًا أو ذنبًا، فيؤخذ به، ثم يتوبونه منه، لا بل كل ذلك لم يكن، وإنما عادوا عليه بعد تلك الأحوال السيئة، وهي خلع وحبس وضرب، ثم يكون بعد ذلك إمامًا بغير توبة، يعلمها المسلمون أن هذا من الغرائب التي يضحك منها أهل العقول.

قال الإمام في تحفة الأعيان في الجزء الأول صحيفة ٢٣٤ أربع وثلاثين ومائتين: تجمعت اليحمد وبنو مالك بن فهم والعتيك، وسارت إلى راشد في دار الإمامة بنزوى، فأسروا راشد بن النضر بعد أن هزموا أعوانه وفضوا عساكره، وعزلوه من الإمامة، وقال في صحيفة اثنتين وأربعين ومائتين: كان أي راشد في السجن خليعًا مقيدًا محبوسًا أسيرًا أفضى الحال براشد بن النضر إلى هذا الحال،

وقد قدمنا لك أنهم لم يثبتوا عليه [ما] يحتجون به عليه عند المسلمين، وإنما قدموه كما شاءوا وعزلوه متى شاءوا، ثم قدموا الصلت بن القاسم إمامًا بدلاً من راشد ابن النضر الذي كان إمامًا لهم بدلًا من الصلت بن مالك، وقبضوا على راشد بعد مهاجمة له وقتال دار بينه وبينهم، ثم تمكنوا منه ووضعوا عليه الحديد، فقيدوه وأودعوه السجن، أبعد الضرب والقيد تكون إمامة، وما لهذا الإمام يرضى بهذا بالأمس يضرب ويسجن، واليوم يعود إمامًا سبحان الله.

* * *

إمامة الصلت بن القاسم بعد راشد بن النضر

لما تمكن القائمون على راشد بن النضر من القبض عليه، وأروه من سطوتهم عليه ما أذله وأخبره أنه أسير رغبتهم، وتحت قهر سطوتهم، ولحقه من السوء ما لحقه منهم، وأيقن أنه على شفا جرف هار فانهار به في الحضيض، وشفى الثائرون عليه أمراض نفوسهم المتحمسة عليه بمن قتل في الروضة، ومن أجرم عليهم راشد ابن النضر في حال إمامته. رفضوه ثم بايعوا بعده الصلت بن القاسم إمامًا وكل أمرهم منوط بالزعيم الأكبر موسى بن موسى: وكأن القاسم لم يعجبهم فخلعوه، ولم يرتضوا منه ما رأوه من أعماله، وظاهر كلام أبي المؤثر أنهم أعادوا راشد بن النضر في الإمامة، ثم عزلوه ثانية، ثمة أقاموا الصلت بن القاسم بعد العزل الثاني لراشد بن النضر، ولعلهم لما قيدوه وضربوه وحبسوه ليؤدبوه، فلما أدبوا وشفوا أنفسهم ردوه على الإمامة، ورأوه مصالحًا لها بعد تأديبه التأديب الشافي، وأعيد للعمل مرة أخرى.

قال الإمام رَحِمَهُ اللهُ حاكيًا عن أبي المؤثر: قدموا راشدًا إمامًا ثانية على غلطه، أي في أحكامه وخطئه، في أعماله، ثم ضللوه أي قالوا: هو ضال، ثم عزلوه، أي بعد ما صح ضلاله، ثم أقاموا الصلت بن القاسم إمامًا. قال الإمام: قال أبو قحطان: رجعوا إلى راشد من بعد أن كان في السجن خليعًا مقيّدًا محبوسًا أسيرًا، فعقدوا له الإمامة وقصروا الصلاة في الجمعة، وجبوا الزكاة إلى آخر ما جاء عنهم. قال أي أبو قحطان: هذا من العجب العجيب من أفعال أهل عُمَان. قلت: وأي شيء أعجب من هذا، فإن المسألة من الغرائب لاشتمالها على حق وباطل واختلاط هذه الأعمال حابلاً بنابل، قال: ثم خذلوه وتركوه وخلعوه وخلعوا الإمامة وفرضها وما أوجب الله تعالى فيها على أهلها لعبًا ولهوًا إلخ.

فكأن الإمامة ألعوبة من ألاعيب الصبيان، ما كأن عليها عهد الله ورسوله وخيانة العهد والميثاق أمرهما كبير عند الله، ومن خان عهد الله اقترف ذنبًا كبيرًا

من الذنوب، وهذه الأحوال من سوءات الرجال ومن سيئات الأعمال، فإن القادح في المذهب يراها حجة على أهله ونزاهة هذا المذهب الصحيح تأبى مثل هذه الأفعال، وهل قلّت الرجال الصالحون فيبايعوهم بعد ما رأوا أحوال راشد؟ فبعد القيد والضرب والحبس والتضليل، يبقى مجال للإمامة، وهذه الخصال القادحة الفاضحة لا تزال يتداولها؟! ألم يقل العلماء في اللقيط والزنيم والمولى بعدم صلاحيتهم للإمامة، ولو بلغوا الذروة في الفضل والعلم والتقوى، مع أن تلك الخصال لم تكن من العار في حق المتصف بها، إذ هي من سبب غيرهم لا من سببهم ذلك؛ لأن منصب الإمامة رفيع منيع لا يليق أن يدخل عليه ما يدنسه أو يثلم جانبه بشيء ما.



خلع الصلت بن القاسم من الإمامة

اعلم أن أهل عُمَان في هذه الحلقة، كثر التلاعب عندهم بالدين وشاع بينهم التعصب للأهواء المضلة، فتراهم يصافقون هذا بالإمامة صباحًا، ويخلعوه رواحًا، ويعودون لذلك ليلاً، ويتركونه نهارًا ويقدمون زيدًا اليوم ويؤخرونه غدًا، وينصبون عمرًا حينًا ويتركونه كذلك، ولا موجب لذلك يعرفه النّاس إلا أنهم صفا لهم الجو من الأعداء، وكفاهم الله شر الملوك الأقوياء، وبذلك نسوا ما كانوا عليه بالأمس، حيث يسأمُون الخسف ولم ينتبهوا من تيههم كبني إسرائيل إذ عاشوا زمنًا في التيه، فوهت بذلك قوة المسلمين، وتمزق شمل المؤمنين، وطمع في الدولة أهل الدنيا.

ولا شك إن الله ناظر على صنع عباده، وإلى أعمالهم في بلاده، فمجازيهم على أفعالهم، ومنتقم منهم؛ بسبب أفعالهم المخالفة للحق، المنافية لما عليه سلفهم الصالح، والله ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: ١١] ولما بايع أهل عُمَان الصلت بن القاسم الخروصي بعد راشد بن النضر، إذ خلعوه لم يطل عهد الصلت هذا حتى خلعوه، ورفضوه كراشد، وراحوا يطلبون إمامًا آخر؛ ليبايعوه ولم يذكروا للصلت هذا موجبًا لخلعه، فكأن الإمامة عندهم كُرةٌ يلعبون بها، ويتلهّون في ميدانها، والله سائلهم غدًا عَمَّا يصنعون، والعجب من هذا الذي يحب أن يتلاعبوا على اسمه إمامًا.

❊ ❊ ❊

إمامة عزان بن تميم الخروصي

اعلم أنه لما خلع أهل عُمَان راشد بن النضر مرتين، وبايعوا الصلت بن القاسم كما قدمنا، وخلعوه أيضًا كما أسلفنا. على غير هدى من الله، ولم يقترف إثمًا ولم يرتكب جُرمًا، ولم ينتهك حُرَمًا حتى إذا لم يرغبوا فيه ألقوه وراء ظهورهم كالشيء اللقا، وهذا شيء لا يقتضيه الدين، فإن استنّوا بسنة المسلمين، فالمسلمون لما رأوا من عثمان ما يخالف منهج أهل الإيمان قاموا عليه، وبيّنوا ما ينكرون، وتوبوه الأولى والثانية والثالثة، حتى تبيّن لهم إصراره على خلافهم، ولما تحققوا إصراره قاموا عليه ليعتزل، فأصر حتى أعذروا فيه، وأهل عُمَان هنا لم يعرف لهم من ذلك أدنى شيء إلا أنهم بايعوا هذا، ثم عزلوه مرة، ثم عزلوه وبايعوا غيره، كما سوف ترى من هذا النوع مانُعَنْونُ له بالإمامة المستضعفة؛ ليعتبر بذلك أهل العقول المنصفة، وَيحترز منه أهل الأذهان الصادقة، والله يقول لنا: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، ففي يوم الثلاثاء لثلاث خلون من صفر سنة سبع وسبعين ومائتين، وهي السنة التي قتل فيها المهتدي بالله العباسي، وقيل بل قتل هذا سنة ٢٧٩هـ تسع وسبعين ومائتين، لا سنة ٢٧٧هـ سبع وسبعين [ومائتين] وعلى هذا فيكون ذلك في خلافة المهتدي بالله، وقبل وفاته بسنتين والله أعلم.

قال الإمام السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وذلك أنه لما وصل موسى بن موسى نزوى وقد عزل راشد بن النضر، أجمع رأيهم على إمامة عزان بن تميم الخروصي، فبايعوا له في التاريخ الذي ذكرناه، وهو يوم الأربعاء لثلاث خلون من شهر صفر سنة ٢٧٧هـ سبع وسبعين ومائتين، وقام له بالبيعة موسى بن موسى بن علي، وعمر بن محمد القاضي، ومحمد بن علي أخي موسى بن موسى بن علي، وعزان بن الهزبر، والأزهر بن محمد بن سليمان.

ولما تمت البيعة لعزان بن تميم، وتأكد له وسلمت له عُمَان، خرج من نزوى واستخلف عليها شاذان بن الصلت بن مالك بن بلعرب، ووصل إلى إزكي وقد

مات القاضي عمر بن محمد، فصلى عليه عزان بن تميم، ثم رجع إلى نزوى وقام ليركّز إمامته ويثبّت دعائمها، ويوطد أركان أمنها، أخرج أمرًا بعزل ولاة راشد ابن النضر عامة، وأثبت موسى بن موسى على القضاء، وقف عزان بن الهزبر على الأسطول البحري وجعل نبهان بن عثمان معديًا له في نزوى، وولى الأزهر ابن محمد بن سليمان صُحار وما إليها، وكان نبهان بن عثمان خطيبًا لعزان بن تميم، وذلك في صلاة الجمعة، فإن لم يكن حاضرًا خطب له عبد الله بن محمد بن محبوب، ثم تخوف عزان بن تميم من موسى بن موسى لما يعلمه منه، وقد عاصره وعَلِمَ منه ما عَلم، وفهم منه ما فهم، وبقي يلاحظ الأحوال، ولما رأى إن إمامته استقرت، وأن دعائمها قد ثبتت التفت إلى موسى بن موسى فحوَّل القضاء عنه فهاج موسى لذلك وماج، ورأى أنه هو الذي أقعد عزان على كرسي الإمامة، واليوم أصبح عزان يحوِّل عن موسى القضاء ومفهومه أنه لا يريد أعماله، وليته تأخر لّما أخَّره الإمام؛ لكن لابد من وقوع المقدر على الإنسان، فإن سياسة عزان هنا غير سديدة، ولو شغل موسى بالقضاء وألهاه به ربما يسلم من القيام عليه، فإن موسى أصبح يعد نفسه عمدة الزعامة وسيف الإمامة.

قال الإمام: فجمع موسى الجموع في إزكي ورأى عمل عزان هذا إهانة لشرف موسى بن موسى الزعيم الكبير الذي له الحل والعقد في عُمَان، فلما شاعت الأخبار عن موسى وجمعه، قال في نفسه وربما قال له قائل إن موسى يجمع الجموع؛ ليهاجمك ويخرجك من إمامتك صاغرًا، كما أخرج من قبلك والرأي أن يُعاجَل موسى قبل أن يخرج بجمعه إليك، فزحف عزان بن تميم على موسى إلى إزكي، قال الإمام: فعاجل عزان موسى خوفًا أن يفعل به مثل ما فعل بمن قبله، فإنه قام على الصلت وعسكر بفرق حتى تنازل الصلت عن إمامته حين لم يجد له أعوانًا، وقام راشد بن النضر أيضًا وهذه الآن ثوبة عزان، فصال عزان على موسى باستعجال، فخرج بمن معه من نزوى، وأطلق اللصوص الذين في

سجن نزوى وسلحهم وخرج بهم، وجيش جيشًا فما شعر موسى إلا والقوم في إزكي، فدارت رحى الحرب بينهم، وكانت المعركة الكبرى عند حصيات الردة، عند مسجد الحجر من محلة الجنور من إزكي، ولمّا قتل موسى انكسر علم القوم وسقط العمود الذي قام عليه ذلك البناء المنيع، وهنالك صال أصحاب عزان صولة المنتصر، فقتلوا من أهل إزكي رجالاً، وسلبوا أموالاً ونهبوا بيوتًا وأحرقوا أناسًا بالنار، ولعلهم الذين لم يخرجوا من بيوتهم وقبضوا عليها وفعلوا أفعالاً شنيعة في الأمة على خلاف ما عليه المسلمون، ولم يفعل مثلها أحد في عُمَان، ما علمنا وذلك من ضغائن تقدمت بين الأحياء، وآوى عزان أهل تلك الأحداث وأنكرها عليه المسلمون حتى أنه اتخذ المحدثين أعوانًا وأنصارًا، وأجرى عليهم الإنفاق، وطرح إنفاق من تأخر عن المسير إلى إزكي، وعاقب من عصاة وأنكر أهل العلم على عزان، فعله هذا وكان عليه أن يحضّر أهل العلم ويناظرهم فيما بلغه عن موسى، ويعتمد على رأيهم وهو واحد منهم، ثم لمَّا رأى أن يعاجل موسى فليقدم عليه بشراة المسلمين لا باللصوص، ثم له أشياء ليس له أن يتعداها، فإن حرق المسلمين بالنار لم يفعله المسلمون في أحد من الكفار، فهذا لا يصح شرعًا، وإن كان وقع من معرة الجيش، فعلى عزان وهو الإمام أن ينصف من الفاعل، ويعاقب الجاهل الذي يتغطرس على النّاس، ويفعل مثل هذه الأمور الشنيعة، وكانت هذه الوقعة يوم الأحد سنة ٢٧٨هـ ثمان وسبعين ومائتين في آخر ليلة من شعبان من السنة المذكورة.

ولما كانت هذه القضية في صالح عزان، وقتل فيها موسى بن موسى رأته فاستوحش النّاس لذلك، وخاصة النزارية ومن كان مواليًا من النزارية ومن شايعها كبيرًا لاسيما أن القتل شمل كثيرًا من النّاس، ونهب وحرق أناس بالنار رأوه شنيعًا ونفخ الشيطان في أدمغة القوم، وأضمر نار الحقد؛ ليمزق الدين، ويهلك المتدينين.

قال الإمام: وذلك حين قُتل موسى بن موسى بإزكي ومن معه من قومه، فاستوحش النّاس لذلك وخاصة النزارية ومن كان مواليًا من اليمانية، قال فخرج من أجل ذلك الفضل بن الحواري السامي، إلى ناحية السر؛ ليستجيش من هناك ويبرم الآراء مع من يميل إليهم، وخرج زياد بن مروان السامي إلى سر، أي خرج متسللين مختفيين عن النّاس، قال: وخرج أبو هدية من الباطنة ولحق بالفضل بن الحواري، ولحق الحواري بن عبدالله السامي بالفضل بن الحواري، ولحق الحواري بن عبدالله الحداني السلوتي بجبال الحدان، وجمع بها أناسًا كثيرًا، ثم خرج الفضل بن الحواري السامي إلى توءام أي البريمي، فاستعان ببني عوف بن عامر بن صعصعة. فأجابه منهم ناس كثير، واجتمع معه ناس كثير من السر من بني سامة وغيرهم، قال: وكان اجتماعهم بتوءام، ثم خرج الفضل بن الحواري بن عبدالله الحداني السلوتي، وعزموا على محاربة عزان بن تميم فخرجوا حتى صاروا بينقل من جبال الحدان، فبايعوا الحواري بن عبدالله الحداني السلوتي، وقاموا لمحاربة عزان بن تميم فخرجوا بمن يريدون صُحار يوم سادس عشر من شوال سنة ٢٧٨هـ ثمان وسبعين ومائتين، ودخلوا صُحار يوم الثالث والعشرين من هذا الشهر، أي شوال وذلك يوم الجمعة، وحضرت صلاة الجمعة فصلى بالنّاس زيد بن سليمان، وخطب النّاس ودعا للحواري بن عبدالله الحداني السلوتي على المنبر، وأقاموا فيها بقية الجمعة والسبت، وشاع خبرهم هذا، وكان عزان بن تميم مراعيًا لحركاتهم وسكناتهم، وقد تيقن منهم الشقاق، والخلاف، فأقام لحربهم.

قال الإمام: وذلك أن عزان بن تميم لما سمع بخروجهم جمع جموعه وجهّز جيشه، فوجهه تحت قيادة الأهيف بن حمحام الهنائي، وسليمان بن عبد الملك بن بلال السليمي، في جماعة من ولد مالك بن فهم، وفيهم النضر بن منهال العتكي الهجاري على العتيك، وشاذان بن الصلت على اليحمد، وأمر الجيش كله بيد الأهيف بن حمحام الهنائي في جميع قومه من بني هناءة بن مالك وسائر ولد

مالك بن فهم، وكان جيشًا كثيفًا وعسكرًا ضخمًا، فلما بلغ الحواري بن عبدالله والفضل بن الحواري مسير هذه الجموع إليهم، وأنهم الآن بالقرب من صُحار، إذ كانوا نازلين بمجز منها بالجانب الشرقي، أي في منازل آل مالك بن فهم خرج الحواري بجيشه وكان جيشه كما قال الإمام: عسكرًا ضخمًا، أي يجمع أكابر أهل عُمَان. قال: فالتقوا بالخيام من ظهر عوتب بموضع يسمى القاع، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وحملت اليحمد والعتيك في الميمنة والقلب، وحملت بنو هناءة وسائر ولد مالك بن فهم على الميسرة، قال: فما كان يسمع إلا طنين السيوف على صفائح الدرق والحلق والبيض، وارتفع بين الجيشين غبار عظيم، حتى ستر الشمس، ودارت بينهم حرب من أشنع حروب أهل عُمَان إذ ذاك؛ ليهلك فيها أبطالهم ويموت فيها رجالهم، حتى انجلى القتال عن قتلى كثيرة من أعيانهم، وأبلى فيها ابن بلال بلاءً عظيمًا أعني سليمان بن عبدالله بن بلال فيمن معه من أهل بيته، وحمل فشدَّ على الريان بن محجن السامي، وكان من فرسان بني سامة فطعنه في لبته فأرداه قتيلاً عن فرسه ميتًا، وانهزمت النزارية هزيمةً لم ير أقبح منها، وأسر منهم كثير، وقتل منهم في المعركة أعيانهم وصناديدهم وأهل البأس فيهم.

قال الإمام: قتل منهم في المعركة ستمائة قتيل، وقتل من اليمانية وأصحابهم خمسة وثمانون رجلاً، وقتل في الواقعة الحواري بن عبدالله، وورد ابن أبي الدوانيق، ويحيى بن عبد الرحمن السامي، ومحمد بن الحسن صاحب الراية الكبيرة وكان فارس الكتيبة، وناس كثير من بني سامة من وجوههم وأعيانهم، وقتل صعصعة بن عوف العوفي العامري، وموسى بن عبدالله الواشحي في خلق كثير من بني عمه، وقتل سعيد بن المنهال الفجعي، فهؤلاء هم وجوه المقتولين.

قال الإمام: وأما من عداهم فلا تأتي عليهم التسمية، أي هم كثيرون، قال: وقتل من أصحاب الأهيف بن حمحام محمد بن يزيد اليحمدي، من أهل تنعم، ورجل من العتيك يقال له منبه بن خالد، وجماعة من الآخرين، وقيل إن الفضل

ابن الحواري لما ترائي بمعسكر اليمانية من أصحاب عزان، قال: يا لهفي على الدنيا ما تزودت منها، ولقد جاشت نفسي كناية عن موته، والمعنى أيقن بالموت، قال: وكان أول قتيل من الوجوه في المعركة، وانفلت محمد بن القاسم؛ ليكون داعية الشر لأهل عُمَان، فطار على بعير حتى نزل توءام، كما يقال: بعض الجبن شجاعة، ولو جلس؛ لقضي عليه فينطفئ جمرهم المتقد، وتخمد نارهم الحامية، ثم لحقه بشير المنذر إلى توءام، وكان هذان الرجلان من جمر جرنان وفي هذه الأثناء قيل ما من فتنة في عُمَان إلا وأصلها من جرنان، فصارت مثلاً في عُمَان، قال :وخرجا إلى البحرين، وكان بها محمد بن نُور بضم النون، وهو الذي يسميه أهل عُمَان محمد بن بور بقلب النون باء موحدة، وكانت هذه الوقعة في عُمَان من أعظم الوقائع المشهورة؛ وذلك لأن القتل فيها كان على الزعماء من أهل عُمَان، إذ خرج فيها الأعيان والأكابر بخلاف غيرها التي يكون القتل فيها على الجنود المرتزقة غالبًا، فلا تكون لهم شهرة مثل ما إذا كان القتل في الرؤساء المشاهير، والزعماء المطاعين، والرؤساء المتبوعين، ولذلك كان أمر هذه الوقعة مثار الضغن، ومناط الحقد بين أهل عُمَان كما قال المؤرخون لها.

قال الإمام: هذه الوقعة المعروفة بوقعة القاع، من ظهر عوتب بالخيام من صُحار، وهي من الوقائع المشهورة المذكورة بعُمَان، وكانت هذه الوقعة يوم الإثنين من شهر شوال للأربع ليال بقيت منه، فكان بينها وبين واقعة إزكي التي قتل فيها موسى بن موسى ومن معه شهر رمضان فقط، وكلاهما على بني سامة ومن معهم، وقد قضى فيهما على الأعيان منهم وهكذا أبطالهم وسُقِط في أيديهم، ورأوا أحيط بهم ولم تقم لهم بعد هذه الوقعة بعُمَان قائمة لها معنوية؛ لأنهم بعد قتل موسى بن موسى سقط عمودهم الأكبر، واندقت عصا قوتهم، وأين إزكي منها وهم منهزمون في صُحار، وقد اشتد ساعد عزان بن تميم عليهم في هاتين الواقعتين، وهم جمرة حامية لا تنطفئ بسهولة،

فلذلك فر من فر منهم إلى محمد بن بور وإلى البحرين مستصرخًا للمضرية نظرًا على العنصرية القبلية، وأغروه بألسنة معسولة حتى يتم لهم الأمر الذي حاولوه، وهو الزعامة الكبرى التي ينشدونها؛ لكونهم من سامة بن لؤي بن غالب القرشي، وكونهم من أهلي جرنان التي هي قلب عُمَان، وإنهم السادة فيها، ولهم الحل والعقد في إيجاد الإمامة ومحوها من عُمَان وهم المسؤولون قبل غيرهم.

* * *

عزان بن تميم يتعرض لحرب عظيمة في عُمَان

لما انتصر عزان بن تميم في موقعة إزكي التي قتل فيها موسى بن موسى الذي كان يخشاه ابن تميم، وتجمع الموتورون من عزان؛ لأخذ ثأرهم بزعمهم من أنصار ابن تميم وأثار عزان عليهم فهزمهم بالقاع من صُحار شر هزيمة، وقتل رجالهم وأبطالهم، إذ خرج عليهم ابن حمحام قائد لجيش عزان وهنا تعمق الشقاق بوقعة القاع، وتأصل الافتراق بين اليمانية والنزارية، فكان من على نهج بني سامة نزاريين من كان على نهج اليحمد يمانيين، ونادى الشيطان بينهم بذلك، فما كان يعرف إلا اليمانية والنزارية، وذلك لسوء حظ عُمَان.

قال الإمام رحمه الله: لما قُتل من قُتل من النزارية وغيرهم بالقاع، اشتد الأمر على النزارية ومن معهم، وخرج محمد بن القاسم وبشير بن المنذر السامیان بن لؤي غالب، وهم عشيرة موسى بن موسى إلى البحرين، وبها محمد بن نور عاملاً عليها للمعتضد من ملوك بني العباس، فشكيا إليه ما أصابها من الفرقة اليمانية، وسألاه الخروج معهما إلى عُمَان وأطعماه في أمور جليلة، قلت: هي ملك عُمَان ولعلها أغرياه على خصمهما، وربما قالا له: إن عُمَان كانت تابعة لبغداد، وربما ذاكره بالواقع من أهل عُمَان في قتل عيسى بن جعفر، وأن الرشيد هم بحرب عُمَان إلا أن الأجل لم يسعفه، ومن هذا وأمثاله وأنك إذا فتحت

عُمَان كبر بها شأنك وعلا بها قدرك عند السلطان، وأن الحجاج كان منه في عُمَان ما كان، وأنت لست دونه والغاية التشفي النفسي لا غير والعياذ بالله، إن النفس لأمارة بالسوء، ولو لم تقم عُمَان لهذا البطل المتمرد على عُمَان لكانت عُمَان هادئة مطمئنة؛ ولكن قضاء الله وقدرة جار على الإنسان، وإرادته نافذة فما زالا به فأجابهما إلى ذلك، وأشار عليهما أن يذهبا إلى الخليفة ببغداد، ويذكر له أمرهما وأنهما قدما يريدان نصرته، فسار محمد بن القاسم وقعد بشير مع محمد بن نور، فلما قدم محمد بن القاسم إلى الخليفة المعتضد العباسي، وذكر له الأمر خف له وهش، ورآها فرصة سانحة تستعيد لهم عُمَان بعد طول غيبتها عنهم، وربما أخذته أريحية العصبية للنزارية فأخرج عهدًا منه لمحمد بن نور على ولاية عُمَان، ورجع من بغداد إلى البحرين موفورًا من الخليفة العباسي ببغيته، وأخذ محمد بن نور في جمع العساكر من سائر القبائل، وخاصة النزارية، وحصل معهم من الشام من طي فكان جيشه يتألف من خمسة وعشرين ألفا فيه ثلاثة آلاف فرس وخمسمائة، عليهم الدروع والجواشن، وعندهم الزاد الكافي والعدة الوافية، وعُمَان في استقبالهم حتى شاع الخبر في عُمَان، إذ كانت فاتحة آذانها في أمر هذين الزعمين، وما يكون من أمرهما حتى تحقق الحق بمجيئها بمحمد بن نور والي البحرين، ومن ورائه خليفة بغداد، وكانت عُمَان سابقًا صار عليها من هؤلاء ما صار، مما ذكره المؤرخون فاضطربت عُمَان لهذا النبأ العظيم، واهتزت من كل جانب خوفًا من الشائع الذي لا يدري ماذا يكون منه، والأخبار تأتي من بعيد مدهشة هائلة رائعة.

قال الإمام: ووقع الخلف أي التخالف والعصابية بين النزارية واليمانية، قال: فكانت النزارية ومن كان على رأيهم في حزب، واليمانية ومن كان على رأيهم في حزب، قال: وتخاذل النّاس عن الإمام عزان بن تميم، وانتفضت الأمور وأصبح الداعي والمدعي النزارية من جانب واليمانية من الجانب الآخر،

قال فخاف أهل صُحار وربما قالوا سيكون فينا وأول من يواجه هذا الجيش صُحار وما حولها من الباطنة، إذا كانت طريق الغازي لعُمَان من هناك، فرأوا أنهم لا قبل لهم بهذا الجيش المقبل عليهم، فخافوا أن يلتهمهم ويقضى عليهم، ويسلبهم أموالهم وأولادهم، إذ حروب البغي، لا تقف عند حد؛ لأن القائد لها البغي، والباغي إذا انتصر يفعل ما يهوى، فخرج بأموالهم وذراريهم وعيالاتهم إلى سيراف والبصرة وهرموز وغير ذلك من البلدان، فارين خوفًا من العدو الداهم، قال: وخرج سليمان بن عبد الملك بن بلال السليمى بولده وحرمه ومن خفَّ معه من قومه، فركبوا البحر في بعض السفن حتى أقدموا إلى هرموز، فتحصن بها وأقام هناك إلى أن اتخذ بها دارًا وأموالاً، وايس من الرجوع إلى عُمَان فاتخذ هرموز وطنًا إلى أن مات، ثم ابنه المهدي بن سليمان، وكان أميرًا عليها إلى إن مات، وبعضهم رجع إلى عُمَان، وجاء ابن بور بجيوشه من طريق جلفار - أي رأس الخيمة - ثم منها إلى توءام أي البريمي، وصلها يوم الأربعاء ليست خلون من شهر المحرم سنة ٢٨٠هـ ثمانين ومائتين بعد حروب وقعت بينه وبين القبائل القاطعة على طريق مروره؛ لأن الجيش ما مر عليه يحطمه طبعًا، وكان محمد بن نور هذا ليس بأقل من الحجاج بن يوسف الذي عاث فى عُمَان بتلك الحروب التي شنها على عُمَان حتى دوّخ عُمَان، وهذا الحجاج الثاني جاءها؛ ليأخذ دوره فيها جزاءً لأهل عُمَان على ضياعهم لـمّا نجاهم الله ﷻ من الشر لم يلبثوا أن تحرشوا به مرة ثانية، فجاءهم يتدفق وهم يقودونه من زمامه إلى منازلهم والله المستعان.

ثم سحب على أرض السر ونواحيها فسلمت له وواجهته، ثم منها زحف على نزوى، وإذا بأصحاب عزان يتخاذلون والنّاس من يلقى خيرًا قائلون له: ما يشتهى ولأم المخطئ الهبل. فخرج عزان لما رأى انهيار صرح إمامته وسقوط عرش زعامته، وكأن الخوف عَمَّ عُمَان، فإن أهالي صُحار وما حولها كما سبق

الكلام عنهم أنهم فروا هم وذراريهم إلى بلاد فارس خوفًا من شماتة العدو، فخرج عزان إلى سمد الشأن من شرقية عُمَان متحيزًا إليها ومستنصرًا بأهلها، ولما وصل محمد بن نور نزوى سلمت له ، إذ لا إمام بها ولا محارب فيها، ثم مضى قاصدًا سمد الشأن، فلحق بعزان بن تميم فوقع بينه وبين عزان القتال، واشتد الحرب والنزال، ومحمد بن نور يرى أنه منتصر إذ جاء عُمَان وهي خاضعة طائعة، وعلم أن تقهقر عزان إلى سمد الشأن انهزام من عزان، وعلى كل حال أن محمد ابن نور قد التفت إليه أكثر أهل عُمَان، منهم الراغب، ومنهم الراهب، ومنهم المداهن، وكانت المعركة بين محمد بن نور وعزان بن تميم الأربعاء لخمس ليال بقين من صفر من نفس السنة، وكانت الهزيمة على عزان وأصحابه، وقتل عزان ابن تميم، وقطع رأسه وبعث به محمد بن نور إلى المعتضد ببغداد، ورجع محمد ابن نور إلى نزوى وأقام بها فأصبح مالك أمرها وبيده زمامها، فكان في نفوس اليمانية ومن يميل إليهم من الحقد ما فيها، وهنا قام الأهيف بن حمحام الهنائي يكاتب مشايخ أهل عُمَان، وقبائلهم من كل مكان، ويحثهم على إخراج محمد ابن نور من عُمَان ولا يزال يستنهضهم حتى أجابوه إلى ذلك وخرجوا في عسكر ضخم وخميس جرار، وكان فيهم الشيخ منير بن النير الجعلاني أحد حملة العلم في أيامه وكان بالغًا في السن مائة وعشر سنين، وكان اجتماع العُمَانيين في شرقية عُمَان، ومنها خرجوا طالبين محمد بن نور، وكان القصد أن يسيروا إليه رويدًا رويدًا، فإن خرج من عُمَان بغير حرب فذاك، وإلا فيكون النظر فيه، ولما بلغه الخبر ارتاع الرجل ورأى اجتماعهم عليه لا بد أن يكون له أثر، فخرج من نزوى فخرج هاربًا مرعوبًا، ولا يخفى أن دخوله عُمَان كان بسبب افتراق أهل عُمَان فإن بني سامة هم قادة جيشه وهم الساحبون له إلى عُمَان، ومن بقي من أهل عُمَان كما قلنا عنهم أنهم بين راضٍ ومداهنٍ ومتقٍ، ولما اجتمع أكثرهم على حربه هاله الأمر، ورأى أنه وقع في مأزق ففضل الهرب؛ ولكن لله أمر هو بالغه

وحكم هو نافذه، أسرع الجيش العُمَاني للحاق بمحمد بن نور[1] فتلاحقوا في دما من الباطنة وهي التي تعرف الآن بالسيب، فاقتتلوا قتالاً شديدًا وكثر القتل في الفريقين والجراح من الجانبين وكادت تكون الهزيمة على محمد بن نور وأصحابه، حتى الجأوه على سيف البحر؛ فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ركب مددًا لهم بعثه إليهم أبو عبيدة بن محمد السامي، على كل بعير رجلان، وذلك لما علم أن أهل عُمَان قاموا على محمد بن نور والرجل جاء لنصرتهم إذ استنصروا به ورأوه يزحف هاربًا عن عُمَان، وأيقن بنو سامة أن خروج محمد بن نور من عُمَان يدير الدائرة عليهم، ويعيد الكرة لحربهم، والدماء تورث الحقد والضغائن تثير الشر فلف أبو عبيدة المضريين ومن مال إليهم بعصبيته لهم، ولا شك أن الذين أرسلهم أبو عبيدة مددًا لمحمد بن نور هم شرارة الرجال وكان من قدر الله أن وصلوا والحرب تدور رحاها، وقد علا لهبها وطار شررها، وإذا بمحمد بن نور يحاول الفرصة للهرب، فلما وصل هؤلاء نزلوا عن ركابهم وسلوا سيوفهم، ودخلوا الوغا، فكان من القدر المحتوم أن القوم في حال هزيمة فانقلب الحال بانهزام العُمَانيين، إذ كانوا قد كلوا من القتال، وركبهم العياء الحسي والمعنوي، وإذا هم بالجيش المناصر لابن نور يتراسل، ولعل وراءه آخر فكان مؤثرًا في نفوس أهل عُمَان الفشل، والنّاس في الحرب لا يزالون بين النصر والهزيمة، على حد السنان، فرب كلمة تهزم جيشًا، ورب كلمة تكون نفسها جيشًا وهكذا.

قال الإمام: فوقعت الهزيمة على أهل عُمَان، وقتل من أعيان جيشهم القائد

---

(١) ذكر هذه القضية صاحب مروج الذهب وأن الإمام الذي قتله ابن نور هو الصلت بن مالك خطأ منه في التاريخ، وكذلك لم تكن الحقائق عنده إذ قال في صحيفة ٢٤٤ في الجزء الرابع: افتتح أحمد بن نور والصحيح محمد بن نور سماه العُمَانيون محمد بن بور قال: افتتح عُمَان وكان مسيره إليها من بلاد البحرين فواقع الشراة الإباضية وكانوا في نحو من مائتي ألف، وكان إمامهم الصلت بن مالك ببلاد عُمَان نزوى، وكانت له عليهم فقتل منهم مقتله عظيمة وحمل كثير من رؤوسهم إلى بغداد. قلت: ما حمل رؤوسهم فغير مستنكر، حيث حمل رأس إمامهم، وأما ما عدا ذلك فالتحقيق ما ذكرناه والله أعلم. المؤلف

الأكبر الأهيف بن حمحام وكثيرون من عشيرته وغيرهم وعمل السيف في العُمَانيين؛ لتأديبهم على تلك الأفعال التي أوقعوها، في أنفسهم قال الإمام: ولم يسلم من أهل عُمَان إلا من تأخر أجله، والمعنى كناية عن كثرة القتل فيهم، وقتل الشيخ الكبير منير بن النير الجعلاني رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان أحد حملة العلم من خصوص بني حضرمي بن ريام، وكان يسكن جعلان، وجاءوا به؛ ليهتدوا برأيه، ويعتمدوا على أنظاره وكانت هذه الوقعة بالقرب من المسجد الجامع من دما من الباطنة، قلت: لا يعرف الآن موضع المسجد الجامع من أما موضع الحصن فباق معروف وكأنه قرب الساحل[1] ولعل الجوائح التي خربت الباطنة أتت عليه فخربته والله أعلم.

وكان ذلك يوم الأربعاء لست وعشرين خلت من ربيع الأخر سنة ٢٨٠هـ ثمانين ومأتيين، وذلك في خلافة المعتضد بالله أبي العباس أحمد القائم بالأمر ببغداد الذي أَخرَجَ محمد بن نور هذا لحرب عُمَان. وأنه تولى الخلافة سنة ٢٧٩هـ تسع وسبعين ومائتين، وتوفى سنة ٢٩٠هـ تسعين ومائتين وكان من أشد العباسيين المتأخرين.

قال الإمام: ولما انهزم أهلُ عُمَان رجع محمد بن نور على نزوى، وجعل أعزة أهلها أذلة، وسام أهل عُمَان الخسف، قلت: لا شك أن عدوًا قدر على قهر عدوه، وكان قد رأى ما رأى منه من المعاداة، وقاتله حتى أراه الذل والهوان لا بد أن ينتصر، فكان فعل محمد بن نور في أهل عُمَان بالغًا حد النهاية من العنف، إذ قطع الأيدي والأرجل، وصلم الآذان وسمل الأعين.

قال الإمام: وأحلَّ على أهلها النكال والهون، ودفن الأنهار وأحرق الكتب، قال الشيخ أبو إسحاق رَحِمَهُ اللَّهُ: من أشنع الجرائم التي يرتكبها هؤلاء الظلمة ومن على طريقهم حرق الكتب في الإسلام وفعلهم هذا كفعل الروم الذين كلما تغلبوا على قطر من أقطار الإسلام بادروا إلى حرق الكتب كما وقع في الأندلس وغيره

(١) أي المسجد كان قرب الساحل، فلعله اجتاحته الجوائح فلم يعد يعرف مكانه. المؤلف

من أقطار المسلمين متى يتسلط عليها العتاة الظالمون، يرون أن ذخائر العلم أهم شيء ينبغي إعدامه وإفناؤه، فكان هؤلاء شركاء أعداء الإسلام في مثل هذه الجرائم السوداء الوحشية والهمجية.

قال أبو إسحاق: فالتشنيع الذي يوجه إلى الأوروبيين الذين أحرقوا خزائن المسلمين، يوجه إلى هؤلاء. قلت: بل هؤلاء أحرى وبه أحق، فإن لما تغلب الفاطميون على الإمامة الرستمية، فإنهم أحرقوا من خزائن الكتب ونفائس العلم ما لم يوجد نظيره، وكفعل القرامطة أعداء الإسلام لما تغلبوا على المسلمين، فأنت ترى من هذه الحقائق التي سجلها التاريخ مبلغ الجرائم التي صدرت من أعداء العلم والدين، ضيعوا كنوزًا ثمينة لا تقدر بثمن، مهما بلغ وهذه سنة أعداء الدين كالمغول وما فعلوه في خزائن بغداد، ولكن بحمد الله فإن معين الدين لا ينضب ما دام القرآن موجودًا، فأنه الشجرة التي تطول السماء، وتملأ الدنيا وتجمع الكل تحت ظلها، وهي التي تؤتي أكلها كل حين بأذن ربها، ومهما سعى أعداء الإسلام في هدم أركان الإسلام وإخفاء ضوئه، وإخماد أنواره، اشتعلت وما برحت تنقد برغم العدو الجائر، وهكذا والله ولي المتقين، وما دام ينبوع العلم في ضمانة الله ﷻ فلن تزال جداوله تنفجر جارية متدفقة.

وكان جملة الأنهار التي دفنها محمد بن نور فلج الملكي من إزكي، وكان نهرا كبيرًا. قال الإمام: وكان يسقي حبوبًا أي لنشاطه وغزارة مائه، قال: وله مائة وعشرون ساعدًا أي مجاري وهي في عُرف أهل عُمَان تسمى ساعدًا، وتجمع على سواعد لغة عُمَانية، وحقيقة ذلك أظنه خطأ من النساخ فيكون الغلط زيادة مائة ويقرب من الصواب أن يقال: له عشرون ساعدًا، فمن الممكن لأن الفضاء الذي توجه له الفلج لا يتسع لما يقال، إذ ربما ساغ القول بعشرين ساعدًا، وهو أيضًا أقرب إلى البعد؛ لأن عشرين ساعدًا إذ كان بها ماء ينصب إلى مجموع الفلج المذكور ويحتاج إلى ظرف عظيم كهذه الظرف الحالي عشر مرات.

هذا ومن حيث أن الذين يسمعون مثل هذه الخرافات يهزون رؤوسهم ويهمهمون، ولا يفكرون في تحقيق الأشياء كما ينبغي لا سيّما إذا جاء ذلك من مثل الشيوخ المجللين، أو عن أئمة الدين، فما جاء عنهم هو الحق لا غير، وكأنهم لا يرون عليهم جواز الغلط أو خطأ النساخ أو نحو ذلك ولم يفهموا أن التاريخ يحمل الأقوال كما يجدها، فإن كانت فقد قام بما لزم وإلا فالأمر إلى من يعلمه، ثم إن مائة وعشرين ساعدًا تجعل ذلك الفضاء مشققًا كما يشقق الثوب الخلق.

وبالجملة فإن الملكي الذي هو فلج أزكي نهر من أنهار عُمَان المباركة النافعة، تكون في الخصب نشيطة جدًا تقسم إلى أفلاج في السقي عديدة، وفي أيام المحل تتنازل إلى فلج واحد ضئيل، وكان وقت مجيء محمد بن نور كان الملكي كما هو منسوب إلى المُلْك الذي هو ساكن اللام، لغة في الملك بكسرها لشرفه وعزازته، فأمر ابن بور بدفنه وهو يقلع الدفن ويرده، وكلما دفنوه لفظ الدفن، وفار بقوة، وكلما ألقوا فيه بالحصى والتراب لفظه وانفجر من مكان آخر حتى أعياهم، فمرت عليهم راعية من حوزتهم، فرأت ما هم فيه فقالت لهم: عليكم بالصوف والشجر؛ أي لأن الصوف يلتوي بالشجر، والشجر يحتوي على المضائق، وكانت مصيبة فيما قالت: فقال ابن بور خذوا غنمها، فأرسلت مثلاً شائعًا في عُمَان فدفن الفلج وخرّبه، وغار في الأرض وأفسده؛ ولكن بقي بحث تحقيقي ينبغي أن يعار التفاتًا هو أن الفلج لأهل أزكي، وأهل أزكي إذ ذاك بنو سامة المذكورون، وهم أنصار محمد بن نور، فكيف يكون دفن الملكي والحال هكذا إلا أنه يحتمل شيئين، أما أولاً: فإن الدفن أما أن يكون من معرة الجيش قبل أن يعلم أن الفلج لبني سامة، وأما ثانيًا: فلعل ابن بور أي أن بني سامة واطأوا العُمَانيون على إخراجه وهذا غير بعيد؛ لأن بقاء ابن بور في عُمَان مسيطرًا عليها لم يرده منه بنو سامة ذلك، وإنما يريدون التشفي به من خصمهم وقد حصل ذلك ودق ابن بور أهل عُمَان في سمد الشأن، حتى قطع رأس إمامهم وأرسله إلى بغداد، وهذا

لا بد أن يكون له في القلوب باعث قوي على طرد ابن بور الجائر الخبيث حتى من الذي جاء مناصرًا لهم. وتحدث صاحب معالم الجزيرة عن أعمال محمد بن بور في عُمَان؛ ولكنه طواه في بعضه بعض، إذ قال: قدم عامل الخليفة على البحرين محمد بن نور بجموع وافرة من نزار وطي ففتح نزوة عاصمة عُمَان وقتل عزان الخروصي بالسين والصواب بالصاد، نسبة له إلى خروص بن شاري بن اليحمد، وبقية النسب معروفة كما في الإسعاف .قال: الذي حاول أن يحكم عُمَان بالقهر والعسف يعني بذلك عزان بن تميم. قال: وفّر كثير من الأهالي إلى شيراز والبصرة. قال: ثم ثار بمحمد بن نور بعض القبائل فترك مقره أي مركز إقامته وهو نزوى قال: ولحق بالساحل يعنى في السيب وهي إذ ذاك دما، قال: إلى أن أدركته نجدة عظيمة أي لحقت به في السيب وهي التي أرسلها أبو عبيدة السامي، قال :تمكن بها من قمع الثورة وأرهف الحد في الأهالي، أي بهم ما ذكرنا، قال: وقطع الأيدي وصلم الآذان، وعطل قنى المياه أي دفن أفلاجًا كثيرة، وخرّب ديارًا عديدةً، ودمر أنهارًا وكان يضرب بجوره المثل، فيقال أجور من محمد بن بور، وخاصة بلدان اليمانية، قال :وأحرق الكتب وفعل بالنّاس الأفاعيل.

قال أبو إسحاق: إن دخول ابن بور اللعين عُمَان أول مرة كان بتفرق الكلمة وتخاذل أهل عُمَان، وإلا فلا يمكن لابن بور أن يدخل تلك الإمامة العظمى، ولو جدَّ بضعف جنوده مرات. قلت: قدمت لك أن ابن بور جاء به أهل عُمَان، ولما نزل أطراف عُمَان التف عليه أوباش النّاس وغوغاؤهم، وأهل المطامع وأهل الجرائم، وتساندت الأمور على هذه الأسس، وبذلك استطاع ابن بور أن يهزَّ عُمَان هزًا عنيفًا حتى صلم الآذان وسمل الأعين، وقطع الايدي، فتركهم لا يستطيعون الأكل، وقطع الأرجل فكانوا في مأزق عنيف لم يعرف له مثيل، وعُمَان فيها رجال من أشد الرجال؛ لكن عقوبة الله لا يقف لها مخلوق إذا أقبلت، فان أهل عُمَان فسدوا فيما بينهم وأفسدوا فيما بينهم وبين ربهم كما قلنا، فكانت

العقوبة من جنس العمل، وتلك سنة الله في عباده.قال أبو إسحاق: وافترق أهل عُمَان إلى نزارية ويمانية هو الذي قوى العدو الغازي، ولما رأى أهل عُمَان اتحدوا هاله لأمر وهذا يدل أن أهل عُمَان اتحدوا بعد ذلك الافتراق، ومن هنا يعلم ما قلناه في سبب تخريب ابن بور لنهر الملْكي من أزكي، وللأوقات ما يناسبها من السياسيات، ولكل زمان دولة ورجال.

قال أبو إسحاق: وكادت تدور الدائرة على محمد بن نور لولا الإمدادات التي جاءته من الذين والوه من الذين والواه من عُمَان وهم السامية وغيرهم.

قال: ففي مثل هذه الواقعة عبرة بالغة لمن تدبرها، فان عاقبة التخاذل الانحلال والفشل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٦] ولما انتصر ابن بور أخيرًا لم يرقب في المؤمنين إلّا ولا ذمةً.

ولست أدري كيف يطعن هؤلاء النّاس على الأزارقة والصفرية، وهم يأتون أفعالهم حذوا القذة بالأقذة، في قتالهم مع أهل القبلة؛ ولكن الحق بعيد عن كليهما، ولا جَرَمَ أن مدعي الشيء ليس كمالكه، نسأل الله أن يثبتنا على الصراط المستقيم، قلت: هذا غالب أفعال أهل الجهل في الحروب الذين لم يحاربوا من أجل دين أو حق، لا يراعون في العدو الذي يحاربهم ويحاربونه إلا هوى أنفسهم، وهذا شيء في الجنود الجاهلة التي تقودها زعامة الجهل والبطر، كالحجاج وابن بور وأمثالهم، بل وحتى جهال الإباضية وبغاتهم، غالبًا خصوصًا أيام السلاطين، أما أيام الأئمة فلا وهو الحق وأهل الزعامات القبائلية إذا تمكنوا من خصومهم يألوا جهدًا ففي التشفي من أعدائهم مالاً ورجالاً إلا ما شاء الله، وكم وقع في جيوش أهل العدل من جهال الجيش؟ فإذا بلغ الإمام وتحققه قام لرده، وإلا مضى وبقى في أحاديث المصابين به والمنتقدين والتاريخ يحمله عنهم ليحفظه.

ولما تمكن محمد بن بور من عُمَان وأهلها، وصفا له الجو فيها، وعدم المنافس له من عُمَان همَّ بالعودة إلى البحرين، وولى على عُمَان من قبله واليًا يقال له أحمد

بن هلال، قال المسعودي: هو ابن أخت الفتال. قلت: لم نعرف الفتال من هو ولا ممن أيضًا، كما لم نعرف أحمد بن هلال والي الحجاج على عُمَان، هل هو عُمَاني أم لا؟ وكان من حق التاريخ أن نعرفه.

قال صاحب المعالم: وما كاد أي محمد بن نور أن يرجع إلى البحرين حتى ثار الأهالي أي أهالي عُمَان، وقتلوا العامل أي أحمد بن هلال، الذي استخلفه ابن بور على عُمَان، وعاد العُمَانيون على انتخاب أئمتهم، فتوالت عدة أئمة وأخذ يعدِّدهم على جهة الإجمال، وفي ابن رزيق وغيره من كتب التاريخ هو هذا الذي ذكرنا فلا داعي إلى إعادته.

* * *

بنو سامة يحاولون ملك عُمَان

اعلم إن بني سامة حاولوا إمارة عُمَان وعالجوا وضع أساسها بأنفسهم، فانهار بناءهم بوقعة القاع من ظهر عوتب بصُحار، وتمزق جمعهم، ثم إلتجأوا إلى والي البحرين محمد بن نور المذكور؛ ليستعينوا به، فقام هذا لتأيدهم وكتب لمعتضد بغداد يعضدهم فعضدهم، وأقاموا دولتهم على الحجر الذي وضعوه لهم محمد بن نور والي البحرين الذي احتل عُمَان، ووضع قدمه على كاهلها، ووطأ عليها وطأة سيئة فقتل إمامهم عزان بن تميم في سمد الشأن وقتل بقية أعيانهم في دما، ومن جملتهم شيخ العلم منير بن النير الجعلاني رَحِمَهُ اللهُ ورضى عنه، ووطد دعائم إمارته في قلب عُمَان نزوى فجعل على عُمَان واليًا هو أحمد بن هلال ابن أخت الفتال، وأحمد هذا جعل على عواصم عُمَان ولاة من قبله، أحدهم على نزوى، وهو الملقب بيحرة والمكنى أبا أحمد، فكان بيحرة بحيرة سوء، إذ كان يسفك الدماء ويقتل من يشاء، ومن ذلك أن أحدًا من السفهاء أغراه على قتل أبي الحواري بدعوى أنه يبرأ هو وأصحابه من موسى بن موسى، وموسى بن موسى هو زعيم السامين، وأرسل بيحرة لأبي الحواري جنديًا من جنوده يقتله بغير سؤال ولا احتاج، وإنما هو مجرد هوى نفسي وإعزاز لبني سامة ومن إليهم سواء أكانوا محقين أو مبطلين، فسار الجندي لقتل أبا الحواري في المسجد بعد صلاة الصبح في مسجد الشجبي المعروف بمسجد أبي القسام في الجهة الغربية من عقر نزوى، ورآه قاعدًا على المحارب يقرأ القرآن وارتاح الجندي ولم يجسر على قتله، ثم قال له: إن أبا أحمد يعني بيحرة يقول لك سر إليه. فقال له لا حاجة لي به، وأخذ في قراءته فقيل: إن الجندي قال له ذلك يريده أن يخرج؛ لئلا يطش دمه في المحراب فكأنه احترم المحراب ولم يحترم المسلم الصالح، وقيل أنه ارتاع وخاف، وفي هذا الأثناء جاءه جندي آخر يقول له: لا تفعل في أبي الحواري شيئًا لعله قال في نفسه هذه وشاية، ولعلها لا أصل لها، وتأخر عن قتله لتأخر أجل أبي

الحواري لا لخوف من أحد.

ويستفاد من هذه القضية جرأة هذا الوالي على أهل نزوى؛ بحيث يأمر بقتل من شيوخ العلم بغير مبالاة بقتله ولا خوف من أحد، فهذا يدل على غاية الذل الذي ألبسه الله أهل عُمَان وابتلاهم الله به، ولا ريب فإن محمد بن نور صلم الآذان وجدع الأنوف وقطع الأيادي والأرجل ودفن الأنهار، وأحل بأهل عُمَان البوار، وعلى كل حال أن محمدًا بن بور لا يخرج من عُمَان إلا ويترك فيها لأحمد ابن هلال حامية تؤيده وتشد عضده، فهذه الحامية هي لا شك ولا ريب أنهم بنو سامة الذين جاء محمد بن نور من أجلهم، فاشتهر بنو سامة بالبلاد وما يفعله الوالي أحمد بن هلال هو عن أمرهم فبذلك تم الأمر لبني سامة، وأنيطت بهم عُرى الآمال فكانوا هم السادة في هذه الأيام، ولذلك قال ابن خلدون في العبر، كما نقله عنه الإمام رحمه الله ، حيث يقول في تحفته قال بعد ذكر عُمَان: وكانت بها في الإسلام دولة لبني سامة بن غالب، قال: وكثير من نسابة قريش يدفعونهم عن هذا النسب، قلت: لقد حققناه في الإسعاف في أنساب قريش بعُمَان، والحق أنه قرشي بغير نكران، والحق لا يدفعه حسد حاسد، قال: أولهم بها محمد بن القاسم السامي، أي دلتهم التي يذكرها ابن خلدون، أي أول أمير من بني سامة هو محمد بن نور من البحرين، وكان من جملة حاضري وقعة القاع من عوتب، فان المعتضد أقام صرح هذه الدولة بعُمَان على أساس محمد بن نور.

قال ابن خلدون: بعثه المعتضد وأعانه ففتحها وطرد الخوارج إلى نزوى قاعدة الجبال، أي عاصمتها أي داخلية عُمَان، وأراد بالخوارج الإباضية.

ومن العجب العجاب أن هؤلاء الذين يدعون العلم يهجمون على النّاس في الدين والدنيا، فمتى كان الإباضية خوارج يا ابن خلدون، لقد أخطأت خطأ دينيًا وتاريخيًا إن لم تكن متعمدًا ذلك والله يقول لك: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦] خصوصًا في الأمور الدينية.

قال الإمام: وأراد بالخوارج المسلمين، قال: وأقام الخطبة بها لبني العباس أي أقامها محمد بن القاسم. قلت: غير كثير من أمير مغمور يحب الإمارة إذا خطب لسيده الذي أقامه حاكمًا، ولا يبالي الجاهل بالدين في سبيل الدنيا، فإن من مذهب الملوك أن تكفر ولا تستغلب؛ أي لأن الدنيا عندهم أهم من الدين، وماذا يحاول الملوك إلا الملك، وهل يأتي الملك إلا من قبيل الدين بعد عمر بن الخطاب ﷺ ما أظنه إلا نادرًا ألست ترى في تاريخ عُمَان الإمامة الصحيحة شيئًا نادرًا يمر عليك مرَّ السحاب في لحظات خاطفة، وأيام الجور والظلم تطول على النّاس قرونًا كثيرة في أكثر الأمم لا في أهل عُمَان وحدهم والله المستعان.

قال ابن خلدون: توارث ذلك بنوه أي بنو محمد بن القاسم توارثوا الخطبة لبني العباس، أي الطاعة لهم، قال: وأظهروا شعار السنة.

قال الإمام: أي سنتهم وهذا يدل أنهم استنوا بسنة القوم ولا يهمنا إذا استن جاهلنا بسنة غيرنا، فمن أراد غيرنا أبعده الله، قال: ثم اختلفوا سنة خمس وثلاثمائة وتحاربوا ولحق بعضهم بالقرامطة، وهذا يدل أنهم بقوا مُلوكًا على عُمَان إلى هذه الغاية، أي مدة خمس وعشرين سنة، فإن محمد بن نور فتح عُمَان سنة ٢٨٠هـ ثمانين ومائتين، وخرج عنها في أواخر تلك السنة الثانية، فكانت البلاد في أيدي العمال إلى هذه الغاية، ثم تقاتل بنو سامة على عُمَان بحسب كلام ابن خلدون، والصحيح أنهم تقاتلوا هم وأهل عُمَان الذين قاموا عليهم بنصب الأئمة، وطال العراك بين الإمامة والسلطنة، ورفع الخلاف، كما سوف تراه مستعرضًا في هذه الصحائف الجوهرية الناصعة.

قال الإمام: ووجدتُ أن الجبابرة تغلبوا على أهل عُمَان يسومونهم سوء العذاب أربعين سنة، وذلك بعد حرب محمد بن بور. قال: ولعل هؤلاء الجبابرة كانوا من بني سامة وهم عشيرة موسى بن موسى، وذكر بيحرة وولايته لنزوى، وأنه أقام زمانًا واليًا عليها، قال لم يزل بيحرة عاملاً على نزوى حتى قتلوه وسحبوه،

وقبره ومعروف عندهم أسفل باب موثر قليلاً في لَجْيَّة بفتح اللام وسكون الجيم، وفتح الياء المثناة من تحت بعدها تاء مربوطة، والمراد بها موات متصل بالطريق منحنيًا على الجانب الآخر هناك، على الطريق الجائز إلى تخرج إلى جهة فرق، يطرح عليه أهل نزوى السماد والجذوع التي يريدون إخراجها إلى الأموال، أو إدخالها على العقر، وذلك من هوانه عليهم، وهو معروف موصوف متداول عند أهل نزوى، صغارهم وكبارهم منذ ذلك العهد، وهو آخر القرن الثالث؛ ولكنه لم يذكر سبب القتل، ولعله في ثورتهم، فإنهم كما قال صاحب المعالم: وما كاد يرجع إلى البحرين أي محمد بن بور حتى ثار الأهالي ثانية، وقتلوا العامل الذي استخلفه على عُمَان، وعاد العُمَانيون إلى انتخاب أئمتهم، فتوالت عدة أئمة مثل محمد بن الحسن الخروصي، وعزان بن الهزبر، وعبدالله بن محمد الحداني الذي قلب هاءه حاء مهملة، والصلت بن القاسم الخروصي، والحسن بن سعيد بن الحواري. من تاريخ عُمَان بالحرف الواحد لصاحب المعالم، وهو عين ما يقوله شكيب أرسلان.

قال الإمام: إن بني سامة تقاتلوا سنة خمسة وثلاثمائة ولحق بعضهم بالقرامطة، قلت: ولا يبعد أن يكونوا هم الذين مهدوا الطريق للقرامطة على قهر عُمَان فجاءوها، وكان منهم فيها ما كان مما سنذكره إن شاء الله عبرة للمعتبر، وتنبيهًا للمختبر وإلفاتًا للأنظار إلى ما يثمره الشقاق والخلاف وحب الاختصاص في الأمة، واعتقادنا العظيم فعظموني وحدي لا شريك لي، نعوذ بالله الذي له كل شيء وهو على كل شيء قدير.

قال الإمام: وفي بعض التواريخ أنهم أي أهل عُمَان عقدوا الإمامة على محمد بن الحسن بنزوى بعد قتل بيحرة في سنة ٢٨٢هـ اثنين وثمانين ومائتين، قال: وذلك بعد حروب ابن بور بسنتين وأشهر، ثم تتابعت الأئمة. قلت: وإلى هذا يشير صاحب المعالم، والأمير شكيب في تعليقه على حاضر العالم الإسلامي. قال:

والسلطان الجائر يحاربهم ويحاربونه، ويغلبهم ويغلبونه.قلت: وهذا يدل على وجود السلطان من بني سامة، فإن بني سامة صاروا خلفاء محمد بن بور على عُمَان وداعاة بني العباس، يخطبون على المنابر بأسمائهم ويدعون لهم جهرًا طاعة الملك واعتمادًا على الرئاسة وحبًّا للإمارة والترفع على عباد الله بعد ذلك السيد المصلح والعالم الوحيد، أقوى أركان الإمامة بعُمَان موسى بن علي رحمة الله وغفر له، فكان موسى بن علي أصل زعامة بني سامة، فإنه رجل الإصلاح وأمام الاستصلاح، خير رجل في بني سامة عِلمًا وعَملاً، وعلا له صوت شرف في القصر العُمَاني، فكان مضرب المثل فاكتسب بذلك تقدير النّاس له، وارتفاع مستواه وإن لم يطل عمره، بل عاش عمرًا قصيرًا، ومات في زهرة عمره، فلبس ابنه موسى اسمه وتقلد سيف توقيره وتدرع درع شرفه، فأجله النّاس وعظموا قدره وهذا أمر طبيعي في الأمة بديهي في الأجيال حتى تنكشف الغاية، ويعرف المقصد بارزًا في مرأى كل أحد في الأمة وهناك، أما ارتفاع لأعلى أو انخفاض لأدنى، وبذلك قام بنو سامة يدعون زعامة الأمر في عُمَان، ويحاربون من أجلها ويستنصرون ويستجيشون عليها، وآخر ما بقى لهم زعامة إزكي مدة، ثم انتهت، وصاروا كغيرهم، وكل شيء يصير إلى انتهاء، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، والمعرفون بالعزور في إزكي هؤلاء الزعماء.

❊ ❊ ❊

القرامطة يحتلون عُمَان بأهل عُمَان

قال الإمام السالمي رَحِمَهُ اللهُ: والقرامطة قوم من الشيعة نسبوا إلى حماد قرمط. قال: ويقال لهم الباطنية؛ لأنهم زعموا أن للقرآن باطنًا وظاهرًا، وإن من وصل إلى معرفة باطن القرآن انحلت عنه التكاليف كلها؛ ليمهدوا لهم عند النّاس طريقًا يبسًا لا يخافون معها نقد ناقد ولا اعتراض معترض؛ لأنهم كفار لا يصلون ولا يصومون، ولا يعترفون بإلوهية، وزعموا أيضًا أنه لا فرق بين هذا الواصل إلى باطن القرآن، وبين من في الجنة فأهل الجنة لا تكليف عليهم، فأبطلوا بذلك شرائع الإسلام؛ لأنهم من أهل الجنة، وأهل الجنة لا تكليف عليهم وتبعهم من جنود الشيطان ناس غوغاء وأغبياء وجهلاء، ومن حذا حذوهم من المجوس وأن لهم دولة أذهبها الإسلام، وأنهم يريدون استرجاع دولتهم كما كانت.

قال في المعالم: القرامطة فرقة من الشيعة ينتسبون إلى شخص يماني الأصل يدعى حمدان قرمط. قلت: لعل قرمط لقبه، قال: وكان مغاليًا في التشيع لأهل البيت، وكانت دعوته أي دعوة حمدان قرمط كانت دينية محضة انقلبت فيما بعد إلى دعوة سياسية بتأثير أبي سعيد الجنابي، أي الخارج من جنابة من قرى البحرين، قال: وقد تغلب أي أبو سعيد هذا في أواخر المائة الثالثة للهجرة على شرقي الجزيرة العربية، واستولى على البحرين وهجر، وخلع طاعة المعتمد العباسي أي خليفة بغداد، قال: وقد قام الأمر بعد موته ابنه أبو طاهر فهاجم الحرمين، من مقره القطيف، أي كان مقره القطيف، ودخل مكة سنة ٣١٣هـ ثلاث عشر وثلاثمائة ونهبها وانتزع الحجر الأسود وبابها أيضًا وبعض عتاد الكعبة ونقله إلى القطيف؛ ليبنى هناك كعبة ويضعه فيها ويصرف العرب إلى حجها، قال ووضعه في مسجد الضرار؛ لكي يصرف النّاس إلى حجة عن مكة، وإنها لجرأة عظيمة على الملة الإسلامية، وأين هي؟ وأين رجالها الذين لهم الغيرة على الدين؟ إلى آخر الخلافة العباسية التي أضحت تعج في لجة فساد لا مثيل له في العالم، بحيث يتجرأ أحد

على هدم قبلتهم التي كانوا عليها، فهذا هدم حقيقي لها، وأين أهل مكة الأشداء من أبي طاهر الجنابي سبحان من هو القادر على كل شيء يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وإن حلم الله عظيم، وجرأة العباد أيضًا عظيمة على الله الذي يملي لعباده.

قال: وقد ظل حكم أبي طاهر للحرمين مدة تزيد عن عشرين سنة كان الحجر الأسود خلالها في هجر عند أبي طاهر المذكور، قال: وكان القرمطي على صلة بالفاطميين في أفريقيا الشمالية، وينتسب إليهم، قلت: لعله ينتسب إليهم من جهة الملة، فإنهم كذلك شيعة قال: فلما أمره الفاطمي بإعادة الحجر إلى البيت نقم القرمطي على الفاطمي، وقطع صلته ثم أعيد الحجر إلى مكة سنة ٣٣٩هـ تسع وثلاثين وثلاثمائة، قال وبعد وفاة أبي طاهر تلاشت القوة السياسية للقرامطة، وانحصرت سلطته في الحساء والبحرين ما يقرب من مائة سنة، ثم تلاشت نهائيًا. قال: وتوجد الآن بقايا من القرامطة في واحة القطيف. من المعالم.

أوردنا ما ذكره عنهم كله والحقيقة أن فعل القرامطة هذا يعود عاره على الأمم الإسلامية كلها وإلا فكيف تجترئ أمة على قلع الحجر من الكعبة قبلة المسلمين أجمع ويتولاه هؤلاء العتاة (٢٠) عشرين سنة كاملة، وهو في الحساء ولم يكن أحدًا اجترأ على هذا الحال من سائر المسلمين، إن هذا الشيء عجاب من أعجب ما حدّث عنه التاريخ الجاهلي والإسلامي، ولقد استطردنا في القرامطة وما حدثوه للاعتبار لا غير، وإلا فإن مهمتنا تاريخ عُمَان، ولهم فيه أخذ ورد إذا كانوا وطئوا أرض عُمَان واحتلوها حين فرَّ إليهم بقايا النزارية الذين تولوا أمر عُمَان بابن بور، فإنه لما خرج ابن بور من عُمَان قَتل العُمَانيون عامله الذي خلعه، وبقى أمر عُمَان إلى أهلها، فكان فيها إمام وسلطان يتصارعان عليها وهم الذين عبر عنهم الإمام بسلاطين الجور في عُمَان، فكان الأمير السامي في جهة، والإمام في جهة أخرى، وإليك النص الذي ذكره لنا الإمام ومؤرخو عُمَان إذ يتكلمون عن بني سامة.

قال: ثم اختلفوا سنة خمس وثلاثمائة، وتحاربوا ولحق بعضهم بالقرامطة، وأقاموا

فتنة أي لأهل عُمَان، قال: إلى أن تغلب عليهم أبو طاهر القرمطي سنة ٣١٧ هـ عند اقتلاعه الحجر الأسود، وخطب بها لعبيد الله المهدي أي العباسي، وترددت ولاة القرامطة عليها من سنة ٣١٧هـ إلى سنة ٣٧٥هـ، قال: فترهب وإليها منهم وزهد وملكها أهل نروى وقتلوا من كان بها من القرامطة والروافض، وبقيت في أيديهم ورئاستها للإزد منهم، ثم سار بنو مكرم من وجوه عُمَان إلى بغداد، واستخدموا لبني بوبه على أن يناصروهم على ملك عُمَان وكان بنو بوبه قادة جيوش بغداد، والأمر إليهم معنىً وإلى الخليفة اسمًا، قال: وأعانوهم بالمراكب من فارس، أي من الحامية الفارسية فملكوا مدينة عُمَان، قال: وطردوا الخوارج يعني المسلمين إلى جبالهم، وكأن هؤلاء ملكوا قَلْهات التي هي الساحل الشرقي الشمالي بالنسبة إلى عُمَان الشرقية، وهي التي يطلق عليها إذ ذاك مدينة عُمَان وصُحار قصبة عُمَان، وقوله: وطردوا الخوارج إلى جبالهم أي إلى الداخلية، قال: وخطبوا فيها لبني العباس. قال: ثم ضعفت دولة بني بويه ببغداد، فاستبد بنو مكرم بعُمَان.

قلت: وهذا كان في أيام المقتدر بالله، فإن المعتضد بالله توفي ببغداد سنة ٢٩٣هـ ثلاث وتسعين ومائتين، وتولى الخلافة بعده ابنه المكتفي بالله، وقيل إنه توفي في ذي القعدة سنة ٢٩٩هـ تسع وتسعين ومائتين، وتولى الخلافة المكتفي بالله، ولم يطل عهده، ثم مات وتولى الأمر أبو الفضل جعفر المقتدر بالله وهو ابن ثلاث عشرة ١٣ سنة، أي في أول بلوغه أو لم يبلغ بعد، فكانت خلافته اسمًا فقط، والمعنى الجيش ولم يطل عهده إذ تلاعب بالأمور تلاعب الصبيان، وفرق الأموال وبذّرها في اللهو واللعب، وماذا عسى يفعل الصبي إلا ذلك، ومن هنا ضاعت أمور المسلمين وانحلت دولتهم، وكان هؤلاء مسلمين من حيث إقرارهم بالشهادتين، أما الإسلام الحقيقي لم يحوموا حوله، وإلا فكيف يتولى الخلافة العظمى التي تناط بهم المهام الدينية والدنيوية صبيٌ لا يصح تصرفه في ماله فضلاً

عن غيره، أهكذا يكون ولي الأمر وبهذا يقضى العقل الصحيح، وبذلك أصبح الخليفة ألعوبة في يد اللاعبين، فإن مؤنس الخادم قائد الجيش هاجم المقتدر في قصره وقبض عليه وعلى أمه، ثم نهب الجيش الأموال التي هي قوام الدولة، وخلع المقتدر نفسه حين رأى الموت بين عينيه، وقتل الجند صاحب الشرطة وشرَّدوا بالوزير، ثم تراجع المقتدر وعاد إلى الخلافة، وأخيرًا قتل المقتدر فقد قتله البربر واجتزوا رأسه ومضوا به إلى مؤنس القائد، وكان قتله لثلاث بقين من شوال سنة ٣١٦هـ ست عشر وثلاثمائة أيام تتلاعب القرامطة في عُمَان وغيرهما، وتقتلع الحجر الأسود من البيت الحرام، وقبل قتله تولى الأمر بعده أخوه المنصور محمد بن المعتضد بالله بويع لليلتين بقيتا من شوال من نفس السنة.

ولما تولى قبض على ابن أخيه المكتفى بالله وأمر به فأقيم في بيت وسدَّ عليه بالآجر والجص حتى مات غمًا، وقبض على أم المقتدر وطالبها بما لم تقدر عليه فتهدّدها وضربها بيده وعذّبها بأنواع العذاب وعلقه منكّسة حتى كان بولها يخرج على وجهها، ماتت على ذلك الحال فسلط الله عليه الجند فهجموا عليه من سائر الأبواب فبقى يتوارى بالستر والحجاب وأخيرًا قبضوا عليه وأهانوه إلى غاية بعيدة حتى سلموا عينية وذلك سنة ٣٢٢هـ اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

وقول ابن خلدون: ثم ضعفت دولة بني بويه ببغداد فاستبد بنو مكرم بملك عُمَان وتوارثوه، ما يدل على أن بني مكرم لم يكونوا من عُمَان بالأصالة. قال: وكان منهم مؤيدة الدولة أبو القاسم علي بن ناصر الدولة الحسين بن مكرم، وكان ملكًا جوادًا ممدوحًا، قاله البيقهي: قال ومدحه مهيار الديلمي وغيره ومات سنة ٤٢٨هـ ثمان وعشرين وأربعمائة بعد مدة طويلة في الملك، قال: وفى سنة ٤٢ اثنتين وأربعين ضعف ملك بني مكرم وتغلب وعليهم النساء والعبيد، فزحف إليهم الخوارج يعنى المسلمين، فملوكها وقتلوا بقيتهم. قال: انقطع منها رسم الملك وصار في حجار. قال الإمام: والمراد بقوله وانقطع منها رسم الملك يعنى

قَلْهات، أي انتقل منها وصار في حِجار، قال: وحجار في شماليها إلى البحرين بينهما سبع مراحل، قال وهي في جبال منيعة فلم تحتج إلي سور، قال: وكان ملكها سنة ثمان وأربعين زكريا بن عبد الملك الازدى من ذرية رسائة، وكان الخوارج بنزوى مدينة الشراة يدينون لهم ويرون أنهم من ولد الجُلَندى أهـ كلامه والله أعلم بما ذكر.

قال الإمام: ليس لبني مكرم ذكر بعُمَان ولا نعرف من هم؛ ولكن أهل عُمَان يذكرون في كتبهم تغلب سلطان الجور عليهم بعد حروب محمد بن نور وهم مع ذلك ينصبون الأئمة ويدفعون العدو والأيام دول والحرب سجال، قلت: لا وجه لمن ذكره ابن خلدون أبدًا، ولم يذكره أحد من أهل عُمَان ولا من مؤرخي الشرق، وابن خلدون رجل مغربي، وأكثر كلامه غلط لا أصل له، بل يأخذ الأقوال على عواهنها بغير تحقيق، فهل من المعقول أن يفوت أهل عُمَان ذكرهم وقد تولوا ملك عُمَان؟ هذا غير معقول وأهل عُمَان أعرف ببلادهم وهم أحق بذكر من يغزو بلادهم، فان يكن صح لبني مكرم ذكره في عُمَان فهم قواد لجيوش، وإذا انكسر الزعيم ضعف أمر الجند وتلاشى أمرهم وزالت سطوتهم فيقنعون من الغنيمة بالإياب، فان كان المراد بالسلطان نوابه وقواد جيشه ومأموروه فربما كان له وجهه، وقد ذكر القرامطة بعضهم في تاريخ عُمَان أول القرن الرابع، وهذا خطأ اللهم ألا أن كانوا غزاة دخلوا عُمَان، ثم لم يكن لهم فيها سلطان، وإنما المفهوم أن كل هؤلاء المذكورين مروا بعُمَان غزاة فنالوا منها ونالت منهم، وراحوا عنها ولم يكن للقرامطة في عُمَان قرار، وإنما كانوا غزاة سباعًا ضاريةً، تأكل ما لاقت ثم تذهب أدراجها، وسوف ترى أن الوقت الذي تذكر فيه بعُمَان القرامطة بل وبنو مكرم هو وقت مشغول بإمامة في عُمَان.

ففي سيرة محمد بن روح رحمة الله: أن القرامطة جاؤوا عُمَان في إمامة عمرا بن محمد بن مطرف الحداني، وأنه اعتزل من بيت الإمامة، وأن القرامطة

رجعوا إلي البحرين، ولعل اعتزال الإمام عمر بن محمد كان لعدم المناصر، فلعلة رأى التخاذل من قومه، فإن شأنهم التقلب والتلاعب عندما يجدون من الغير ما يحبون، وإلا فما معنى اعتزال الإمام من إمامته ولا يناقش فيها ولا يقام عليه حتى يعلم عذره، وإلا فالاعتزال بغير موجب خذلان للحق وهو حرام إجماعًا، وليس للإمام أن يتلاعب في إمامته إذا تقلدها وجبت عليه حقوقها ووجب على الأمة مناصرته، فإذا تحقق خذلان الرعية له صح الاعتزال ولم يجب فيكون اعتزاله من نوع التقية إذا خذلته الرعية، والقرامطة لا دين لهم، ولا ضمير حق ولو من جنس السياسات، فإن النصارى لا يرضون بما يرضى به هؤلاء السفهاء الأوغاد الذين يعيثون في أرض الله فسادًا، ويهلكون الحرث والنسل ولا يبالون.

وحقيقة القرامطة قوم غزاة صار لهم وقت يخوضون فيه موجة عارمة بالباطل، وقد لعبوا دورهم حتى اقتلعوا الحجر من بيت الله الحرام قبلة المسلمين عامة من جميع المذاهب، والوقت في أول شباب الإسلام إذا كان ذلك في أول القرن الرابع كما بيّناه، إلا أن الخلافة العباسية أضحت ألعوبة كما أفدناك عنها لمحة تدل على صحة ما قلناه، والجزيرة العربية نفسها في غرطسة التيه حتى أراهم الله العجب بهؤلاء القرامطة المشائيم، لا أعاد الله على العالم الإسلامي أمثالهم، والله مع الصادقين الذين باعوا أنفسهم لله، وجاهدوا فيه حق جهاده، ولقد أثار الله على هؤلاء من يريهم لفح السموم في أرضهم الخاصة بهم ويلحوهم كما يلحى القضيب، وكذلك ما يقال عن الديلم في عُمَان وعن الترك في ذلك الأوان، فكل هؤلاء غزوا عُمَان وقام الصراع بينهم والأهالي في عُمَان، فطور يَغلبون ويَحتلون قسمًا من البلاد، وطورًا يُغلبون ويُطردون منها طرد غرائب الإبل، وترجع البلاد لأهلها وسرعان ما ينصب أهل عُمَان إمامتهم وتعلوا كلمتهم وتظهر حجتهم، وتلك الأيام نداولها بين النّاس والحرب سيجال:

فيومًا علينا ويومًا لنا ويومًا نُساءُ ويومًا نسر

وهكذا الدنيا، وإذا توفرت النعم على قوم وخاضوا في لجها وسرحوا في ريفها، وأخذ البطر بها سلط الله عليهم نقمة تسحقهم وتمحقهم وترد الشارد والهارب إلى مقرها برغم الأهواء.

قال الإمام رحمة الله: وفي الأثر ما يقتضي أن ذهاب دولة القرامطة من عُمَان في أيام أبي المؤثر: وأنه أمر بحرق بيوتهم. فقال له قائل: إن كان القوم مسلمين، فلا يجوز حرق بيوتهم، وإن كانوا مشركين فبيوتهم في المسلمين، ولا يجوز حرقها بعد ذهابهم فأعرض عنه، وقال: لا بدَّ للقوم مخاصمهم أحرقوها؛ لئلا يرجعوا إليها، قال: وهذا يقضى أن ذهاب القرامطة من عُمَان قبل الوقت الذي ذكره ابن خلدون. قلت: ومن هنا يعلم إن ما قاله ابن خلدون لا شيء له من الصحة، ولعله سمع عن القرامطة سماعًا من بعيد، فعلق عليه مقاله ذلك، ومن هذا يعلم إن القرامطة قامت لهم بيوت بعُمَان ومساكن هي التي أمر أبو المؤثر رحمة الله بحرقها؛ لئلا تكون لهم مأوى يأوون إليها ويتلاعبون من أجلها على المسلمين.

قال الإمام: لأن أبا المؤثر كان قد أدرك إمامة المهنا. قلت: نعم كما بيّناه. قال: وإمامة الصلت بن مالك وعاصر راشد وموسى من بعدهم وهو يؤمئذٍ ممن يؤخذ عنه العلم، وكان قد أخذ في السن، وقد مات قبل الوقت الذي ذكره ابن خلدون في ذهاب القرامطة؛ لأن المذكور في إمامة أبي القاسم سعيد بن عبد الله أن من العاقدين عليه ولد ولد أبي المؤثر، وقد استشهد رَحِمَهُ اللهُ في سنة ٣٢٨هـ ثمان وعشرين وثلاثمائة، وكان قد عاش في الإمامة ثمان سنين، إذ بُويع على ما قيل في السنة العشرين بعد ثلاثمائة، فتبيّن من هذا أن ما ذكره ابن خلدون غلط في التاريخ؛ لأن المذكور تبلغه الأخبار بعد مدة ويدونها على ما بلغته.

قال الإمام: وذكروا ما كان للقرامطة من قوة وعزة، وأنها ذهبت بدولة الإسلام. قلت: هذا كلام أنهم كانوا قبل الإسلام ثم ذهبت قوتهم بالإسلام وليس

الأمر كذلك، وإنما كانوا في أول القرن الرابع من الإسلام، وقامت لهم زعامة في الحساء، وكانوا أشداءَ أقوياءَ أهل بأس، ولا دين لهم، إنما هم من الزنادقة الذين يبيح الإسلام دماءَهم إذ أنكروا الصلاة والزكاة والحج، وعارضوا شعائر الإسلام بالرد، فهم من هذه النواحي مشركون، ومن جهة الزندقة قد أخذوا حظهم، إذ قرروا للعوام سقوط التكاليف؛ لأنهم كأهل الجنة لا شيء عليهم، فتبعهم أهل السخافة في دينهم وأهل السفاهة في دنياهم، وأعوان الشيطان أسرع نهوضًا واجرأ على النّاس، ينزع الإيمان من ضمائرهم والرحمة من قلوبهم، وكانت قوتهم بالبحرين وعاصمتهم جنابة، وغزوا العراق والحجاز وعُمَان، واقتلعوا الحجر الأسود يريدون أن يجعلوه في بيت لهم قرب القطيف، فموضعه الآن يقال له الكعيبة يريدون أن يصرفوا العرب إلى حجة، كما صنع ذلك الحبشي صاحب الفيل باليمن إذ بنى كنيسة؛ ليصرف النّاس إلى حجها دون الكعبة، فجاء رجل من كنانة فتغوط بها وكان ذلك من حقها، فغضب الحبشي وأجمع على هدم الكعبة، فرد الله كيده في نحره وصان بيته الكريم، وكان مسيره وبالاً عليه وتشريفًا للبيت وإعزازًا لقدره، فبقي على رغمه.

قال الإمام: ثم إن قائمة من أهل الإحساء من أهل بيت ابن مقرب قاموا على القرامطة وحاربوهم سبع سنين حتى انتزعوا الدولة منهم، وفى ذلك يقول ابن مقرب من قصيدته الميمية، حيث يفتخر بذلك:

سل القرامط من شظى جماجمهم	فلقًا وغادرهم بعد العلى خدما
من بعد أن جلَّ بالبحرين شأنهم	وأرجفوا الشامَ بالغاراتِ والحراما
ولم تزل خيلهم تغشى سنابكها	أرض العراق وتغشى تارة أدما
وحرقوا عبد قيس في منازلها	وصيروا الغر من ساداتها حمما
وأبطلوا الصلوات الخمس وانتهكوا	شهر الصيام ونصبوا منهم صنما

أي هذه أفعالهم فى الديانة التي يتدينون بها ويدعون إليها أخزاهم الله.

قال ابن مقرب:

وما بنوا مسجدًا لله نعرفه بل كل ما أدركوه قائمًا هدما

قلت: كيف يبنون المساجد وهم أعداؤها وأعداء أهلها قال العيوني الحر:

حتى حمينا على الإسلام وانتدبت منا فوارس تجلو الكرب والظلما

وطلبتنا بنو الأعمام عادتنا فلم تجد بكمًا فينا ولا صمما

وقلّدوا الأمر منا ما جدًا نجدًا يشفي ويكفي إذا ما حادث دهما

ماضي العزيمة ميمون نقيبته أعلى نزار إلى غاياتها همما

وسار تتبعه غر غطارفة لو زاحمت سدَّ ذي القرنين لانهدما

وفي شرح ابن مقرب أن القرامطة هم بنو أبي الحسن بن بهرام الحياني، نسب إلي مذهبه وأصله شخص من أهل الكوفة كان يقال له حمدان قرمط، نسب إليه أهل مذهبه، فقيل :القرامطة الواحد قرمطي، كما يقال: شافعي منسوب الى مذهب محمد بن إدريس، وحنفي منسوب إلى مذهبه أبي حنيفة النعُمَان بن ثابت، وأولهم أبو طاهر سليمان بن الحسن القرمطي الذي قلع الحجر الأسود من الكعبة والميزاب أيضًا وحملهما إلى البحرين وبنى بالقطيف بيتًا سماه الكعبة الخ.

قال وكان حمله للحجر والميزاب في سنة ٣١٢ من الهجرة الإسلامية وكان ردهما في سنة ٣٣٥هـ وذلك بعد موته، وكانت مدة إقامة الحجر والميزاب بالبحرين ثلاثًا وعشرين سنة إلى آخر ما ذكر من أخبارهم، هكذا يملي الله العزيز الحكيم للإنسان فيتورط ولا يبالي، ويخذل الله ناسًا حتى يرى الكل أنهم عاجزون عن أدنى شيء، ففي ثلاث وعشرين سنة يحج النّاس بيت الله الحرام، ولا حجر ولا ميزاب ولا تتحرك غيرة أحد على هذا الجاني المتمرد كل هذه المدة حتى يردهما بعد ذلك متى شاء من غير قائم لله ينتزع ذلك منه ويؤدب الفاعل لذلك والقرامطة أخذ بهم البطر إلى أن تجرءوا على الله ﷻ في هدم بيتة وتغيير شعائر دينه، وإبطال أوامره، وحاولوا أن يبنوا بيتًا يصرفون إليه النّاس للحج وهو ركن

من أركان الاسلام الخمسة التي لا يتم إسلام المرء بدون واحد منهما، ثم يخلقون أعمالاً من عند أنفسهم يتعبدون بها العباد برغم أوامر الله أنهم ركبوا أمر عظيمًا لم يجسر عليه غيرهم، وذلك في العصر الذي يسمونه العصر الذهبي، إذا كان في أواخر القرن الثالث وأول القرن الرابع في شباب الدولة الإسلامية، والخلاف العباسة، هذا عصرهم الذهبي، كما يسمون ولا يستحون، حيث يضعون مثل هذه العبارات الحاكمة عليهم بالجبن والخور وسوء الديانة، وعدم الاستقامة في أمر الدنيا فضلاً عن أمر الدين.



الإمامة المستضعفة بعُمَان

اعلم أن بعض الأوقات التي لم يوفق الله أهلها لإقامة الحق وإعلاء منار العدل، وتأييد الشريعة وإن نصبت فيها أئمة يكون نصيبها من ذلك الفشل، فإن أهل عُمَان بعد حروب محمد بن نور بايعوا جملة أئمة؛ لكن لم يكن التوفيق حليفهم ولا العدل نصيرهم، ولا الاستقامة دعامتهم، فقد بايعوا محمد بن الحسن بنزوى بعد قتل بيحرة في سنة ٢٨٢هـ، وذلك بعد حروب محمد بن نور بسنتين وبعض الأشهر.

قال الإمام: ثم تتابعت الأئمة بعد ذلك وكذلك قال صاحب المعالم، وهو عين ما في ابن رزيق، قال: والسلطان الجائر يحاربهم ويقاومونه ويغلبهم ويغلبونه، حتى فرج الله ورجعت إلى المسلمين قوتهم ولله المنة وله الحمد كثيرًا. قال: وفي سيرة محمد بن روح رَحِمَهُ اللهُ أن القرامطة جاءوا إلى عُمَان في إمامة محمد بن مطرف الحداني، ولم يذكر نهاية محمد بن الحسن، وأما عمر بن محمد فقد ذكر الإمام أنه اعتزل، وذلك أنه رأى أنه لا قبل له بالدفاع لهم، ثم ذكر الأئمة المنصوبين في الفترة ويعنى بها وقت تغلب سلطان الجور خليفة بغداد، قال أبو عبد الله محمد بن روح بن عربي: من تلك الأئمة أي التي نعبر نحن عنهم بالأئمة المستضعفين بالإمامة المستضعفة، محمد بن حسن الخروصي النازل فشح من أودية الرستاق، قال: وهو من اليحمد. قال ابن عربي: بويع على الشراء فيما بلغنا، وكان إمامًا شاريًا، ثم إنه اعتزل عن الإمامة ولم يعلّل اعتزاله بشيء، قال: ثم بايع أهل عُمَان من بعده لثمانية أئمة منهم من بويع على قطع الشرى فيما بلغنا، ومنهم من بويع على الدفاع، قال: ومن تلك الأئمة الثمانية الذين بويعوا على الإمامة من بعد اعتزال محمد بن الحسن الصلت بن القاسم الخروصي، النازل نزوى، ثم ماذا صار من أمره لم يذكر عنه شيئًا، ثم من بعده عزان بن الهزبر المالكي من كلب اليحمد. قال: عقد له في حياة الصلت بن القاسم فانظر يا أخي في هذه الأحوال كيف كان

أمر الصلت بن القاسم اعتزل أم عُزل وعُقد من بعده لابن الهزبر المالكي أهكذا الدين وأين الشرى؟ لا أرى له هنا أثرًا. قال: ثم عقد في حياة عزان المذكور لعبد الله بن محمد الحداني المعروف بأبي سعيد القرمطي، قال: وذلك قبل أن يعلم منه رجوع عن دعوة المسلمين إلى بدعة القرامطة، وكأنهم لقبوه بالقرمطي لما رأوا منه إتباع القرامطة، ولم يذكر نفس البدعة وهل هي دينية أم سياسية؟

قال: ثم عُقد في حياة أبي سعيد القرمطي قبل أن تعلم بدعته للصلت بن القاسم ثانية، ومات الصلت بن القاسم من غير اعتزال عن الإمامة، أي في هذه المرة الثانية، ولم يعلم كم لبث فيها ولا ماذا كان من أمره. قال: ثم بويع من بعده للحسن بن سعيد السحتنى النازل نزوى أخي بني ثعالة، فلبث في الإمامة أقلّ من شهر، ثم مات من غير اعتزال عن الإمامة. قال: ثم عُقد للحواري بن مطرف الحداني النازل نزوى، وبويع على ما بلغنا على المدافعة. قال: وكان في البلد آخذًا على أيدي الفساق من سفهاء أهل عُمَان أخذًا شديدًا، وكان إذا جاء السلطان إلى نزوى يجبى من أهلها اعتزل من بيت الإمامة إلى منزل نفسه من نزوى، فإذا خرج السطان من نزوى رجع هو إلى بيت الإمامة، ووضع تاج الإمامة، على رأسه، وقال: لا حكم لله ولا طاعة لمن عصى الله، قال: وكأن قائمًا له بالأمر عند السلطان قوم من بني سامة فيما أحسب. قلت: أي أمر له عند السلطان حتى يقوم به له بنو سامة، فإما أن يكون إمامًا من طرف السلطان، وهو الواضح لسكوت السلطان عنه إذ جاء نزوى فالأمر إلى السلطان وهو إمام بيته، وإذا خرج السلطان من نزوى يكون هو إمامهم اسمًا دون معنى ما سمعنا في سيرة المسلمين بهذا، وإما أن يكون عاملاً للسلطان، وهو أكبر، ولعل بني سامة يقولون للسلطان اتركه في مكانه اسمًا وأنت المعنى ولا تخشى منه شيئًا فانه لم يكن بيده أمر من أمور الدولة، وهذه هي الإمامة المستضعفة إن لم نقل ذلك والله المستعان ما علمنا بهذا في منهج المسلمين، ولا ارتضاه الأئمة في الدين.

قال: فلم يزل الحواري على ذلك إلى أن مات من غير اعتزال. قلت: أي اعتزال يراد هنا مع هذه الأحوال الشبيهة بلعب الصبيان. قال: وعذر المدافع عن المسلمين عذر الشاري. قال الإمام: ولا عذر عندنا لأحد إلا من عذره الله. قلت: لا ينبغي لأحد أن يدخل في أمر يرى أنه يعجز عنه ولا يليق بمنصب الإمامة أن يكون كهذا الحال الذي عليه هذا الإمام.

قال: ثم عُقد لابن أخيه عمر بن محمد بن مطرف الحداني، وكان على نحو سبيل عمه إذا جاء السلطان اعتزل من بيت الإمامة، قلت: هذا السلطان أشبه أن يكون من بني سامة الذين مر ذكرهم، وأهل عُمَان أطلقوا عليه اسم السلطان تشهيرًا ببغيه في مثل هذا المقام، وكأنه زعيم من زعماء بني سامة الذين تسلطوا على الأمر، وأما سلطان بغداد الذي يتعلقون به لم يقل أحد إنه جاء عُمَان، واسم السلطان كبير لا ينبغي إطلاقه على أمير يرجع إلى سلطة غيره من الملوك، وإنما هو رئيس أو زعيم أمير، أما اسم السلطان فلا تحل له هنا ولا ينبغي إطلاقه في التاريخ إلا على المعروف الخليفة الأكبر الذي له النفوذ من غير سلطة عليه، ثم وجدتُ أن قواد جيوش بني العباس سموا أنفسهم باسم السلطان العباسي خليفة، فكان الخليفة في بيته اسمًا والسلطان المعنى.

أما شيوخ القبائل وزعمائهم كما سوف ترى في زعماء بني سامة، إذا كانوا عائلة تتهارش على ملك عُمَان وهم يلقبون أنفسهم سلاطين، فيكون في عُمَان سلاطين عدة في وقت واحد، فهذا وأمثاله لا يليق أن يطلق اسم سلطان إلا من لا يفهم معنى السلطان أو الخليفة أو الإمام، وهكذا فهؤلاء لا عبرة بهم في التاريخ الصحيح، وكل من عبر عنهم باسم السلطان فقد غلط غلطًا تاريخيًا وأدبيًا، كما أن العلماء يميزون مقامات هذه المراتب، فالسلطان والأمير والزعيم والدولة والحكومة ونحوها في الاصطلاح لكل مرتبة من هذة المراتب عرف خاص بها، ذكر الشيخ أبو إسحاق في مجلة المنهاج فراجعه إن شئت ولا تكتب إلا على

مقتضى القواعد الصحيحة وللعلم حقوق يجب أن تراعى، وللاصطلاحات اللغوية والعرفية ونحوها كذلك.

قال الإمام: ثم جاءت القرامطة بعد ذلك وعمر بن محمد في الحياة، ورجعت القرامطة من عُمَان إلى البحرين وهو حيٌّ فلم يرجع إلى بيت الإمامة.

قال: ثم كان فترة من بعده في سنين عن عقد الإمامة، ثم عقدوا لمحمد بن يزيد الكندي النازل سمد نزوى وبايعوه على ما بلغنا على الدفاع، واعتل عليهم بأنه رجل عليه دين فلم يبايعهم على الشرى، قال: ثم إن السلطان تغلب على البلد وهرب محمد بن يزيد، وكأنه بِهَرَبِهِ سقطت امامته، وكان فيما قيل للسلطان عسكران: عسكر بالسر وعسكر بالاعتاك أى كان له جيشان، وكأنه جعل عاصمته أرض السر ويأتي نزوى كسائر الملوك المتجولين، وكأنه لم يضغط على أهل نزوى فى عقد الإمامة فإن السلطان اذا جاء تذهب الإمامة كلا شيء حتى اذا خرج برزت الإمامة من مخبئها وأعلنت أمرها، فالذي بيده الحل والعقد هو السلطان والذي له اسم الإمامة، فالإمام أيًا كان لا يهم السلطان أمره ولا يهوله وجوده، قال: ثم عقد بعد الكندي فى حياته للحكم بن الملا البحري النازل بسعال.

قال الإمام: قال ابن روح لا نعلم أن إمامًا كان من أهل القبلة مثله في الضعفة والوهنة، مسلمًا ولا مجرمًا قلت: كيف لا يكون كذلك وأنتم تعقدون عليه والسلطان فى البلاد والأمر إليه، وأنتم إمامته وهو يرضى أن يكون لكم إمامًا والحال هكذا. فحينئذ الإمام على قدر المأمونين ولا يُلام الحكم أكثر من لوم أنصاره، قال: ثم إن الحكم بن الملا اعتزل عن الإمامة وأقام السلطان عسكرًا بنزوى إلى هذه الغاية. يعنى الوقت الذي هو فيه. قلت: من هذا يظهر أن السلطان لا يزال مع اتفاق لدى الإمام، أن الإمام يكون من طرف حتى إذا تخلى السلطان عن الإمامة أقام السلطان لنزوى عسكرًا يحافظون على البلاد؛ ولكن من الأسف الآسف أنهم لم يسموا واحدًا من السلاطين الساميين واكتفوا على قاعدتهم في

نبزهم لغير الإمام باسم السلطان، والمراد به الأمير الذي لا يتولونه يطلقون عليه اسم السلطان إعلامًا بأنهم غير راضين به؛ ولكنهم مرغمون عليه، هكذا المفهوم من تعبيرهم سواء كان سلطانًا بكل معنى الكلمة أو كان أميرًا مسلطًا.

وقال أبو الحواري: نحن نبرأ من أبى سعيد القرمطي ونبرأ ممن شك فيه بعد رجوعه من السوق إلى نزوى. قال: أما عقد إمامته فلا نقول فيه شيئًا، وما من بعد رجوعه من نزوى ورجوعه إليها من بعد دخوله في القرامطة فنحن نبرأ منه من بعد ذلك إلى هذا اليوم، وممن تولاه وممن وقف عنه وممن شك فيه. قال: ولا ينبغي لعاقل أن يناظر في أبي سعيد ولا في عقد إمامته، قال: وإنما كان يشبه لعب الصبيان فمن تكلم في ذلك فينبغي أن يعرض عنه ويمقت ولا يلتفت إليه، قال: وهذا من كلام السفاهة والحمق والضلالة. قال أبو سعيد هذا القول معناه خاص فيمن علم من أبي سعيد ما يستحق به العداوة وعلم ممن تولاه على ما لا تسعه ولايته عليه، وعلم ممن شك فيه بعد أن علم منه ما لا يسعه الشك فيه عليه.

وقال أبو الحواري: إن عثمان بن محمد بن وائل ويزيد بن حماد السعالي بايعا محمد بن يزيد إمامًا، وقد كان مع من خرج مع الصلت بن مالك، وكان من أصحاب راشد وكان واليًا له على سمائل يعرف ذلك الخاصة والعامة، وقال: يزيد بن حماد وأبو عبد الله النعْمَان ومحمد بن عبد الله أنهم اجتمعوا في المسجد منهم عثمان بن محمد بن وائل، وأبو عبد الله النعُمَان، ويزيد بن حماد ومحمد بن عبد الله، ومحمد بن خالد بن يزيد وكتبوا بإمامة محمد بن يزيد إلى الرستاق، وخرج عثمان بن محمد بن وائل، وعلي بن محمد بن علي إلى الاعتاك يدعون إلى نصرة محمد بن يزيد فيما سمعنا. قال: ولأبي المؤثر وأبي قحطان كلام في هؤلاء الأئمة، وفيمن بايعهم.

قلت: أما قولهم نحن نبرأ من أبي سعيد ونبرأ ممن تولاه ونبرأ إلى آخر ما جاء عنهم ليس بشيء، وإنما هو أشبه بلعب الصبيان، فإذا برئتم أنتم ومن معكم من

أبي سعيد ماذا يضر أبا سعيد؟ وقد لعب دوره وأنتم الناصبون له، وإن لم تكونوا أنتم بالذات فإخوانكم وأهل مذهبكم وملتكم، ومن تحتجون بهم وتعتمدون عليهم، وهل يكفي القول عن الفعل أم هذا ضرب من الحمق والسفاهة كما تقولون، وهل يليق بالإمامة العظمى كهذا الحال الذي مشوا عليه هنا، وإنه لمن المؤسف وإنا إذ نذكره نريد أن نكشف للناس جدُّ الرجال وهزلهم في الدنيا والدين وليعلموا أن مرت على أهل مذهبهم هي أشبة بلعب الصبيان أن لم تكن في الحقيقة لعبًا خالصًا.

قال أبو المؤثر: قدموا راشدًا يعني ابن النظر إمامًا ثانية على غلطه وخطئه، ثم ضللوه وعزلوه، ثم أقاموا الصلت بن القاسم إمامًا، ثم قَدِمَ عليه حمويه الفاسق ففرَّ عنه ولم يذب عن الحريم، فلما قضى حمويه غشمه وظلمه رجع الصلت إلى موضعه، فأنفذ الأحكام وجبى الصدقات وولى الولاة وصلى الجمعات، إلى أن رجع حمويه ثانية ففر الصلت بن القاسم فحاصره، فدفع الله شر حمويه فانقلب صاغرًا ولم يدخل الجوف.

قال: ففعل الصلت بن القاسم في هذا الحال أحسن من فعله في المرة الأولى، أي تجرد لحرب حمويه وقاومه في هذه المرة بخلاف المرة الأولى التي لم يفعل فيها شيئًا، فلما أحسن في فعله قاموا عليه فبرءوا منه وخلعوه وكتبوا إلى المسلمين كتابًا، قال: فالعجب من ذلك أنهم رضوا به إمامًا في أسوا فعله، إذ فرَّ أي فرَّ عن الدفاع للظالم حمويه، ولم يقاومه وهذا من أقبح الأشياء في الدين، وأوهن سمعة للمسلمين، وأضيع لحقوقه الإمامة عند المؤمنين، قال: وخلعوه وهو محسن إذ دفع الله به شر حمويه عنهم، قال: فهذه عجيبة من العجائب. قلت: وأعجب منها ما يأتي، وهو كما يقول عنهم: ثم عادوا عليه فقدموه ثانية، فالعجب منهم ومن الصلت فإن يكونوا مخطئين في عزله وفى خلعه، فقد كان لا ينبغي أن لا يتخذهم وزراءه ولا يؤمنهم على البيعة ولا يقربهم فى مؤازرته إذ خلعوه وهو

مصيب وهم مخطئون، وإن يكن الصلت مخطئًا فالعجب منهم إذ رجعوا إليه ورده إمامًا على خطئه، وإن قالوا قد تبنا واستتبناه، فقد اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا إذ يظهرون الخطيئة ويبطنون التوبة، فقد عظم ذنبهم على لبسهم الأمور بعضها ببعض، ولبس الحق بالباطل وكتمانهم الحق وهم يعلمون.

فاتقوا الله يا أهل عُمَان وارجعوا إلى ربكم يعد الله عليكم، وادخلوا في الباب الذي خرجتم منه، وارجعوا إلى الأصل الذي تفرقتم عنه، ولدين الله الذي لاعوج فيه، وللحق الذي لا باطل معه، وللعدل الذي لا يشوبه الجور، وتعاونوا على البر والتقوى، وكونوا بنى الإسلام، وألقوا عنكم العصبية والحمية، ولا تعازوا بالعشائر، أي لا تتداعوا بها، وليكن عزكم بالله، أي الذي هو الأحد الفرد الصمد، وبدينه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، ودعوا عنكم اللجاج واخضعوا للحق، وتواضعوا له، وانزلوا للمحدثين، حيث أنزلوا أنفسهم، واجتمعوا وتكاتبوا وتداعوا إلى وطء آثار أسلافكم، قال :فإذا اجتمعتم فبايعوا إمامًا من أحزمكم على الخير وأصبركم على الجهاد، وأبعدكم عزمًا وأوفاكم على أمر الله عهدًا، ثم انصروه بأموالكم وأنفسكم، فقد تعلمون أنه لم يبق من الجور ولا خصال الشر شيء قد وقع وانبث بين أظهركم، دلَّ عليه قوله: أمراء ظلمة وأجناد غشمة وقطاع الطريق، قد صدوا النّاس عن أسفارهم و قضاء حوائجهم، أي خوفوهم فلم يخرجوا لأعمالهم، قال: فساق القرى قد استطالوا على النّاس، فيسفكون دمائهم ويغصبون أموالهم، ويروعونهم في منازلهم.

قال: ثم داهية هي أعظم وأفحش كفرًا قوم يدعون إلى تكذيب رسول الله صلى الله علية وآله وسلم، يعنى القرامطة، يدعون إلى تحريف أي القرآن، لم يمكنهم إبقاء التأويل والتنزيل معًا فجعلوا يبطلون التأويل ويحرفون الكلم عن مواضعه؛ لأنهم متى حرفوا تأويله وسموه بما لم يسمه به الله، قصدوا إلى إبطال تنزيله وفي الحق عليكم أن تدعوا ذلك وتتفرغوا لدينكم أحسابكم؛ لأنهم يستحلون فيما بلغنا

قتل الأطفال وسبي الحرم، ويضربون الأمثال في ذلك ويقولون: إذا قتلت العقرب فلك أن تقتل أولادها، ويتأولون دعوة نوح عليه السلام على قومه وهي قوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح: ٣٦، ٣٧] يقصدون في أهل الجفا ومن يستحل أكل أموال النّاس بالباطل بغير دين، فكيف إذا منّوهم بالخلود، ووعدوهم استباحة القرى، فالله الله قبل أن تنزل بكم العقوبة، فليجتمع منكم عشرون رجلاً إلى هؤلاء القوم فأدعوهم وأجيبوهم، ولا تأمنوا أن يجمعوا عليكم الأعراب اللصوص قطاع الطرق، ثم يبيتوا على قرية من قراكم فيستبيحوكم يغلظ جمعهم بالفساق، ثم يعسر عليكم دفعهم فأدركوا قبل أن يفوتكم الأمر تندموا على ما فاتكم وقد أعذرنا إليكم ونصحناكم والله يشهد على ما نقول ويقولون.

وقال أبو قحطان: رجعوا إلى راشد يعنى ابن النضر بعد أن كان في السجن خليعًا مقيدًا محبوسًا أسيرًا فعقدوا له إمامًا وقصروا الجمعة أي صلوا وراءه ركعتين، ولا تصلى الجمعة في نزوى إلا خلف أئمة العدل، وإلا كان الواجب عليهم أربعًا فاستحلوا قصر لأربع ركعتين، قال: وجبوا الزكاة أي والزكاة لا تحلُّ إلا للإمام العدل قال: وباع راشد الصوافي، قلت: لم نعلم بعُمَان صوافي قبل تغريق أموال بني نبهان الذين ظلموا عباد الله، وسلبوا الأموال من غير حلها، وعُمَان أسلمت طوعًا فلم تكن يومًا من الأيام صافية، فإن الصوافي هي جمع صافية وهي ما استصفاه الإمام من الغنيمة، ومنه اشتق لها اسم الصافية والمراد بها عند الفقهاء أموال الكفار الذين جلوا عنها وغنمها المسلمون كخيبر ومثالها، أما عُمَان لم تكن يومًا من الأيام صافية إلا أموال بنى نبهان الذين ظلموا أهل عُمَان أموالهم وأملاكهم، وأخذوا ما ليس لهم وأملاكهم، وأخذوا ما ليس لهم بحق فرأى هداة الحق ظلمهم ولم يستطيعوا رد كل شيء إلى أهله، فأشكل عليهم ذلك غاية الإشكال، فلما أشكل جعلوا المشكل كمجهول الأرباب أمره إلى الإمام يضعه

حيث يرى له وجهًا يسوّغ وضعه فيه، فتكون مصلحته عامة في المسلمين وما عمت مصلحته كثر أجره، ولا يكلف الله نفسًا فوق طاقتها وأين يدرك ذلك إذا تعددت المظالم بتعدد الظلمة، ولو لم تتعدد الظلمة بل كان الظالم واحدًا وتعدد ظلمه كما إذ طال عمره وهو ظالم، فمن أين يُستطاع رد ما كسب إلى أهله والحال هذا؟ كما إذا جعل على النّاس المكوس والضرائب المتنوعة في الأسواق وفي الجبايات، فما تحصل من هذا الوجه أمر عظيم، لو شئنا لذكرناه عن أناس رأيناهم في حياتنا ورأينا فعلهم، والله سائلهم عَمَّا كسبوا.

قال أبو قحطان: وباع راشد الصوافي أي وأكثر أهل العلم لا يجيزون بيعها، ومن أجاز بيعها لصلاح دولة المسلمين رأى أن تقويم أمر المسلمين أولى من ضياعه وتبقى الصوافى مكانها مع ضياع أمر الدين، ويخشى على الحوزة من البغاة أو يخشى على الدين من الطغاة، فإن للإمام أن يجبر الأمة على الدفاع عن حوزتهم واستباحة حماهم بمالهم وأنفسهم كما صح ذلك نقلاً وعقلاً، ويبسط ذلك لا يسعه المقام فنكله إلى محله، ولكل مقام مقال.

قال أبو قحطان: لما ذكر أن راشدًا باع الصوافي ولم ينكروا عليه بيعها، قال ثم خذلوه وتركوه، ثم خلعوا معه الإمامة وفرضها وما أوجب الله تعالى فيها على أهلها لعبًا ولهوًا كلما أرادوا صافقوا رجلاً ببيعة، ثم خذلوه حتى بايعوا ست عشرة بيعة أو أكثر، لم يفوا لله بواحدة ولا ساروا بحق الإمامة ولا اتبعوهم، ولا من قدموه في بيعتهم سبيل الأسلاف من المسلمين، قال: بايعوا راشد بن النضر بيعتين، بايعوا عزان بن تميم، وبايعوا الصلت بن القاسم بيعتين، وبايعوا الحواري بن عبد الله، وبايعوا أبا سعيد القرمطي، وبايعوا محمد بن الحسن، وبايعوا الحسن بن سعيد، وبايعوا الحواري بن مطرف بيعتين، وباعوا عمر بن محمد بن مطرف.
قال: وبايعوا محمد بن يزيد، وبايعوا الحكم بن ملا بيعتين، وبايعوا عزان بن الهزبر.
قال: ولم نكتب بيعتهم أولاً فأولاً أي على الترتيب، وكان ينبغي ذلك وهو من حق

التاريخ حتى يعلم من يأتي الأسبق من هؤلاء الأئمة، ويعلم العلل والأسباب في العقد والعزل ونحو ذلك، قال: وإنما سميناهم، قال :وعزان بن الهزبر كانت بيعه قبل بيعة الحكم بن الملا وغيره. قال: فأما عزان فلم تقم عليه في بيعته أكثر من أنه لما ولي الأمر لم يظهر دعوة المسلمين، ولم يظهر دينه للناس، وكان من أهل دينه، وممن يخالفه في عسكره مجتمعين على غير بيان والحق واحد، فدل ذلك على وجود ناس من غير أهل المذهب، والمسلمون ولم يقبلوا من عمر بن عبد العزيز الأموي، وقد كانت سيرته محمودة معهم، إلا أن يظهر دين المسلمين، ولم يقبلوا منه غير تبع للأول.

قال العلامة أبو إسحاق: لم يقبلوا من عمر بن عبد العزيز حين وفد عليه وفد من أصحابنا رحمهم الله، وفاوضوه في أمر الأمة، وما تركه خلفاء الأمويين من المظالم وبينوا له ما هم عليه من الحق، وكلموه في فتنة الصحابة التي هي الأصل في تشعب الأمة، فقبل منهم كل شيء ووافقهم على كل شيء إلا مسألة الصحابة، فكان راية السكوت عنها أي لما ورد من النهي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومنها: إذا ذكر أصحابي فأمسكوا الحديث، فقالوا له: يجب عليك إظهار الحق وإعلانه ودفعة واحدة، فقال لهم: لكم يوم علي أن أحيي كل يوم سنة أي من سنن الرسول، والمراد بها السنن التي عارضها بنو أمية، وقضوا عليها وخالفوا فيها سبيل المسلمين واتبعوا أهواءهم بغير برهان من الله ﷻ، قال: وأميت كل يوم بدع من البدع التي ابتدعها الذكورين، وأرد الأمور على قواعدها بطريق السياسية، أما إعلان الحق مرة واحدة فلا؛ لأني أخشى أن تنتقض الأمور وتنفض الأمة، وكان الوفد شديدًا عليه، أي أن المسلمين كانوا أشداء على الحق، كما وصفهم الله تعالى في كتابه العزيز، قال أبو إسحاق: وكان الوفد شديدًا عليه في المسألة والتي قبلها أي إعلان الحق دفعة واحدة، وإماتة البدع وأحياء السنن كذلك، قال: ولكنهم متفقون معه فيما سوى ذلك، والظاهر أنهم على نهج واحد، إلا أن الذي خالف بينهم، فإن عمر بن عبد العزيز يريد استعمال السياسة والوفد يرى

أن الإمام العدل لا تسعه التقية. قال وعلى أثر ذلك الحال الذي جرت فيه المحادثة أبطل شتم علي بن أبي طالب على المنابر، وليس ذلك الأبطال بالهين، إذا كان راسخًا في الأذهان الأضداد، أنه عندهم من السنة التي ينشأ عليها الصغير ويموت عليها الكبير كما حققناه تمامًا، في (العُرى الوثيقة شرح كشف الحقيقة)، فكانت تلك أول صدمة عرفها أعداء الحق، قال: وجعل بدل ذلك الآية الشهيرة العظيمة في بابها الفذة في أترابها، الجامعة كل خير، الناهية عن كل شر، وهي قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، وأراد أمير المؤمنين عمر بإيراد هذه الآية هنا الرد على أفعال القوم وأبطال أعمالهم، والمعنى أن الله يأمر بهذه الأوامر، وينهى عن هذه المناهي التي أنتم واقعون فيها والراكبون على متنها بغير مبالاة، فإن الله يأمر بالعدل وهو المساواة بين النّاس في الحق، ويأمر بالإحسان، وهو استحضار عظمة ذي الجلال، فإن من استحضر عظمة ربة امتنع أن يركب الباطل، كما أشار إلى ذلك ﷺ، بقوله: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فانه يراك». أي واعلم أن رؤيته مستحيلة، وإنما أراد الاستحضار أي إذا تحققت أنك لا تراه فلا تحقق أنه لا يراك بل المراد العكس، وهو أن تستحضر في نفسك أنه يراك، فإذا استحضرت ذلك تباعدت عن المناهي كلها، وهو واجب المسلم وبقية الأية دليل واضح في الرد على أهل الضلال، وتلك المعاني كلها أرادها أمير المؤمنين الأموي العبد الصالح.

قال: وإذا جاز لعزان الإمساك جاز لغيره، قال: وقولنا فيه قول المسلمين، قال: ثم نعت الناصبين لهم، أي لأولئك الأئمة الذين مرَّ ذكرهم بأنهم ممن غيّر أثر السلف الصالح، واتخذوا رأيهم وهواهم دينًا ويقدمون رجلاً ويسمونه بالإمامة، ويقصرون الصلاة خلفه ويجيبون الزكاة والجزية، حتى إذا خرج عليه وعليهم العدو خذلوه، وأقام من أقام منهم مع من خرج عليه من الأجناد يحث

في إصلاح البلاد والقيام بالخراج، وعدد الأموال حتى إذا خرج السلطان قدموه أو غيره إمامًا، وخطبوا له الخطب، ودعوا له بالإمامة، وقصروا الصلاة يعني الجمعة وجبوا الزكاة، قال: فهم يخافون الجائر على الرعية يجبونهم، فالسلطان يجبي حينًا وهم يجبون حينًا، فقد اجتمعت جابيتان جبايتهم وجباية الأجناد في أيام الحواري بن مطرف، قال: وما نعرف هذا من آثار الأسلاف، قلت: في هذا وما سبق من التأنيب والتوبيخ والنقد لأعمالهم، والرد عليهم بفحوى الخطاب، وقطع عذرهم بعدهم وجود هذا في آثار المسلمين وعدم الرضى به من المؤمنين، وقد عَلِمتَ أنه لا جباية بلا حماية، وأين الحماية هنا وهم تحت سيطرة السلطان الذي يشيرون إليه في هذه المواضع المراد به الزعيم السامي القائم بالأمر في عُمَان من طرف الخليفة متسيطرًا به على الأمة، راكبًا به على ظهرها يفعل ما يهوى، ويحكم بما يملي عليه الهوى، قال: وفي آثار أسلافنا أنهم قالوا: ولا نجبى جزية ولا صدقة، حتى نكون على النّاس حكامًا ولا نبعث جباتنا يجبون أرضًا لم نحملها ولم يجر فيها حكمنا، ولا نمنع من جبينا من الظلم والعدوان، قال: بهذا ندين ومن خالف المسلمين برئنا منه انتهى تلخيص ما أردنا نقله من كلام أبي المؤثر رَحِمَهُ اللهُ، وأبي قحطان رضي الله عنه.

قال الإمام رَحِمَهُ اللهُ: وفيه من النقد ما فيه، والله أعلم بحال أولئك الأئمة وبحال أولئك العاقدين، وكلام أبي الحواري ومحمد بن روح أهون حالاً من قولهما، وما غاب علمه لم يلزمنا حكمه. من تحفة الإمام رَحِمَهُ اللهُ.

وهؤلاء الأئمة الذين مر عليك ذكرهم، وما كان من أمرهم وأمر القائمين ببيعهم، والمناصرين لهم والخاذلين إياهم، وما في ذلك الجو المظلم من ذلك من الإضاعة، وما في تلك الأئمة من الضعف كما عبرنا عن إمامتهم بالإمامة المستضعفة، احتماءً لجانب الحق، وتجنبًا لـمَا لا نعلم له دليلاً؛ ولكنا ما نقول رعاية لجانب الذين يطلعون على الحقائق في عُمَان، ومن يفهمون القضايا الشرعية، فإذا

اطلعوا على ما سطر هنا حارت أذهانهم في تصوير الواقع، وربما سخروا مما رأوه وسمعوا عن أعمال المذهب الذي نحن نفتخر به وندعو إليه، ونقول: إنه المذهب الطاهر النزيه، بعلمائه الأبرار الذين لا يرضون شيئًا يخالف القواعد الشرعية، وإذا بهم ينصبون إمامًا ثم يخلعونه ويقومون إلى آخر فيبايعونه، ثم يتركونه ويعودون للأول من غير أن يذكروا له ذنبًا، ومنهم من ذكروا له ذنبًا بل ذنوبًا، ثم عادوا عليه وهو في أسرهم وقيودهم، ثم يبايعونه مرة ولم يظهروا له توبةً عمَّا قيدوه من أجله، وكيف يليق للإمامة من كان بالأمس في القيود معاقبًا، ويصبح اليوم إمامًا فيقولون المقيّد بالأمس، قد أصبح إمامًا وهكذا، فهذا أمر ما سمعنا بمثله في أمة من أمم العالم الإسلامي، بل ولا غيره، وليس الدين ألعوبة ولا الإمامة ملهى يتلهون به، وإنما هي عهود الله ومواثيقه وعقوده التي أمر بالوفاء بها، والإمامة لا تقوم إلا بالحق، ولا تنشد إلا الحق وحكم القرآن فيها ثابت، ومن السنة كذلك من تلاعب بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، فقد خان الله ولعب بالحق بمقتضى هواه، ومن حيث لا عِلم لنا عمَّا مشى عليه القوم، فنحسن الظن بأهل الحق، ونكل ما سمعناه إلى الله ﷻ وإنها لإمامةٌ مستضعفةٌ فقدت أنصارها رجال الله، وليتها لم تكن وهي على ذلك الحال السيء الذي أشبه بلعب الصبيان، فكان السلطان في عُمَان هو المسيطر عليها وهؤلاء ينصبون الأئمة ويبايعونهم، وإذا جاء السلطان دخل الإمام بيته، واختفى فيه حتى إذا خرج هذا السلطان من نفس البلد التي فيها الإمام، برز الإمام وينادى بإمامته.

أيفعل هذا عاقل؟ أيقول به من له في معنى الرجولة؟ أيرضى به من في قلبه مثقال ذرة من إيمان؟ فكانت عُمَان على هذا الحال فوق أربعين سنة قضاها الله على أهل عُمَان خذلان؟ نعوذ بالله من مثل هذه الأحوال الواهية المستضعفة، وكان هذا والخلافة إلى الله ابن المعتز الذي توفى سنة ٢٩ تسع وعشرين.

وهؤلاء من أواخر آل العباس الذين شهروا بالتلاعب، فكان هذا الحال عمَّ

الأمراء في ذلك الوقت، وانتشرت الفوضى في أغلب أقطار الإسلام، فمن راعى التاريخ رأى ذلك صحيحًا في جميع بلاد الإسلام، ولا يسع مقامنا لذكر ما علمناه في هذا العهد مشرقًا ومغربًا، وفيه بدأت أرواح النصرانية تتحرك لها وتأمل من رد الكرة على المسلمين والقضاء عليهم.

* * *

إمامة الإمام الرضي المرضي سعيد بن عبد الله الرحيلي

كان آل الرحيل بصُحار عيونها الباصرة وأنجمها الزاهرة وحجتها القاهرة، لا لكونهم قرشيين بل لكونهم علماء الملة والدين، كان محبوب بن الرحيل بن يوسف بن هبيرة بن أبي وهب بن عمر بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، كما في (رعاية الأحساب)، سيداً من سادات المسلمين ووليًا من أولياء الملة والدين، وكان هو المعروف بأبي سفيان، وولده محمد بن محبوب أكبر علماء المسلمين في عهده وأولاده عبد الله وبشير ومجبر، ونجالهمهم في ذلك الوقت أعمدة المذهب الإباضي، وهداة الأمة وحجة الله على عباده، ومحمد بن محبوب هو المعروف في الأثر المشرقي عند الإطلاق بأبي عبد الله، وعبد الله هذا المكني به هو والد الإمام سعيد الذي نريد أن نتحدث عنه في هذا التاريخ العُمَاني.

وقد عَلِمتَ لمحة عن هؤلاء القادة الأجلاء والسادة الأعزاء، الذين هم حجة الله في أرضه، وصُحار إذ ذاك مهدهم العزيز وموطنهم المحروس، وهم أركان العدالة في عُمَان، وفقهاء المذهب الإباضي على الإطلاق، فكانت عائلة آل الرحيل لها المقام المرموق بن أعلام المسلمين، ولم، تكن عائلة تماثلهم في عُمَان، اللهم إلا إن كانت عائلة آل مداد وهم قوم من النعب من قضاعة، وعائلة الشيخ صالح وذراريه، وعندي أن عائلة آل الرحيل هم المقدمون لأحوال ليس هذا محل بسطها.

الإمام هو: السعيد بن عبد الله بن محمد، وبقية النسب قدمناها كما هي في (الإسعاف)، وفي (رعاية الأحساب)، وكلاهما والحمد لله لنا.

قال الإمام: وسيف بن هبيرة هو فارس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قلت: لم أجده في عداد الصحابة حتى أذكره وعلى كل حال إن قومنا لا يذكرون من كان من رجالنا إلا شبه الغلط، وإن كان الصحابة هم لم يضافوا إلى مذهب خاص إلا أن سيف هذا سيكون أصل قادة أجلاء بعُمَان، وفي مذهب ابن أباض

رحمهم الله ورضي عنهم، قال الإمام: بايعه المسلمون يعنى سعيد بن عبد الله الرحيلي. بعد تلك البلايا والمحن، وأشار بذلك إلى ما سبق لنا ذكره من أيام القرامطة وسلاطين آل سامة بن لؤي بن غالب، وما اكتنف ذلك الجو من الاضطراب، قال: وجمع الله الشمل به وأراح به العباد، وأحيا به البلاد، أي ورد به على المسلمين عزتهم ونشر به دعوتهم، وأقام به حجتهم وأيَّد به المذهب، وقوى به الإسلام، قال الإمام: لم أجد في شيء من السير تاريخًا لوقت بيعته غير أن ظاهر الحال يدل على أن بيعته كانت في سنة ٣٢٠هـ العشرين وثلاثمائة قال: وذلك أني وجدت أن أهل عُمَان بقوا في هوان من الجبابرة أربعين سنة، وذلك بعد وقعة ابن بور، قال وكانت الوقعة في سنة ٢٨٠هـ ثمانين ومائتين، قال: فتتم الأربعون بدخول العشرين بعد الثلاثمائة، قلت: ويستفاد من ذلك أن عُمَان في ذلك العهد تمدد أمراؤها فلعلهم كانوا كل أمير على جهة كما سيأتي في أيام بني نبهان، وفي أيامنا هذه.

فعُمَان في أكثر من عشر إمارات كل إمارة مستقلة عن الأخرى، فأرت ذلك الحال المشار إليه شبيها بالحال الذي نحن فيه، وإن اختلفت الأسباب. قال الإمام: وأول من عقد إليه البيعة أو قال عقد له الإمامة هو أبو محمد الحواري بن عثمان، ثم أبو محمد عبد الله بن محمد ابن أبي المؤثر، ثم محمد بن محمد بن زائدة السمائلي، هؤلاء الثلاثة الفحاطل الذين قاموا بعقد البيعة للإمام سعيد بن عبد الله بن محمد بن محبوب رحمهم الله ورضي عنهم، إذ قاموا بتجديد الملة بعد اندراسها، وبتأييد الشريعة في مهدها الإسلامي في ذلك العهد المعصوصب بالجور، المملوء بالظلم المحاط بنوايا السوء، ومن قام في مثل هذا العهد أنه ليعد من أولي العزم في الدين، وكان الإمام سعيد بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ كما قال فيه رجال الدين.

قال الإمام: وسعيد بن عبد الله ممن أجمع المسلمون على ولايته وإمامته، فلم يطعن فيه طاعن ولم يقدح في سيرته قادح، قال أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي

المؤثر: إن بيعة الإمام أبي القاسم سعيد بن عبد الله جرت على الدفاع لا على الشراء. قلت: ذلك لأن الجور والظلم والفوضى أحاطت بعُمَان من كل جانب، فكان غاية الأهل في ذلك الحال الدفاع عن البيضة، وحماية الحوزة من هجوم الأعداء ومطاردتهم عنها، حتى إذا قوي أمر المسلمين وظهر أمرهم واشتدت وطأتهم أمكنهم كل شيء، وعلى العاقل ألا يقفز قفاه يكون فيها هلاكه، بل يمشي رويدًا رويدًا حتى إذا رأى الطريق سويًا والنشاط في تقدم أمكنه ما أراد، وما جعل الله السمع البصر في الإنسان سُدًى، وإنما جعلهما رشدًا له وهدًى.

قال أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي المؤثر رَحِمَهُ اللهُ كان يثني عليه أي الإمام سعيد بن عبد الله في العلم ما لا يبلغ الواصف إلى غاية صفته، وقال محمد بن روح: كان الإمام سعيد بن عبد الله أعلم الجماعة الذين كانوا معه، قال أبو سعيد رَحِمَهُ اللهُ: وقد كان معه أبو محمد الحواري بن عثمان، وكان هذا تنويها بشأن المذكور .قال: وعبد الله بن محمد، ومحمد بن الحسن، ومحمد بن زائدة مع نفر لا ينكر فضلهم في الدار، ولا يجهل عدلهم، ولهذا تأييد للإمام يذكر هؤلاء الأعلام الأماجد الذين أقام بهم صرح الإمامة الرحيلية في ذلك العهد بعد ما كان التلاعب بالحقائق المفروضة، والأعمال المشروعة، على غير رؤية في مذهب المسلمين، وقال أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي المؤثر رَحِمَهُ اللهُ: لا نعلم في أئمة المسلمين كلهم بعُمَان أفضل من سعيد بن عبد الله إلا أن يكون الجُلَندى بن مسعود قال أبو إبراهيم محمد بن سعيد بن أبي بكر: إن الإمام سعيد بن عبد الله أفضل من الإمام الجُلَندى بن مسعود رحمهم الله تعالى.

قال أبو سعيد: ومن أحقه بذلك فإنه كان إمامًا عادلاً صحيح الإمامة من أهل الاستقامة، عالمًا في زمانه، لعله يفوق في العلم أهل أوانه أو كثيرًا منهم، ومع ذلك قُتلَ شهيدًا رَحِمَهُ اللهُ وغفر له ونحوه. قال أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي المؤثر :إلا أنه وقف في تفضيله على الجُلَندى، قال الإمام، قلت: ولا أعدل بالجُلَندى إمامًا

في عُمَان، فإنه قد جمع الصفات الثلاث العلم والعدل والشهادة مع ما جمع الله له من الصفات التي لا تكاد توجد في غيره قلت: يشير الإمام رحمه الله إلى ما كان للجُلَندى بن مسعود من المنصب الرفيع، إذا كان من ذرية أولئك الملوك الإجلاء الذين أسلم أهل عُمَان على أيديهم، وكون الإمام الجُلَندى الدعامة الأولى للإمامة العُمَانية، والزعامة الإباضية في عُمَان، وللسابق فضيلة السبق، وأول الأمور: هو الذي يكون حجر الأساس لما بعده، مع عفة وزهد وورع إلى أقصى حد، فرحم الله تلك الأنفس الطاهرة، ورضي الله عن أولئك الرجال البررة الهداة الخيرة، أئمة المسلمين أعمدة الحق والدين

قال أبو سعيد فتظاهرت الأمور معنا من أهل الدار ممن ينتحل نحلة الحق على الإجماع عن ولاية الإمام سعيد بن عبد الله رحمه الله، وهو ولينا وإمامنا إن شاء الله، هذه صفات هذا الإمام وتلك منزلته في قومه وأمته، فقد أعرب مقال هؤلاء العلماء عن حقيقة إمامهم، ومنه يعرف شرفه ودينه، وقد عرفت مقام آباؤه الغر الميامين هم جبهة الرجال في أيامهم، وعيون الأخيار في زمانهم، وكان قد تولى الأمر في عُمَان يوسف وجيه وهو أحد الغزاة لعُمَان، وأحد البغاة عليها وأحد العتاة فيها، وهؤلاء كلهم أعمدة جور أمراء ظلم تسلطوا على عُمَان ببني العباس، الذين أصبحوا كرة يتلاعب بها قواد الجيوش، حتى أصبحوا يضعون عليهم اسم السلطنة وعلى أنفسهم اسم الخلافة ويرون أن اسم الخليفة أجل من السلطان، بل تستروا بذلك لأمر ما.

❊ ❊ ❊

القتال بين الإمام سعيد بن عبد الله وأهل الجور في عُمَان

لا يخفى أن الجور والظلم من طباع البشر، والظلم من شيم النفوس، فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم، ولولا ذلك لما احتاج الأمر إلى إرسال الرسل وإنزال الكتب وركوب مصاعب الجهاد في الأمم، ولله في كل ذلك حكمة بل حكم وأسرار؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة.

ومن ذلك أن يوسف بن وجيه كان سلطانًا على عُمَان، ولعل أمراء بني سامة كانوا السبب في سلطنته وهم أعضاد جيشه وأركان إمارته، وكان أميرًا مسلطًا على بعض أنحاء على أثر ذلك الخلاف والشقاق في نصب الأئمة وعزلهم، وكان الإمام سعيد بن عبد الله والسلطان المذكور على حال عداء حار.

قال وكان قد ملك ناحية من عُمَان، وكان معاصرًا للإمام سعيد بن عبد الله ﷺ، وكان للإمام معه حروب، وقد انخمد أمره أيام الإمام سعيد بن عبد الله، وظهر الحق عليه، وإنما ظهر بعد قتل الإمام رحمه الله، وكان قتله في سنة ٣٢٨هـ ثمان وعشرين وثلاثمائة؛ ولكن التاريخ العُمَاني لا يزال رهن الاضطراب؛ لأن أهله أهملوه وأضاعوه، وما جعلوا له قيمة وليتهم لم يفعلوا ذلك. فإن الله العزيز الحكيم الذي لا تغيب عليه غائبة، ولا تفوته هاربة، يكتب كل شيء لا حاجة إلى ذلك تعالى الله علوًا كبيرًا، وإنما أقل ما فيه أن يكون حجة على صاحبه وبرهانًا على راكبه، واعتبارًا بأهله ومداولة الأيام ذكرها الله ﷻ اعتبارًا لعباده؛ لكنا نحن أهملنا ولذلك ترى الإمام السالمي رحمه الله يذكر إمامة سعيد بن عبد الله، ثم يذكر بعدها إمامة الإمام راشد بن الوليد، ثم خروج سلطان الجور على المذكور، ولا يسمى هذا السلطان باسم ولا يذكر له قبيلة ولا عشيرة ولا موطنًا، ثم عقد بابًا لذكر الجبابرة الذين تولوا عُمَان في الزمان الأول، وذكر في هذا المقام يوسف بن وجيه في صحيفة ٢٣١ إحدى وثلاثين ومائتين، والواقع أن يوسف بن وجيه هذا هو الذي حاربه الإمام سعيد بن عبد الله، وسعيد بن عبد الله هذا قامت إمامته في

سنة ٣٢٠هـ العشرين وثلاثمائة، وانتهت سنة ٣٢٨هـ ثمان وعشرين وثلاثمائة، والجبابرة الذين ذكرهم نقلاً عن ابن خلدون لم يكونوا في هذه المدة، بل كان قبلها من قدمنا ذكره وكان بعدها بكثير غزاة لعُمَان احتلوها، وسيطروا عليها، وتسلطنوا فيها، وذكر إمامة راشد بن الوليد، ثم ذكر خروج سلطان الجور على الإمام راشد، وذكر ما كان بينهما وأن هذا السلطان من عمال بني العباس، وعلى كل حال إن بني العباس لم يجعلوا أحدا سلطانًا على منطقة من المناطق الإسلامية، وإنما يقولون عامل أو أمير أو وال، أما السلطان فلا يطلقونه لأحد من عالهم ولا يسمحون به ولا باسم خليفة المسلمين، بل ذلك لهم خاصة إلا أنه لما ضعفت الدولة وسيطر عليها القواد، وتولوا الأمر علهم لقبوهم بالسلاطين، وأبقوا لهم اسم الخلافة وهو ظاهر في تاريخهم، اللهم إلا أن يكون هذا السلطان من بني سامة، وأن بني العباس هم الذين يشدون عضده ويؤيدون أزره، ويقومون أمره؛ لتعلقه بهم واعتماده عليهم، كما عرفتَ ذلك عنهم، وهذا هو الأشبه، إلا أن من المؤسف أنهم لم يذكروا أسماء هؤلاء السلاطين، بغضًا لهم ومعاداة دينية لهم، وذكر أن عُمَان كانت في عهدهم دار كفر ونفاق، نظرًا إلى أن السلطة صارت إليهم وهم على غير المذهب، والنظر في هذا على الحاكم فإن كان الحاكم كافرًا كانت البلاد دار كفر نظرًا إلى السلطة في الحكم، ولو كان أهلها مسلمين، وإن كان الحاكم مسلمًا كانت الدار تعتبر دار إسلام، ولو كان أهلها كفارًا، فلما كانت عُمَان أيام هؤلاء السلاطين الظلمة المخالفين لمذهب المسلمين، وكانت الدار تحت سيطرتهم، وكانوا هم الحكام فيها وأمرهم الجاري عليها، وسلطنتهم النافذة فيها، اعتبروها دار كفر ونفاق؛ لأن الحكام كانوا مسلمين؛ لكنهم على غير المذهب القويم، ثم ذكر القرامطة وذكر بني مكرم، وأنهم صاروا سلاطين عُمَان، فأقول: إما أن يكون أمر هؤلاء الذين يسميهم أهل عُمَان سلاطين قواد جيوش الأعداء، وأركان حربهم فيتولون البلاد إذ يغلبوا على أهلها فيطلق عليهم

أهل عُمَان اسم السلاطين، تنديدًا بهم كما هي قاعدة المذهب الإباضي، وهي أن المسلمين هم الذين يتولون انتخاب الإمام فينتخبون المرضي دينًا وعلمًا وإيمانًا وتقوى وزهدًا وورعًا فيبايعونه على حكم كتاب الله ﷻ، وعلى سنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وعلى نهج الخلفاء الراشدين، وإلا كان عندهم سلطانًا، وإطلاق لفظ السلطان يُثبت عندهم البراءة ويوجب التباعد وعدم الطاعة، ويوجب حربه إن قُدِر عليه ولا يكفي كونه من أهل المذهب للقبول منه والرضى به، وهو على هذا الحال، هذا هو مذهب المسلمين؛ ولذلك تراهم يطلقون لفظ السلطان على من كان بهذه الصفة أو كان أيضًا إمامًا انتخابيًا ثم جار في الحكم وحاد عن الطريق، ومشى كما يهوى وفعل ما يرضى، وإن خالف الحق، ولذلك لم يرضوا عثمان بن عفان وقاموا عليه إلى أن آل الأمر إلى قتله كما يعرف ذلك المسلمون، ولولا ذلك لكان كل من يده إلى السلطة كان مرضيًا أو كان إمامًا لكان الحجاج إمامًا، أو ملوك بني العباس فافهم.

ولما قام أمر الإمام سعيد بن عبد الله خرج عليه يوسف بن وجيه، فملك جانبًا من ملك عُمَان،ولعله قبض على أرض السر من الظاهرة، وعلى البريمي من غرب عُمَان، إذ كان أكثر الغزاة لعُمَان يأتون من ذلك الجانب من مضى ومن يأتي؛ لأن في شرق عُمَان يقطع البحر بين الغازي وبين أهل عُمَان، ومن جنوب عُمَان أرض قاحلة ولا أنيس بها ولا عمارة فيها، فكان الغزاة دائمًا سواء كانوا سياسيين أو عسكريين، يأتون عُمَان من ذلك الجانب وكأن يوسف بن وجيه قد تغلغل في عُمَان، ولعله أيام ضياع العُمَانيين وغفلتهم عن المملكة العُمَانية، فإن الذئب له صولة عند غفلة الراعي؛ ولكن أذل الله يوسف بن وجيه بالإمام الرحيلي النزيه، فإنه سحب جيشه على نزوى فالتقاه الإمام بها وتواقعوا، فأذل الله الجبار ونصر الإمام والأنصار، وخرج يوسف من نزوى خاضعًا لسطوة الإمام رافعًا يده عن بلاد المسلمين، مذعنًا للأوامر غير معارض للإمام وكان الإمام على نهاية حدود

النزاهة، والوقوف على أوامر الإسلام، فإن يوسف ضرب معسكره في نزوى، ولما هاجمه جيش الإمام خرج هاربًا من البيت الذي كان يؤويه، فيقال أن حلقة رز باب فقدت من معسكر السلطان، فاتهم بها رجل من جند الإمام فعاقبه الإمام حتى ردت الحلقة إلى أهلها، ولم يجسر أحدٌ من جند الإمام أو غيرهم أن يأخذ أدنى شيء من أموال هذا السلطان خوفًا من عقاب الإمام، حتى شاع وذاع بين أهل عُمَان ذلك، وحتى قال من قال من أهل الباطل إن الإمام وجيشه حفظةٌ لأموال الأعداء، خيرٌ لهم من أن يكون منتهبين لها ظالمين لأنفسهم فيها عاملين بما لا يرضاه الله منهم، ولا فعله رجال الحق فيهم، والحق أحق أن يتبع وما بعد الحق إلا الضلال.

وهذا كتاب من الإمام سعيد بن عبد الله إلى يوسف بن وجيه، ينصحه فيه ويذكر له فيها حسن حال المسلمين في السلم والحرب، وأنهم لا يتزعزعون عن واجبات دينهم ولا يطمعون في أموال أهل قبلتهم، ما داموا يعترفوا بأوامر الإسلام ويشهدون بمقتضى الشهادتين، ويستقبلون قبلة المسلمين ويصومون ويحجون، ولم يصارحوا برد شيء من أوامر الله ﷻ، وبين له جهة النصح والتهديد له القواعد في الإسلام والواجبات في الحلال والحرام قال فيه:

من إمام المسلمين سعيد بن عبد الله ومن قبله من المسلمين، إلى يوسف بن وجيه وأن في شأننا وشأنك لعجب لحلقة حديد في رز باب اتهم بها رجل من المسلمين، أو قال من الرعية عندنا أنه قلعها من معسكر أصحابك بنزوى، فحسبنا الذي اتهم بها لأنا نستحل حبس أهل التهم على قدر استحقاقهم في حكم المسلمين، وقلنا للناس جهرًا على رؤوس الملأ أن أموال أهل القبلة علينا حرام كحرمة أموالنا على بعضنا بعض، وحجرنا على النّاس التعرض لأشيائكم ما دقّ منها وما جلَّ، حتى قال من لا عِلم له بأصول الدين إنكم الآن حفظة للجند على أموالهم، أي حيث لا تتركون جيشكم ينتهبها كما ينهبها جيشهم،

قال ومن ذلك الحبوب التي جمعت في الأمصار التي استولينا عليها، وجرى حكمنا عليها، أي على الأمصار المشار إليها، وهذا يدل أن يوسف بن وجيه امتد له سلطان في عُمَان حتى جبي، قال: لما عَلِمَ النّاسُ منا أنا لا نستحل شيئًا ولا نغار أحدًا على معصية الله كائنًا من كان من النّاس منعهم ذلك من التعرض لأشياعكم كلها أي منعتهم هبية الحق إذ أيقنوا أن أخذوا شيئًا منها يعاقبون على ما أخذوا قال: فلم يتعرضوا لأشياعكم التي كانت بجوارنا كلها من بلداتنا ولولا خوف العقوبة منا لانتهب ذلك بأيسر مؤنة، والمعنى أن أهل البغي معنا مقهورون عن ارتكاب ما حرم الله، وفي كل أمة بغاة وأهل انتهاب وأهل ظلم شأن أهل الدنيا وأهل المطامع .قال: ولم يكن أي ذلك المنع الذي منعناه تقربًا إليك ولا ابتغاء وسيلة منا إليك؛ ولكنا اتبعنا في ذلك كتاب الله وآثار أسلافنا، أي في تحريم أموال أهل القبلة، كما نادى بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **إن أموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا.** حديث.

قال الإمام: ومن هذا الكتاب. قال: وحاربناك محاربة المسلمين، لأهل البغي حتى تفيء إلى أمر الله، أي أنت باغ من بغاة المسلمين، وحرب البغاة منصوص عليه في الكتاب العزيز نصًا صريحًا، قال حتى تفيء إلى أمر الله، لا نهاية لذلك عندنا أو تفنى روحك أو أرواحنا على إحياء الحق وإماتة الباطل إن شاء الله، قال: ولا نستحل منك مالاً ولا نسبي لك عيالاً، ولا ننسف لك دارًا ولا نعقر لك نخلاً، ولا نعضد لك شجرًا ولا نستحل منك حرامًا، ولا نجهّز على جريح ولا نقتل موليًا تائبًا، ولا مستأمنا إلينا ولا نغنم ماله ولا ندعوا أحدًا يتعدى عليه بنفس ولا مال، فإن فعل ذلك أحدٌ بأحدٍ أخذنا له الحق إذا صح معنا، قال: ومن كان في يده مال فهو أولى به، لأنا لا نزيل مالاً إلا بحجة.

هذا خلاصة ما في كتاب الإمام الذي صارح فيه يوسف بن وجيه، وكشف له عن الغاية في حربه، وعن عمل المسلمين في حرب أعدائهم، وفيه من النزاهة ما

فيه ومن الصراحة بغير تمويه، فكان أمر الإمام الرحيلي فوق أمر يوسف بن وجيه، ومتى كفَّ نفسه عن معارضة المسلمين، فليس للمسلمين رغبة في معارضة من كفَّ عنهم ولم يناصر عليهم.

وقال العلامة أبو سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو يصف عدل الإمام سعيد بن عبد الله قال: وكان من عدله وضبطه للرعية ﷺ، ما يحكي أنه ركض بقومه على حجرة بنزوى أي في حال حرب يوسف بن وجيه، ولعلها العقر، قال فاستفتحها أي الإمام، وفقد أهلها بعد خروج القوم أي بعد ما خرج قوم الإمارة رزة باب وشكوا إليه أي الإمام فطلبها الإمام حتى أتى بها وردها إليهم، قال: ويوجد أن حلقة حديد في رز باب قطعت، أو قال: قلعت من معسكر أصحاب يوسف بن وجيه، فاتهم رجل أنه قلعها فحبسه الإمام سعيد بن عبد الله، وكان بذلك بنزوى. قال: ويوسف بن وجيه هو السلطان الذي حاربه الإمام حتى غلب عليه، وظهر الحق على الأعداء، فأذل الله الباطل بالإمام العادل، وأيَّد الله الحق بالمحق، وعلا أمر المسلمين في عُمَان، وراح يوسف بأسوء الأحوال خائفًا صولة الإمام كافًا يده، وملأت هيبته عُمَان وأشرق فيها نور العرفان، فكان أبو سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ خزان السجن فما ظنك بأهل الأعمال الأخرى، وماذا تقول في القضاة والولاة، وقادة الجيوش، وقد علمت هيبته منعت من مد الأيادي إلى مال عدوه العادي، وقد قالوا فيه: إن الله جمع به الشمل وأراح به العباد، وأحيا به البلاد، وفي ذلك ما يدل عن عمل هذا الإمام الخطير، والزعيم الأمير، الذي أولاه الله حسن التدبير، وشد عضده بالحق المنير، حتى أتم الله به على أهل عُمَان النعمة، وقامت عليهم به الحجة، ولله أمر هو بالغه وحكم هو نافذه وإليه المصير.

❊ ❊ ❊

وفاة الإمام سعيد بن عبد الله الرحيلي رَحِمَهُ اللَّهُ

لما كان لا بدَّ للمرء من الموت فأعزُّ موت العبد المسلم الشهادة، وهي من الحظوظ المخزونة لأهلها، فإن الأنبياء يودون أن يموتوا شهداء لما يعلمون من الفضل عند الله للشهيد، وقد صرح القرآن والسنة بذلك تصريحًا واضحًا جليًا، فكان من فضل الله لنبينا محمد ﷺ أن جمع الله له ذلك ليكون حاله وافرًا من جميع النواحي الدينية والدنيوية، وفي جميع الأحوال أيضًا، فمات ﷺ شهيدًا بالسم الذي سمته إياه اليهودية في ذراع الشاة، فكمل بذلك حاله حياة وموتًا والحمد لله.

وكذلك كانت وفاة إمامنا هذا رَحِمَهُ اللَّهُ، قال في المعالم: وانتخب العُمَانيون الإمام سعيد بن عبد الله وبعد وفاته سنة ٣٢٨هـ، انتدبوا راشد بن الوليد، فدل أن الإمام سعيد مات في هذه السنة، قال ابن رزيق: ووجدنا تاريخًا للوقعة التي قتل فيها الإمام سعيد بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ٣٢٨هـ قال: هذه الوقعة أنها كانت امرأة من أهل الغشب مجففة حبًّا في الشمس، فجاءت شاة فأكلت الحب فرمتها أي صاحبة الحب بحجر، فكسرت يدها فجاءت صاحبة الشاة فضربت المرأة التي كسرت الشاة، فاستغاثت بجماعتها فجاء أحد من جماعتها، وجاء أحد من جماعة الأخرى، فكان كل فريق يغيث فريقه، وكل يتعصب لأصحابه شأن الفتنة إذا ثارت، وأولها تكون من الشرر ثم تسير والعياذ بالله، فالتحم القوم اقتتالاً ونشبت بينهم فتنة عظيمة وملحمة شديدة، فجاء الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ، وما كان واجبه والمسلمون يقتتلون وهو بين أظهرهم إلا أن يبادرهم؛ ليكفَّ بعضهم عن بعض، وهل يمكنه بل وهل يصح له أن يسكت وهو إمامهم وهو المسؤول عنهم أمام الله ﷻ؟ وماذا يفعل الإمام والسيوف تلمع والرؤوس تقطع والنّاس في أمر مزعج لهم أزهق أرواحهم؟ وهل يصغي له أحد على هذا الحال؟ ومن ذا الذي يلتفت إليه فجاء إليهم ومعه بعض العسكر؛ ليحجزوا بعضهم عن بعض ويخفضونهم.

ولا شك أنها محنة والمرء في المحنة عليه فسعير الفتنة يشتد، والقتل يوقدها، فما شعر النّاس إلا والإمام قتيل بين أظهرهم رحمه الله، فانتقل إلى ضحية الشفقة والرحمة للأمة، وكان ذلك في سنة ٣٢٨هـ، ولا يدرى قاتله ولعل أحدًا له عليه ضغن فاغتنم الفرصة والله سائل كلاً عمّا كانوا يعملون.

* * *

إمامة الإمام راشد بن الوليد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورضي عنه

لما قضى الله على الإمام سعيد بن عبد الله، وكان المسلمون في حال جامع واتفاق شامل انتخبوا بعده من وقعت خيرتهم عليه وهو راشد بن الوليد ﷺ فكان كاسمه من الخلفاء الراشدين، والأئمة المرشدين، قال في المعالم: انتخبوا رشيدًا يعني راشدًا، وأطاعه الكل ورضي به الجميع، أي من أهل عُمَان قال: ثم وقع إضطراب في آخر أيامه، قال ومال جماعة أي من العُمَانيين إلى حكم الخليفة يعني العباسي، قال: فانهزم الإمام وفارق أصحابه، وبقيت عُمَان تحت حكم الخلافة إلى سنة أربعمائة هجرية، حيث ضعفت الدولة عن إدارة هاتيك البلاد، هذا نص ما قاله صاحب المعالم، ومثله لشكيب أرسلان، وأوردنا كله في محل واحد؛ لأنه يمر على التاريخ العُمَاني مرَّ السحاب، وهكذا المؤرخون الأجانب عادة في تصغير الحقائق العُمَانية.

قال ابن رزيق:ثم بُويع من بعده أي بعد الإمام سعيد بن عبد الله راشد بن الوليد، وذلك لما اجتمع المشايخ عبد الله بن محمد بن أبي المؤثر، والنعُمَان بن عبد الحميد، وأبو محمد عبد الله بن محمد بن صالح، وأبو المنذر بن أبي محمد، وكان هؤلاء في تلك الجماعة التي حضرت في ذلك الوقت، هم المنظور إليهم والمشار إليهم كنحو ما كانت الجماعة التي حضرت البيعة للإمام سعيد بن عبد الله، في زمانهم وأيامهم، لا تنكر أهل المعرفة فضلهم ولا تجهل عدلهم: ولا يجدون في حضرتهم من أهل نحلتهم مثلهم، ولكل زمان رجال ولكل مقال مقام، ولكل أهل زمن مؤتمنون على دينهم، بذلك جاء الأثر فحجة من حضر قائمة على من غاب، وليس للشاهد أن يغير ولا للغائب أن ينكر، ولا للداخل أن يخرج، ولا للقابل أن يرجع، قال: فاجتمعوا في بيت كان ينزل فيه راشد بن الوليد بنزوى، وكان المقدم فيهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي المؤثر، قال: فاجتمعوا جميعًا على الوقوف عن موسى بن موسى وراشد بن النضر، والمتبرئ منهما جميعًا في

الولاية، حيث أن مسألة موسى بن موسى وراشد بن النضر لم تزل شاغلة فراغًا من الزمن في عُمَان، وبقي لها في القلوب أثر يقدح الشر ويثير الضغن، ويحرك منهم الشعور وينفر منهم التصافي لبعضهم بعضًا، فكان من رأى هؤلاء المشايخ المصلحين العاملين لله الداعين إليه القائمين له بواجبات دينية، وهم إذ ذاك الحجة في وقتهم اتفقوا على أن من كان وليًا لموسى بن موسى وراشد بن النضر، ومن كان عدوا لهما في الأصل وليًا للمسلمين يبقى على ولايته، ومن كان موقوفًا فيه فهو على حال الوقوف فيه، وأن لا يكلفوا أنفسهم أمرًا غاب عنهم علمه فاتفقوا على ذلك ورضوا به.

قال ابن رزيق: ثم بايعوا الإمام راشد بن الوليد على سبيل الدفاع، وخرجوا إلى النّاس بالبطحاء من نزوى في جماعة من أهل عُمَان. قلت :هذا يدل أن البيعة كانت في نزوى، قال ابن رزيق خرجوا إلى النّاس في جماعة من أهل نزوى، ومن سائر أهل القرى من شرق عُمَان وغربها من العفاف والفضل والجاه والرئاسة، مستمعون له مطيعون، لم تظهر من أحد منهم كراهية ولا نكير، ثم قام أبو محمد عبد الله بن محمد بن شيخه على رأسه خطيبًا بين الجماعة، فخطب له بالإمامة وأخبر النّاس وأمرهم بالبيعة له فبايع النّاس له شاهرًا ظاهرًا لا ينكر ذلك من النّاس منكر ولا يغيّر منهم من مغير، فدخل النّاس في بيعته أفواجًا، ووفد على ذلك الوفود آحادًا وأزواجًا وأخذ عليهم المواثيق والعهود، وبعث العمال والولاة على القرى والبلدان، وصلى الجمعة بنزوى وقبض هو وعماله الصدقات، وجيش الجيوش وعقد الرايات، وأنفذ الأحكام وجرت له فيما شاء الله من المصر الأقسام، ولم يبق بلد من عُمَان يغلب عليها سلطان، ونأى عنه في تلك الأيام وذلك الزمان إلا جرت فيه أحكامه وثبتت عليه أقسامه، وأقر في ظاهر الأمر أنه إمامه من غير أن يظهر شيء من سريرته وعلانيته فيه شدة ولا غلظة يخاف بها ويتبقى ولا هوادة.

قال الإمام رحمه الله: إمامة راشد بن الوليد رضي الله عنه، ولعدم التواريخ لم أقف مع شدة البحث على وقته العقد له ولا على وقت وفاته، ولا على ذكر شيء من حروبه، ولم أجد ذكر نسبه إلا ما وجدت في بعض القراطيس غير الموثوق بها أنه كان كنديًا، قال: وما كان معولهم على الأنساب، بل على التقوى والفضل والعلم والورع، وقد أطنب أبو سعيد رحمه الله ورضي عنه في وصف راشد بن الوليد رحمه الله.

* * *

التعريف بالإمام راشد بن الوليد

اعلم أن راشد بن الوليد رحمه الله كان من أخيار أئمة أهل عُمَان علمًا وعملاً، وتقوى وعواطف دينية وصفاء ود ورشد وصلاح، كان على المتداول كنديًا من أهل نزوى، وكان على جانبٍ قوي من التقوى، وعلى محل رفيع من الدين والهدى إلا أنه لم يكن من اليحمد ولا من الأزد، وإنما كان عبد الله صالحًا مصلحًا راضيًا مرضيًا. قال فيه الإمام أبو سعيد الكدمي رضي الله عنه: كان رحمه الله لرعيته هينًا رفيقًا بآرائهم شفيقًا غضيضًا عن عوراتهم، مقيلاً لعثراتهم بعيد الغضب عن مسيئهم قريب الرضى عن محسنهم مساويًا في الحق بين شريفهم ودنيئهم وفقيرهم وغنيهم وبعيدهم منزلاً لهم منازل متفقدًا لأمورهم وأحوالهم مشاورًا منهم لمن هو دونه، قابلاً من مشاورتهم ما يأمرونه به يتجشم من رعيته الصبر على الكروب ومفارقة السرور والمحبوب، ويصبر منهم على الشتم والأذى ويسمع منهم الخنا والقذى.

قلت: إن أمة يسمع منها إمامها مثل هذا ويفضي بحالها إلى أن يلقى إمامها الشتم والأذى، والخنا والقذى فأي مصير لأمة هذا شأنها، وأي عاقبة لقوم هذه أفعاله، أني أحرر هذا الكلام من وصف هذا العالم الزاهد الرضي، والولي التقى وأنا اهتز رعبًا وأندهش رهبًا من الله، كأن العذاب يتدلى على رأسي وكأني أنا وتلك الأمة في لجة الخطر، إنها لداهية دهياء وحياة عمياء يسيء أهلها في الزاوية الخالية يتسكعون في الخطر المرتقب، فإن الله يغار لعبده المؤمن ما لا يغاره الوالد

الحنون على ولده، قال أبو سعيد في إمامة بن الوليد: وكان الظاهر الإيمان عليه شواهد الفضل والإحسان ناهيًا عن الشر والبهتان صادق الفعال واللسان، ورعًا عن المحارم مجتنبًا عن المآثم، عاملاً بما علم، سائلاً عمَّا نزل به ولزم، متواضعًا لمن هو فوقه، متعطفًا لمن هو دونه، كاظمًا للغيظ بعيد الغضب، سريع الرضى محتملاً للأمة، حريصًا على إصلاح المسلمين رؤوفًا رحيمًا بالمؤمنين متوشحًا بكريم الأخلاق صبورًا عند مضائق الخناق، مستقيمًا على الحقيقة قاصدًا الطريقة، فرحم الله تلك المهجة، وتلك الوصال، وتفضل علينا وعليه بالمن منه والأفضال وجمعنا وإياه على جزيل ثوابه وكرامته، وفعل ذلك لكل مؤمن ومؤمنة إنه أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وأصحابه وسلم. هذا هو راشد بن الوليد يعرفنا به الإمام أبو سعيد، وقد وصفه بتلك الأوصاف التي لا تكاد أن تكون إلا لنبي مرسل، ولقد علمنا راشد بن الوليد من هذا الثناء الحميد.

قال الإمام: هذا كلام أبي سعيد في نعته والترحم له، وناهيك برجل يصفه، أو قال يثني عليه أبو سعيد هذا الثناء، والخلق شهود الله في أرضه، وأخيارهم حجة الله التي يعوّل عليها أهل الحق في النّاس، فمن أثنوا عليه خيرًا كان أهلاً للخير وهكذا الغير، وهنا كلمة يزدان بها التاريخ قال الإمام: وذكر أبو سعيد من سيرته ما سنذكره، قال: ولولا أن أبا سعيد ذكر هذا الطرف من سيرته لغاب عنا علمه، كما غاب عنا علم غيره من الأئمة، وذلك كله لإهمال التاريخ، وقلة الإعتناء به، وإن للتاريخ فضلاً عظيمًا لا يقدر قدره. قلت: نعم وأنا أشهد أن علماءنا أضاعوا قسمًا مهمًا من الثقافة التي لها عند غيرنا الأهمية الكبرى ولولا ما حرره الإمام السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من سيرة سلفنا الصالح، وما لقوا في سبيل الدعوة من الخطب الفادح لما كنا نعلم عنهم شيئًا، ولا ندري على أي وتيرة مضوا، ولا بأي شيء في سبيل الحق قضوا، ولما خرجت تلك الرسالة الوجيزة واطلع عليها رجال الدين،

وعلموا كيف كان سبيل المؤمنين؟ وما كان لهم من المجد في الغابرين اهتزوا لها طربًا وهشوا لذكرها رعبًا، ورأوا كأنهم ينظرون أولئك الأئمة بعين الحقيقة، وكأن عملهم ذلك بارز بين أيدينا ونحن نؤيد العدالة في أحلى حللها الطاهرة، ونعزز تلك السيرة الزهراء بكل ما لنا من شعور، فقد أفادتنا فائدة بل فوائد هامة، وأرشدتنا مراشد عامة، وليتنا نجد من يقول لنا ردوًا من ذلك المعين الصافي، واسلكوا ذلك الوافي، فرحم الله أبا محمد خاتمة العلماء الفحاطل، الذي إذا هز عصاه في كفه ترتعد منها فرائض رجال يعدون أنفسهم الأقوياء على كل شيء، ولقد كان فيصل الحق والباطل، فدعني من أقوام لا يرون إلا ما بين أيديهم أنى لأفتح عيني حين أفتحها على كثير؛ ولكن لا أدري، ولله در ابن دريد حيث قال:

والنّاس ألف منهم كواحد   وواحد كالألف إن أمر عنا

ولله در أبو مسلم رَحِمَهُ اللهُ، وما قاله في مقصورته، وما ذلك وأيم الله إلا لثقة وقوته القلبية في تعلقه بربه، وإلا فهو كان ضعيفًا من جميع النواحي، كان فقيرًا وضريرًا من عشيرة مستضعفة؛ ولكن من كان الله معه كان غنيًا وقويًا وبصيرًا ومؤيدًا ومنصورًا، كان هذا الحر كذلك ولم يكن له من عمره اتساع للتضلع بسائر العلوم، بل كان فقيهًا شرعيًا وعلامة دينيًا صادقًا مخلصًا لله في جميع أحواله، ولذلك لم يتمكن من سائر العلوم؛ لأنه كان ضريرًا إذ لم يحضره قارئ للقراءة أو للمطالعة، محا نجمًا يتأوه على ما مُضِي من عمره في غير ما هو بصدده.

ولذلك ترى الشيخ أبا إسحاق الأطفيشي يقول فيه كان من علماء الشريعة، ولم يكن من العلماء السياسيين رَحِمَهُ اللهُ، وذلك تراه يطلق ألفاظ العامة في تاريخه، مثل حَرَبه، وخشي ماله، ونقع فيه، ونحو ذلك من الاصطلاحات العامة مراعيًا فيها السواد العام في عُمَان إلا أن بقية النّاس الأجانب يجهلون ذلك فتتبادر أذهانهم إلى ما تعطيه تلك العبارات، فيرون ذلك في وادٍ ومعنى ما أراد الشيخ في وادٍ آخر؛ ولذا ترى في تعبيره ما يجهله الكثير من النّاس، ثم إذا أخذ اللفظ عن

أناس يضعه كما هو، وإن كان عن العوام وكان ينبغي أن يضعه في قالب السبك الصحيح كما هو ورضي عنه، والظاهر إن عهده رحمه الله كان ضيقًا لم يتسع لما يحاول رحمه الله ورضي عنه، وله نيته وقد أشار إلى ما قلنا بنفسه في طالعة تحفته القيمة فجزاه الله عمَّا فعل وعمَّا نوى أفضل الجزاء إنه كريم رحيم وقد بذل الجهد الجهيد، في تحرير التاريخ العُمَاني وإبرازه إلى عالم الوجود، فتراه يلتقطه حتى من الحجر والمدر ومن المكتوب على الأبواب، ومن التعاليق والإضافات المضافات إلى الكتب والمؤلفات وبعضه من ألسنة النّاس وأقاصيصهم حتى جمع مما أورده تحفة للناس، وأي تحفة هي أنها لثمينة عند أهلها وعزيزة عند رجال الحق وقد تحرى ما جهل واعتذر عنه غيره.

وإن عـاب عـين شمس أعمى فإنه جهول لنفس العيب إذ فيه قد نزل

ألا تراه يقول في إمامة راشد بن الوليد رحمه الله: ولعدم التواريخ لم أقف مع شدة البحث على وقت العقد له ولا على وقت وفاته، أيتوفى إمام كراشد بن الوليد ولا يوجد تاريخ وفاته مع أن الأمم الأخرى تعقد احتفالات سنوية لتجديد أخبار عظمائها، وهل عظماؤنا نحن إلا أئمتنا الكرام وعلماؤنا الفخام، وأهل الحق في الإسلام، أترون عظماءنا الجبابرة العتاة أم الفجرة الطغاة؟ ولكن سقوط هممنا وتقصيرًا في الحقوق أخّرنا تأخيرًا حسيًا ومعنويًا وقضى علينا بحكم الأميّة فينا؛ بسبب ما قلنا فنسأله ﷻ إعادة حياتنا الحرة التي عاش عليها هداة الأمة قبلنا.

قال الإمام: قال أبو سعيد: كانت بيعة راشد بن الوليد رحمه الله على الدفاع، قال وأول من بايع له أبو محمد عبد الله بن محمد بن المؤثر مع جماعة معه هم في زمانهم كأمثال الذين بايعوا لسعيد بن عبد الله، ثم ذكر منهم أبا مسعود النعُمَان بن عبد الحميد، وأبا محمد عبد الله بن محمد بن أبي شيخه، وأبا عثمان رمشقي بن راشد، وأبا محمد عبد الله بن محمد بن صالح، وأبا المنذر بن أبيّ بن محمد بن روح. قال: وقد كانوا عرفوا من بعضهم بعض تعاتبًا في أمر موسى بن موسى، وراشد

بن النضر فلما عزموا على عقد الإمامة لراشد بن الوليد تداعوا إلى الاجتماع على سبب يعرفونه في ذلك، فاجتمعوا هم وغيرهم إلا أبا مسعود النعُمَان بن عبد الحميد، فإنه لم يحضر ذلك العقد فاجتمعوا في بيت كان ينزل فيه راشد بن الوليد، وكان المقدم فيهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي المؤثر، فاجتمعوا جميعًا على أن الواقف عن موسى وراشد والمتبرئ منهما جميعًا في الولاية وأنهما جميعًا مؤتمنان على دينهما في ذلك لم نعلم من أحد منهم أنه برئ بغير حق، أو وقف بغير حق، ثم بايعوا الوليد بن راشد على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وآله وسلم، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن النكر، وعلى الجهاد في سبيل الله وعلى سبيل الدفاع، وعلى إتباع سبيل أئمة العدل قبله قسطًا وعدلاً.

قال: وعلى هذا بايعه أبو محمد عبد الله بن محمد في المنزل الذي كان ينزل فيه من نزوى، ثم بايعه من بعده أبو مسعود على نحو ما بايعه أبو محمد، وبايعه الجماعة على نحو من ذلك، وقبل منهم البيعة وخرجوا على النّاس بالبطحاء من نزوى في جماعة من أهل عُمَان ومن سائر القرى من شرق عُمَان وغربها: انظر أيها القارئ الكريم إلى هذه البيعة لشرق عُمَان وغربها، ولما جاء السلطان الجائر المحتل للبيضة، الهادم شرف الدين الأباضي، أصبح أهل عُمَان ينفضون أيديهم من بيعتهم، ويلقون بإمامهم وراء أظهرهم بغير موجب، ما هذا البلاء الذي يقوده النّاس على أنفسهم ويجرونه عليهم ما هم عليه من العزة والمنعة والحرية والكرامة، وأصبحوا تحت راية السلطان الجائر الغاشم المحتل للعزة والكرامة، وعهد الله ألقوه في الحضيض وراحوا يتبعون سلطانًا غشومًا هل كان لهم أفضل من إمامهم أو أصلح منه أو أكرم أو أنفع لهم في دينهم ودنياهم أو أعزلهم؟ إنها لمن الدواهي في الدين ومن الفضائح في الشرف والحرية ومن الأحدوثة السيئة في التاريخ العربي عامة، وفي التاريخ العُمَاني خاصة، فإنك سوف ترى الحال في مقامه.

قال صاحب المعالم: وفي عهد الكندي هذا جهزت الخلافة جيشًا لاسترداد عُمَان ففر الكندي، وانتخب العُمَانيون سعيد بن عبد الله وبعد وفاته سنة ٣٢٨هـ انتدبوا رشيد أي راشد بن الوليد، وأطاعه الجميع وحصل اضطراب في آخر أيامه، ومال جماعة إلى حكم الخلافة فانهزم الإمام وفارق أصحابه، وبقيت عُمَان تحت حكم الخلافة إلى سنة ٤٠٠هـ أربعمائة هجرية، حيث ضعفت الدولة في بغداد عن إدارة هاتيك البلاد.

* * *

خروج سلطان الجور على الإمام راشد بن الوليد

قال الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ: ولعل هذا السلطان كان من عمال بني العباس لما قدمنا من اعتنائهم بعُمَان بعد دخول بن بور فيها، ولم يسموا هذا السلطان الجائر واكتفوا عن اسمه واسم قبيلته، وما كان ينبغي لهم هذا حتى لا يعرف هذا السلطان من أي الأمم، والواقع أنه من البويهيين الذين سيطروا على الخلافة العباسية، وجعلوا لهم اسم السلطان وللأمير العباسي اسم فقط لا معنى له إلا أنه في بيته خائف يترقب؛ لأن بني العباس استخدموا البويهيين كقواد وضباط ووزراء، وكذلك استخدموا الترك فكان من رأيهم سحب الخلافة أصلاً من هؤلاء وإلحائهم من الأمر كما يلحى القضيب، وجعلهم الكرة وهم الصولجان، ومشوا فيهم على هذا حتى أخرجوهم من الأمر كله، ولم يتركوا لهم حتى الاسم، وفعلوا فيهم الأفاعيل التي أضحت عبرة للمعتدين؛ وسبب ذلك ظلمهم وجورهم وتركهم أوامر الله ﷻ.

ويبتدئ دور بني بويه في الخارج سنة ٣٣٢هـ اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، وكان هذا السلطان الخارج على الإمام راشد بن الوليد ركن الدولة بن بويه، قال العلامة الدميري في تاريخه: وفي أيام الطائع لله استولى على الملك عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه فملك بغداد. قال: وخلع عليه الطائع لله الخلع السلطانية وتوّجه

وطوّقه وسوّره وعقد له لواءين وولاه ما وراء بابه، قال وتسلم عضد الدولة الوزير أبا طاهر بن بقية وزير عز الدولة فقتله وصلبه، وهو الذي رثاه أبو الحسن الأنباري بقوله: علو في الحياة وفي الممات. الأبيات الغراء.

قال: وكان لعضد الدولة ملك العراق وكرمان وعُمَان وخوزستان والوصل وديار بكر ومنبج، والمعنى أن القواد تقاسموا الملك وكانوا قد جعلوا للخليفة الاسم أن اكتفى به وإلا رأى الهلاك في أهداب عينيه، ولو كنا معنيين بتاريخ هؤلاء لرأى النّا س العجب، وعرف العاقل مصير أهل الظلم والبغي في الدنيا قبل الآخرة، والله المستعان.

طغى بنو أمية وكانوا الأصل في الطغيان، ثم تلاهم بنو العباس وزادوا عليهم وانتهكوا الحرم إلى أقصى غاية، وانسلخوا من الدين انسلاخ الحية من اهابها وأصبحوا في أيدي الأعادي ألعوبة، إذ كانوا قياصرة وأكاسرة، ثم صاروا في الكون عبرةً بعد تلك العزة الشاهرة الظاهرة، ومضوا لا الزمان عنهم براضٍ ولا أنا ولا أمثالي.

وكان البويهيين من العنصر الديلمي والديلم من الفُرس، وهؤلاء هم أعداء الإسلام هم والترك والروم، ولهم في الإسلام نوايا سيئة لما أمكنهم الفرصة على الإسلام لم يضيعوها، بل قاموا بها في نشاط وزادوا فوق الغرض الاحتياط، وبقى التنافس بين الذين كانوا قوادًا ووزراء يتناهبون الملك ويتقاسمونه، وكانت المملكة الإسلامية واسعة الأرجاء كثيرة الأموال، فكان عضد الدولة إذ جاء عُمَان جاء قويًا غنيًا، والغنى هو القوة الفعالة، ولا قوة كقوة المال إذا تولته الرجال الأباطل، لا إذا تلاعبت به الأراذل والأنذال، فإن غايته الاضمحلال، وأصل الدولة البويهية الحسن بن علي بن بويه وأولاده الثلاثة عماد الدولة وهو الحسن، ومعز الدولة، قال الدميري ولمّا ولي الخلافة عبد الله المستكفي بالله قدم إليه معز الدولة بن بويه في بغداد سنة ٣٣٤هـ أربع وثلاثين وثلاثمائة، ودخل

عليه رجلان من الديلم فمد يده ليصافحهما ويقبلاها، كما هي عادتهم لآبائه، قال فجذباه من على الكرسي وقاداه بعمامته في عنقه، ثم سحباه إلى معز الدولة واعتقل وسملت عيناه وانتهبت دار الخلافة لثمان بقين من جمادى سنة ٣٣٤هـ، وبقى معز الدولة إلى سنة ٣٤٣هـ، أي هذه الحادثة تسع سنين ثبتت فيها دعائم البويهيين في العالم العربي.

وذكر العُمَانيون دخول سلطان الجور على الإمام راشد بن الوليد ولا يعرّفون هذا السلطان حتى يعلم من أجناس الأمم، قال الإمام: وذلك أن سلطان الجور قد خرج عليه حتى نزل السر، قلت: قد قدمت لك أن الغزاة يأتون عُمَان من الجهة الغربية، فهي مفتاح قفل الباب العُمَاني منذ ذلك العهد.

* * *

خروج رعايا الإمام لملاقاة السلطان

لما تحقق خروج هذا السلطان على عُمَان تقاعس العُمَانيون عن القيام لصدده لا أدري أمن وطأة العدل التي أحس بها بغاة أهل عُمَان؟ أم الطمع يرونه عند هذا السلطان القادم على بلادهم؟ أم استولى الخوف والذعر عليهم لضعف إيمانهم؟ وإذا بهم يتقدمون إلى السلطان المشار إليه تقدم خضوع وطاعة وانقياد غير ناظرين إلى إمامهم ولا مراقبين عهد الله فيه، ولا ما حملوه على أعناقهم من بيعته، ولا ناظرين إلى مذهبهم القويم وصراطهم المستقيم، وهذا من العجب العجاب، قال الإمام: وخرجت رعايا الإمام لمظاهرته أي لمظاهرة السلطان ومعاونته، واستدل لك على هذه القضايا بأقوال الإمام قبل غيره لعلمي باعتماد العُمَانيون على نقله وروايته ولحبهم له. قال: قال ونبذوا عهودهم وراء ظهورهم، قال: فخرج الإمام في طلبهم؛ ليردهم فلحقهم ببهلى، وأراد أن يردهم فأبوا وأراد أن يقهرهم على الرجوع فعصوا وأظهروا له العداوة والعصيان، وخرجوا معاندين إلى السلطان. قال: فبقي الإمام في الضعفاء من أصحابه، قلت: هذه الجمل التي ذكرها الإمام

عنهم سهام قاتلة وقنابل مدمرة لا بد أن يتأثر منها الإمام بالفشل، والسلطان بالنصر والظفر، بل هي أكبر نصر له على أهل عُمَان وإمامهم، وإنها لمن الدواهي في الدين قال: فبقي الإمام في الضعفاء من أصحابه بعد أن خذله الأكثر منهم، فرجع الإمام منكسر الخاطر واهي الإرادة يرى علامة الخذلان تبدو سافرة إلى أن وصل كدم من أعمال بهلى على غير المراد، ورأى أنه أخذ بالحزم أي لنفسه وللشرذمة الباقية معه، وبهلى كانت إحدى إمارته، فإذا هو يخرج منها مسلمًا لها إلى رغبة أهلها.

قال ثم جاء السلطان بمن معه حتى دخلوا الجوف فخاف الإمام ومن معه لقتلهم، قال: فانحاز بهم إلى وادي النخر استبقاءً منه على من معه من ضعفاء المسلمين، ودعا إلى حرب السلطان من أجابه واستنصر بمن قدر عليه، فجيش أنصاره وأعوانه، وجهزهم إلى حرب السلطان، وقعد هو ومن لا غنى له عنه بمشورة من أشار إليه بالتخلف من إخوانه رجاءً منهم لبقاء رايتهم، ما بقي إمامهم.

وكان موقفه غير بعيد عن موضع القتال، وكان السلطان بنزوى. قلت: هذا يدل أن جيش السلطان زحف على الإمام إذ كان الإمام في وادي النخر من جهة الحمراء، والسلطان في نزوى فدل ذلك أن جيش السلطان قصد الإمام؛ ليعدم حركته، ويقضي على إمامته تمامًا حتى يأمن جانبه وأعيان الدولة وزعماؤها قد أصبحوا تحت قدم السلطان، وأصبح هو يتربع على عرش نزوى آمنا مطمئنًا، فأين النخوة العربية؟ وأين العزائم الإيمانية؟ وأين الغيرة الدينية؟ نعوذ بالله، لقد أصبحت تذروها الرياح، وعلى كل لا بد لهذا الانقلاب الزائغ من أسباب للعُمَانيين، ولا بد عليه من عقاب، فإما أن يكون إمامهم محقًا وقد تركوه على ذلك ولا بد أن يعاقبهم الله على تركه، وهو على الحق وهم جميع، وإما أن يكون إمامهم مبطلاً، وقد عرفوا بطله ولم يقوموا عليه لرده عن بطله وإرجاعه إلى دائرة الحق تائبًا إلى الله مما ارتكب، فكذلك مع الله، وقد شملهم مع قوله ﷻ: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

والواقع أن الإمام راشد بن الوليد من خيرة أئمة أهل عُمَان، وقد بايعه العلماء الأجلاء الذين ذكرناهم وهم حجة قومهم وعمدة دينهم، وهم أئمة العلم وأركان الرشد والإيمان، فما لهذا الخذلان الذي خذلوا به إمامهم وأزالوا به من أيديهم سلطانهم، وقادوا به ذلك الظالم الجائر الجبار المخالف للدين، المباين لمنهج المسلمين، من أعداء الإسلام ومن شر الأنام، يا حسرتى على ما كان في ذلك الزمان.

قال: فالتقت سرية الإمام بجيش السلطان، فنشب بينهم القتال وانهزمت سرية الإمام، وتفرقت جماعه، وزالت رايته، وكان ذلك ضحوة النهار، فما كان العشى من ذلك اليوم حتى تفرق عنه جميع من كان معه فاستولى السلطان الجائر على جميع عُمَان الداخلية، وقد ألقت عُمَان مقاليدها إليه قبل أن يتغلغل فيها، فكيف به وقد نزل في القلب منها وأخرج جيشه تابعًا للإمام في وادي النخر غربي الجبل الأخضر، وانهزم جيش الإمام، وبلغ الكتاب أجلة في عُمَان.

قال: وبقي الإمام في رؤوس الجبال خائفًا يترقب، أي يترقب القتل أو القهر من أهل عُمَان، فيقودونه إلى السلطان؛ ليترقبوا به إليه، والله المستعان. قال: فطالع في أمره واستشار، وأخذ بالرخصة من قول الأخيار إن المدافع تسعه التقية إذا اخذلته الرعية، قال أبو سعيد: وذلك مما لا نعلم فيه. قال: فألقي بيده إلى منزله فأرسل السلطان إليه رسولاً يعطيه منه الميثاق والامان. قال: فأعطاه ذلك بلسانه، قال: ولم يبلغنا بحمد الله أنه عرضه ليمين ولا كان إلى باب السلطان من الوافدين، وإنما السلطان وصل إليه واضطره إلى ذلك وجبره.

ومن نكد الدنيا عن الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد. قال: فزالت معنا بذلك إمامته، وثبت للعذر الواضح ولايته، قال: فلبث بعد ذلك قليلاً محمودًا، ومات عن قريب من ذلك مفقودًا، قلت: لا أبرىء أعداء من أن يكونوا هجموا عليه؛ ليطمئن سلطانهم من المحذور الذي ربما عساه يقوم على السلطان وعلى

الداخلين في دولته، إذ كلهم أصبح عدوًا للإمام، وكلهم يخشى منه القيام، والأمر لله من قبل ومن بعد.

هذه هي حالة الإمام راشد بن الوليد الإمام الرضي الرشيد، أوقعه أهل عُمَان في شبكهم وأضاعوه إلى ملكهم، وأصبح أحدوثة السمر، يجري دم الأسف عليه في عروق أهل الايمان بأحر من الجمر فهو لم يفعل شيئًا يخالف المقصد الصحيح، ولا تطاول عليهم في بشيء من خصائصهم، كان كواحد منهم لا يختص بشيء عنهم، فما بالهم يتركونه كالشيء اللقا لا مرحمة ولا مروءة ولا احترام ولا محاذرة عار، إن النّاس كانوا إذ لم يردهم إيمان يردهم سوء الأحدوثة، بل كانوا في جاهليتهم وهم كفار يخافون سوء الأحدوثة، وأحاديث العار بعدهم وكم لهذا من شواهدهم، فماذا فعل الإمام الراشد؟ علمنا أنه هو مبتلى بما وقع فيه، فما بال قومه يعاملونه بهذه المعاملة لسلطان أجنبي من جميع نواحيه، إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال الإمام أبو سعيد الكدمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يصف راشد بن الوليد: وكان في عامة أموره غريبًا معدومًا، ولم يكن عند أحد من أهل الخبرة ملومًا ولا مذمومًا، فجزاه الله عن الإسلام وأهله، لما قد قام فيه من حقه وعدله، وعنا وعن جميع من عرف صحيح فضله، ما جزى إمامًا عن رعيته وأخا بصحيح أخوته أهل.

هنا ينظر العاقل المفكر في سير الحواث في الأمة، ومجرى القضايا الملمة؛ لأن الله لم يهمل شيئًا بلا ارتياب، ولم يقض أمرًا بغير أسباب، فما هي الأسباب التي جعلت أهل عُمَان على سحب أمراس الضلال من رجال لم يكونوا من المذهب، ولا من الوطن، ولا من الجنس لم أجد لهذا السؤال جوابًا؛ لأن الإمام راشد بن الوليد لم يقصر في شيء من أمور الدين، ولم يمد طرفه إلى شيء من أمور الدنيا.

والذي أظنه أن العلة أتته من الرؤساء لعلهم تحققوا منه عدم نيل مطلوبهم، وآيسوا لديه من حصول مرغوبهم، فضاقت صدرهم بذلك؛ لأن ذلك غاية

مطلوبهم هذا الذي أظنه ولا يبعد أن يكون هو الواقع، فتولى السلطان المذكور البلاد، وعاث في الأرض بالفساد، مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] فكان هذا السلطان الجائر يدوس الديانة ويفحش في الأمانة، ويبث في الأمة داء الخيانة، فأصبحت عُمَان دار كفر نفاق.

قال الإمام: وذكر المضيف على بيان الشرع أنه وجد أن دار عُمَان صارت دار كفر نفاق، لا كفر شرك لعشرين يومًا من ربيع الآخر سنة ٣٤٢هـ اثنتين وأربعين وثلاثمائة، وهذا الوقت وقت غلبة سلطان الجور على عُمَان، وخذلان أهل عُمَان لإمامهم راشد بن الوليد فيما يظهر من سياق التاريخ، قال العلامة أبو إسحاق، رحمه الله: والمراد بكفر النفاق هو كفر النعمة، وإنما سُمي كفر النفاق؛ لأن صاحبه أقر بالإسلام وأخفى الشرك، واعترف بالعمل فخان فيه، فكان كالمنافق أقر بالإسلام وأضمر الشرك، وتسمية الخائن في العمل منافقًا وارده في الحديث على لسان الشارع في قوله ﷺ: «أربع من كن فيه فهو منافق ولو صلى وصام، وزعم أنه مسلم».

ولا يخفى على العاقل أن السلاطين لا يرون إلا الدنيا وما يرجون غيرها إلا ما شاء الله من النّاس، فلذلك تراهم لا يهتمون بأمر الدين، وكيف لا تكون عُمَان دار نفاق وهذا فعل أهلها، وذلك سلطانهم نعوذ بالله من سوابق الشقاء، وأرى الإمام راشد بن الوليد أنه كان رجلًا غلب عليه حلم حتى طاشت عليه سهام قومه، واجترءوا عليه وقد قيل:

أظن الحلم جر عليّ قومي ... وقد يستضعف الرجل الحليم

والمقصود من هذا أن الإمام لا ينبغي له أن يتوغل في الحلم إلى حيث يفضي به الحال كهذا الإمام رحمه الله، فأني لم أجد له سيئة يستوجب بها العتب على ما كان عليه، هذا ما أوراده الإمام السالمي رحمه الله عن الإمام راشد بن الوليد، مع تعليقنا

عليه مما وجدناه عن أهل العلم، أدركناه من مقتضى الأحوال الواقعة، وها نحن نسوق هنا ما قاله ابن رزيق الشاعر المتأخر تنديدًا بهولاء الفاعلين في إمامهم هذه الأفعال، وأعلامًا لمن يأتي من الرجال؛ ليكونوا على حرية الدين، وعلى مروءة أهل الإيمان، وعلى سبيل أهل الحق وإن عضهم الدهر بنابه.

قال ابن رزيق: ثم بايعوا الإمام راشد بن الوليد على سبيل الدفاع، وخرجوا إلى النّاس بالبطحاء من نزوى، ومن سائر القرى من شرق عُمَان وغربها، من أهل العفاف والفضل والجاه والرئاسة، أي اشترك هؤلاء كلهم في البيعة للإمام المذكور، ثم قال كلهم مستمعون له مطيعون،لم تظهر لأحد منهم كراهية ولا نكير، ثم قام عبد الله بن محمد بن شيخه على رأسه خطيبًا بين الجماعة، فخطب له بالإمامة وأخبر النّاس وأمرهم بالبيعة له، فبايع النّاس له شاهرًا ظاهرًا لا ينكر ذلك من النّاس منكرًا، ولا يغيّر منهم مغيّر، ودخل النّاس في بيعته أفواجًا ووفد على ذلك الوفود إفرادًا وأزواجًا، وأخذ عليهم المواثيق والعهود، وبعث العمال والولاة، على القرى والبلدان، وصلى بنزوى الجمعات، وقبض هو وعماله الصدقات، وجيش الجيوش وعقد الرايات، وأنقذ الإحكام، وجرت له فيما شاء الله من المصر والأقسام، ولم يبق من عُمَان لم يغلب عليه السلطان، ونأى عنه في تلك الأيام، وذلك الزمان إلا جرت فيه أحكامه وثبت عليهم أقسامه وأقر في ظاهر الأمر أنه إمامه من إن يظهر شيء من سيرته ولا علانيته ولا سريرته شدة، ولا غلظة يخاف بها فيتقي، ولا هوادة ولا ميل يطمع فيه بذلك ويرتجى، فيصانع عن تقية وينخدع لطمع أورجية، بل كان رَحِمَهُ اللهُ لرعيته رفيقًا وبآرائهم شفيقًا غضيضًا عن عوراتهم مقيلاً لعثرتهم بعيد الغضب عن مسيئهم، قريب الرضى عن محسنهم مساويًا في الحق بين شريفهم ووضيعهم ودنيهم، وفقيرهم وغنيهم وبعيدهم وعشيرتهم، منزلاً لهم منازلهم متفقدًا لهم في أمورهم وأحوالهم، مساويًا لمن هو دونه منهم، قابلاً مشاورتهم.بما يأمرونه فلم يزل رَحِمَهُ اللهُ على ذلك يتجشم من رعيته الصبر على

الكروب، ومفارقة السرور والمحبوب، ويصبر على الشتم والأذى ويسمع منهم الخنا والقذى، وهو يتأنى في تلك الأمور يرجو من الله الدائرة على أهل الإحن تدور، كثير من أهل مملكته وعصره يتربص به الدوائر، ويسر له أقبح السرائر تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر، وما تخفى صدورهم أكبر، من الغل والحسد أعظم وأكثر، قد استحوذ عليهم الشيطان، وغلبت عليهم الشنئان حتى آلت عليه الأمور، وجرى عليه من الله المقدور، أن ظهر من عامة رعيته التخلف عنه والخذلان، وظهر من عامة خواصه المعاندة والعصيان والمداهنة عليه للسلطان، والمباشرة له بالقلب واللسان، وخرجوا إلى السلطان مظاهرين، وتألبوا على ذلك متناصرين، فمنهم على ذلك جبر، ومنهم قسرهم على التخلف عن ذلك قسرًا، ووقع بينه وبين عامتهم العداوة والشحناء، وفارقوه على ذلك من قرية بهلى، وقد سار السلطان بالسر مقبلاً وهو من الضعاف في نفر أقلاء، قد انفصلت جماعتهم وصحت معه عداوتهم، وإنما خرج من نزوى في ردهم عن خروجهم في حرب العدو المقبل، فلما رأى ما نزل به من الخذلان، وبان له منهم من العداوة والعصيان، واستضعف نفسه ومن معه، وخاف أن يدهموه بالمكان، تحيز من معه من بهلى إلى كدم، ورجا أن يكون استوثق لنفسه واحترم، فلم يزل بكدم حتى صح معه أنهم دخلوا الجوف فداخله ومن لقلتهم الخوف، فانحرفوا هناك إلى وادي النخر، ودعا إلى حرب السلطان من حضره، واستفز على من قدر عليه، ونصر واجتهد في ذلك وصبر، ودعا إلى ذلك واستنصر، وراح في ذلك وكرَّ وأقبل في ذلك وأدبر، فأمده الله بمن أمة، فأبلى بهم طاقته وجهده، فجيش لهم أنصاره وأعوانه، ومن لا غنى عنه من خاصته وأخوته وقعد بهم في مكانه وكان السلطان وأعوانه بنزوى نازلين، وكان تخلفه عن الحرب برأي من حضرة من أخوانه، وأهل شفقته وأعوانه، ورجا في تخلفه عن الخروج للإسلام وأهله، وقوة لعدله ونصره.

وكان تخلفه من الجيش الذي بعثه السلطان الجائر بنزوى قريبًا من المجازة

على عقبة فتح لم يكن منهم ببعيد، فأتى الله المقدور ما قد علم الله أنه إليه تصير تلك الأمور، فهزم أنصاره وغلبوا وولوا عنه وأدبروا معًا، وهربوا فانفضت هناك جماعته، وزالت رايته وخرج مخذولاً مغلوبًا خائفًا، يترقب مظلومًا فكان ذلك ضحوة النهار، فلم يكن العشي من يومه حتى انفض عنه جميع من كان معه، ووقع في الغلبة وآيس مع ذلك من نصر النّاس.

فاستولى السلطان الجائر على جميع النواحي والبلدان، وأقبل النّاس كلهم للصانعات، وأقبل السلطان الجائر إليهم بالسخرية والمداهنات، حتى دانت له جميع النواحي، والإمام خائف في رؤوس الجبال والمسافي مشفق من السلطان والرعية، يترقب في كل موضع نزول المنية، وأن تدهمه في مرقده ومنامه ببلية، وأصبح خائفًا على نفسه وماله هارب من داره وعياله، وأصبح جميع المصر آمنوا واطمأنوا في منازلهم وصانعوا سلطانهم، فلم يكن له من الاستسلام بد إذ لم يكن له إلى غيره سبيل ولا جهد، فطالع في أمره واستشار وأشار له ذووا الأبصار، واتبع في أمره فيما ظهر حكم الأبرار، وأذن بالرخصة من قول الأخيار، ومما لا نعلم فيه اختلافًا، فإن الإمام المدافع تسعة التقية، إذ أخذلته الرعية، ولم يكن أصح لنا من ذلك الخذلان، ولا أبين لنا من تلك العداوة وذلك العصيان، والله هو الرؤوف بعباده والمنان، وما جعل الله على عباده في الدين من حرج، بل الصحيح معنا أنه جعل لكل مدخل من دينه باب ومخرج، ولكل عاجز عن فرض من فرائضه عذرًا وباب فرج ولا فرق بين الإمام والرعية. ولكل منهم جار عليه حكم القضية، فألقى بيده إلى منزله، واستسلم وجاء أن يستتر ويسلم، ووصل إليه رسول السلطان إلى مكانه يعطيه منه الميثاق لأمانه، فبلغنا أنه أعطاه بلسانه ولم يبلغنا عنه أنه عرضه لليمين ولا كان إلى باب السلطان من الوافدين، ولا من القادمين إليه والواصلين، وإنما السلطان الذي وصل إليه واضطره على ذلك وجبره عليه، فزالت بذلك معنا إمامته. وثبتت بالعذر الواضح ولايته، ولا نعلم أن في الأحكام ولا ما اختلف فيه

من أمر الإمام أن راشد بن الوليد رَحِمَهُ اللهُ يلحقه القائل في إمامته بمقال، ولا طعن طاعن ولا عيب عائب في حال من الأحوال، فلبث بعد ذلك قليلاً محمودًا، ومات عن قريب من ذلك مفقودا، وكان راشد بن الوليد في أيامه وزمانه وموضعه ومكانه، ومع أنصاره وأعوانه، وإخوانه في عامة أمره غريبًا معدومًا، ولم يكن عن أهل الخبرة في أمره ملومًا فجزاه الله عن الإسلام وأهله لما قد قام فيه من حقه وعدله، وعن جميع من عرف فضله، ما جزى إمامًا عن رعيته.

قال: وإنما ذكرنا من أمر راشد بن الوليد رَحِمَهُ اللهُ ما قد ظهر، وما نرجوا أنه لم يرفع ولم ينكر، وإلا ففضائله معنا أكثر من هذا وأكبر، قال وكان أبو محمد بن أبي المؤثر في وقعة الغشب في سيرة الإمام راشد بن الوليد في طاعته، وكان زوال أمر الإمام راشد بن الوليد في وقعة نزوى، وعنها زالت رايته وانفضت جماعته، وبان خذلان رعيته له ولزمته التقية وخاف على نفسه من السلطان والرعية أن يقصدوه بالقتل رضى للسلطان ولا برح مستقراً في موضع من حد جلفار إلى حد رعوان، ولا جبال في عطا ولا في أرض الحدان الرستاق، فأدهى عليه وأمر، وأعدى عليه من كل عدو وأشر، والله أولى بالعذر من البشر، وكل ومن عذره الله دينه فواجب أن يعذر ويعان في ذات الله، وينصر فيما قد نزل به إذا استنصر.

وكان راشد بن الوليد رَحِمَهُ اللهُ فيما ظهر لنا من أمره ظاهر الايمان ظاهر عليها شواهد الفضل والإحسان، ناهيًا عن الشر والبهتان، صادق الفعل واللسان، ورعًا عن المحارم، مجتنبًا عمّا علم سائلاً عمّا نزل به ولزم، متواضعًا لمن فوقه، متعطفًا لمن دونه، كاظمًا للغيظ بعيد الغضب، سريع الرضى، محتملاً للأمة حريصًا على إصلاح المسلمين، رؤوفًا رحيمًا بالمؤمنين متوشحًا بكرم الأخلاق صبورًا على مضائق الخناق، مستقيمًا على الحقيقة، قاصدًا قصد الطريقة، تضرب به الأمثال، ويعجز الواصف عن وصفه بالمقال، فرحم الله تلك اللهجة وتلك الأوصال، وتفضل علينا وعليه منه بالمن والأفضال، وجمعنا وإياه على جزيل ثوابه وكرمه، إنه هو أرحم الراحمين.

قلت: هذا كلام العلماء في راشد بن الوليد، وكادت هذه الأوصاف أن تكون من صفات النبيين والمرسلين وذلك حال أهل عُمَان معه، والظاهر أن حر العدل وتكالب المطامع من البغاة ألقى براشد بن الوليد إلى الحضيض لما رأوا ما يرجون تركوا ما يدينون، وذهبوا إلى الباطل يجمحون والله المستعان، وإذا ألقيت فكرة النظر فيما سطر العلماء أدركت منه كرم الإمام المسمى، وقد ابتلاه الله بلاءً عظيمًا، ووقع في هوة لا منفذ لها، وسكع في لجة لا مخرج منها، فرحمه الله على ما ابتلى عبده المؤمن، ولله أمر هو نافذه، وحكم هو بالغه.

ولم نقدر أن نحقق وفاة هذا الإمام بعد الانهزام، فإن في التاريخ أن السلطان سار إليه في منزله واضطره لمواجهته وملاقاته، وجبره على ذلك، ثم اختفت أخباره وتعمت آثاره، فقالوا: فقد من بيته ولم يعلم بموته والله وليه في دنياه وآخرته رَحِمَهُ اللهُ ورضي عنه، فيما ابتلاه وبلغه في الآخرة مناه.

قال الإمام: وذكر المضيف على بيان الشرع أنه وجد أن دار عُمَان صارت دار كفر لا نفاق لا كفر شرك لعشرين يومًا من ربيع الآخر ٣٤٢هـ سنة، وهذا الوقت هو وقت غلبة سلطان الجور على عُمَان، وخذلان أهل عُمَان إمامهم راشد بن الوليد، فيما يظهر من سياق التاريخ.

قلت: قد مضى لنا بحث في الموضوع وبيان الحقيقة، قال الإمام: فإن كان عقد الإمام عليه بعد سعيد بن عبد الله حالاً فتكون إمامته فوق أربع عشرة سنة، قال :ثم صار الأمر من بعده لسلاطين الجور حتى أغاث الله عباده باجتماع الكلمة، ونصب الخليل بن شاذان. قال: وسأل أبو سعيد عن سلاطين الجور، الذين كانوا في زمانه أيكونون مثل خردلة الجبار الذي أجاز أبو الشعثاء قتلة غيلة. فقال رَحِمَهُ اللهُ : هم أشد من خردلة.

عُمَان وتبادل ملوك الأجانب لها رغم أهلها

الذي يظهر من سياق التاريخ أن السلطان الذي قضى على دولة الإمام راشد بن الوليد خرج من عُمَان بعد ما تم له أمرها، ولم يقم بها كثيرا إذا رأى حالتها لا تصلح له، ولا يزال يخاف انقلابها عليه، فتركها وهي تمشي على ضوء اسمه الأحمر، الذي تلعنه أمتها عدا أهل الباطل فيها، ولم نجد تفاصيل خروجه وتحقيق أعماله، وقد داسها بقدمه إذ قادته عليها ومشت بين يديه فيها، وكان تولى أمرها بعدها الوزير أبو القاسم المطهر بن محمد، وزير عضد الدولة، وطرد الشراة إلى جبال عُمَان، يعني إلى داخليتها، وكان الأجانب يسيطرون غالبًا على وسواحلها، وكانت تولية هذا الوزير لها في سنة ٣٦٣هـ ثلاث وستين وثلاثمائة في شهر ربيع الأول، وكان معز الدولة توفى بها قبل هذا الوقت، وهو الذي تولاها بعد خروج السلطان منها وتولاها أبو الفرج بن العباس نائب معز الدولة، وخرج منها أبو الفرج وتركها فتولاها عمر بن نبهان الطائي، وكان تولاها باسم عضد الدولة، وكان جيشه الزنج فتولوا الأمر وغلبوا على الأمر وغلبوا على عمر ابن نبهان ومعهم طوائف من أهل عُمَان، فقتلوا عمر بن نبهان وجعلوا بدله رجلاً يقال ابن حلاج، فعاد عضد الدولة عليهم بجيش من كرمان، وجعل أمر الجيش إلى رجل فارسي يقال أبا حرب، واسمه طغان، فجاءوا على الطريق البحر إلى عُمَان،فخرج أبو حرب، من المراكب إلى البر، وسارت المراكب في البحر تسايره إلى أن وصلوا صُحار قصبة عُمَان، والظاهر أن نزولهم بجلفار رأس الخيمة.

قال: فخرج لهم الجند والزنج أي المتغلبون في هذه الآونة على الأمر بعُمَان، واقتتلوا قتالاً شديدًا في البر والبحر، قال فظفر أبو حرب وغلب عليهم، واستولى على صُحار وانهزم أهلها. قال: وكان ذلك سنة ٣٦٢هـ، قال: ثم إن الزنج اجتمعوا إلى بريم أي البريمي، قال: وهو رستاق بينه وبين صُحار مرحلتان، قال: فسار إليهم أبو حرب طغان فأوقع بهم وقعة أتت عليهم قتلاً وأسرًا، ثم خضعت له البلاد.

في هذا التاريخ كان أبو حرب تولى الساحل الشمالي من عُمَان إلى صُحار إلى البريمي، وكانت عُمَان الداخلية قد أقامت لها إمامًا هو أبو حفص راشد بن سعيد، واستقل بداخلية عُمَان على أثر خروج السلطان منها، وغياب الإمام راشد بن الوليد مفقودًا ولتأثرهم بأحوال السلطان المذكور أقام أهل عُمَان راشد بن سعيد إمامًا فقاومه السلطان الذي قاوم راشد بن الوليد، وسار إلى إن بلغ حرفان، ولا نعرف حرفان هذه ولعلها غطفان، وهو الواضح، وكان قائده لهذه الحملة المطهر ابن عبدالله، فتقاتلا في البحر أيضًا، قال فأوقع بأهلها وأثخن فيهم وأسر، قال: ثم سار إلى دما وهي على أربعة أيام من صُحار، قال: فقاتل من بها وأوقع بهم وقعة عظيمة، قتل فيها وأسر كثير من رؤسائهم، قال وانهزم أميرهم ورد وإمامهم، وأتبعهم المطهر إلى نزوى وهي قصبة تلك الجبال، أي قصبة الداخلية، قال: فانهزموا منه فسير إليهم العساكر، فأوقعوا بهم وقعة أتت على باقيهم، وقتل ورد وانهزم حفص كما يقول ابن الأثير، إلى اليمن.

واختلط التاريخ الذي يحكيه ابن الأثير وإن رام أحد تحليله عن تحقيق يستعصى عليه؛ لأنه يأخذ الأقوال على غير وجهها وما عليه إلا أن يدون كل ما يجد وذلك لا يصح، فأخذ الأقوال من غير المصادر الصحيحة لا يصح، وهو يتبع النقلة أيا كانوا وهم يتخربطون في النقل، ولا يرجعون إلى أصل، إلا أنا دخلنا عُمَان وفعلنا وملكنا وقتلنا، ولا يبالون ولا يراعون أهمية النقل، ولا يحترمون حقوق التاريخ، ولا يرون واجب العدالة في حكم التاريخ، فلذلك لا تكاد تستطيع الأخذ عنهم إلا ما يناصره عن أهل الصدق مقال أو يعضده بمعناه عن أكابر الرجال والخبر من البعيد يأتي ذا ألوان وعلى نواح مختلفة.

قال العلامة أبو إسحاق رحمة الله: هذه الحادثة الملفقة تدلك على مبلغ عبث هؤلاء بحقائق التاريخ، وإنك لترى في كتبهم قلب قضايا رأسًا على عقب، والقصد من هذا إما هدم مجد كما هو الشأن في هذه الحادثة، أو تصوير الأمر بغير صورته

تقليلاً لأهميته، وطمسًا لمزيته، كما ترى في غير هذا الموضع، ولعل الباعث على هذا لهؤلاء الكاتبين هو إظهار من خالفهم في مظهر لا يستحق الكرامة، ولا يعتد بعظمته مهما بلغت، وهدم المزايا وطمس الحق كاد يكون الظاهرة فيهم، دون أن يجدوا مناصًا منهما؛ لأنهم خدمة أغراض لا خدمة تاريخ، فالناحية التي يأتون الوقائع منها هي ناحية طمس المعالم التي لا تسرهم جنوحًا إلى هواهم السياسي أو المذهبي، وهكذا ترى صفحاتنا التاريخية بيد هؤلاء المرضى مشوهة أو ممزقة أو معدومة، والعجب أنك ترى تاريخًا كتب لناحية وإحدى حلقاته مفقودة، وما فقدنها إلا من عبث هؤلاء، ولا يخشون فضيحة ولا يتقون الله أمانة العلم.

والحق أنه يؤخذ ما يكتبه مؤرخو قومنا على أصحابنا على الإطلاق، فإن طمس الحق ديدنهم ولهم هوى في ذلك، إذ يزعمون أنه يجوز لهم ذلك في مخالفيهم، اللهم إلا النادر، فان انصافهم لا ينكر كابن الصغير المالكي، ومن الغريب حتى كُتّاب العصر الذين ينتحلون تحرير التاريخ والاعتراف بالحقيقة لذاتها، قد وقعوا في سقطات دون أن يتحروا الصدق، وقد يكون ذلك عن مبلغهم من العلم، وقد يكون عن هوى، كما تبادر لي من محادثة بعضهم [انتهى] كلام أبي إسحاق رحمه الله. قلت: لم يكن الموجودون الآن خيرًا من أولئك الذين مضوا، بل ربما كان أولئك خيرًا من لتمسكهم ببعض الديانة، أما الذين هم الآن صاروا خلفًا عنهم فليسوا على شيء، فلا بدع أن مشوا على ذلك المنهج الذي يشير إليه العلامة.

والحقيقة أن التاريخ العُمَاني كما قيل دم أَضَاعَه أهله، فإن أكثر أهل عُمَان كما سمعنا منهم لا يعيرون التاريخ آذانًا، ولا يهتمون به إذ لا يعتقدون له قيمة، بل يقولون عيش آذان بهذه العبارة، ولهذا ضاع كثير من أعمال أهل عُمَان، ونزلت أهمية الأمة إلى الحضيض، وسترى من هذا الوجه شيئًا هو أعجب الأشياء، وذلك أن الترك جاءوا عُمَان في إمامة الإمام الخليل بن شاذان، وأخذوه وانحلت إمامته،

وأقام العُمَانيون مقامه إمامًا لهم، ثم رجع الخليل إلى عُمَان إلى آخر ما هنالك كما سوف ترى إن شاء الله، وترى منه العجب، حيث تقف مشدوها حائرًا مصدوع الرأس، ولم يتكلم عليه أحد منهم على الحقائق التي هناك، فلا جرام إذا ضاع التاريخ العُمَاني ووضعه أعداء عُمَان في مظاهر لا أهمية لها، وإذا لم يقم بالحق أهله لا يرجى أن يقوم به أعداؤه.

قال ابن الأثير: ثم إن جبال عُمَان اجتمع بها خلق كثير من الشراة، وجعلوا لهم أميرًا اسمه ورد بن زياد، وجعلوا لهم خليفة اسمه حفص بن راشد قال: فاشتدت شوكتهم، قال: فسيروا عليهم عضد الدولة المطهر بن عبد الله في البحر أيضًا فبلغ إلى نواحي حرفان من أعمال عُمَان، فأوقع بهم، وأثخن فيهم وأسر، ثم سار إلى دما وهي على أربعة أيام من صُحار، فقاتل من بها وأوقع بهم وقعة عظيمة قتل فيها وأسر فيها وأسر كثير من رؤسائهم، وانهزم أميرهم وردو إمامهم حفص، واتبعهم المطهر إلى نزوى وهي قصبة تلك الجبال، فانهزموا منه فسير إليهم العساكر، فأوقعوا بهم وقعة أتت على باقيهم، وقتل ورد وانهزم حفص إلى اليمن، فصار معلمًا وسار المطهر إلى مكان يعرف بالشرف قلت: لعله الشرق بالقاف بعد الراء المهملة. قال: به جمع كثير من العرب نحو عشرة آلاف، فأوقع بهم. قال: واستقامت البلاد ودانت بالطاعة، قال: ولم يبق فيها مخالف، قال: الإمام هذا كلامه والله أعلم بصحته.

قال: وأما حفص بن راشد إنما نصب إمامًا بعد موت أبيه الإمام راشد بن سعيد ﷺ، وذلك في المحرم سنة خمس وأربعين وأربعمائة، ولم يذكر أحد من مؤرخي أصحابنا خروج سلطان العراق على حفص بن راشد ولم يذكروا أنه عزل عن إمامته، ولا إنه خرج من عُمَان وإنا لنشك في رواية قومنا فيما شاهدوه، فكيف نثق بهم فيما غاب عنهم مع أنهم أخذوا أخبار ذلك من بعض أجناد الظلمة القادمين على حرب المسلمين، فيحتمل أن يكون قد اختلط عليهم الأمر

ويمكن أن يعتمدا الزيادة والنقص، قال: وبالجملة فإنا نعلم من سياق التاريخ أن الظلمة قد عانوا في عُمَان، وتولوا أمرها من بعد أن خذل أهل عُمَان الإمام راشد ابن الوليد إلى أن نصب الخليل بن شاذان، ومدة ذلك نحو خمس وستين سنة تقريبًا، والله غالب على أمره اهـ كلام الإمام السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ.

والظاهر أن هؤلاء السلاطين أولهم يوسف بن وجيه الذي قاتله الإمام سعيد ابن عبد الله الرحيلي في عهد إمامته، واستمر الحال بهم كذلك إلى بني مكرم وليسوا من عُمَان بغير شك ؛ لكن لما تسلطوا على أهل عُمَان من أول القرن الرابع إلى القرن الخامس، وكان السبب في تسلطهم على أهل عُمَان بنو سامة أهل أزكي حتى تغلغلوا بعُمَان وسيطروا عليها تلك المدة، صاروا كأنهم من عُمَان فلهذا قال ابن الأثير في بني مكرم: إنهم من وجوه أهل عُمَان، ولا علم له في الحقيقة عن تحقيق قضايا عُمَان وأهل عُمَان، وقواد بني العباس الذين منحوهم آخر العهد اسم السلطان، وأبقوا لأنفسهم اسم الخليفة، ورضوا من الأمر بذلك، إذ كانوا أركان باطل وأعمدة ضلال، فلذلك سلط الله عليهم أعداءهم الديلم والترك، وآخر الأمور انمحوا بالتتار، وانتهت أيامهم السوداء المظلمة بفسادهم وضلالهم، وكل مفسد لا بد أن يرى عاقبة فساده، حتى يعلم أن لهذا الكون ربًا يدبره ومليكًا يصرفه، ليس موكولاً إلى تصرفات أهل الفساد، والله يمهل ولا يهمل، ولكل شيء غاية ينتهي إليها، فقد عاث الغزاة في عُمَان من هؤلاء وأمثالهم كالقرامطة ونحوهم، وأخذوا وقتًا وراحوا رهن أعمالهم، وكذلك نكبوا أهل عُمَان بمصارعة الإمام الخليل بن شاذان، حتى قضوا عليه ومزجوا دولته، وبددوا شمل إمامته في عُمَان، ورأى منهم ما عرفه التاريخ كما سوف نذكره في محله إن شاء الله.

والخلاصة: أن ذلك القرن قد مرَّ كله ملطخًا بغيوم الظلم والفساد، من المسلطين على الأمة بآل العباس، الذين صاروا ذريعة لهم يتوصلون بهم إلى

مقاصدهم، وكان بنو العباس كأخواتهم بني أمية بلاءً على الأمة، وشرًا على المسلمين إذ كانوا أهل فجور وظلم وجور، ملكًا عضوضًا ونفوسًا متغطرسة وأعمالاً سيئة؛ ولكن ذلك دليل في الحقيقة على هوان الدنيا وانحطاط قدرها عند الله ﷻ، ولو كان لها شأن عند الله لم يجعل أهلها مثل هؤلاء المفسدين من فراعنة يدعون الربوبية، وقياصرة يترفعون عن البرية، ويتعاظمون على أهل الحق، وأكاسرة يتربعون عروش الملك وهم طغاة جوره، وأمراء يتآمرون على الأمة بمقتضى الأهواء، وملوك يفعلون ما يشتهون، وسلاطين في النار يقتحمون ولا يبالون، وأتباع هؤلاء كثيرون، والمسلمون هم الأقلون، في كل جيل، والمخلصون الأقل أيضًا في مطلق الأزمان؛ ولكن اقتضت حكمة الله ذلك ليحيا من حي عن بينة، كما يهلك من يهلك عن بينة، والدنيا طريقان يوصلان إلى الآخرة: وهما النجدان اللذان أشار إليهما القرآن.

ولقد استمرت غزوات الجيوش العباسية لعُمَان، إلى عهد الإمام الخليل بن شاذان، فقد صارعوه وقاتلوه إلى أن قضوا على إمامته وقادوا أسيرًا من عُمَان لا يقدر على نصرته أحد، حتى مضى على ذلك عهد وهو معهم ولا يدري العُمَانيون شيئًا عنه، وهل هو حي أم ميت كما سوف ترى ذلك إن شاء الله.



الفهرس التفصيلي
لموضوعات الجزء الأول والثاني

١ - فهرس الآيات القرآنية

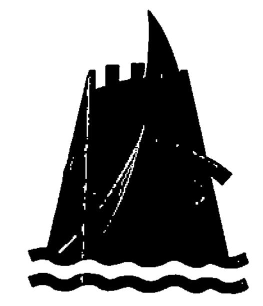
٢ - فهرس الأحاديث النبوية

* * *

٣ - فهرس الموضوعات

تم بحمد الله

تنفيذ وإخراج وطباعة



الخليج العربي للدعاية والاعلان والنشر
Arabian Gulf Advertising & Publishing